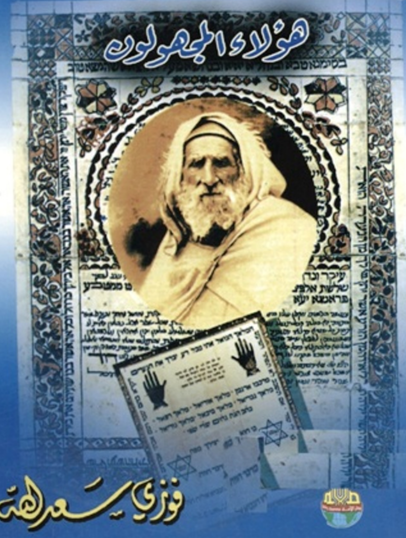
يهود الجزائر



هؤلاء المجهولون

فوزي سعد الله

فوزي سعد الله

يهود الجزائر

هؤلاء المجهولون





شركة دار الأمة

للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب 251 برج الكيفان 16120 الجزائر

الطبعة الثانية

2004

إيداع قانوني: 444 / 2004

ردمك: 9961- 67-174-0

المقدمة

بعد سنتين من انفجار أحداث أكتوبر 1988 والصدمة التي أصابت المجتمع، تفيق الجزائر على وقع أقدام ثلاث شخصيات يهودية في ردهات إحدى أهم الهيئات الحكومية الجزائرية؛ وزارة الإقتصاد... الجزائر تكتشف، باندهاش واستغراب لأول مرة منذ الاستقلال، وجود اليهود واليهودية في البلاد، رغم أن هذا التواجد لم ينقطع أبدا بصفة نهائية وتامة منذ أكثر من ألفي سنة. وبالتالي سوف يصبح الثلاثي بن حاييم ريموند، كلود بربي، وبن حمو إبتداءً من هذا التاريخ مُنطلقاً لتساؤلات عديدة ، قد تنفض تدريجيا بعض الغبار عن تاريخ الأقلية اليهودية في الجزائر وعن وضعها العام في الوقت الحالي.

تتكوّن الجالية اليهودية في بلادنا من بضعة آلاف حسب البعض أو من بضعة عشرات الآلاف حسب البعض الآخرأو من بضعة مئات حسب بعض الشخصيات اليهودية الجزائرية اليوم، وهي تعيش الحياة الجزائرية كاملة بحقوقها وواجباتها تعرف كل شيء عن الجزائر، والجزائر تجهل كل شيء عنها...

قد يظن الذين عايشوا اليهود واحتكوا بهم في الحقبة الاستعمارية ومازالوا يحتفظون ببعض الذكريات عنهم أن وجودهم بالجزائر اقترن بالوجود الإستعماري بالبلاد خاصة بعد تفرنسهم الذي بدأ مع مرسوم كريميو الصادر في 1870م. كما قد يعتقد من سمع عن شخصيات يهودية جزائرية عبر التاريخ مثل بوشناق، وبكري، وبن حاييم، و سرور، وبن دوران وغيرهم من خلال المطالعات السطحية للتاريخ الجزائري، أن التواجد اليهودي ببلادنا يرجع في أبعد التقديرات إلى العهد العثماني حينما كانت الجاليات الإسرائيلية الإسبانية تتدفق على المدن الجزائرية فرارا من القمع والاضطهاد المسيحيين إثر سقوط الأندلس. بينما يعود وجود اليهود في الجزائر إلى أكثر من 2000 سنة بقي طوالها مستمرا إلى غاية سنة 1962 عندما اختارت الأغلبية الساحقة من اليهود الهجرة والرحيل إلى فرنسا خاصة وبلدان أخرى ...

آنذاك لم يكن أحد من قادة جبهة التحرير الوطني، سواء كريم بلقاسم أو أحمد بن بلة أو بن يوسف بن خدة أو فرحات عباس ..، يتصور في أية لحظة إمكانية هذا الرحيل الجماعي لليهود، ووجهوا لهم النداءات تلو النداءات من أجل البقاء في الجزائر وقدموا لهم الضمانات والوعود من أجل طمأنتهم وإشراكهم في "بناء وتشييد" الجزائر المستقلة في إطار نصوص اتفاقيات إيفيان بخصوص "الأقلية الأوربية".

اليهود أنفسهم، الى آخر لحظة، لم يكونوا يتصورون هذا النزوح عن الجزائر التي عاشوا فيها آلاف السنين وحيث لا أحد يستطيع إنكار تواجدهم العريق بها وأقدميتهم على أرضها. لكن تطورات الثورة التحريرية في آخر سنواتها خاصة، وظهور المنظمة المسلحة السرية (OAS) والمساهمة الواسعة لفئات يهودية هامة في المجازر والجرائم التي ارتكبتها هذه المنظمة خصوصا في غرب البلاد، أحدثت شرخا كبيرا بين الجالية اليهودية والمسلمين وهلعا في أوساطها من إمكانية الانتقام منهم بعد الاستقلال. جبهة التحرير الوطني طمأنت ووعدت وضمنت وترجّت بالبقاء، والشعب الجزائري المسلم سامح وتسامح، ولم يحدُث أن اشتكى أيّ يهودي ممن بقوا في الجزائر بعد 5 جويلية 1962م من أيّ اعتداء أو انتقام أو تجاوز. الهلع والرحيل كانا يعبران عن عقدة ذنب لدى اليهود وعن اعتراف ضمني بعدم الإخلاص والوفاء للأرض التي احتضنتهم والمجتمع الذي عاشوا معه منذ آلاف السنين. لذلك فجأة عشية الاحتفال بعيد الاستقلال، تدفقت الأغلبية الساحقة من يهود الجزائر على مطار الدار البيضاء وعلى مختلف الموانئ الجزائرية وسط التيار الأوربي الهائل الذي اختار الرحيل طوعا، فتركت أرض الأجداد، والأملاك، والعادات والتقاليد، والمصالح ، وتقاذفتها الأمواج والفضاءات إلى الضفة الأخرى لحوض المتوسط.

موجة الرحيل كانت قوية ولم يصمد أمامها إلا القليل مثل عائلات بلعيش (Belaïche) وأبو الخير (Aboulker)، وطوبيانا (Toubiana)، وقج (Guedj) وسلمون – كوهين (Salomon - Cohen) ..

الرحيل لم يكن مبررا لأن اتفاقيات إيفيان كانت تضمن مصالح وحريات وحقوق "الأقلية الأوربية" بمافيها اليهود الذين اختاروا أثناء الثورة وقبلها

[illegible] – حسب البعض – كان أسوأ قرار اتخذه اليهود منذ أن حطوا رحالهم بالجزائر في العهد الفينيقي، ووضعوا به حدا لتاريخ طويل وعميق تضرب جذوره في عمق الوجود الجزائري. الأقلية القليلة التي بقيت بالجزائر والتي كانت في أغلبها متعاطفة مع الثورة تعيش اليوم حياة جزائرية عادية بحلوها ومرّها وتتمتع بكامل حقوقها وحرياتها، ولم تندم أبدا عن البقاء كما يقول أحد أعضائها لأنها بكل بساطة "جزائرية حتى النخاع". (Marcel Belaïche) [1] أحد أبرز الشخصيات اليهودية الجزائرية قبل وبعد الإستقلال قال في سنة 1984 للكاتب Albert Bensoussan[2] بكل اعتزاز وافتخار وهو يضرب برجله بقوة على أرض مكتبه بساحة بور سعيد: " قدماي متجذرتان هنا!" (Mes peids sont enracinés ici) وبلهجة المعاتب أوصاه وترجاه أن يقول للذين رحلوا في 1962 بأنه "... سعيد بوجوده إلى جانب جاليته.." التي خدمها، كما أضاف، لمدة ثلاثين سنة. عائلة بلعيش تقيم في الجزائر منذ أكثر من ثلاثة قرون.

لكن أين هي هذه الحلقة الهامة من تاريخ الجزائر في التاريخ الرسمي الذي كتبته الدولة – الحزب في العقود الماضية؟. لقد ذهبت ضحية لإيديولوجيتها ولصياغتها للتاريخ بصورة انتقائية خاضعة لاهتمامات ومصالح الأقلية المحتكرة للسلطة كغيرها من الحلقات الأهم والأخطر من التاريخ الجزائري بما فيه تاريخ الثورة التحريرية نفسها، والنتيجة هي هذا الانفصام الخطير الذي يعيشه اليوم المجتمع الجزائري مع جذوره إلى الحد الذي دفع بفئات منه إلى التساؤل بعد آلاف السنين من الوجود وعشية الدخول في القرن 21م :" من نحن !؟"، علما بأن ثلاثة أرباع المجتمع هم من الشباب المولودين بعد الاستقلال ضحايا احتكار السلطة للتاريخ .

في سياق تعتيم الأقلية المحتكرة للسلطة بعد الاستقلال على كل ما قد يمس بمسألة الشرعية وبالتالي "بالمصالح العليا للبلاد" حسب المفاهيم التي أنتجتها منذ استيلائها عليها، دفن تاريخ الثورة التحريرية ووجهت بعض صفحاته بانتقائية دقيقة لخدمة مصالح وأغراض هذه الأقلية. والتعتيم على تاريخ الثورة يؤدي حتما الى إخفاء حلقاتها الأكثر حساسية المتمثلة في سنتيها الأخيرتين

اللتين شهدتا أقصى مراحل الصراع على السلطة بين قادة وأجنحة جبهة التحرير الوطني. وفي هاتين السنتين أيضا عاش يهود الجزائر أحرج أوقاتهم الحاسمة التي قررت مصير تواجدهم بالجزائر ومستقبلهم بها.

لذلك فتسليط الأضواء على تاريخ اليهود بالبلاد يؤدي حتما في النهاية إلى النبش في أحداث السنتين الأخيرتين للثورة وأزمة صائفة 1962 التي تمخضت عنها أحداث وأزمات لم تنته بعد، لأنه لا يمكن الحديث عن رحيل اليهود، على سبيل المثال، بمعزل عن الظروف التي أحاطت به سياسيا وعسكريا وعن القادة الحقيقيين والفعليين للثورة وعن الدخلاء والطلقاء وعن مجاهدي اللحظات الأخيرة وعن المتربصين من بعيد بالسلطة... وبذلك أدت عملية إعادة التركيب الإنتقائي للتاريخ الجزائري حسب أغراض السلطة إلى تجاهل العنصر اليهودي وآخر لحظاته بالبلاد وإطباق الصمت عليه متأثرة في نفس الوقت بالموقف السلبي الذي لعبه أثناء الثورة، علما بأن الثالوث المتداخل : الدولة – الحزب – الجيش عاقب حتى كل من لم يسر في إستراتيجيته وأهدافه بالتهميش والنسيان بما في ذلك القادة الوطنيين الكبار وعلى رأسهم مصالي الحاج وبن خدة وعبد الرحمن فارس وسعد دحلب وكريم بلقاسم ومحمد بوضياف ... وغيرهم من الذين لم يسلموا من عملية الطمس المنظم رغم ما قدموه للبلاد.

غياب تاريخ اليهود من تاريخ السنوات السبعة للثورة هو غياب كامل ولا نعثر لأي إشارة لليهود فيه، وربما ذلك يعتبر رد فعل طبيعي على سلبيتهم خلالها وتورط العديد منهم مع الاستعمار ومنظمة الـ : OAS . لكن لا يجب أن نغفل بأن إهمال التاريخ شكّل بعد الاستقلال ثقافة جديدة امتدت حتى إلى التاريخ القريب والأحداث التي وقعت طوال العقود الثلاثة الأخيرة بالجزائر. كما أن هذه السلطة التي لم تهتم بجذور شعبها وبذاكرته الجماعية لا يمكنها أن تعطي أهمية للذاكرة الجماعية لأقلية صغيرة لم تعد موجودة أصلا باستثناء ربما بعض مئات العائلات. لذلك فإن غياب تاريخ هذه الأقلية أو تغييبه من الذاكرة الجماعية الجزائرية هو إلى حد ما نتيجة منطقية كذلك للرّداءة ولثقافة النسيان وللإهمال الذي لقيته الثقافة عامة خلال عقود "البناء والتشييد" وحتى بعدها أثناء "الانفتاح".

عمليه تطبيع العلاقات مع إسرائيل، وهي عملية استمدت شرعيتها من توقيع منظمة التحرير الفلسطينية لمعاهدة السلام مع الصهاينة ولاتفاق غزة – أريحا، مايزال الجزائريون يجهلون كل شيء عن اليهود عامة وعن يهود الجزائر بصورة خاصة الذين هم مرشحون للعب دور هام في عملية إقامة. علاقات جزائرية – إسرائيلية في المستقبل، وكذلك في التطبيع الوارد، على الأقل على مستوى الأنظمة والحكومات. التطبيع قادم إذن... لكن بالنسبة للجزائريين مع مجهول لا يعرفون عنه سوى أنه "عدو تقليدي" عرفوه فقط في "ديرياسين" و"تل الزعتر" و"سيناء" وفي "كفر قاسم" وجنوب لبنان وبيروت "وصبرا وشاتيلا "... وفي منظمة الـ إشي كذلك بالنسبة لجيل الثورة التحريرية. وبدلا من تسليط الأضواء بموضوعية على اليهود عامة ويهود الجزائر بصفة خاصة سواء الذين بقوا بالبلاد بعد الاستقلال أو الذين رحلوا وأصبحوا فرنسيين، توضع الجزائر اليوم خصوصا منذ توقيع اتفاقية غزة – أريحا تحت ضغط إعلامي اشهاري– دعائي ليهود الجزائر مناقض تمام المناقضة للأفكار والصور التي رسخت في الأذهان منذ أزيد من أربعين سنة لتحضير وتبرير السياسة الجديدة تجاه إسرائيل تحت الأعين الأمريكية الساهرة على هندسة وإنجاز النظام الدولي الجديد. مرة أخرى تؤكد الجزائر أنها مازالت بعيدة عن العقلانية والموضوعية في تسيير شؤونها، وأن العلاقة بين السلطة والشعب ما زالت غامضة وغير سليمة .. وأن منطق المناورة والاستغلال لجماهير عزلت بإحكام عن الحقائق وأبعدت عن المشاركة في تسيير مصيرها ومستقبلها مازال هو المنطق السائد بقوة.

كيف سيتعامل الجزائريون مع التغييرات الإستراتيجية في الشرق الأوسط؟. السلطة تفضل احتكار الجواب عن هذا السؤال وفرضه بطريق سلطوية– فوقية على المجتمع كما جرت العادة. لكن الخطر الذي يواجه المجتمع هو أن هذه السلطة بدأت بفتح الأبواب أمام الكتابات والرؤى اليهودية والصهيونية الفرنسية المصدر في غالب الأحيان، لتاريخ يهود الجزائر في غياب قراءة جزائرية، وبدأنا بالتالي نطالع على صفحات الصحف الوطنية إشهارات وتقديمات محتشمة من حين لآخر لمؤلفات "ميشال أبي الطبول" (Michel Abitbol) ولشخصيات ورموز ثقافية يهودية – صهيونية مثل Gaston Ghrenassia

المعروف بـ: أنريكو ماسياس، والمفكر Jacque Derrida، والسفير الإسرائيلي بباريس Yehouda Lancry وحاييم الزعفراني والمؤرخ الباحث Benjamin Stora الذي أصبح يقدم تقريبا كناطق رسمي للتاريخ الجزائري، في نفس الوقت الذي توصد فيه الأبواب والقنوات الإعلامية أمام الباحثين والمؤرخين الجزائريين ويفضل إبعادهم عن المشاركة في مناقشة القضايا الحساسة التي تواجه المجتمع في هذا الظرف التاريخي الحاسم الذي تعيشه البلاد.

اليهودي- الصهيوني في الإنشاء الإعلامي وحتى في الخطاب السياسي لتيارات سياسية معينة لم يعد ذلك "المحتل الغاشم" الذي اغتصب الأرض العربية - الإسلامية، وطعن ضيافة وصداقة وجوارا يتعدى عمرهم الألفي سنة، ولا ذلك " الوحش التوسعي" صاحب فكرة " من الفرات إلى النيل"، ولا ذلك " الجشع" أو "النذل"، "المفترس"، الذي يريد امتصاص الدم العربي- الإسلامي واغتصاب أراضيه وتشويه دينه..، بل تحول فجأة إلى ذلك الفنان الوديع وذلك الإنسان الذي يدافع عن القضايا العادلة وذلك المفكر الذي يكرس حياته للبحث عن حلول للتحديات التي تواجه البشرية. الشخصيات اليهودية الجزائرية التي تآمرت أو تورطت في مؤامرات وجرائم ضد الشعب الجزائري عبر التاريخ مثل بوشناق نفطالي (Busnasch Neftali) ، كوهين - بكري (Cohen - Bacri)، Ange Amar، ليون عياش Léon Ayas) ، Abraham Daninos، Germain Benhamou، Adolphe Crémieux الرائد Edmond Fredj، Jacques Lazarus، والجنرال udEdmond Jouha[3]، والرائد Meyer رفيق العقيد Bigeard في قمع إضراب الأيام الثمانية سنة 1957م و Désiré Dray)[4] ...، لا تليق في الظروف الحالية كنماذج مثالية مناسبة وإشهارية لليهود في الصحف حسب مدير أسبوعية وطنية، لأن الموضوع شائك والمعطيات المحلية والدولية لا تسمح بنبش الوجه السلبي لليهود في الجزائر ونحن في عز الاتجاه نحو المصالحة العربية - اليهودية- الصهيونية كما يضيف. هذا الأخير (مدير الاسبوعية الوطنية) يفضل توجيه الأنظار الى Gaston Ghrenassia (أنريكو ماسياس) وإلى الشيخ العفريت "... حتى ولو كان تونسيا وليس جزائريا" وإلى المطربة اليهودية الجزائرية الأصل Reinette l'oranaise المقيمة بباريس (توفيت في 18 نوفمبر 1998)، وذلك ".. اعترافا بفضلهم على الأغنية الجزائرية.."، كما يقول .

لكن Tonton Raymond كما يسميه صهره Enrico Macias المتمسك بشدة "بإعادة الاعتبار له" من طرف الحكومة الجزائرية وإذاعة أغانيه في القنوات الجزائرية مقابل قبوله زيارة الجزائر...، ريموند هو الآخر مطرب مختص في "المالوف"، كان محبوبا كثيرا لدى الجمهور القسنطيني في الخمسينات وكان أستاذاً للشيخ محمد الطاهر الفرقاني، لماذا لا تتعرض له وسائل الإعلام مادام قد قدم "مساهمته" في الأغنية المحلية ؟ مدير نفس الأسبوعية ، يتحفظ تجاهه لأنRaymon Léris يقال أنّ جبهة التحرير الوطني حكمت عليه بالإعدام ومات مقتولا سنة 1961م بسبب تعاونه مع الاستعمار ضد الثورة رغم التحذيرات المتكررة، مضيفا بأنه لا يريد الخوض في الجانب السياسي بقدر ما يهمه الجانب الثقافي- الفني. ومع ذلك هو حريص جدا على إبراز" الدور الذي لعبه يهودي إسباني في تدعيم الأمير عبد القادر في ميدان التسلح وصنع القذائف"...

الجزائر اليوم ركعت أمام الحكومات والمؤسسات الغربية، وتأكد ذلك نهائيا منذ التوقيع على اتفاقية إعادة جدولة الديون الخارجية وبرنامج التعديل الهيكلي الاقتصادي في أسوإ الظروف التفاوضية التي شهدتها منذ الاستقلال. ولا شك أن وضعية الضعف الاقتصادي- السياسي التي تعيشها منذ سنوات لا تساعدها على مقاومة انعكاسات التطورات الاستراتيجية في الشرق الأوسط والنظام الدولي الجديد، لذلك فهي مضطرة للتعامل معها والدخول في مسار التسوية مع إسرائيل. هذه المعطيات الجديدة استغلتها مجموعة من الصحف الوطنية، إما بأوامر فوقية، أو بصفة إرادية، واقعية، أو انتهازية ، للتسابق على كسر "التّابو" اليهودي في البلاد و"تطهير" الأذهان من العداء للصهيونية والتحفظ تجاه اليهود اللذين ترسبا طيلة عقود الحروب العربية الفاشلة ضد الصهاينة من أجل استرجاع السيادة على فلسطين. ولأول مرة منذ الاستقلال تتصدر شخصيات يهودية، جزائرية سابقا، الصفحات الأولى من هذه الصحف وتجري معها الحوارات بعد مقاطعة طويلة الأمد ويلجأ حتى إلى استشارتها لفهم ما يحدث اليوم في الجزائر من منطلقات تاريخية..

في منتصف شهر ديسمبر 1993 كانت يومية "El-WATAN" قد أجرت ثالث حديث لها مع رسمي إسرائيلي هو الأمين العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية

"إيلي سافر". قبلها كانت يوميتا L'OPINION و LE MATIN قد أجرتا حوارين على التوالي مع بنت وزير الدفاع الصهيوني الأسبق موشي ديان والسفير الإسرائيلي Yehouda Lancry بفرنسا في مدريد وباريس. EL- WATAN دعمت حديثها مع المسؤول الإسرائيلي بروبورتاج حول الأراضي المحتلة يفتخر كاتبه بكل اعتزاز بكونه".. أول جزائري يدخل الأراضي المحتلة "، وهو أمر كان من "الكبائر" قبل بضعة سنوات. وفي منتصف سنة 1995 أجرت يومية EL-WATAN حوارا مع شيمون بيريز مباشرة ... للتذكير فقط، شهداء القضية الفلسطينية والحروب العربية– الإسرائيلية لم تجف دماؤهم بعد، وبعضهم ما يزال يتساقط يوميا في الأراضي المحتلة وفي جنوب لبنان، وبيروت مازالت ركاما إلى اليوم...

صحيح أن المعطيات تغيرت والواقعية تفرض نفسها، لكن لماذا التهليل والتسابق بحماسة غريبة على الترحيب بالتطبيع دون احترام التضحيات التي دفعتها الشعوب العربية – الإسلامية، منذ أكثر من أربعين سنة ؟ هل هي الواقعية أم الانتهازية التي أتت في بلادنا على كل شيء بما فيها الأخلاق والقيم والمبادئ الأساسية ؟.

في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر عندما سقطت إحدى مناطق جبال القبائل بيد الجيوش الإستعمارية بعد مقاومة عنيفة وشرسة من طرف سكانها، جاء الجنرال الفرنسي قائد الحملة وطلب أن يأتوه بقائد المقاومة الذي وقع في الأسر من أجل محاولة استمالته إليه واسترجاعه لصالح الاستعمار باسم السلام والصداقة. القائد الجزائري لم يكن سوى شيخ طاعن في السن، لكنه جزائري حتى النخاع.

نزل الجنرال من فرسه لمصافحة الشيخ قائلا : " ami (صديق)؟".. سارع الشيخ إلى الرد بشجاعة وأنفة ووضوح:" نعم، صديق طالما بقيتُ دون بارود!". المقاومة توقفت لأن البارود نفذ...، لكن الأهم هو أن الشيخ لم يتلهف على معانقته والتملق له، بل بقي عزيزا شريفا في هزيمته العسكرية واستسلامه الاضطراري الظرفي...

يقول الكاتب البريطاني George Orwell أن الذي يسيطر على الماضي هو الذي يمتلك المستقبل ، والذي يمتلك الحاضر هو الذي يسيطر على الماضي. هل وصلت الجزائر إلى درجة امتلاكها لماضيها وحاضرها والسيطرة عليهما الى الحد الذي

يبعث على الأمل في التحكم في المستقبل والسيطرة عليه؟ إن الجزائر اليوم بدأت تنسى حتى تاريخ اندلاع ثورتها وتاريخ استقلالها[5] بسبب احتكار السلطة للتاريخ ومصادرته ولجوئها إلى توجيهه وتوزيعه بانتقائية غير بريئة، وحتى غير واقعية أحيانا، على الأجيال الصاعدة حسب ما تقتضيه مصالحها وأهدافها الفئوية... هذه السياسة التجهيلية الخطيرة خلقت وتخلق إلى اليوم المياه العكرة التي يتهافت البعض من الداخل ومن الخارج على الاصطياد فيها. اليهود اليوم يكتبون تاريخهم بالجزائر ويصوغونه صياغة ليست بالضرورة موضوعية، بل هي خاضعة في الغالبية القصوى من الحالات للمصالح والإستراتجيات اليهودية – الصهيونية. الجزائريون ربما لم يفكروا إلى حد الساعة حتى في التفكير في كتابة هذا التاريخ ومراجعة هذه الحلقة المغيبة أو الغائبة من الذاكرة الجماعية المصادرة، وهم على عتبة إقامة علاقات مع إسرائيل و"التصالح" مع الصهيونية واليهودية. الأسواق الوطنية بدأت " تنفتح" على البحوث والمؤلفات اليهودية – الصهيونية حول هذا التاريخ، والجزائريون قد يقعوا مرة أخرى ضحية للمضاربة بالتاريخ وتشويه الجذور. إنهم يجهلون حتى وجود جالية يهودية كاملة مهيكلة ببلادهم تعود جذور بعض عائلاتها إلى مئات السنين...!

أساتذة جامعيون، طلبة، صحافيون وعمال عاديون ومواطنون من مختلف الفئات والشرائح...، عند الحديث معهم عن موضوع يهود الجزائر تكون مفاجأتهم كبيرة عادة ويطرحون جميعا نفس السؤال :"وهل يوجد يهود في الجزائر أويهود جزائريون!؟".

في المقابل، في فرنسا وفي إسرائيل وفي بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا... عدد كبير من الباحثين أغلبهم يهود طبعا وُجّهوا نحو بعث التاريخ اليهودي – الصهيوني بالجزائر. وقد تم إلى حد الآن نشر عشرات المؤلفات ومئات البحوث حول هذا الموضوع الذي يتم تحويله إلى تخصص قائم بذاته. وقد لمعت أسماء عديدة فيه، مثل (أندري شوراقي André Chouraqui ، ريشارد عيون (أو حيون) (Richard Ayoun)، برنارد كوهين (Bernard Cohen)، ميشال أبي الطبول (Michel Abitbol) وروبير عطال (Robert Attal) بالإضافة إلى مجموعة كبيرة أخرى من الباحثين في مختلف جوانب الحياة اليهودية بالجزائر.

في معهد بن زفاي Ben -Zvi بالقدس التابع للجامعة العبرية، يقود كل من البروفيسور دوف نوي DOV NOY والبروفيسور إسّاخار بن عامي ISSAKHAR BEN AMI وميشال أبي الطبول (المغربي الأصل) و س. بار عاشير S.Bar-Asher وروبير عطّال، مجموعة هامة من البحوث والدراسات حول يهود شمال إفريقيا من جميع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية والأنثروبولوجية...

وفي جامعة حيفا اختص يوسف شتريت (ذو الأصول التلمسانية) Joseph Chétrit في دراسة "اللغات والآداب اليهودية المغاربية" وبعثها من جديد بمساعدة مجموعة من الباحثين المهتمين بهذا الموضوع. كما تقوم جامعة بئر سبع (Beer -Sheva) بتنظيم دراسات وبحوث حول يهود الجزائر أنثروبولوجية وبسيكولوجية ودلالية Sémantiques وسوسيولوجية منذ عدة سنوات يشرف عليها على التوالي الأساتذة Joseph Benjio, J.Bentolila, Y.Bilou,A.Weingrob.

في باريس يُنشِّط حاييم الزعفراني Haïm Zafrani المغربي الأصل دراسات يهودية شمال - إفريقية متعددة ومتنوعة في الدائرة الثامنة الباريسية، وكذلك في L'Ecole des Hautes Etudes (مدرسة الدراسات العليا) منذ سنة 1978. البروفيسور Bensimon -Donath يقوم بنشاط مماثل في المجمع الجامعي لعلم اجتماع الأديان (Contemporaines judaïcités) (le groupe universitaire de sociologie des religions) (اليهوديات المعاصرة). وعلى نفس النهج يسير البروفيسور J. L. Miége بمرسيليا في Aix- en - Provence حيث نظم ملتقى (Colloque) في نوفمبر 1978 حول "العلاقات بين اليهود والمسلمين في شمال إفريقيا في القرنين 19 م و20 م".

إضافة إلى هذا النشاط الثري والمكثف المتمركز في إسرائيل وفرنسا، تقوم جامعات أخرى فرنسية، إسبانية، كندية، أنجليزية وأمريكية (الولايات المتحدة، المكسيك، فنزويلا، البرازيل، الأرغواي، الأرجنتين) بمساهمات هامة لإحياء وبعث مثل هذه الدراسات.

في المغرب الأقصى يقوم بمثل هذه البحوث والدراسات اليهودية المغربي البروفيسور جيرمان عيّاش Germain Ayache بجامعة محمد الخامس في الرباط منذ سنة 1960...

ورغم كل هذه المجهودات يرى الحاخام الكبير لفرنسا روني صموئيل صيراط René Samuel Sirat ، وهو جزائري الأصل من مدينة عنابة، أن كتابة تاريخ اليهودية في الجزائر مازالت تعرف عجزا كبيرا... لكننا أيقظنا الحاجة إلى التعلم، و هذا شيء كبير في حد ذاته، لأن الشيء الذي أمامنا هو الماضي وليس الحاضر"[6].

هنا في الجزائر لا نكاد نجد أيّ بحث أو مؤلف مختص في "اليهودية الجزائرية" باستثناء بعض الأطروحات الأكاديمية النادرة والمحدودة المجال تعد على الأصابع، أو بعض الفقرات والجمل في مؤلفات المؤرخين المعروفين، وهذا أمرخطير لأنه يترك الأسواق والأذهان الجزائرية جاهزة للمغالطات الممكنة الصهيونية في الحاضر والمستقبل، ويضع حلقة هامة من ذاكرة البلاد في مهب الريح عُرضة لمحاولات التشويه والمضاربة.

إن "التاريخ ..(هو) عبر..الماضي...التي تساعدنا على معرفة ذاتنا وعلى طرح أمثل لمشاكلنا إذا أردنا حلها بصورة صحيحة" يقول الرئيس الأسبق للحكومة الجزائرية المؤقتة عشية الاستقلال السيد بن يوسف بن خدة، "إذا لم تكتبه أنت وأنا... سيكتبه آخرون في مكاننا، وسيقولون كل السخافات، والأكاذيب بكل تأكيد... خرافاتهم تملك كل الحظوظ لتتحول بعد بضعة سنوات إلى حقائق رسمية"[7].

كتابة تاريخ اليهود بالجزائر لا يمكنها أن تسلم في الظروف الحالية من الذاتية لأن حداثة الصدمات المتعددة والمتجذرة في الوعي الجماعي للمسلمين واليهود على السواء بعد أحداث الثورة الجزائرية والصراع العربي – الصهيوني، تجعل من الصعب على هذا الجيل أن يكتب هذا التاريخ بموضوعية خالصة. ومع ذلك فإن كتابته بموضوعية نسبية أفضل بكثير من عدم كتابته أصلا. آثار الصراعات بين المسلمين واليهود سواء في الجزائر أو في المشرق حاضرة بقوة في مؤلفات الكثير من الكتاب والمؤرخين اليهود خصوصا الذين تضرروا كثيرا منها بحيث تعكس أحقادا دفينة مترسبة في اللاوعي لايمكنها أن تزول إلا على مدى أجيال. ألبرت بن سوسان (Albert Bensoussan) يعتبر نموذجا من هذه الفئة من الكتاب، ولد بمدينة الجزائر سنة 1935م بعد أن انتقلت عائلته إليها من مدينة الغزوات (Nemours سابقا) مسقط رأس أبيه Chmoyel.

عاش 28 سنة "بالجزائر الفرنسية" قبل الرحيل إلى فرنسا سنة 1962 أين يشتغل اليوم أستاذا بجامعة Rennes 2 وكاتبا له عدة مؤلفات [8]. بن سوسان عند وصفه لمسقط رأس أبيه يتكلم عن ".. المسجد الحقير لمدينة الغزوات.." [9]، وعند حديثه عن ذكريات العائلة يردد بحرص شديد الأمثال التي حفظها عن أمه عائشة: "المسلم خونا من الطين وعدونا من الدين"، ".. التلمساني والفار مَاتْوَرّيلْهُومْشْ باب الدَّار"،و ينعت مجاهدي الثورة التحريرية بـ"الكلاب" في كتابه L'Echelle de Mesrod (سلم مسعود) . بن سوسان لم "يهضم الحرب" التحريرية، ولم "يهضم (بعد) الاستقلال". في 1982 زار لأول مرة العاصمة بعد عشرين سنة من الرحيل وكتب عنها بعد العودة إلى فرنسا:" .. في الجزائر الميّتة ، حتى الموت يبدولي ميتا.."، وأضاف يتأسف بشدة:"لقد انفصلت الجزائر (L'Algérie) واختفت بعيدا عن ضفاف البحر المتوسط الفرنسي أو الفرنكفوني. هل ستلتحق فعلا بالرمال العربية ؟ ... لقد أصبحت مدينة الجزائر عربية خالصة وإسلامية : هذه هي ، كما كنا نقول في بلادنا (chez nous) ، الحقيقة الحقيقية".

لكن هذا الحقد القديم لم ينُسه أبدا رائحة "بوزلوف" و"العصبان" أو لذة "الزلابية" و"المقروط" و"قلب اللوز" و"التشاراك".. التي مازال يحن إليها ويشتهيها كما كان يشتهيها أثناء طفولته وشبابه، إنها تتحكم حتى في بنية هويته الثقافية.

الجزائريون المسلمون من جهتهم قلبوا صفحة الماضي، لكنهم لم يمزقوها، ويشهد أغلب، حتى لا نقول جميع ، اليهود الجزائريين سابقا الذين عادوا إلى البلاد في زيارات سياحية بعد الاستقلال بالترحاب والحفاوة والكرم الذين قوبلوا بهم حيثما حلوا وكأن لم يحدث أي شيء أبدا.

دانيال مزغيش (Daniel Mesguish)، ممثل ، مخرج ومدير مسرح بفرنسا، يهودي جزائري الأصل رحل في 1962م، يذكر لمؤلفي " Mon Algérie " إنطباعه عن زيارته للجزائر بعد الاستقلال :"عدت مرتين إلى الجزائر.. واستقبلت في كل مرة بحفاوة. الجزائريون لا يحبون السواح وينظرون إليهم كمعمرين عائدين، لذلك يظهرون برودة تجاههم. لكن عندما يستقبلونك بحرارة فإنها حرارة حقيقية .." [10].

وعندما زار مدرسة NOVALIS، مدرسة طفولته، وقدم نفسه لمديرها بأنه من

قدامى تلامذتها، إبتهج المدير، يقول مزغيش، ˝... وقدم لي الزيتون و˝القازوز˝ الذي بدالي أفضل مشروب في العالم ، كنت أبحث عن طعمه طوال سنين. هذا مالقيته في الجزائر، سعادة الأشياء البسيطة ˝ [11].

روبير كاستال (Robert Castel)، إسمه الحقيقي ˝مويال˝، إبن باب الوادي في عهد˝ الجزائر الفرنسية˝، عاد هو الآخر برفقة الممثلة Lucette Sahuquet سنة 1982م للتمثيل في فيلم ˝حسان طاكسي˝. لم يكن يتوقع حرارة الاستقبال ولا التسامح: ˝ ..لقد كان استقبالا رائعا، بحيث عندما وصلنا إلى فندق ˝السفير˝ زغرد علينا جميع الحاضرين˝ ، يقول Castel اليهودي الذي كان ذات يوم جزائريا . زميلته Lucette فوجئت بهذه الحرارة والحميمية :˝... مضيفات الخطوط الجوية الجزائرية تعرفن علينا وقمن بتدليلنا طوال الرحلة. فوجئتُ إلى حد ما بهذه الحفاوة (لكن المفجأة الكبرى هي أنه) أثناء الهبوط من الطائرة كان في انتظارنا المخرج الجزائري ومجموعة كبيرة من الناس الذين كانوا يعرفون أب Robert Castel ˝ليلي العباسي ˝..˝. كما صفق لهما المسافرون الذين كانوا في ردهات مطار هـواري بومدين. Lucette تؤكد :˝... لقد استُقْبلنا كملوك [12]...˝. في المطاعم والمحلات كانت تُقدَّمَ لهما الخدمات مجانا، الجزائريون بمجرد التعرف عليهما يأبون أن يقبضوا منهما ثمن الخدمة أو الهدايا، ويمنحونهما إياها مجانا، كتعبير عن التقدير والاحترام والترحاب. Robert Castel يضيف :˝ نحن لم نندم (على العودة) لأننا أحطنا بحنان كبير غسل كل أحزاننا (القديمة)˝[13].

Albert Bensousan هو الآخر رغم أحقاد الماضي المترسبة في أعماقه والتي لم تطفها عشرات السنين التي مضت على الرحيل ورغم الانتقادات اللاذعة للجزائر المستقلة يقول على العموم ˝ لم أخيب˝ بعد زيارته للبلاد سنة 1982م [14].

في سنة 1983م، أي قبل زيارة رئيس الجمهورية الأسبق الشاذلي بن جديد إلى فرنسا والقرار الذي اتخذه في صالح الأقدام السوداء على العموم، يزور الكاتب أندري شوراقي André Chouraqui مسقط رأسه بعين تموشنت حاملا وسط أمتعته الشيء الوحيد الذي بقي عنده من القرون التي عاشتها عائلته وأجداده على هذه الأرض، وهو مفتاح الدار التي كانت تسكن بها العائلة قبل الرحيل. مفاجأته كانت كبيرة عندما اكتشف أن ثقب المفتاح الذي كان يفتحه

هذا المفتاح هو نفسه الذي عرفه في طفولته وشبابه.. لم يتَغير كثيرا رغم آثار السنين.

André Chouraqui سمُح له بالدخول إلى الجزائر رغم الحظر والمقاطعة المضروبتين على كل ما يُمت إلى اسرائيل والصهيونية بصلة، علما بأنه كان يشغل آنذاك منصب رئيس الرابطة الإسرائيلية العالمية التي يُعتبر من أبرز مناضليها وأقطابها و بأنه شغل من قبل منصب نائب رئيس بلدية القدس من 1965 إلى 1971، قبل أن يتحول إلى مكلف في المجلس البلدي لنفس المدينة بالشؤون الثقافية وبالعلاقات الدولية، وهويقيم بالقدس. أندري شوراقي إبن سعديا شوراقي Saadia Chouraqui ومليحة بنت أبراهام مايير (Méliha) [15] لم تسمح "السلطات الوطنية والمحلية" له وحده فقط بزيارة البلاد، بل سمحت بذلك حتى لابنه عمانويل شوراقي Emmanuel Chouraqui الضابط الاحتياطي في الجيش الإسرائيلي الذي كان يتأهب للزواج في نفس العام بالقدس. الكرم والحفاوة بدءا من "الفوق" .. أما من "التحت" فيذكر أنه عندما بلغ مقر سكناه بعين تيموشنت وقدم نفسه لقاطنيه "تأثروا جميعا، ولم تكفّ ربة البيت عن تكرار« " أنت في بيتك"، كانت تبكي وهي تساعدني على تفقد المنزل ..(ثم) قدمت لنا الخبز والتمر والحلويات واللبن؛ ذلك اللبن اللذيذ لم أشربه منذ 25 سنة»[16]. "حرارة الاستقبال كانت هي نفسها في كل مكان"[17] يضيف A.Chouraqui، والعائلة الجزائرية التي استقبلته في بيته القديم رافقته في تجواله بالمدينة لمساعدته على التعرف عليها بعد الغياب الطويل عنها وآثار السنين والتحولات العميقة التي طرأت على الجزائر كلها بعد سنة 1962م.

إلى باب الوادي عاد جان بيار ستورا Jean-Pierre Stora وزوجته مونيك حيّون Monique Ayoun سنة 1988/1989. هذه الأخيرة نصحتها أمها وترجتها بعدم الذهاب إلى هناك :" أنت مجنونة يا ابنتي ! سيقتلونك!..".

في الجزائر، عندما بلغا البيت الذي كان يسكنه Jean - Pierre قبل الرحيل في 1962 بباب الوادي بمحاذاة "مكتب التجنيد"، التقيا عند مدخل العمارة بشابين في سن الخامسة والعشرين تقدما إليهما عندما وجداهما غرباء ومترددين من أجل مساعدتهما. Jean-Pierre قدم نفسه، لقد جاء لزيارة داره.

الزوجة كتبت بعد عوتها إلى باريس: "لقد بدا عليهما تأثر كبير، ليس أقل من تأثر جان بيار نفسه! وبسرعة خاطفة إنتشر الخبر في العمارة، سكانها كانوا في غليان. في كل طابق كانوا يدعوننا إلى بيوتهم، الفتيان كانوا ملتفين حولنا محتارين في ما يمكن عمله من أجل مساعدتنا. مساعدتنا في ماذا؟ لطافتهم أذابتنا، لماذا كانوا يشعرون أنهم معنيون كثيرا (بنا) رغم أنهم ولدوا بعد الاستقلال؟"[18]. هذه الصحافية اليهودية، الجزائرية سابقا، التي لم يقتلها الجزائريون كما كانت تعتقد أمها، لخصت انطباعها هي وزوجها المحامي، الموسيقار، والمصور جان بيار عن الجزائر وكرم أهلها بالعبارات التالية: "عدنا إلى باريس مبتهجين ومتعبين في نفس الوقت... تحت شمس الجزائر..، تحت هذا النور المندفع بكل قواه، تبخر الحنين. فقد ضمّد البحر، الريّح والسماء جراحنا..."[19]

في الأدبيات اليهودية المتعلقة بالتاريخ اليهودي بالجزائر هناك إبراز انتقائي للأحداث وعملية إخفاء دقيقة ومنظمة للنقاط السوداء في هذا التاريخ بما يتفق والأهداف والإستراتيجيات اليهودية – الصهيونية. هذه الأدبيات تسلط الأضواء بقوة على الجذور القديمة لليهود السابقة لظهور الإسلام بالجزائر من أجل تأكيد تجذرها بهذه الأرض وإضفاء نوع من الشرعية التاريخية لحقها في الإقامة بها كغيرها من بقية الشعب الجزائري، علما بأن هذه الأطروحات تُروَّج بصفة خاصة من طرف اليهود الذين تخلوا طوعا عن جزائريتهم سنة 1962 وحطوا رحالهم بفرنسا وإسرائيل. تُركِّز هذه الأدبيات أيضا على عنصر حساس يتمثل في العلاقات اليهودية – البربرية في هذه الفترة السابقة للإسلام ومحاولة التشكيك في الهوية البربرية واسترجاعها نسبيا بالترويج لما أسمته بالتاريخ المشترك والهوية المشتركة والثقافة واللغة والعادات البربرية – اليهودية المشتركة متخذة من "الكاهنة" الشخصية المحورية للتأكيد على التداخل والامتزاج العميق، حسب هذه الأطروحات، بين البربر واليهود حتى من حيث الدين، وإعطاء "تبربر" اليهود و"تهود" البربر أحجاما وأبعادا خيالية لا صلة لها بالواقع الذي أجمع عليه المؤرخون المسلمون والنصارى سواء في ذلك الوقت أو بعده..

دخول الإسلام إلى الجزائر تسكت عنه الأقلام اليهودية ولا تتناوله سوى من جانب مقاومة الكاهنة لحسان بن نعمان التي تُصوَّر كمقاومة ليست بربرية فقط

بل بربرية عرقيا، يهودية روحيا، رغم أنه لا يوجد في الآثار والمصادر التاريخية ما يدل على هذا الطابع الروحي لهذه المقاومة، ولا مايدل كذلك على التهود العام لقبيلة الكاهنة والحلفاءالذين التحقوا بقضيتها. في الفترة الإسلامية تركز كذلك الأدبيات اليهودية الحديثة والمعاصرة على انتقاد عقد الذمة وموقع اليهود في المجتمع الإسلامي والتنديد "بالقمع" و"الظلم" الإسلاميين للجالية العبرية وتخلق من الإستثناءات قواعد عامة شاملة ودائمة وتعتم على الحقائق الكثيرة التي تؤكد بأن وضع اليهود في الدولة الإسلامية عامة والجزائر خاصة كان مبدئيا وتاريخيا أحسن وضع عاشوه في العالم. أما الفترة العثمانية التي سيلعب اليهود أو بعض اليهود دورا خطيرا فيها في عملية سقوط الجزائر في قبضة الإحتلال الفرنسي وتحطيم اقتصادها الذي كان قد بدأ يختل منذ أواخر القرن 18م، فإن الأدبيات اليهودية تتفاداها قدر الإمكان وحتى إن تطرقت إليها فإن هذا التطرق عادة لا يتعدى بضعة جمل أو بضعة فقرات أو بضعة صفحات في أقصى تقدير تمر مرور الكرام على 314 سنة من الحكم العثماني للجزائر ولا تتجاوز كونها توطئة عامة وسطحية تنوه "بالذكاء" اليهودي في هذه الفترة وتمهد لتاريخ الفترة الاستعمارية التي بدأت في 5 جويلية 1830م.

هذه المرحلة الاخيرة ثرية بالاحداث الخطيرة والحاسمة التي لم يكن دور اليهود فيها بالضرورة محايدا بقدر ما تميز بالخيانات تجاه المسلمين والاعتداءات والتجاوزات في حقهم والتعاون ضدهم مع الاستعمار بدءا من بن دوران Ben Duran وبكري Bacri إلى إيلي أزولاي Elie Azoulay الذي قاد إرهابيي المنظمة المسلحة السرية (OAS) في وهران ونفذ أشرس الجرائم وأكثرها همجية في " الهضبة 7" (la Colline 7) بالحي اليهودي في هذه المدينة برفقة زميله بن عطّار Ben Attar إلى آخر أيام "الجزائر الفرنسية". لكن الأدبيات التاريخية اليهودية تتجنب عموما نبش مثل هذه الملفات الإجرامية التي تشكل بقعة سوداء للتاريخ اليهودي بالجزائر، مكتفية بالتلميح لبعضها من بعيد، وتركز جهودها حول الجوانب "الإيجابية" وكل ما يضفي صورة الملاك – الضحية على اليهود الجزائريين.

لذلك قمنا بمحاولة قراءة التاريخ اليهودي بالجزائر قراءة غير يهودية على ضوء الواقع الذي يحكم علاقة الجزائريين بهذه الجالية التي عاشت آلاف السنين في هذه البلاد قبل أن تتخلى عن الانتماء للجزائر في مرة أولى ثقافيا وسياسيا سنة 1830، ثم في مرة ثانية قانونيا سنة 1870، ثم جغرافيا في مرة ثالثة سنة 1962، باستثناء الأقلية القليلة التي فضلت البقاء بعد الاستقلال والتي تعيش ازدواجية ثقافية تتأرجح بين تمسكها بجزائريتها وحرصها على الروح الفرنسية الغربية التي اكتسبتها خلال فترة الاحتلال.

بهذا المجهود المتواضع الذي قابلته صعوبات البحث عن مصادر تاريخية موضوعية موثوقة نسبيا وأحادية رؤية هذه المصادر نظرا لغياب البحث في هذا الموضوع من قبل الجزائريين، نحاول تسليط الاضواء على تاريخ يتجاوز عمره ألفي سنة من أجل المساهمة في توضيح الرؤى وسد الطريق قدر الإمكان أمام المضاربة بهذا التاريخ وإمكانيات التشويه والمغالطات التي بدأت تُفتح لها الأبواب. ونشير إلى أن محاولة اتصالنا ببعض الشخصيات اليهودية بالعاصمة لإثراء هذا البحث وموازنته من أجل موضوعية أكبر باءت بالفشل بسبب التحفظ الشديد لهؤلاء.

هذا العمل ليس أكاديميا بحتا ولا صحفيا بحتا، بل هو يتراوح بين هذا وذاك، ويهدف إلى تحريك ديناميكية البحث في موضوع تاريخ اليهود بالجزائر من قبل الباحثين والمختصين المؤهلين لذلك، وإعلام الرأي العام بموضوع حساس عشية الزج به في لعبة يجهلها ويجهل قواعدها، سميت لعبة السلام مع إسرائيل في فترة حاسمة وحرجة من تاريخه.

الجزائر في: 5 أكتوبر 1995



الفصل الأول

I - اليهود في الجزائر من العصور القديمة حتى ظهور الإسلام

1 – من هم .. اليهود ...؟

2 – ميلاد "يهود الشتات"

3 – الهجرات اليهودية الأولى إلى الجزائر منذ العهد الفينيقي حتى الفتح الإسلامي:

أ – الهجرات غير المباشرة

ب – الهجرات المباشرة

4 – اليهود..، البربر...، والكنيسة المسيحية خلال الإحتلال الروماني للجزائر.

5 – اليهود تحت الحكم الوندالي والبيزنطي بالجزائر

II- اليهود في الجزائر منذ الفتح الإسلامي حتى دخول العثمانيين

1 – تأثير الوضع الجديد على الدور اليهودي في الجزائر

2 – الدور الاقتصادي اليهودي والشبكة التجارية اليهودية بين القرنين 8م و15م:

3 – الوضع الاجتماعي، الديني والثقافي لليهود منذ الفتح الإسلامي حتى دخول العثمانيين

I - اليهود في الجزائر من العصور القديمة حتى ظهور الإسلام

عكس الاعتقاد السائد الذي سببه الضعف الخطير في انتقال المعلومات التاريخية وانحصارها في مستويات معينة، تمتد جذور اليهود في بلادنا في عمق التاريخ آلاف السنين، بحيث لازمت الأحداث والحضارات التي تعاقبت عليها إلى اليوم. ورغم ندرة المصادر التاريخية الدقيقة التي تسلط الأضواء على ظروف وملابسات استقرارهم الأول بها، إلا أنه بالإمكان استرجاع واستحضار المعالم الأساسية والعريضة لظهورهم بالجزائر منذ العصور القديمة استنادا إلى التاريخ القديم للشرق الأوسط والحضارات والأمم التي توالت عليه، وإلى تاريخ شمال إفريقيا والمغرب العربي بشكل خاص منذ أن حط الفنيقيون رحالهم به.

لذلك فإن أول سؤال نبدأ به هو: من هم اليهود؟ ومن أين أتوا؟

1 - من هم اليهود؟

في الألف الثانية قبل الميلاد، قدم فرع من العبريين مع إبراهيم الخليل –عليه السلام– من وادي الرافدين واستوطنوا أرض كنعان المعروفة اليوم بفلسطين[20]...، وصاهروه بتزويجه إحدى فتياتهم تدعى " سارة" أنجبت له إسحاق الذي سينجب بدوره النبي يعقوب المدعو "إسرائيل" والذي سيكون جد من يُعرفون اليوم بـ"بني إسرائيل" نسبة إليه. ومن زوجته الثانية "هاجر" أنجب إبراهيم الخليل إسماعيل جد العرب. وتشاء الأقدار أن يعيش أبناء العمومة متنافرين متناحرين لأسباب دينية عقائدية وسياسية.. إلى اليوم.

انحدر عن النبي يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم الجيل الأول من بني إسرائيل الذي كان يتكون من الأسباط الإثني عشر...من بينهم يوسف عليه السلام الذي انتقل إلى مصر في ظروف خاصة طارئة، ونجح في كسب ثقة فرعونها وتقديره حتى أصبح وزيرا ومستشارا اقتصاديا محنكا ساعد مصر على تجاوز أزمتها

الاقتصادية بسلام(21) .وابتدأ هو وإخوته الأسباط الحلقات الأولى من تاريخ بني إسرائيل انطلاقا من مصر الفرعونية، بعد أن التحقوا به وعاشوا في كنفه تحت رعاية فرعون لفترة طويلة. وتمكنوا خلالها هم وذريتهم بفضل الامتيازات التي تحصلوا عليها من الاستقرار بمصر ومن تنمية أموالهم وثرواتهم ونسلهم حتى أصبحت لهم مكانة مرموقة في هرم النظام الاقتصادي الاجتماعي المصري آنذاك.

بعد وفاة يوسف عليه السلام تعاقبت السنون والأحداث... وتغيرت الأوضاع في مصر وتغير معها سلوك آل يوسف ومواقف المصريين منهم. فبدأت الانتقادات تتلاحق ضدهم وتحول الانتقاد إلى نقمة وتبرم وحقد، والحقد إلى قمع واضطهاد تفنن فيه الفراعنة الذين توالوا على عرش مصر. وجاء ذلك أساسا نتيجة لانغلاق وانطواء بني إسرائيل على أنفسهم، حسب مصادر عديدة، ولرفضهم الاختلاط والاندماج في المجتمع المصري واستعلائهم عليه، فضلا عن إضرارهم بحياته الاقتصادية بالاحتكارات التي سببت لمصر اختلالات واضطرابات وأزمات اقتصادية اجتماعية خطيرة أنتجت آثارا سلبية على استقرار " شعب الله المختار" وأمنه في مصر التي ضاقت به وضاق بها. مصر لم تعد تتسع بالتالي لأحلامه بعد أن طغا عليه حكام مصر وأذاقوه كل أنواع القمع والاضطهاد...

في هذه الظروف الصعبة، أرسل اللّه النبي موسى -عليه السلام- لينقذه، فعبر به البحر الأحمر إلى سيناء وصحراء النقب وخلّصه من العذاب والقهر الذي كان مسلطا عليه من طرف فرعون مصر. وتم ذلك حسب بعض المصادر في الفترة الممتدة بين القرن 15 ق.م و13 ق.م[22].

بعد ان توفي موسى عليه السلام توجه بنو إسرائيل نحو الشمال واحتلوا جزءا من فلسطين بعد حروب عديدة مع أهلها الفلسطينيين (Les Philistins). وكان "شاؤول" أول ملك لهم بها، لكن سرعان ما اغتاله الفلسطينيون حوالي 1010 او1000 ق.م. فانقسمت مملكة بني إسرائيل الفتية إلى قسمين:" مملكة يهوذا" نسبة إلى قبائل يهوذا بالجنوب وعاصمتها القدس، و" مملكة إسرائيل" بالشمال[23].

بعد اغتيال ″شاؤول″ إختارت قبائل يهوذا النبي داوود ملكا عليها (1015ق م إلى 975 ق م)[24]، وخلفه ابنه سليمان بعد وفاته الذي كان من أعظم وخيرة قادة بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام، ومن أهم إنجازاته، بناء الهيكل المعروف بهكيل سليمان (temple) ، الذي ينقب عنه اليهود تحت المسجد الأقصى منذ سنوات عديدة لإعادة بعثه...، إضافة إلى توحيد قومه ولمّ شملهم، وتنظيم مملكتهم، وزيارته الشهيرة المذكورة حتى في القرآن الكريم لملكة سبأ ″بلقيس″ باليمن...

2 - ميلاد "يهود الشتات"

لكن بمجرد وفاة النبي سليمان عليه السلام تفككت وحدة بني إسرائيل من جديد على إثر نزاعات وثورات داخلية نتج عنها الانقسام مرة ثانية إلى مملكتي يهوذا وإسرائيل. ثم عمقت الخلافــات الأزمة بينهمـا، ونالت من قوتهما إلى أن سقطتا الواحدة تلو الأخرى بأيدي الأجانب، حيث استولى الآشوريون (Assyriens) على مملكة إسرائيل سنة 722 ق م، بينما استمرت مملكة يهوذا حتى سنة 586 ق م، إذ سقطت بيد ″نبوخذ نصر″ القائد البابلي الشهير الذي استولى على القدس ونهبها، وحطم الهيكل، وشرد اليهود وشتتهم، واعتقل مئات الآلاف منهم، أخذهـم أسرى إلى بغداد[25]. فكان ″نبوخذ نصر″ أول من وقّع وثيقة ميلاد ″يهود الشتات″، فكانت ضربته قاضية على بني إسرائيل وعلى حلمهم في إقامة مملكة كبرى...

لكنهم أقاموا فيما بعد معبدا أو هيكلا ثانيا وحاولوا استدراك ما أضاعوه مع البابليين، غير أن انتفاضتهم بفلسطين سنة 66م، إضافة إلى معاداتهم للمسيح ومناهضتهم له التي انتهت إلى رفعه، أو إلى ″صلبه″ حسب الرواية المسيحية ، أثارت ضده العالم المسيحي والسلطة الرومانية، ودفعت بالإمبراطور الروماني ″تيتوس″ Titus إلى تنظيم حملة عسكرية لإخماد الثورة وإخضاع اليهود، إنتهت باستيلائه على القدس سنة 70 م وسلْبِها ونهبها، وتحطيم الهيكل الثاني إلى الأبد، وتحريم دخولها على بني إسرائيل، وتشريد من سلم من القتل، وأسر مئات الآلاف منهم. كما نفى تيتوس أعدادا كبيرة منهم إلى عدة أقاليم رومانية حيث

استخدم بعضهم في العمل بالمحاجر والمناجم المصرية، وطرد البعض الآخر إلى شمال إفريقيا بحيث يذكر أندري شوراقي نقلا عن Paul Monceaux وJuster أن تيتوس قام بترحيل اليهود إلى شمال إفريقيا بأعداد كبيرة لم يحددها بدقة، لكنه أوضح بأنها ملأت 12 سفينة[26] . كما يوجد من بين اليهود من تنصر، ومن فر من فلسطين إلى المناطق المحاذية لها، وحتى إلى شمال إفريقيا بعد هذه الأحداث.

ومنذ حملة تيتوس، لم تقم لليهود قائمة، لا ملك ولا دولة، وإنما تحولوا إلى مجرد مجموعات أو أقليات اجتماعية – ثقافية أودينية فقط تعيش لاجئة على أراضي الغير سواء بفلسطين أو في غيرها من البلدان، وحتى ما يسمى اليوم بدولة إسرائيل ليس سوى نتاج ظروف دولية وإقليمية ظرفية قد تزول بزوالها...

ورغم أنهم حاولوا عدة مرات وفي عدة مناسبات إحياء التراث العبري وإعادة إقامة دولة إسرائيل ويهوذا بالتنظيم المستمر لصفوفهم وبالثورات على الحكام المتعاقبين في البلدان التي استضافتهم ..، لم يتمكنوا في جميع محاولاتهم من تحقيق أحلامهم. ولم تعد عليهم ثوراتهم وعصيانهم إلا بالقمع والإضطهاد والتنكيل والتشتيت عبر العالم...

وقد كانت هذه الأحداث والإضطرابات السياسية – الدينية من أهم المحفزات والدوافع الى الهجرات اليهودية الأولى إلى شمال إفريقيا والتي ستتشكل منها أقدم التجمعات الإسرائيلية على أرض الجزائر حيث ستقيم أكثر من ألفي سنة ...

3 - الهجرات اليهودية الأولى إلى الجزائر منذ العهد الفينيقي حتى الفتح الإسلامي

اختلف المؤرخون حول تاريخ هجرة الجماعات الإسرائيلية الأولى إلى الجزائر. فمنهم من يرى بأنها تعود إلى أكثر من 3000 سنة، أي منذ أن رست السفن الفينيقية التجارية على سواحل شمال إفريقيا ..، ويذهب آخرون إلى أن هذه الأطروحة لا تستند على أي أساس علمي موضوعي، بل تقوم على مجرد أساطير وأقاويل وروايات شفوية هي أقرب إلى الخرافة منها إلى الواقع، بحيث لا يوجد من الآثار المادية التاريخية ما يسندها أو يدعم مصداقيتها، ويرجعون

لذلك الهجـرات الإسرائيلية الأولى إلى الجزائر إلى عهد الإحتلال الروماني.
حسب الـرأي الأول، يكون التجـار اليهود، رغم غـياب الأدلة القاطعـة، قد أقاموا منذ العهـد القرطاجني على الشريط الساحلي الجزائري حيث توجد أهم المدن والمراكز التجارية مثل عنابة (Hippo Regius) ، جيجل (Igilgili)، بجاية، تيبازة، شرشـال (POL)، الجـزائر (Icosium)، قـورايـــة (Gunugu)، وغيرهـــا. في القرون اللاحقة تكون أفواج منهم قد استقرت بالمناطق الداخلية للبلاد أيضا وبالصحراء. برنارد كوهين Bernard Cohen وريشارد حيّون Richard Ayoun يساندان هــذا الرأي ويرويان في كتابهما (يهود الجزائر: 2000 سنة من التاريخ) Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire بأن مجموعات يهودية انحدرت من الجالية اليهودية بقرطاجة الفينيقية تمركزت على طول المحور التجاري الممتد من "سيرتا" (قسنطينة) إلى سطيف (Setifis)، سور الغزلان، قالمة، تبسة، خنشلة، تيمقاد ولامبيز...، وذلك لطبيعتهم الميالة إلى التجارة أكثر من أي نشاط آخر[27]. بعد ذلك بدأت أفواج اليهود المهاجرين إلى الجزائر تتوافد بأعداد تزيد أو تنقص حسب المحيط السياسي والإقتصادي السائد بشمال إفريقيا وفلسطين وحسب الأزمات والحروب التي شهدتها هاتان المنطقتان سواء لأسباب سياسية أو دينية أو اقتصادية.

تمّ انتقال بني إسرائيل إلى شمال إفريقيا، بما فيها الجزائر، إما في شكل حركية تجارية أو في صورة نفي جماعي من قبل خصومهم، أو في إطار فرار أو "لجوء سياسي" من القمع والاضطهاد والانتقام كما حدث لهم في سنة 70م عندما حطم الإمبراطور الروماني "تيتوس" المعبد بالقدس واستولى عليها ..، أوعندما حطم "نبوخذ نصر" القائد البابلي ملك بني إسرائيل بفلسطين قبل "تيتوس" بأكثر من ستة قرون.

الرأي الثاني الذي يعتبر الجذور اليهودية في الجزائر لا تتعدى في امتدادها المرحلة الرومانية يستشهد ببعض الآثار المادية المتبقية من تلك الفترة والتي يفتقر إليها أصحاب الطرح السابق. من بينها عمود (Colonnette) (سارية) أثري عثر عليه في شمال مدينة تبسة بمنطقة هنشير فواغة، يحمل آثار كتابة بالأحرف اللاتينية تدل على أسماء عبرية، ومجموعة من المصابيح أو الفوانيس ذات

السبعة فروع التي ترمز للديانة اليهودية والمعروفة بـ: "المينوراه" على غرار الصليب بالنسبة للمسيحية والهلال بالنسبة للإسلام[28]. كما يستدل أصحاب هذا الرأي على امتداد التواجد اليهودي بالمنطقة إلى العهد الروماني بشيوع الأسماء اليهودية القديمة في كامل شمال إفريقيا ذات الصيغة اللغوية والجذور الرومانية[29]. وكذلك ببعض العادات والطقوس والآثار الأنثروبولوجية التي صمدت أمام السنين والقرون لدى بعض القبائل المحافظة والبعيدة في أعماق الصحراء والتي تُنسب جذورها إلى العادات والطقوس اليهودية ...(؟) مثل عادة 'Lès Scandales du cousin croisé' المتمثلة في تقديم العريس لزوجته نعلا في يوم الزفاف في أجواء من الرمزية والسريالية، وهي عادة ما تزال قائمة إلى اليوم بالمغرب الأقصى لدى بعض القبائل المسلمة واليهودية على السواء وفي الجزائر لدى التوارق. أصحاب هذا الطرح يجزمون انطلاقا من هذه المعطيات بكثافة العنصر اليهودي في الجزائر منذ العهد الروماني وبتواجده بها بأعداد هامة بالرغم من أن لا شيء في هذه الشواهد ما يسمح بمثل هذا الزعم، لأنه لا يمكن اعتبارها مؤشرا عدديا للكثافة الديمغرافية اليهودية بالجزائر بقدر ما تدل على تواجد يهودي غامض أو عبور يهودي في أدنى تقدير للمنطقة. كما أن هذه القبائل الجزائرية التي يراد إرجاع أصولها القديمة إلى اليهود وإضافتها إلى الرصيد البشري العبري بالجزائر قد لا تكون يهودية بالضرورة وقد لا يتعدى الأمر مجرد تأثر بالعادات اليهودية التي تكون قد انتقلت إليها عن طريق التجارة الصحراوية التي كان لليهود فيها مركز هام.

بعد أكثر من ثلاثة عقود مضت على رحيل يهود الجزائر إلى فرنسا ماتزال العادات الجزائرية حاضرة في الكثير من جوانب حياتهم، في الموسيقى والأطعمة والمزاج، ... فهل تسمح لنا هذه العناصر المشتركة بالقول أنهم مسلمون؟

على العموم ، هناك أطروحتان إذن بخصوص تاريخ أول استقرار يهودي بالجزائر، الأولى ترجعه إلى العهد الفينيقي والقرطاجني بصورة خاصة، أي إلى حوالي 9 قرون قبل الميلاد أو أكثر، والثانية ترفض هذه النظرية التي تعتبرها أقرب إلى الأسطورة والخيال منها إلى الواقع، وتجزم بأن هذا الإستقرار يعود إلى العهد الروماني فقط. وتبقى هذه النظرية الأخيرة الأكثر واقعية من غيرها

لأنها تعتمد على آثار وشواهد مادية ولو أنها تميل هي الأخرى إلى التخمين والتقريب والمبالغة بخصوص الكثافة العددية لليهود بالمنطقة، كما تقترب في تحديدها لتاريخ هذا الإستقرار من الأطروحات الجزائرية الإسلامية ، بحيث يجمع معظم المؤرخين الجزائريين الذين تطرقوا إلى هذا الموضوع في أبحاثهم على غرا الدكتور ناصر الدين سعيدوني والأستاذ أحمد توفيق المدني بأن وجود العنصر اليهودي بالجزائر يعود إلى أزيد من 2000 سنة[30]. ويلتقون بالتالي مع المؤرخين الأجانب في التأكيد على أن أول استقرار مؤكد لليهود بالبلاد يعود إلى الفترة الرومانية.

أما النظرية الأولى فتبقى ضعيفة المصداقية رغم أن هذا لايمنع إمكانية عبور تجاري يهودي للجزائر أو إقامة مؤقتة بمدنها ومراكزها التجارية أثناء الفترة الفينيقية والقرطاجنية. قبل الفتح الإسلامي شهدت الجزائر عدة هجرات يهودية على مدى عدة قرون حركتها المصالح التجارية في بعض الأحيان، والظروف السياسية- الأمنية في غالب هذه الأحيان. بعضها كانت مباشرة من المستقر الأصلي إلى الجزائر والمناطق المحيطة بها، وبعضها الآخر غير مباشرة أي بعد الإقامة الظرفية والمؤقتة في مستقرات أخرى قبل بلوغها التراب الجزائري متقدمة تدريجيا عبر مصر وليبيا وتونس أو قادمة من روما أوبلدان أخرى لنفس الغايات المذكورة سابقا.

أ – الهجرات غير المباشرة:

يعود تاريخ أولها إلى سنة 930 ق م حيث دخل "شيشاق" (Sisak)، فرعون مصر، إلى القدس ونهبها ونفى أعدادا كبيرة من اليهود إلى بلاده. فانتقلت جماعات منهم نحو الغرب تدريجيا في ظروف لاحقة واستقرت بليبيا وتونس وحسب بعض المصادر، اليهودية، حتى ببعض جهات الشرق الجزائري. هذه الحركة الديمغرافية نحو الغرب تكون قد استغرقت قرونا كاملة قبل الوصول المحتمل لبعضها إلى الجزائر. بعد ذلك بأربعة قرون، أي سنة 586 ق.م، فر عدد كبير من يهود فلسطين إلى مصر بعد سقوط القدس بيد "نبوخذ نصر" الملك البابلي الشهير الذي حطم المدينة وحطم هيكل سليمان. هؤلاء تحولوا مع مرور

الزمن إلى "جيوب كامنة" (Des ébauches potentielles) للهجرة نحو الغرب كلما تدهورت أوضاعهم الأمنية بسبب موجة القمع التي لاقوها على يد فراعنة مصر في مختلف الفترات اللاحقة لفرارهم من "نبوخذ نصر". أما في سنة 320 ق م، فقد نفى بطليموس(Ptolémé) 100.000 يهودي إلى مصر وليبيا Cyrénaïque بعد استيلائه على فلسطين، تحولوا فيما بعد إلى نواة الجاليات اليهودية بالإسكندرية وPentapole وعدن، ومدن أخرى من شمال إفريقيا.

ثم في سنة 135م قام اليهود بآخر محاولاتهم لإحياء التراث العبري في فلسطين وبعث الملك الذي افتقدوه على يد البابليين والرومان من جديد، فأعلنوا العصيان على الإمبراطور الروماني ونادوا إلى قيام دولة إسرائيل في القدس. فما كان على الحاكم الروماني "هادريان" (Hadrien) إلا أن يهاجمهم ليخمد نيران الثورة ويقضي على العصيان، فدمر القدس وقتل أهلها، وفر الناجون منهم خارج فلسطين هائمين في مختلف أرجاء العالم[31]. وكان من الطبيعي جدا أن يلجأوا إلى المناطق التي لا تقع تحت السلطة والنفوذ الرومانيين كالجزيرة العربية أو إلى حيث النفوذ الروماني ضعيف مثلما هو الأمر في المناطق الداخلية لشمال إفريقيا بسبب مقاومة الأهالي للسلطة الرومانية الإحتلالية ومعاداتهم الشديدة لها.

في هذه الهجرات غير المباشرة يبقى مجال النسبية والتأويل والتخمين قويا جدا خصوصا في الفترات السابقة للعهد الروماني نظرا لغياب المعطيات التاريخية الدقيقة و الملموسة.

ب – الهجرات المباشرة :

أولها وأبرزها تلك التي انطلقت بعد تدمير تيتوس (Titus) للقدس سنة 70م، حيث فر من سلم من القتل والأسر إلى شمال غرب إفريقيا وإلى تونس والجزائر... فضلا عن أولئك الذين طردوا من روما إلى المنطقة على متن 12 سفينة حسب أندري شوراقي.

أما موجة الهجرة التي تدفقت على تونس والجزائر خاصة في اتجاه شمال الصحراء، قد تكون من أهم حركات الهجرة اليهودية إلى بلادنا من حيث

العدد بالمقارنة مع الحركات السابقة لأنها تلت أحداث عنف ومواجهات بشعة بين اليهود والرومان بمحاذاة الحدود الجزائرية الشرقية وبالضبط بليبيا (Cyrénaïque)، دامت ثلاث سنوات، من 115م إلى 117م. وكانت الأراضي التونسية والعمق الجزائري أقرب وأفضل ملجأ للهاربين من القمع الروماني، لأن الفرار إلى الشرق كان مستحيلا حيث مصر وفلسطين وما يحاذيها كانت كلها تحت السلطة الرومانية المباشرة. ولم يبق بالتالي لليهود الفارين سوى الاحتماء لدى القبائل البربرية الجزائرية والتونسية المعادية للسلطة الرومانية، في منطقة جغرافية تشكل بتضاريسها الوعرة والقاسية درعا و حصنا آمنا وواقيا من الملاحقات والهجمات الرومانية المسيحية. غير أن عدد المهاجرين المطلق يبقى متواضعا حسب المصادر التاريخية الإسلامية المعاصرة للفتوحات الإسلامية والمطلعة على بنية سكان شمال إفريقيا بما فيه المغرب الأوسط.

تعود أسباب هذه الأحداث الدامية بين اليهود والرومان المسيحيين إلى "الثورة" اليهودية التي أشعل فتيلها الحاخام "أكيبا" (Akiba)، "أب السنة التلموذية"، بليبيا Cyrénaïque، دامت ثلاثة سنوات من 115 إلى 117م، ذبح اليهود أثناءها".....200.000 من المسيحيين بليبيا وحدها، و240.000 في قبرص مابين مسيحيين ووثنيين"[32] لذلك كان القمع شديدا من طرف الإمبراطور الروماني Trajan الذي تمكن بصعوبة من إخماد العصيان بعد ثلاثة سنوات من المواجهات[33].

وبعد حوالي خمسة قرون عرف اليهود في سنة 613م وسنة 622م آخر هجرة مباشرة إلى شمال إفريقيا، بصورة اضطرارية كما جرت العادة قبل الفتح الإسلامي للمنطقة، فرارا من قمع الملوك القوط، واستوطنوا عدة مدن مغربية وجزائرية في الشمال والجنوب ، خصوصا وأن التمسح والتنصير الإجباري كان قد ألغي في جميع أقاليم الإمبراطورية البيزنطية منذ عهد الإمبراطور موريس Maurice (582 م – 602م) الذي أظهر تسامحا كبيرا مع اليهود بالمقارنة مع سابقيه من الناحية الدينية. وقد وصف "أندري شوراقي" "A. Chouraqui" هؤلاء المهاجرين من إسبانيا في محاولة تحديد تصور لحجمهم بأنهم "منحوا الجاليات اليهودية بإفريقيا (الشمالية) دفعاً جديدا"[34].

على هذا النحو إذن تم الاستقرار الأول لبني إسرائيل على أرض الجزائر قبل الفتح الإسلامي بأعداد متواضعة وبصورة قسريَة على العموم بسبب الاضطرابات والظروف السياسية والدينية بالمشرق التي نشطت الهجرة اليهودية إلى المنطقة. فكانت الجزائر مهجرا كريما وآمنا ومضيافا لليهود الذين أقاموا بها في أمن وطمأنينة وسلام جنبا إلى جنب مع القبائل البربرية بالمقارنة مع ما لاقوه من اضطهاد في جهات أخرى.

4- اليهود...البربر..، والكنيسة المسيحية... خلال الاحتلال الروماني للجزائر

جلبت الجزائر قبل الفتح الإسلامي انتباه اليهود الأوائل الذين هاجروا إليها بثرواتها الطبيعية المتنوعة وبموقعها الإستراتيجي الحساس في مفترق طرق الحضارات والأسواق الدولية، بحيث كانت محطة تجارية رائجة آمنة نسبيا ذات بعد عالمي متميز في النظام الإقتصادي- السياسي الدولي لذلك الوقت. من الناحية الأمنية كانت الجزائر ملجأ مثاليا لليهود بفضل اتساع رقعتها الجغرافية وتنوع تضاريسها من جبال وصحراء وعمق أمني شاسع تمثل كلها درعا طبيعيا واقيا من الحملات العسكرية والاعتداءات الأجنبية الدخيلة، فضلا عن العناية والرعاية والطيبة والتضامن الذي وجدوه عند البربر، خصوصا وأن ثورة البربر تزامنت مع ثورة اليهود ضد العدو الروماني المشترك، بحيث انفجرت الأولى في سنة 68 م، والثانية في سنة 66م وانتهت باستيلاء "تيتوس" على القدس عام 70م.

لعبت هذه المزايا والخصائص السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية التي تتميز بها الجزائر دورا أساسيا في استيطان اليهود بها بصفة دائمة، فازدهرت تجارتهم وحرفهم وتحسنت أحوالهم الاقتصادية-الاجتماعية وانعكست بصورة إيجابية على نموهم الديمغرافي ، بحيث قدرت المصادر الغربية عددهم آنذاك ، أي أثناء الاحتلال الروماني للجزائر، بعشرات الآلاف. ريشارد عيون وبرنارد كوهين، اليهوديان الجزائريا الأصل، يؤكدان هذا التقدير استنادا إلى احتواء قرطاجة الرومانية وحدها – حسبهما – على 30.000يهودي في القرن الثاني الميلادي[35]، أغلبهم من التجار، بالرغم من أن مثل هذا الإسقاط

يبقى نسبيا إلى حد بعيد. لذلك فهما يتصوران بأنه يحتمل جدا أن يتواجد عدد مماثلٌ على الأقل في الجزائر التي تحتوي على شبكة كاملة من المراكز التجارية والقوافل التي كانت تربط مختلف جهات البلاد ببعضها وتربط البلاد بالبلدان المجاورة، علما بأن التجارة هي المحدد الأساسي للتوزع الجغرافي اليهودي في العالم في المنطقة منذ القديم.

ومن جانب آخر يكون عدد اليهود في الجزائر خلال الاحتلال الروماني قد تدعم بعدد من البربر المتهودين يحاول المؤرخون اليهود اليوم تضخيمه إلى أقصى حد ممكن إلى درجة الإيحاء بأن أغلبية البربر كانت تدين باليهودية ...(...؟) بينما لا نكاد نعثر على أثر للبربر المتهودين في مؤلفات البكري وابن خلدون ومن عاصروهما من المسلمين مما يوحي بأن هؤلاء مجرد فئة قليلة حتى لا نقول حالات استثنائية إن وُجدت.

صحيح أن علاقات البربر باليهود كانت طيبة وعادية لكن هذا لا يسمح بالإدعاء بأن البربر تخلوا أوتوماتيكيا عن وثنيتهم أو مسيحيتهم ليتحولوا إلى اليهودية المعروفة بالإنطواء على الذات و لا تقبل سوى العنصر اليهودي العبري، خصوصا في تلك المرحلة التاريخية من جانب، ومن جانب آخر لماذا لا يتصور المؤرخون اليهود حركة معاكسة من اليهودية إلى المسيحية أو الوثنية خصوصا وأن اليهود كانوا مجرد أقلية، والأقليات عادة هي المعرضة للذوبان والتأثر ببقية المجتمع الذي يشكل الأغلبية؟ فضلا عن كون التدين باليهودية في العهد الروماني كان مجلبا للمشاكل مع السلطة الرومانية التي كانت شديدة المعاداة لليهود خصوصا بعد أن تحولت المسيحية إلى الديانة الرسمية في الإمبراطورية، ومجلبا للمشاكل أيضا مع الكنيسة المسيحية التي لم تتوقف لا في الجزائر ولا في غيرها من الأقاليم والمستعمرات الرومانية عن التهجم على اليهودية والدعوة إلى تشديد الخناق على اليهود وتقييد حرياتهم. فماذا يوجد في اليهودية مما قد يثير اهتمام البربر الوثنيين والمسيحيين عامة في مثل الظروف التاريخية التي عاشوا فيها ؟ ولماذا لم تبق آثار هذا التهوّد المزعوم حتى العصر الحالي في الثقافة البربرية والجزائرية بصفة عامّة كما بقيت بعض الطقوس والعادات البونيقية والرومانية مستمرة إلى يومنا هذا...؟

المهم هو أن حياة اليهود في الجزائر خلال الاحتلال الروماني كانت على العموم حياة آمنة سمحت لهم بالتقدم في السلم الاقتصادي الاجتماعي بفضل مشاركتهم في النشاطات العامة للمجتمع البربري المحتل، فمارسوا تجارتهم وحرفهم في عدة مدن وأقاليم جزائرية جنبا إلى جنب مع البربر رغم انطوائهم التقليدي على أنفسهم وتفضيل البقاء منعزلين ومنفصلين عن بقية المجتمع في حياتهم الداخلية والخاصة. ريتشارد عيون و برنارد كوهين يذكران أن حضور اليهود في العهد الروماني كان بارزا في مختلف الميادين بالأوراس وجبال القصور والصحراء ومختلف المدن الساحلية التجارية، واشتغلوا بالزراعة والرعي في أوقات كساد التجارة وانعدام الأمن الضروري لممارستها وكذلك بمختلف الحرف اليدوية، كما انخرط بعضهم في الجيش الروماني رغم العداوات التقليدية السياسية – الدينية بين اليهود والرومان، غير أن أبرز نشاط اقتصادي زاولوه دون انقطاع هو التجارة التي يمكن القول أنها الدين الثاني لليهود[36]. فكانوا همزة وصل بين الصحراء التي نشطت فيها قوافلهم باستمرار والمدن الشمالية للبلاد على المستوى الداخلي، كما ساهموا أيضا بسفنهم في التجارة الخارجية الجزائرية مع بلدان شمال إفريقيا والضفة الجنوبية لحوض المتوسط، حيث كانوا يصدرون القمح الجزائري باستمرار إلى روما ويستوردون منها ما تحتاجه شمال إفريقيا من بضائع.

هذه المشاركة الواسعة في التجارة الداخلية والخارجية وهذا التشتت الجغرافي الذكي على مستوى أهم المدن والمراكز التجارية وهذا التوزع الديمغرافي على مختلف القطاعات الاقتصادية في البلاد يدل على مستوى متقدم من الهيكلة والتنظيم داخل الطائفة اليهودية في ذلك الوقت. كما يعكس في نفس الوقت نفوذا اقتصاديا واسعا في المنطقة رغم حداثة تواجدها بها ورغم المضايقات الرومانية.

سمح هذا التطور النسبي وهذا الاستقرار لليهود بالالتفات إلى تنظيم وتطوير حياتهم الاجتماعية – الدينية، حسب التعاليم التلمودية، بالتنسيق والتعاون مع الزعماء الروحيين وكبار الحاخامات بفلسطين التي بقيت في الذاكرة الجماعية الإسرائيلية حيثما حلت رمزا مقدسا في الديانة اليهودية. ونجح اليهود في

حماية خصائصهم الثقافية – الدينية إلى حد بعيد رغم الاضطرابات الكثيرة التي عاشوها ورغم القيود والمضايقات الرومانية التي مست حتى حرية ممارسة الشعائر والطقوس اليهودية طيلة احتلال الرومان للجزائر.

نفوذ اليهود بالجزائر وكافة شمال إفريقيا أثناء الاحتلال الروماني لا تعكسه فقط مشاركتهم الواسعة في الحياة الاقتصادية والتجارية بشكل خاص، بل تعكسها أيضا الكتابات والمؤلفات والوثائق التاريخية التي تركها بعض الزعماء الروحيين للكنيسة المسيحية بشمال إفريقيا وبروما، وبعض الكتاب المشهورين الذين عاشوا ما بين القرن الثالث والقرن الخامس الميلادي، على غرار القديس أغسطس (Saint Augustin) (354م – 430م) أسقف مدينة عنابة Evêque، والقديس جيروم Saint Jérome (حوالي 347م– 420م) المعروف بـ:" أب الكنيسة اللاتينية"، وتيرتوليان Tertullien (حوالي 155م إلى 220م)، وسيبريان Cyprien، وغيرهم ..

مؤلفات هؤلاء عكست، رغم مبالغاتها وتشددّها، الدور الهام الذي كان يلعبه اليهود في الحياة العامة بكامل منطقة الشمال – إفريقية من خلال التخوف الشديد من التآمر اليهودي على الديانة المسيحية الفتية بالرغم من أن هذه الأخيرة كانت في أوج انتشارها منذ القرن الخامس الميلادي، خصوصا بعد أن تبناها الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول الكبير (Le Grand) (274م–337م) كديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية. مخاوف وقلق هؤلاء الكتاب ورجال الدين وردت في صورة انتقادات شديدة اللهجة للاحتكارات الاقتصادية اليهودية ولتقربهم من البربر وتحالفهم معهم. كتابات القديس أغسطس كانت من أشد الحملات المعادية لليهود في الجزائر وغيرها في ذلك الوقت، فضلا عن حملاته الدينية باسم الكنيسة. ولعل من بين الدوافع الهامة الأخرى لهذه المعاداة لليهود والقلق على المسيحية من "الخطر اليهودي"، تطبيق الإمبراطورية الرومانية لقانون "كركلا" (L'édit de Caracalla) سنة 212م الذي منح حق المواطنة Droit de cité لجميع الناس الأحرار– دون العبيد– المقيمين على ترابها. وأعطى اليهود بالتالي في كافة أرجاء الإمبراطورية فرصة ثمينة لتدعيم نفوذهم وتقوية هياكلهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية التي كانت في أوج اتساعها وتناميها ...

لم يترك القديس أغسطس الفرص تمر دون التهجم على اليهودية. كما كان يشجع أتباعه على عدم الاعتراف بالطقوس اليهودية ومقاطعتها مثل الراحة السبتية في نهاية كل أسبوع وهي عادة اكتسبها المسيحيون من اليهود، لأن يوم الراحة الأسبوعية لممارسة الطقوس والشعائر المسيحية هو يوم الأحد. مع ذلك لم تكن حملات القديس أشد عنفا من تلك التي قام بها من قبله تيرتوليان الذي عاصر قانون "كركلا" والتوسع اليهودي الشامل الذي صاحبه. تيرتوليان كان يعتبر اليهود مصدر مصائب البشرية بسبب انحطاطهم الأخلاقي وانتهازيتهم وجشعهم وأنانيتهم وعبادتهم للمال... وقد ركز على جميع هذه الأوصاف في مؤلفاته وأطنب في شرحها وتجليلها ...

بعد مضي قرن فقط على وفاة القديس الجزائري أغسطس تحققت أحلامه والأحلام التي ناضل من أجلها زميلاه جيروم وتيرتوليان، بحيث أصدرت الإمبراطورية الرومانية أمام "التجاوزات" اليهودية القانون الثيودوزي Le Code Théodosien في سنة 533م الذي ضيق الخناق على اليهود وحرمهم من حق الممارسة الحرة لشعائرهم وطقوسهم الدينية، وكان هذا القانون بداية لحقبة صعبة جدا بالنسبة إليهم رافقها الطرد الجماعي من الوظائف العمومية كما سيحدث في عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر تحت حكومة فيشي بعد حوالي 14 قرناً.

مع ذلك بقيت الإجراءات الاستثنائية والمضايقات الرومانية المطبقة على اليهود محصورة على العموم في المستوى الديني والمستوى السياسي-الاجتماعي ولم تتوسع أبدا إلى المستوى الاقتصادي فبقوا بذلك يتمتعون باستمرار بحرية التجارة والتنقل والإبحار. وذهب بعض أباطرة الرومان أبعد من ذلك إذ لم يترددوا في منح بعض أثرياء وزعماء اليهود امتيازات اقتصادية وسياسية خاصة والاستعانة بهم، حسب بعض المصادر، في مراقبة البربر الذين كانوا في ثورة دائمة ضد المحتلين الرومان. اليهود رغم القمع و المضايقات الرومانية الدائمة كانوا يميلون أكثر إلى الانتماء إلى روما منه إلى البربر لأن الرومان كانوا الأقوى[37]..خصوصا في المناطق الشمالية من البلاد.

لقد كانت شدة العداء الديني والاستعلاء العرقي المتبادل بين الرومان واليهود كافيين لغرس جذور الأحقاد في أعماق الطرفين، لذلك عندما غزا

الوندال شمال إفريقيا وطردوا منها الرومان لم يفكر اليهود في الرحيل إلى روما كما فعلوا 15 قرنا بعد ذلك مع فرنسا، بل فضلوا البقاء في الجزائر واكتفوا بالحصول على بعض الامتيازات من الوندال المحتلين الجدد وبالإبقاء على تحالفاتهم وروابطهم مع البربر وتدعيمها من أجل الاحتفاظ بمواقعهم السياسية – الاقتصادية في البلاد. اليهود يكونون قد عبروا بذلك عن قدرات معتبرة في موازنة علاقاتهم ومصالحهم مع مختلف القوى المتناقضة المحلية والدولية.

كلام كثير قيل من طرف الكتاب اليهود والصهاينة حول العلاقات اليهودية– البربرية "المتميزة"، وحول حجم التواجد اليهودي بالجزائر قبل الإسلام. وبُذلت مجهودات بالغة ومازالت تبذل لفبركة صورة مثالية عنها إلى الحد الذي يوحي باستحالة التمييز بين اليهودي والبربري نظرا للاندماج الكبير المزعوم بينهما، فضلا عن ميل هؤلاء الكُتّاب إلى ترجيح ذوبان البربر في اليهود أكثر من ذوبان اليهود في البربر. أما عن المستوى العددي لليهود فهو غير محدد بدقة لاستحالة ذلك، لكنه يوحي حسبهم بعدد كبير لا يقل أهمية عن عدد البربر وذلك بالاعتماد على نصوص تاريخية من مؤلفات ابن خلدون أسيء تأويلها أو أسيئت ترجمتها، بطريقة يصعب أن نقول عنها بأنها بريئة أو مقصودة...

يكاد المؤرخون اليهود يضعون اليوم أسس هوية خيالية مشتركة بين اليهود والبربر ويعملون على ترويجها وإخراجها من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة التاريخية. "التاريخ المشترك"، "الأصول المشتركة"، "المعاناة المشتركة"، "الثقافة والعادات المشتركة"، "اللغة اليهودية – البربرية المشتركة"، وحتى "المقاومات المشتركة"... هي كلها عناصر هذه "الهوية اليهودية – البربرية" التي يراد بعثها إلى الوجود، والتي تصر على تسليط الأضواء عليها وتضخيمها مختلف معاهد ومراكز الدراسات العبرية – اليهودية –الصهيونية في العالم من معهد Ben-Zvi بإسرائيل إلى مراكز أخرى بباريس ونيويورك ...، فضلا عن المجهودات الفردية لبعض الباحثين مثل هنري شمويلي Henri Chemouilli أحد أكبر المتحمسين لهذه الأطروحة" اليهودية– البربرية"[38].

فهل يفكر الصهاينة واليهود في نسج تحالفات مع العنصر البربري أو التيار البربري تحضيرا لمستقبل العلاقات الإسرائيلية – الجزائرية وتمهيدا للتطبيع أم

أن أحلامهم أوسع من ذلك ؟ وهل يكون الروّاج النسبي للأطروحات الاستعمارية الفرنسية حول "الأصول الرومانية للبربر" التي وجدت بعض الإعجاب بها داخل بعض الأوساط هو الذي شجع هذه الأطروحات الجديدة اليهودية؟وهل ستجد أسطورة الشخصية اليهودية--البربرية من يصغي لها ...؟[39]

أصحاب هذه الأسطورة يقومون كذلك في هذا الإطار بتسويد الفترة الممتدة بين الفتح الإسلامي ودخول الاستعمار الفرنسي وتصويرها في أبشع وأحلك الصور، كما يجعلون من الكاهنة رمزا كبيرا لهذه "الهوية المشتركة" لأن هذه الملكة البربرية كانت تدين باليهودية.

لكن ماذا تقول المصادر الإسلامية بخصوص حجم التواجد اليهودي بالجزائر عشية الفتوحات الإسلامية وفي العهد الروماني – الوندالي – البيزنطي، وكيف تصف علاقاتهم بالبربر ...؟

في كتابه "العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، تعرض ابن خلدون لديانة البربر قبل الإسلام في المغرب العربي كافة، فنقل عن أبي الكلبي بأنهم قبل الإسلام".. كان منهم من تهود ومن تنصر وآخرون مجوسا يعبدون الشمس والقمر والأصنام ". ثم يعرض وجهة نظره وشهادته عن ديانة المغاربة في سياق ذكر أخبارهم منذ ما قبل الفتح الإسلامي حتى عهد الدولة الأغلبية قائلا :" وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم بالمشرق والمغرب إلا في بعض الأحايين يدينون بدين من غلب من الأمم. فإن الأمم أهل الدول العظمى ..". ثم يضيف :"... ولا ينالهم الروم والإفرنج في ضواحيهم ... وعنهم كلهم أخذوا دين النصرانية "[40]. فابن خلدون إذن ذكر تهود البربر نقلا، فقط، عن ابن الكلبي. لكن "لما تعرض لهذه المسألة دون نقل، قال بديانة البربر بالمجوسية وأكد على اعتناق المغاربة لديانة الأمم الكبرى وذلك في بعض الأحايين أي بعض المراحل وليس اعتناقها على امتداد مستمر.ثم يركز على الديانة النصرانية التي أخذوها عن الروم والإفرنج .." [41].

أما النص الخلدوني الذي يستدل به المؤرخون اليهود والغربيون عامة على غرار أندري شوراقي، ريشارد حيّون وبيرنارد كوهين...، لإثبات غلبة الديانة اليهودية على البربر خصوصا على قبائل جراوة، فيقول فيه ابن خلدون :

" .. وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم، لقرب الشام وسلطانه منهم كما كان جرأة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة مقتولة العرب لأول الفتح. وكما كانت نفوسة من بربر إفريقية وقندلاوة ومديونة وبهلولة وغياته وبنوفزان من برابرة المغرب الأقصى حتى محا إدريس الأكبر .. جميع ما كان في نواحيه من بقايا الأديان والملل. فكان البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الإفرنج وعلى دين النصرانية". فابن خلدون لا يثبت تهود البربر بأي نسبة كانت بل يذكر ذلك كإمكانية مستخدما كلمة "ربما" ولم يؤكد سوى تدين الكاهنة باليهودية ويكون قد أسقط حالة الكاهنة على جميع أفراد قبيلتها بصورة آلية رغم أن تدين الملكة باليهودية لا يعني حتما أن رعاياها كلهم على نفس الدين. كل ذلك في سياق الكلام عن فترة استفحال ملك بني إسرائيل. وذلك معناه أن تاريخ هذا التهود النادر الممكن ظرفي وبعيد جدا بحيث يعود حتى إلى قرون قبل الميلاد،ربما إلى عهد الثورة اليهودية بليبيا،حسب ابن خلدون. وبما أن تواجدهم آنذاك كان ضعيفا كما ذكرنا فهذا يضفي نسبية وغموضاً على رأيه. لكنه يذكر بدقة ووضوح في نهاية الفقرة بأن البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام كانوا تحت ملك الإفرنج وعلى دين النصرانية" (42).

أما دعاة تهوّد البربر. فلم يوضّحوا إلى حد الآن الميكانيزمات التي جاءت بهذا التحولّ الرّوحي لدى القبائل البربرية، ولا هم قدّموا الدلائل الموضوعية القاطعة حول ذلك بما فيهم الباحث الكبير غابريال كامبس (Gabriel Camps).

المؤرخون الأجانب الذين استشهدوا بإبن خلدون لتضخيم مسألة تهود البربر، إعتمدوا عموما على النص الذي ترجمه البارون زفخع إزط الذي يفتقد إلى الأمانة وليس على النص الأصلي العربي. وإذا كان النص المترجم خاطئا فمن الطبيعي أن تكون الإستنتاجات خاطئة.

النص الأصلي العربي يقول بوضوح :" .. وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بني إسرائيل عند إستفحال ملكهم ..." بينما ترجمة De Slane تقول: "Une partie des berbéres professait le judaïsme, religion qu'ils avaient reçue de leurs puissants voisins..."

في حين يقول مسعود كواتي[43] كان من المفروض أن تكون ترجمتها كالآتي:
"De même, peut-être certains bèrbères avaient-ils même proféssé de Judaïsme"

المؤرخ المسلم البكري يفند منذ قرون مثل هذه الإدعاءات المعاصرة بخصوص ديانة البربر قبل الإسلام حتى لدى بربر المغرب الأقصى بحيث كتب يقول:" .. افتتح عمر بن العاص رحمه الله نفوسة وكانوا نصارى". ويؤيده ابن أبي دينار في هذه المسألة قائلا :" ..إفتتح جبال نفوسة وكانوا على دين النصرانية" وذلك في كتابه "المؤنس".[44]

وابن خلدون نفسه الذي تكلم عن تهود قبائل بربرية بالمغرب الأقصى قائلا: " ... كما كانت نفوسة من بربر إفريقية وقندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثه وبنوفزان من برابرة المغرب الأقصى ..."، يتراجع إلى حد ما بقوله في موضع آخر من كتابه "المبتدأ و الخبر" بأن إدريس الأكبر مؤسس الدولة الإدريسية "..زحف على القبائل الذين كانوا على دين المجوسية واليهودية والنصرانية مثل قندلاوة وبهلولة ومديونة .."، وهذا معناه أن هذه القبائل لم تكن تدين باليهودية فقط بل دانت حتى بالمجوسية والنصرانية في نفس الوقت. كما يدل هذا التذبذب في موقف ابن خلدون، على أنه يصعب اتخاذه مرجعا للتدليل على صحة تهود بعض البربر. فكيف يسمح بعض الباحثين لأنفسهم إذن بتعميم الديانة على جميع البربر بالاستناد إليه...؟ وتجب الإشارة هنا أيضا إلى أن مسألة تهوّد الكاهنة تحتاج هي الأخرى إلى تدقيق أكبر وإلى تعميق البحث حولها لأنها مسألة نسبية جداً ولم تصل بعد إلى مصاف المسلّمات.

حتى من بين الكتاب اليهود نجد من هم متحفظين بشدة حول مسألة التهود الواسع للبربر بالجزائر والمغرب العربي كافة كما يدعي ذلك شوراقي وشمويلي وحيّون و ب. كوهين. من بين هؤلاء الكُتّاب نذكر: Joseph Tolédano [45](يوسف الطليطلي) في كتابه "Les Juifs Maghrebins"، و Haïm Hirschberg [46]حاييم هيرشبارغ، وبدرجة أقل حاييم الزعفراني[47] (Haim Zafrani) اليهودي المغربي الأصل الذي يميل أكثر إلى الأطروحة القائلة بأن البربر كانوا على عدة ديانات مختلفة هي المسيحية واليهودية والوثنية دون توضيح مكانة وأهمية كل دين من هذه الأديان.

الأطروحة الأقرب إلى الحقيقة إذن هي أن البربر كانوا يدينون بالديانات التي كانت سائدة في وقتهم من مجوسية ووثنية ونصرانية وربّما حتى اليهودية. وإذا كانت النصرانية هي الديانة الأكثر انتشارا قبل الفتح الإسلامي أي الديانة الأولى من حيث الأهمية، فإن اليهودية كانت محصورة في بعض القبائل فقط إن ثبت أن رأي ابن خلدون صحيح، بل في بعض أوساط أو أفراد هذه القبائل. وربما أمكن القول بأن مكانتها كانت أضعف بكثير من المجوسية والوثنية الأقدم وجودا بشمال إفريقيا.

من ناحية أخرى لا يوجد من الأدلة التاريخية ما يوضح إن كانت حالات التهود عبارة عن اعتناق للديانة اليهودية بكل ما يستتبعها من التزامات وشعائر وطقوس وسلوك ... أم أن هذا التهود محصور في الجانب اللغوي مثلا أو في العادات والتقاليد أو كذلك في الطقوس والفلكلور .. بمعنى أن التهود قد يكون مجرد تأثر ثقافي – فلكلوري حتى وإن انعدمت آثاره حتى الوقت الحالي بصفة شبه كلية.[48]

فالباحث Marceau Gast يذكر على سبيل المثال في بحث تحت عنوان: "Les sandales du Cousin croisé" ورد في كتاب "الجاليات اليهودية بأطراف الصحراء" "Communautés juives des marges sahariennes" أن عادة أو فلكلور قديم لدى التوارق الجزائريين بالهقار أسماها Le déchaussement تتمثل في تقديم أحد الزوجين، أثناء حفل الزفاف ، للآخر نعلا (Sandale) تقليديا في أجواء من الرمزية والسريالية والقداسة، وهي عادة حسب الباحث مأخوذة منذ القديم عن يهود الصحراء، تكون قد انتقلت إلى الهقار عبر القوافل التجارية سواء بواسطة يهود مدينة "توات" قرب أدرار أو يهود "القرارة"، أو بواسطة التوارق أنفسهم علما بأن نفس هذه العادة مازالت موجودة وممارسة إلى اليوم لدى يهود فاس بالمغرب الأقصى[49]. فهل تكفي ممارسة هذا الطقس أو الفلكلور من طرف التوارق لنجزم بأنهم يهود أو متهودون ؟

على العموم يمكن الاستنتاج بأن إقامة اليهود بالجزائر إلى جانب البربر أثناء الاحتلال الروماني كانت من أحسن التجارب التي عاشتها هذه الأقلية منذ خروجها من فلسطين حتى ذلك الوقت.

5 - اليهود تحت الحكم الوندالي والبيزنطي للجزائر

لما جاء الوندال وبدأ شمال إفريقيا في السقوط في قبضتهم منذ سنة 429م، سارع اليهود إلى مساعدتهم على طرد الرومان بمجرد دخولهم قرطاجة (سنة 430م) وعنابة (سنة 431م) مقابل إلغاء المحتلين الجدد للإجراءات الاستثنائية التي اتخذها ضدهم أباطرة الرومان. فكان قدوم الوندال إلى الجزائر رغم همجيتهم متنفسا لليهود، على الأقل في بداية حكمهم. في أواخر العهد الوندالي عانى اليهود من تصعيد في المضايقات والتجاوزات ضدهم. وبمجرد سقوط الوندال على يد البيزنطيين عاد القمع وعادت الإجراءات الاستثنائية من جديد بمختلف أشكالها إلى الجزائر لتمارس على اليهود والبربر على السواء. وذلك منذ دخول القائد البيزنطي Bélisaire إلى البلاد. هذه الوضعية الصعبة أصبحت أصعب بالنسبة لليهود في وقت لاحق وبلغت ذورتها مع جوستنيان Justenien سنة 533م، لأن هذا الأخير سارع إلى مصادرة المعابد اليهودية (Les synagogues) وتحويلها إلى كنائس، وهمش اليهود وفرض عليهم التنصر بالقوة بعد عام فقط من توليه الحكم. ثم في سنة 535م طبق البيزنطيون (La Novelle 37) بشمال إفريقيا حيث منع بمقتضاها ممارسة الطقوس والاحتفالات الدينية اليهودية والآرية (des Ariens) والدوناستية des Donastites، وحرّمت المادة الثامنة منها فتح المعابد اليهودية، آمرة بتحويلها إلى كنائس.

ذهب البيزنطيون إلى أبعد من هذه الإجراءات، فتدخلوا بقوانينهم الاستثنائية حتى في الحياة الداخلية لليهود خاصة في جوانبها الشعائرية سنة 545م على إثر إصدار (la Novelle131) فضلا عن إجراءات استثنائية ومضايقات أخرى سنة 553م . اليهود لم يكن أمامهم سوى الانتظار حتى يتولى الإمبراطور Maurice الحكم من سنة 582م إلى 602م لينعموا بفترة نقاهة أخرى ، لأن هذا الأخير كان متسامحا معهم إلى حد كبير إذ ألغى بعض هذه القوانين الاستثنائية، من بينها إلغاء التنصير الإجباري، وإرجاعه لهم معابدهم.

منذ هذه الفترة وحتى دخول الفاتحين المسلمين إلى الجزائر عاش اليهود مرحلة هادئة نسبيا ، تدعم عددهم خلالها بإخوانهم اللاجئيين من شبه جزيرة إيبيريا فرارا من قمع ملوك القوط سنة 613م وسنة 622م. لقد كان من بين آثار

المضايقات البيزنطية وسياسة التنصير الإجباري هروب العديد من يهود الشمال الجزائري إلى الصحراء والإحتماء عند القبائل البربرية التي استضافتهم، وتحولوا إثرها بعد بضعة قرون إلى عصب اقتصادي حساس يتحكم في المبادلات التجارية الجزائرية التي تمر عبر الصحراء. هؤلاء تمركزوا في مدن شمال الصحراء مثل غرداية "والقرارة" و"توات" و"تمنطيطت" و"ورقلة" و"الوادي" ...الخ. وكان لدخول الإسلام إلى المنطقة الفضل في ازدهارهم وازدهار تجارتهم واسترجاعهم لحرياتهم المدنية والدينية ...، وهي الوضعية التي لم يعيشوها ولم يتمتعوا بها أبدا في غير بلاد الإسلام.



II- اليهود في الجزائر منذ الفتح الإسلامي حتى دخول العثمانيين سنة 1516 م

لقد كانت الهجرات اليهودية إلى الجزائر هجرات اضطرارية عموما.

لما جاء الإسلام، يقال في المصادر التاريخية اليهودية– الصهيونية أن بعض الفارين من يهود يثرب من الجزيرة العربية قد استقروا قبل فتح شمال افريقيا بهذه المنطقة، بما فيها الجزائر، وحطوا رحالهم –حسب ما يشاع – بالجنوب الجزائري بمنطقة قصور توات، ورقلة ، تقرت، وجانت ...

كما تضيف نفس المصادر أن مئات العائلات اليهودية التي تشتغل بالتجارة وبمختلف الحرف قد انتقلت مع الفاتحين المسلمين إلى شمال إفريقية بمحض إرادتها وتحت رعاية عقبة بن نافع الذي استعان بهم في تعمير مدينة القيروان، التي كانت أول محطة لهم، وفي تدعيم مجهودات الفاتحين لنشر الإسلام بشمال افريقيا. موريس أيزنبث Maurice Eisenbeth الحاخام المؤرخ اليهودي الجزائري الذي توفي بالعاصمة سنة 1957 كتب في: Les juifs en Algérie Esquisse historique depuis les origines jusqu'à nos jours ، يقول بأن عقبة بن نافع يكون قد عمر القيروان، مدينته الجديدة، بـ:1000عائلة قبطية ويهودية مصرية[50] أصولها من اليمن ومصر انتقلت أعداد منها لا حقا إلى الجزائر.

قد تكون بعض العائلات اليهودية أو بعض التجار اليهود قد هاجروا إلى شمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامي وبعد ظهور الإسلام أو حتى مع الموجات المهاجرة المسلمة التي التحقت بالفاتحين، لكن حتى وإن ثبت ذلك وهو مالم يحدث حتى الآن فإن مثل هذه الحالات محدودة من حيث الحجم ونادرة جدا في نفس الوقت وإلا كان من المفروض أن تترك آثارها وبصماتها في أعمال المؤرخين المسلمين الذين عاصروهم أو أتوا بعدهم وهذا مالم يحدث. الأهم من ذلك هو أن حتى عملية نقل "1000عائلة يهودية وقبطية مصرية" التي يذكرها موريس إيزنبث وأندري شوراقي وغيرهما من طرف عقبة بن نافع من مصر إلى

القيروان هي أصلا عملية تهجير 1000 عائلة قبطية فقط إلى المغرب العربي،... ولا تعود إلى عهد عقبة وإنما إلى عهد حسان الذي بنى دارا للصناعة بتونس كما أكد ذلك البكري، حيث قال: "فكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وهو والي مصر أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس... فوصل القبط إلى حسان وهو مقيم بتونس (عن البكري : المغرب في ذكر إفريقية والمغرب)".

فقد تصرف اليهود –يقول مسعود كواتي– في الرواية حسب هواهم، خدمة لأغراضهم السياسية ليظهروا أنفسهم بمظهر المشارك في بناء التاريخ المغربي"[51].

أبرز الهجرات اليهودية الجماهيرية التي ستتدفق على الجزائر ما بين الفتح الإسلامي ودخول العثمانيين هي تلك التي تلت أحداث إشبيلية والباليار سنة 1391م ثم موجة 1492م إثر سقوط الأندلس ...

في ظل الدولة الإسلامية نعم اليهود في الجزائر وغيرها من أقاليم العالم الإسلامي بأمن وسلام لم يعيشوه من قبل تحت أي حكم لا في الجزائر ولا في بقية بلدان العالم، إذ باستثناء الجزية التي هي مقدار بسيط من المال يدفعه اليهود سنويا للدولة الإسلامية مقابل تكفل هذه الأخيرة بحمايتهم كأقلية دينية وضمان أملاكهم وأموالهم وعرضهم وشرفهم... أي أمنهم وحرياتهم العامة، لم يكن هناك أي فرق أو تمييز – نظريا على الأقل كما جاء في النصوص الشرعية – بين المواطن المسلم والمواطن اليهودي داخل الدولة الإسلامية. وكانت باب المنافسة مفتوحة أمام المسلمين وأهل الذمة على السواء في الحياة العامة، وفرص النجاح والتقدم في هرم النظام الاقتصادي– الاجتماعي، وأحيانا حتى في الحياة السياسية، متساوية وعادلة أمام الجميع ومقترنة بالعمل والجد والإخلاص. لكن المسلمين كانوا في الحقيقة متحفظين نسبيا تجاه اليهود في بعض المناصب الحساسة في الميدان السياسي، من جانب لاستحالة تولية غير المسلمين شرعا في المراكز الحساسة لاتخاذ القرار، ومن جانب آخر لأسباب تاريخية تعود إلى السوابق العديدة والخيانات اليهودية للمسلمين منذ ظهور

الإسلام بدءا بخيانتهم للرسول صلى الله عليه وسلم في يثرب ... ومع ذلك كانت هذه التحفظات الإسلامية ظرفية عادة ولم تمنع اليهود من تولّي المناصب العليا في الدّولة خصوصا في الميادين الإدارية–التقنية. وهذا ما سمح لهم بتوسيع نفوذهم السياسي–الاقتصادي. لقد كانت المناصب الاستشارية والقدرات المالية المعتبرة لليهود معبرا لتدعيم مواقعهم داخل الدولة والمجتمع الإسلاميين. في الجزائر ارتقى بعضهم حتى إلى منصب الوزير الذي كان بمثابة منصب رئيس الحكومة في الوقت الحالي.

موقف الإسلام من اليهود معروف وواضح، إذ حدده عقد الذمة الذي ينطبق على اليهود والنصارى على السواء، والذي شُرّع بعد فتح مكة في السنة التاسعة من الهجرة بنص من القرآن الكريم، إذ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.[التوبة 29]

فأهل الذمة إذن يهود ونصارى لهم الأمان على أرواحهم ومتاعهم وأملاكهم وبإمكانهم أيضا البقاء على كفرهم مقابل شرط دفع الجزية المفروضة على الرؤوس والتي تزول بدخول الذمي في الإسلام.

في كتابه :" الأحكام السلطانية"[52] فصّل الماوردي عقد الجزية والشروط المترتبة عليه وأصبح من أهم المراجع لدى المسلمين والذميين بخصوص عقد الذمة إلى اليوم.

شروط عقد الجزية، يقول الماوردي ، نوعان مستحق ومستحب . الشروط المستحقة هي:

1) أن لا يذكروا كتاب الله بطعن فيه ولا تحريف
2) أن لا يذكروا رسول الله، صلى الله عليه وسلم بتكذيب ولا ازدراء
3) أن لا يذكروا دين الإسلام بذمة ولا قدح فيه
4) أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح
5) أن لا يفتنوا مسلما عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا لدينه
6) أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم.

أما الشروط المستحبة فهي كالآتي :

1) تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار(الزنار عبارة عن حزام والغيار : قطعة قماش صفراء بالنسبة لليهود وزرقاء للنصارى)

2) أن لا يعلوا على المسلمين في الأبنية، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوين لهم

3) أن لايسمعوهم أصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم في عزيز والمسيح

4) أن لا يجاوروهم بشرب خمورهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم

5) أن يخفوا دفن موتاهم، ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة.

6) أن يمنعوا من ركوب الخيل عناقا ومجانا، ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير[53]

هذا هو الإطار العام لتعامل الجزائريين مع اليهود خلال الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي حتى المرحلة العثمانية وهو قائم على النصوص الشرعية الإسلامية أساسا. وقد قابله في نفس الوقت، رغم ما فيه من تسامح، على الأقل بالمقارنة مع ما كان يحدث في مناطق أخرى من العالم خارج "دار الإسلام"، تجاوزات عديدة من طرف اليهود أوبعضهم لما جاء في عقد الذمة برزت بصورة سلبية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وكانت لها آثار سيئة على اليهود وعلى نظرة المسلمين إليهم الذين اتخذت ردود أفعالهم أشكالا عنيفة مثلما حدث في العهد الموحدي وقبله في عهد إدريس الأكبر.

وبفضل المبادئ الإسلامية السمحة وبفضل الموقع الجيوستراتيجي للجزائر وبقية المغرب العربي الذي يتوسط الأندلس والمشرق والذي جعل من هذه المنطقة قاعدة خلفية للأندلس في مرحلة ضعفها ، أصبحت الجزائر من أهم مراكز التجمع اليهودي في العالم الإسلامي، ومن أهم المراكز التجارية اليهودية التي تربط بين المشرق والمغرب، وبين الضفة الشمالية والضفة الجنوبية للمتوسط وبين هذين الضفتين والعمق الإفريقي، وحتى بين مختلف الإمارات والمملكات المجاورة للبلاد.

1 - تأثير الوضع الجديد على الدور اليهودي في الجزائر

عندما جاء الإسلام إلى الجزائر، شهدت الطائفة اليهودية نوعا من التقهقر والتراجع إلى خلف واجهة الأحداث في غمار حركية الفتوحات ، رغم مساهمتهم في فتح الأندلس[54]، والتحولات الجذرية العميقة على الحياة الجزائرية. لأن

الإسلام بمجرد دخوله إلى البلاد استقطب الجماهير العريضة البربرية، بغض النظر عن المقاومات الاستثنائية ذات الغاية السياسية أساسا، وكبح انتشار المسيحية و اليهودية في مرحلة أولى ليحولهما مع مرور الزمن إلى أقليات دينية محدودة. خلق الإسلام وضعا جديدا ونظاما إسلامي الروح احتل طليعة الحركية العامة للمجتمع الجزائري لذلك الوقت وأطرته أفواج الفاتحين القادمين من المشرق لنشر الإسلام والذين أصبحوا قاطرة لحركية المجتمع الجزائري. اليهود لم يبق أمامهم سوى التأقلم مع الوضع الجديد أو الهجرة إلى الجنوب والإنعزال في الصحراء ... من أجل الابتعاد عن مخاطر الذوبان في الإسلام وبالتالي حماية الشخصية الثقافية –الدينية اليهودية من الزوال في فترة تميّزت بالالتحاق الجماهيري للجزائريين القدامى بالدين الجديد الذي أتى به الفاتحون.

التحولات الدينية– السياسية– الاجتماعية والتحولات الجيوستراتيجية التي أحدثها انتشار الإسلام بمنطقة المغرب العربي والأندلس أثرت كذلك على الاقتصاد وعلى بنية المبادلات التجارية، التي كانت النشاط الرئيسي لليهود، سواء من الناحية النوعية أو الجغرافية، بحيث برزت نماذج استهلاكية جديدة، ومحاور عبور تجارية جديدة زعزعت الهياكل والبنيات التجارية القديمة التي كان يراقبها اليهود.

وقد تطلب استيعاب هذه الطائفة للنظام الجديد وقواعده ومعطياته وقتا معتبرا تكلل بإعادة هيكلة أمورهم وضبط نشاطاتهم حسب الواقع الجديد ليعودوا بقوة إلى الساحة السياسية – الاقتصادية مع نهاية القرن الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع، بحيث سيزداد نفوذهم وثقلهم في الحياة الجزائرية العامة تدريجيا ليبلغ قمته ما بين النصف الثاني من القرن 13م والقرن 15م.

بعد الفتح الإسلامي، أحرز اليهود في الجزائر وضعا وحقوقا جديدة لم يكونوا ليحلموا بها من قبل في العهدين الروماني والوندالي والبيزنطي. فرغم الحالة الاستثنائية من الناحية القانونية التي تتمثل في وضعية الذمة، نال اليهود، زيادة على الاحترام العام والتقدير من طرف عامة المسلمين، عطف واحترام الخلفاء والأمراء المسلمين الذين كانوا كثيرا ما يأخذون برأيهم في أمور السياسة والمالية وأدمجوهم في الحياة الإدارية والعمومية باعتبارهم مواطنين

كاملي الحقوق والواجبات داخل الدولة الإسلامية. وقد ساعدهم هذا الوضع الجديد على الاستقرار وتنمية أموالهم وتوسيع نشاطاتهم التجارية تدريجيا وعلى الاندماج في النظام الإسلامي العام. وبفضل خدماتهم الاستشارية نعموا برعاية الأغالبة والرستميين وعطف الخلفاء الفاطميين والملوك الحماديين وتمتعوا بحرية كبيرة وباستقلالية داخلية لم يعهدوهما من قبل خصوصا على المستوى الديني والشعائري وما يتعلق بالطقوس الروحية.

يذهب ريشارد حيّون وبرنارد كوهين إلى أبعد من ذلك ويؤكدان بأن أبو عبد الله المهدي الفاطمي الذي انطلقت دعوته لإقامة الدولة الفاطمية من الشرق الجزائري وتونس له أصول يهودية لأن أمه يهودية. غير أن مثل هذه الأطروحات ليست سوى صدى للإشاعات السياسية التي كانت تتناقلها العامة في العهد الفاطمي والتي كان يروجها المعارضون السياسيون للفاطميين.

لقد استعانت الدولة الفاطمية ببعض اليهود في تسيير شؤونها السياسية والإدارية كغيرها ممن سبقوها وممن تلوها في الجزائر والمغرب العربي ...، وقد كان على سبيل المثال اليهودي يعقوب ابن يوسف ابن كلس وزيرا للمعز لدين الله الفاطمي، وبلغ نفس المنصب أبو سعيد إسحاق الإسرائيلي وهو يهودي أيضا[55]. كما تولى يهودي آخر هو أبو سعيد التستري ديوان والدة الخليفة المستنصر الفاطمي، وتقلد أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحي اليهودي الوزارة ... وكان من أبرز و أنجح اليهود الذين تولوا المناصب العليا في الدولة الفاطمية وأخلصهم[56]. لكن الزعم بأن الخليفة نفسه أبو عبد الله المهدي الفاطمي كان يهوديا فهذا ما لم يؤكده أو يثبته أي مصدر تاريخي موثوق، رغم تمسك المصادر التاريخية اليهودية ببث الشكوك والغموض حول نسب الفاطميين وإصرارهم على ذلك من خلال تشويه نسب مؤسس دولتهم. المستشرقون أنفسهم لم يتوقّفوا كثيرا عند هذه المسألة لعدم جديتها واستبعدوا انتماء الفاطميين إلى اليهود لأنه ادعاء لم يظهر إلا في خضم الصراع السياسي– الدعائي بين الفاطميين والعباسيين [57].

ابن كثير كتب من جهته في "البداية والنهاية" عن نسب الفاطميين يقول: " ... يلقب أميرهم بالمهدي وهو أبو محمد عبد الله بن ميمون القداح، وقد كان صياغا

بسلمية، وكان يهوديا فادعى أنه مسلم، ثم سافر من سلمية فدخل بلاد إفريقية فادعى أنه شريف فاطمي فصدقه على ذلك كثير من البربر وغيرهم من الجهلة وصارت لهم دولة[58]. ويذهب ابن خلكان كذلك تقريبا نفس المذهب.. إلا أن هذه المواقف لا تخرج هي الأخرى عن الحرب الدعائية التي أعلنها العباسيون والمعارضون للدولة الفاطمية. كواتي مسعود يؤكد بأن اتهام هؤلاء المؤرخين للفاطميين ... بالنسب اليهودي يعود إلى كرههم للحكم الفاطمي ، وقصد الحط من شأن الأسرة الحاكمة ..."[59]. ويضيف بأن " .. أول من اختلق النسب اليهودي للفاطميين هو ابن مالك صاحب كتاب "كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة" الذي عاصر أيام المستنصر حينما بلغ النفوذ اليهودي أقصاه حيث كتب يقول : " والدليل على أنهم من ولد اليهود استعمالهم اليهودفي الوزارة والرياسة وتفويضهم إليهم (في) تدبير السياسة ومازالوا يحكمون في دماء المسلمين وأموالهم" ...و ... ذلك ... الغرض منه ضرب الدولة الفاطمية من الأساس، قصد تجميع العوامل الممكنة للإطاحة بها انطلاقا من بذر الشك والتشكيك في نسبها"[60]. المستشرق اليهودي Louis Bernard وهو فرنسي الجنسية يرفض هو الآخر مقولة النسب اليهودي للفاطميين رفضا قاطعا[61].

لم يكن الاهتمام باليهود في الجزائر يتوقف فقط على الفاطميين بل بقي العنصر اليهودي حاضرا على مستويات هامة في الدولة الزيانية خصوصا في الوسط الإباضي، حيث سيطر هذا العنصر على تجارة الحرير خصوصا في منطقة قفصة التونسية. وكان طبيب المعز ابن باديس الصنهاجي نفسه إسرائيليا هو ابن عطاء اليهودي. كما تواجد اليهود بأعداد هامة في دولة بني حماد حيث أسسوا مدرسة تلموذية في قلعة بني حماد ترأسها سليمان ديان بن فرماس الذي تلا إسحاق بن يعقوب الفاسي[62].

يلاحظ أن الخلفاء والأمراء كانوا ميالين إلى اختيار أطبائهم الخاصين من اليهود على غرار الطبيب الخاص لعبيد الله الفاطمي أول الخلفاء الفاطميين وهو اليهودي النابغة في الطب إسحاق الإسرائيلي، وكذلك موسى بن العازار طبيب المعز لدين الله الفاطمي.. وقد اختارهم الحكام على العموم لعوامل سياسية أكثر من أي سبب آخر لأنهم لا يخافون من طمع اليهودي في العرش لأنه يهودي

ويستحيل عليه شرعا قيادة المسلمين، بقدر ما يخافون من تآمر الطبيب الخاص المسلم مع تيارات سياسية معارضة له مسلمة، وهو سلوك استمر العمل به حتى في العهد العثماني في بلادنا.

وضعية الذمة التي ينتقدها الكثير من الكُتّاب اليهود اليوم بشدة معتبرين إياها استفزازا وظلما سلِّط على الجالية اليهودية في الجزائر ومختلف أقاليم وإمارات العالم الإسلامي هي التي سمحت أكثر من أي وقت مضى لليهود بالتطور الشامل والنضج في مختلف الميادين بحرية تامة على نفس القدر من الحرية الذي تمتع به المسلمون مع حرية التمسك بالهوية الدينية– الروحية وتنميتها . اليهود في الجزائر الإسلامية ظهر من بينهم الأطباء، والسياسيون والنحويون والفلاسفة وكبار التجار، والفقهاء في الدين اليهودي، والشعراء ، واللغويون والجغرافيون الذين ذاع صيتهم في الآفاق... كل ذلك بفضل البيئة الحضارية المزدهرة التي عاشوا وترعرعوا فيها والتي جعلت الجزائر في ذلك الوقت ملتقى للتيارات العلمية الثقافية الإسلامية المشرقية والمغربية والأندلسية.

هؤلاء الذين ينتقدون عقد الذمة متناسين ما جلبه لهم من فرص وحريات وعدالة اجتماعية أنساهم الرومان والوندال والبيزنطيون طعمها وحتى وجودها، يلومون المسلمين على "القمع" و"الانتقامات" و" الاعتداءات" التي مارسوها ضد اليهود وعلى حياة "الرعب الدائم" التي فرضوها عليهم. ويسترسلون في ضرب الأمثلة العديدة للتدليل على مثل هذه "التجاوزات"، يستقونها في أغلب الأحيان من أحداث تاريخية حقيقية يخرجونها من سياقها التاريخي ومن حيثيات وملابسات حدوثها. لكن عند العودة إلى هذه الأخيرة كثيرا ما نكتشف استفزازات يهودية واضحة وتورط لبعض اليهود في مشاغبات سياسية أو تجاوزات اقتصادية تؤدي إلى تثوير الرأي العام ضدهم ودفع المسلمين إلى ما يسميه هؤلاء اليهود" قمع" أو "انتقامات" قد تنتهي إلى تجاوزات حقيقية خطيرة تتنافى حتى مع المبادئ الإسلامية السمحة عندما تتعمق الاضطرابات وتتعفن .

فعلى سبيل المثال يؤاخذ اليهود إدريس الأول مؤسس الدولة الإدريسية التي شملت حتى بعض مناطق الغرب الجزائري على مهاجمته لليهود وفرض الإسلام

عليهم بالقوة منذ سنة 789م. لكن لم يحدث أن توغل أحد من مؤرخيهم خصوصا المعاصرين في الملابسات والظروف التي وقعت فيها هذه الحادثة وأسبابها.

بقيت بعض القبائل اليهودية على يهوديتها دون أن تحترم الشروط المنصوص عليها في عقد الذمة بل دخلت وتورطت آنذاك في مواجهات سياسية ضد المسلمين وواجهت بالمقاومة حتى السلطة الإدريسية الجديدة التي كانت في أمس الحاجة إلى بسط نفوذها وفرض هيبتها على رعاياها، هذا بغض النظر على التجاوزات التي مست مباشرة بالدين الإسلامي ومبادئه وعملت على تشويهه في "برغواطة" بالمغرب الأقصى، حيث ابتدع اليهود الكثير من الأمور في الدين الإسلامي مست بالقيم الإسلامية مساسا خطيرا طوال مدة وجود الظاهرة البرغواطية التي عمرت بضعة قرون.

ابن خلدون عند ذكره لإدريس الأكبر، لم يرد في كلامه ما يوحي بأي ظلم أو تجاوز في حق اليهود وهو معروف بموضوعيته وعلميته التي جعلت مؤلفاته خالدة إلى اليوم. إبن خلدون ذكر في "ديوان المبتدأ والخبر..." فقط بأن مؤسس الدولة الإدريسية إدريس الأول، "... زحف على القبائل التي كانت على دين المجوسية واليهودية والنصرانية مثل قندلاوة وبهلولة ومديونة، وفتح تامسنا عاصمة برغواطة ... وليس من المستبعد أن يكون إدريس الأول قد حارب اليهود وبقية المذاهب الأخرى طبقا لسياسته الرامية إلى نشر الدين الإسلامي الصحيح وتوطيد أركانه في تلك الربوع"[63].

الإضطرابات والظروف الأمنية ا لصعبة التي عاشها اليهود في الجزائر، تتصادف عادة مع تدهور أوضاع الجزائر العامة ومع ضعف الدولة وحكامها بشكل خاص حيث يتصاعد النفوذ اليهودي واحتكاراته الاقتصادية التي تخل بعملية توزيع الثروة التي تعمق بدورها الاختلالات السياسية والتناقضات الاجتماعية. هذه الاختلالات العامة عندما تبلغ ذروتها تنفجر الجماهير ومختلف القوى السياسية– الاجتماعية– الاقتصادية الفاعلة في البلاد من أجل العودة إلى التوازن وتوجه أصابع الاتهام إلى اليهود بمجرّد ما يتأكد أن بعضهم على الأقل متورط في التطفّل على النظام أو في الأخطاء الاقتصادية والسياسية التي أنتجت الاختلال. وليسوا وحدهم الذين يدفعون فاتورة الانتفاضات الشعبية

الغاضبة بل هم فقط أحد الذين يعاقبهم المجتمع لأن العقاب يمس حتى المسلمين الذين ساهموا في الفساد العام، كما أن هذا العقاب لا يمس كل اليهود أبدا، بحيث لا يتعدى حدود المنطقة أو المدينة التي تقع فيها الاضطرابات، ولا يتعدى أحيانا شخصيات يهودية محدودة معينة معروفة لدى العام والخاص سواء في الوسط الإسلامي أو اليهودي بممارساتها المشبوهة والمنافية للقيم الإسلامية وللمبادئ والشروط الواردة في عقد الذمة. ومع ذلك حدث وأن تجاوز المسلمون حدودهم أثناء مثل هذه الأزمات التي يصعب التحكم فيها عندما تتعفن، خصوصا إذا وقعت تحت تأثير مناورات سياسية لقوى معينة سواء في السلطة أو في المعارضة.

العامل الديني لا يتدخل في مثل هذه الأحداث عادة إلا لتذكير اليهود بالتزاماتهم تجاه الدولة الإسلامية في آخر المطاف عندما تبلغ انحرافاتهم أو انحرافات بعضهم حدا ينذر بالخطر. وقد تتبنى قوى دينية أو شخصيات دينية معينة الحملات الردعية تجاه هذه التجاوزات وتكون وراء تعبئة الجماهير الإسلامية ضدهم وضد منافسيهم السياسيين في نفس الوقت.

وقعت أبرز هذه الأحداث الصعبة التي شهدتها الجالية اليهودية بالجزائر ما بين القرن الثامن الميلادي والقرن الخامس عشر الميلادي وتمت على عهد المرابطين والموحدين ثم في أواخر عهد الدويلات الصغيرة الضعيفة المتناحرة عشية قدوم العثمانيين إلى البلاد.

منذ بداية توسعهم، قام المرابطون بحملات عسكرية على بعض فروع اليهود التي أظهرت نوعا من المقاومة، لكن الدوافع الأساسية لهذه الحملات تكمن في تورط بعضها في مؤامرات ودسائس ضد السلطة الجديدة الفتية في فترة تعد تاريخيا من أصعب الفترات التي عاشها المسلمون بسبب الحروب الصليبية والصراع العقائدي- السياسي ا لذي ساد آنذاك على ضفاف حوض المتوسط، وذلك ما أدى إلى تشدد المرابطين في الحذر من غير المسلمين وإلى التشدد في مراقبتهم وفي محاسبة ومعاقبة الخارجين منهم عن الإطار الديني - القانوني المسطر في عقد الذمة.

كما يرجع هذا التشدد المرابطي إزاء اليهود من جهة أخرى إلى إيديولوجيتهم ونزعتهم المتشددة التي كانت سمة سلوكهم السياسي طوال حكمهم في المغرب العربي والأندلس والتي تعد نتاج الصراع والظـروف العقائدية- السياسية التي كانت سائدة في المنطقة. لكن يجب التوضيح بأن هذا التشدد الديني وهذا الحذر من الأعداء، أعداء الدين، لم يكن ميزة خاصة فقط بالمرابطين أو بالمسلمين بصفة عامة، بل كان ظاهرة شائعة في أوساط مختلف الأديان بما فيها المسيحية واليهودية شمال وجنوب المتوسط مادامت هذه الظاهرة إفرازا لظروف تاريخية دولية مشتركة غلب عليها طابع العداء والعصبية الدينيتين اللذين أفرزتهما الحروب الصليبية.

نفس العوامل تقريبا كانت وراء سلوك الموحدين نفس مسلك المرابطين مع اليهود بالرغم من اعتدالهم الديني، بحيث أدت بهم ضرورة فرض سلطتهم ونفوذهم التي واجهها بعض اليهود في بعض المناطق الجنوبية الغربية للجزائر بالمقاومة إلى مواجهة التمردات اليهودية بالقوة كإجراء ردعي - وقائي سياسي أساسا وليس دينيا كما يدعي المؤرخون اليهود. بحيث لم يكن الوجه الديني للمواجهة بين الموحدين وهؤلاء اليهود سوى أمر شكلي ثانوي، علما بأن الموحدين تعاملوا بنفس الطريقة مع المسلمين الذين قاوموا سلطتهم في بداية توسعهم. وبذلك فإن الحملات الموحدية المحدودة، حتى نتوخى الدقة، على اليهود في الجنوب الغربي الجزائري لم تكن سوى جزءً من تلك الحملات التوسعية الشاملة عبر كامل منطقة المغرب العربي والأندلس لبسط النفوذ والتي لم تكن تميز دينيا أو عرقيا أوإثنيا بين قبيلة وأخرى وبين منطقة وأخرى، بطبيعة الحال في إطار الشرع، بمعنى أن التعامل مع اليهود يبقى خاضعا لعقد الذمة. و قد مست هذه الحملات كل العناصر الإثنية - القبلية - الدينية للمجتمع الجزائري في ذلك الوقت على السواء، علما بأن الحملات الموحدية على هؤلاء اليهود انتهت بمجرد سيطرة الحكام الجدد على الأمور وتحكمهم التام في دولتهم الجديدة واستتباب الأمن وضمان طاعة الشعب لهم، والقضاء على جيوب التمرد[64]. ومن أهم الحملات الموحدية التي مست الجالية اليهودية بمنطقة المغرب العربي والجزائر والتي امتدت من حوالي 1140 م إلى 1147، تلك التي

تركزت بصورة خاصة في المغرب الأقصى وتوسعت حتى إلى بعض المدن الأندلسية، الشيء الذي دفع بالعديد من اليهود إلى الهجرة إلى الجزائر أساسا ما بين 1151م و 1159م، ثم إلى المشرق العربي إثر أحداث لاحقة سنة 1165م، بعد أن أجبروا على التخلي عن دينهم وبعد أن فقدوا نفوذهم التجاري بالمنطقة[65]. دفعت هذه الأحداث بالعديد من يهود مراكش، وفاس، وسجلماسة المدينة التجارية بامتياز، وسبتة، ومكناس، وذراع إلى الهجرة نحو الشرق؛ إلى الجزائر وإلى تونس وحتى إلى المشرق، بينما فضل بعضهم الدخول في الإسلام والبعض الآخر التظاهربه مع البقاء يهود في الخفاء. يهود تلمسان واجهوا هم الآخرين نفس المصير سنة 1146م إثر سقوط المرابطين وبداية الزحف الموحدي. مع ذلك، لم تمنع هذه الأحداث من التطور الثقافي العلمي بحيث شهدت تلمسان في هذه الفترة، ازدهارا للدارسات اليهودية[66]. في هذه الظروف والاضطرابات الصعبة التي عصفت على المغرب العربي والأندلس ستبرز لأول مرة ظاهرة اللباس اليهودي المميز لهم عن المسلمين والذي دخل في التراث والتقاليد اليهودية في المغرب العربي كافة إلى وقت متأخر من القرن العشرين، إلى الأربعينات والخمسينات من القرن الحالي في بعض الجهات والمناطق الداخلية.

مزايدات كثيرة يقوم بها المؤرخون اليهود حول كيفية وطبيعة ظهور هذا اللباس ويوظفونه بأشكال اعتباطية لتأسيس وتدعيم أطروحة "معاناتهم" مما يعتبرونه تمييزا عنصريا ودينيا لمسلمي المغرب العربي تجاههم.

لقد ظهر الزي "المهين"، الخاص باليهود، ولأول مرة بصورة مؤكدة في عهد الموحدين الذين أصدروا مراسيم سلطانية بوجوب ارتدائه. بعض المصادر تؤكد بأن هذا الزي الخاص لم يكن يقصد به أبدا الإهانة و الإذلال وإنما كان مجرد بدلة عسكرية خاصة بالفرقة اليهودية في الجيش الموحدي، بدأ العمل بها سنة 1198م لأول مرة في عهد أبي يوسف المنصور، غير أنها تحولت في أوقات لاحقة بعد عدة أخطاء من طرفهم وبعد عدة استفزازات للمسلمين خصوصا بتجسسهم، أو تجسس بعضهم، على جيش المنصور، إلى لباس قسري عقابا لهم، ولتمييزهم عن غيرهم، لتسهيل مراقبة تحركاتهم على أجهزة الأمن الرسمية.

لكن أغلب المصادر الإسلامية تؤكد أن ظهور الزي الخاص باليهود تزامن مع تجاوزاتهم واستفزازاتهم للمسلمين وبالتالي كان عقوبة لهم أكثر منه أي شيء آخر، وذلك في عهد المنصور سنة 595هـ، أي ما يقابل 1198 م عند بعض المؤرخين أو 1195 م لدى البعض الآخر. غير أن هناك من يرجع هذا الزي تاريخيا إلى ما قبل هذا التاريخ، وبالضبط إلى العهدة العمرية، حيث يكون اليهود قد اختاروه إراديا في إطار عقد الذمة.

لكن أغلب الظن وهو ما توحي به جميع المصادر التاريخية ذات المصداقية النسبية بما فيها اليهودية، هو أن اليهود كانوا يلبسون كالمسلمين إلى أن تطفو على الساحة السياسية – الاقتصادية– الدينية أحداث استثنائية معينة يسيء فيها اليهود التصرف إزاء المسلمين ، فيعاقبون. لكن ليس بالضرورة بشكل شامل لهم جميعا أو لجميع يهود المغرب العربي والعالم الإسلامي. وتفرض عليهم إجراءات عقابية من بينها الزي الخاص، يكون لها طابعا ظرفيا ، تزول على العموم بزوال الآثار المادية والنفسية لسلوكاتهم السلبية وأخطائهم. غير أن هذه المصادر التاريخية لا تسلط الأضواء على ظاهرة الزي اليهودي القسري إلا منذ عهد الخليفة المنصور فصاعدا. أما قبله فلا نكاد نعثر على شيء يذكر. وهذا معناه أن وجوده قبل هذا التاريخ قد لا يعدو سوى ضرب من الخيال، أو أنه نادر جدّاً ومحدود في الزمان والمكان إلى حد أنه انفلت من الأعين المراقبة للمؤرخين. لذلك لم يُعره عدد من الباحثين اليهود أنفسهم أية أهميّة مثل مؤلف: «اليهود في الصحراء، توات في العصور الوسطى (Les juifs au Sahara: Le Toaut au Moyen Age) وهو يهودي فرنسي من مواليد منطقة بشار. جاكوب علُيّل Jacob Oliel.

مسعود كواتي يتحدث عن تغيير طارئ في تعامل الحكام المسلمين مع اليهود حدث في تونس وامتد إلى بقية المغرب الإسلامي دفع بالخليفة المنصور إلى فرض "الشيكلة" عليهم .." وجعل قمصهم طول ذراع في عرض ذراع وجعل لهم برانس وقلانس زرقاء " وذلك للتمييز بينهم وبين بقية سكان تونس، وقد شمل هذا الإجراء كل يهود المغرب بما في ذلك الأندلس"[67]. وربما هذا ما أدى إلى رحيل بعض يهود الساحل التونسي إلى المشرق و إلى القدس خاصة في القرن

الخامس والسادس الهجريين. مسعود كواتي هنا يوافق التفسير الجزائي والعقابي لفرض الزي الخاص على اليهود. ويؤكد على ظرفيته بكون عدم وجود ضرورة هذا التمييز من الناحية ا لسياسية والأخلاقية والاجتماعية في الريف، حيث الحياة هادئة ومستقرة وحيث يسجل عموما سلوك جيد لليهود، لم تؤد إلى فرض الزي الخاص عليهم، إذ لبسوا كالمسلمين خصوصا وأن قلة عدد السكان في الريف يجعل مراقبتهم والتعرف عليهم أمرا سهلا. لكن كواتي يتردد في موضع آخر حيث يميل إلى التفسير الإرادي لظاهرة الزي اليهودي الخاص بحيث يعبر عن ميل واضح للإعتقاد بشيوعه حتى قبل الموحدين وبامتداد جذوره إلى العهدة العمرية لأهل الذمة الذين يكونون قد التزموا حسبه بعدم التشبه بالمسلمين في لباسهم ... مستشهدا بنص من هذه العهدة التي جاء فيها :" وأن نلزم زيناّ حيثما كناّ، وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة"، وهو نقله عن ابن قيم الجوزية (الصفحة 735 من أحكام أهل الذمة)[68]. ثم يضيف بأنها عملية إرادية"... قد اختارها أهل الذمة، وإن بدت للبعض مشينة فإن الهدف منها " هو التسهيل على والي المظالم لمراقبة المناكر والملاهي وحتى لا يتعرض أهل الذمة إلى العقوبة وإلى منعهم من أشياء مرخص لهم فيها طبقا لما تعهدت لهم به دولة الإسلام من ممارسة حريتهم الدينية وحقوقهم الاجتماعية"[69]، وكذلك فيما بعد لحماية المجتمع من تجاوزات أهل الذمة كالربا والغش ...

لكن عبدالواحد المراكشي في كتابه :" المعجب في تلخيص أخبار المغرب" يسلم دون تردد بالتفسير الجزائي والعقابي قائلا بأن الأمير أبو يوسف يعقوب المنصور أمر في العهد الموحدي سنة 595هـ " أن يميز اليهود بلباس يختصون به دون غيرهم، وذلك ثياب كحلية وكمام مفرطة ا لسعة تصل إلى قريب من أقدامه، وبدلا من العمائم كلوتات (des calottes) على أشنع صورة كأنها البرادع تبلغ تحت أذانهم ، فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب "[70].

غير أن هذا المرسوم السلطاني الذي صدر عن المنصور لم يعمر طويلا بحيث عندما تولى الحكم الناصر ابنه بعده خفف من هذا الإجراء وأمر اليهود بلبس ثياب وعمائم صفراء، لكن المستنصر الحفصي سنة 1250 أمر "بالشيكلة" ... وهذا ما يكفي للتدليل على الطابع الظروفي المحدود في الزمان والمكان لإجراء الزي اليهودي الخاص.

لكن لا يجب أن يفوتنا بأن هذه الظاهرة لم تكن مقتصرة على العالم الإسلامي فقط بل تعامل النصارى في روما في القرن 13م مع أقلياتهم على نفس النسق، كما صدرت في مملكة قشتالة (CASTILLE) بإسبانيا ..." عدة لوائح للتمييز بين النصارى والمسلمين واليهود"[71]

بعد سبعة قرون من الظهور الرسمي والمؤكد للزي اليهودي الخاص بالجزائر، أي في القرن 19م، دخل الإستعمار الفرنسي إلى الجزائر وألغى هذا القيد، وغيره من القيود حتى ولو كانت شرعية، عن الجالية اليهودية، لكن معظم أفرادها بقوا متمسكين بالزي الخاص. ثم جاء مرسوم كريميو في 1870 وأعطى حق المواطنة لهم بصفة جماعية شاملة، ومع ذلك بقي الكثير منهم أيضا يرتدي هذا الزي بحرص شديد، حتى أن بعضهم استمر في ارتدائه خصوصا في المناطق الداخلية للبلاد في المناسبات والأعياد الدينية حتى عشية استقلال الجزائر. فهذه الظاهرة أصلا لم تكن تشكل أساسا مشكلة أو مظلمة بالنسبة لليهود في المغرب الإسلامي، بما فيه الجزائر ، لأنهم كانوا يعتبرونها نتيجة منطقية لتجاوزات بعضهم من جهة أثناء الأحداث الاستثنائية الظرفية التي تدفع بالمسلمين إلى التصرف معهم بصرامة لفرض احترام ما ورد في عقد الذمة، ومن جهة أخرى عندما تمر سحابة مثل هذه العداوات والمناوشات ، تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي حتى أن الاستمرار في الالتزام بالزي الخاص أو العدول عنه يصبح غير ذي أهمية سواء لدى المسلمين أو اليهود. ويتحول بالتالي إلى زي إرادي اختياري يرتديه أو لا يرتديه كل حسب هواه. والتاريخ يشهد بأنه في الظروف العادية بقدر ما كان بعض اليهود يلبسون القمصان العريضة الفضفاضة السوداء ويعلقون "الشيكلة" على رقابهم، كان آخرون يلبسون بصورة عادية كالمسلمين دون أية مشكلة. أما تحول هذه الظاهرة اليوم إلى مشكلة وإلى مظلمة تاريخية في العديد من المؤلفات اليهودية، فهذا لا يعني سوى أنها من اصطناع ونسج الدعاية الصهيونية – اليهودية الهادفة التي تنجز في العديد من مراكز دراساتها وأبحاثها المنتشرة عبر العالم. ثم لو كانت ظاهرة الزي الخاص في نظر اليهود آنذاك، أي في القرون الوسطى، ظاهرة عدائية استبدادية ظالمة ، لكانوا قد تركوا الجزائر ورحلوا عنها جماعيا كما فعلوا في

أحداث سابقة، غير أن المعطيات التاريخية تؤكد أن عددهم ومصالحهم ونفوذهم كان في ازدياد مستمر منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط الأندلس وما صاحبه من إكتشافات جغرافية حديثة، أثرت على دورهم التجاري، بالإضافة إلى ضعف المسلمين الذي لم يعد يسمح بضمان حمايتهم على أحسن وجه[72]. بعض المؤرخين يرى كذلك بأن احتفاظهم بالزي الخاص إراديا يعود إلى حرصهم على "التمسكن" وعدم لفت الانتباه إلى نشاطاتهم ونفوذهم المتزايد في الخفاء ... وتحول مع مرور الزمن إلى تراث فلكلوري لا يمكن فصله عن العادات والتقاليد اليهودية عامة التي يتشبث بها اليهود ويتمسكون بها بحرص كبير حفاظا على هويتهم الثقافية.

ظاهرة تاريخية أخرى عرفها يهود الجزائر والمغرب العربي الإسلامي في هذه الفترة، كانت عادية أو شبه عادية في وقتها، يحاول البعض استغلالها لتدعيم أطروحة "المعاناة" اليهودية في الجزائر عبر التاريخ خصوصا منذ أن دخل الإسلام إلى البلاد. إنها ظاهرة "الحارة" أو كما يسميها الناس في المغرب الأقصى "الملاح"، وفي الجزائر "حارة اليهود" أو "زنيقة اليهود" .. أي الحي الخاص باليهود.

يرُجع أندري شوراقي ظهور أول حارة يهودية في المغرب الإسلامي إلى سنة 1438م بمدينة فاس المغربية، ويفسر ظهور هذا "الملاح" بحرص الحكام على حماية أمن وممتلكات اليهود من الانتهاكات الطارئة أثناء الإضطرابات الإجتماعية – السياسية.[73] ثم برزت ثاني حارة بمراكش في 1557م والثالثة بمكناس عام 1682م، وتتميز بموقعها بمحاذاة وجوار قصور الحكام المركزيين والمحليين حتى يتم السهر على أمنهم على أحسن وجه، وعن قرب.

في الجزائر ظهرت الحارة بشكل واضح في وقت متأخر، أي في العهد العثماني بعد قدوم خير الدين وعروج، لنفس الأسباب وبنفس الخصائص والمميزات كقربها من مقرات الحكام، لكن الإقامة في الحارة اليهودية لم تكن إجبارية على اليهود أبدا لأن الكثير منهم اختلطوا مع المسلمين في سكناهم وأحيائهم ومدنهم، ولا يوجد ما يدل على أي إجبارية أو عنصرية حول هذه المسألة.

يذكر المستشرق الفرنسي المختص في علم الآثار في كتابه Feuillets d'El-Djazair (أوراق الجزائر)، الصادر في شكل سلسلة من نهاية القرن 19 إلى عشية الحرب العالمية الأولى، أن عددا من العائلات اليهودية البورجوازية كانت تمتلك في العهد العثماني بمدينة الجزائر القصور والبساتين الفخمة داخل وخارج أسوار القصبة. ويكفي التذكير بأنّ القصر الجميل الذي يُعرف اليوم بـ: دار خداوج العمياء والذي تحولّ إلى متحف الفنون الشعبية مازال الناس يسمّونه حتى اليوم: دار البكري، أي اليهودي يعقوب بكري الذي اشتراه في عهد الداي حسين. واشتهرت أيضا دار شريكه نفطالي بوشناق بالقصبة السفلى في نهاية القرن 18، مثلما اشتهرت آنذاك أيضا القصور المحاطة بالبساتين الراقية التابعة للوجهاء اليهود على غرار "جنان بن دوران" و"جنان بن زقوط" (أي ميشال كوهين بكري) بحي بوزريعة في المرتفعات الجنوبية لمدينة الجزائر العتيقة، وكذلك "جنان السرير" التابع لعائلة عمّار التي تزعّم أحد أفرادها الطائفة اليهودية في عهد الداي حسين، وكذلك "جنان باش شاوش" ببوزريعة الذي اشترته عائلة ليفي براهم Lévy- Brahm بعض المصادر توحي بوجود نادر للحارة في الجزائر قبل العهد العثماني؛ في تلمسان مثلا عشية دخولها من طرف الأخوين عروج وخير الدين.

لكن في "الحارة" كما في "الملاح" المغربي، يقول الكاتب Pidon de Saint-olon، "... مُنح اليهود من وسائل الراحة أكثر من المسلمين أنفسهم ..." في العديد من الظروف والمناسبات.

كتاب يهود كثيرون يزعمون بأن سوء معاملة المسلمين لليهود هي السبب في تجمعهم في أحيائهم الخاصة، لكن مسعود كواتي يفند بموضوعية هذا الزعم، ويرفض "... هذه الحجة (لأنها) غير مقبولة من الناحية التاريخية ولا من وجهة النظر الاجتماعية . (لأن) وجود اليهود في مناطق خاصة بهم لا تعود للعامل العنصري، حيث أن تسمية الأحياء في الكثير من الأحيان ترجع إلى العنصر البشري الذي يقطن بالحي. والمصادر، كما يضيف كواتي، تتحدث عن أحياء خاصة بالقبائل في المدن الإسلامية الكبرى كالبصرة، وبغداد مدينة السلام والقاهرة وغيرها، ومن ناحية أخرى فإن الأقليات دائما كانت تتجمع في المدن بأحياء خاصة لكي لا تحس بالغربة، ..."[74].

هذا الطرح يُدعّمه بشكل حاسم أحد أكبر الباحثين المعاصرين في تاريخ المدن الإسلامية في العهد العثماني وهو أندري ريموند (André Raymond) ، الفرنسي اليهودي الديانة، في كتابه "المدن العربية الكبرى في الفترة العثمانية" (Grand villes Arabes à l'époque ottomane) . يؤُكد أندري ريموند بوضوح لا لبس فيه بأن إحدى الخصائص الأساسية للمدينة العربية آنذاك تتمثل في تجمّع جالياتها كل واحدة بحيّها الخاص بصورة عفوية (*) ويوضح بأنه "بصفة عامة، تميل كل بُنية اجتماعية بالمدينة إلى إيجاد صيغة تعبيرية جغرافية لنفسها، وإلى حصر نفسها بحي خاص. ويُلاحظ هذا الانطواء بصفة أكبر لدى الجاليات التي تملك شخصية مختلفة عن الأغلبية العربية-الإسلامية كالمجموعات الإثنية والأقليات الدينية"(**) .

لقد كانت مدينة القدس مثلا خاضعة إلى هذه القاعدة العمرانية-الثقافية، بحيث كانت "مقُسّمة" إلى أحياء مسيحية، إسلامية، أرمنية، ويهودية. ونشير إلى أن الحي اليهودي نفسه لم يكن يفصله عن حيّ المغاربة سوى حائط المبكى. كما اشتهر بمدينة تونس في القرن 19م وحتى بداية القرن 20م حيٍّ خاصٍ بالجزائريين كان من بين سكانه المعروفين عائلة المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني التي نفاها الاستعمار الفرنسي غداة الاحتلال (***).

يُعقب أندري ريموند بأن: "هذه الوضعية (أي ظاهرة الأحياء) متجذّرة في التقاليد المحليّة. فيعود وجود أحياء الأقليات، بصفة خاصة، إلى زمن غابر وبشكل متواصل مثير للدّهشة: فقد كان الحي اليهودي بمدينة تونس يشغل - بالتأكيد- في العهد الحفصي، المنطقة التي أصبحت تُسمّى "الحارة" في العهد العثماني. ونمت قرية المسيحيين Faubaurg chrétien بمدينة حلب (السورية) منذ عهد المماليك بالحي الجديد الذي يُسمّى "الجُديْدة".

غير أنّه من المؤكد أن هذه النزعة إلى التمركز لدى المجموعات الأقلية، وخاصة لدى أهل الذّمة، تبلورت في الفترة العثمانية" (****). ويُرجع أندري ريموند سبب هذا التقوقع السكني إلى "تطور هذه الجاليات في المدن والاستقلالية الإدارية الداخلية الكبيرة التي مُنحت لها، وكذلك إلى دافع ضمان أمنها" (*****). ويقترح مثالا معبّرا بقوة عن عفوية هذه الظاهرة وتلقائية النزعة إلى

التجمّع الطائفي بأحياء خاصة، يتمثل في الحي اليهودي المسمّى بحسيطة Bahsîtâ بمدينة حلب الذي تجمّع فيه اليهود بعدما تركه تدريجيا المسلمون طيلة القرن 18م والقرن 19م. وقد كان هؤلاء العبريون يقيمون قبل ذلك بحي "البَنْدَرة" المجاور. وما إن حلّ القرن 19م حتى "أصبح 90 % من سكان بحسيطة يهودا" (******).. وقد شهدت نفس الظاهرة المدن الشامية الكبرى الأخرى مثل حمص، حماة، طرابلس وصيدا.

أما بمدينة الجزائر القديمة، فقد عُرف عنها أن الأندلسيين مثلا سكنوا في العهد العثماني القصبة العليا التي كانت تسمّى أيضا "الجبل" خصوصا بشارعي بربروس و"قَطْع الرْجَلَ" (catarougil)، وكذلك في حي "الثغرة" أو "التاغاران" (Tagarin) قرب نزل الأوراسي وحصن الإمبراطور، وتمركز الأتراك والأرستقراطية عامة بالقصبة السفّلى، واليهود بحي باب عزّون بصفة خاصة، حيث يوجد السوق الكبير. كما انتظمت بنفس المدينة أحياء على أسس مهنية وحرفية بحتة مثل: حومة النّحاسين، وحومة الصبّاغين، وحومة القيسارية (الورّاقين)، وحومة البشماقجية... إلخ.

كل هذا معناه أن الحارة في الجزائر وفي بقية المغرب الإسلامي كانت أصلا تجمعا عصبيا قبليا – دينيا ، عفويا فرضته الضرورة الاجتماعية والحس القوي بالعصبية القائمة على رابطة الدم وبالعصبية الروحية التي تجمع بين مختلف أفراد الطائفة. وظاهرة التجمعات البشرية في الجزائر على أسس إثنية أو مذهبية أو على الإثنين معا هي ظاهرة جد ثقافية ما زالت منتشرة إلى اليوم تقريبا بنفس قدر انتشارها في القرون الوسطى. وما التجمع اليهودي في الحارات آنذاك ، على ندرته، سوى ترجمة فعلية ميدانية لذهنية ذلك العصر، إضافة إلى ميل اليهود التاريخي إلى العزلة والانطواء على الذات وسط المجتمعات التي يعيشون فيها. أما ظهور الحارة في الجزائر لعوامل سياسية – أمنية أدت إلى تدخل السياسيين في إنشائها وتنظيمها على غرار ما حدث في فاس ومراكش ومكناس بشكل مؤسس (institutionnel) فلم يأت إلا في العهد العثماني ، ومعظم الحارات اليهودية بالجزائر جاءت في القرن 18م، مثل حارة اليهود بقسنطينة التي بنيت بأمر من صالح باي في النصف الثاني من ذلك القرن،

وحارة وهران التي بنيت بمساعدة الباي محمد الكبير بعد استرجاع مدينة وهران من الإسبان سنة 1792م. وقد جاءت كتكريم لهم وقوبلت بابتهاج كبير لدى كامل الطائفة اليهودية. مع ذلك، فإن وجود الحارة سواء في شكلها العفوي كظاهرة اجتماعية إرادية بحتة أو كظاهرة أمنية – سياسية رسمية لم يمنع اليهود من الاختلاط بغيرهم من الجزائريين المسلمين في نفس الأحياء بعيدا عن الحارة. كما أن ا لمدن الصغرى لم تكن تحتوي أساسا على الحارات بل كان السكان يتداخلون فيما بينهم. فأين هي إذن "العنصرية" الجزائرية الإسلامية اتجاه اليهود؟ و أين هي "المعاناة" التي يزعم الكثير منهم أنها كانت قاسية جدا؟[75]

اليهود يلومون اليوم المسلمين على "تشددهم" معهم، ويتكلمون عن "الظلم" وعن "القمع" وعن "المعاناة" في ديار الإسلام بما فيها الجزائر متذرعين بظاهرة الحارة، وظاهرة الزي الخاص، وبحملات إدريس الأكبر عليهم وبتشدد المرابطين والموحدين معهم ..، وهي ظواهر قد بينا أصولها وخلفياتها من قبل بحيث لم تكن تحمل في جوهرها أية عدائية ، لا عنصرية ولا دينية ، تجاه اليهود وإنما أتت بها ضرورات اجتماعية أو سياسية – أمنية ، طبيعية عفوية أحيانا أو ردعية دفاعية في أحيان أخرى. لكن بقي التسامح والحِلْم الإسلاميين مع ذلك سيدَيْ ديناميكية العلاقات الإسلامية – اليهودية في الجزائر دائما منذ الفتوحات الإسلامية للبلاد. لكن هل كان اليهود في مستوى هذا التسامح واللطف؟ هل عرفوا كيف يحافظون ويدعمون ثقة المسلمين فيهم؟

لقد كان نفاق بعضهم بالتظاهر بالإسلام من أجل غايات معينة ضربة قوية لهذه الثقة لم تزد سوى في تنمية الشبهات تجاههم وفي تنمية الحذر المتبادل إلى حد الوسواس. في عهد الموحدين مثلا يقول مسعود كواتي، بأن تظاهرهم بالإسلام والبقاء في الخفاء على يهوديتهم هو الذي أدى إلى ريبة الموحدين منهم وعلى رأسهم أبي يوسف المنصور الذي فرض عليهم الزي الخاص[76]. وينقل أيضا عن عبد الواحد المراكشي في كتابه " المعجب ، في تلخيص أخبار المغرب"، قوله:" لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت فيئا للمسلمين ، ولكني متردد في أمرهم "[77]. وفي هذا الكلام ما ينبئ

بشيوع تظاهر اليهود بالإسلام نفاقا ، ويبرر الحيطة والحذر الإسلاميين منهم في مثل هذه الظروف. وقد كان الفيلسوف اليهودي موسى ابن ميمون الذي أسلم في الأندلس من أبرز الشخصيات اليهودية التي كانت تنافق بتظاهرها بالإسلام، حسب مصادر عديدة، بحيث بمجرد ما غادر الأندلس عبر المغرب الأقصى والجزائر.. إلى فسطاط مصر، أعلن ردته وعاد إلى دينه القديم ،.. ″ وهو على ما يبدو لم يكن حالة فريدة ولا نادرة ″[78]. وكانت مثل هذه الحالات أحيانا وراء ظنون ومبالغات وتجاوزات من طرف المسلمين، لكن الحكمة والرزانة والتعقل تغلبت في أغلب الأحيان على الظنون والشبهات كما هو الحال في موقف عبد الواحد المراكشي السابق الذكر، والمهدي ابن تومرت الذي يروي مسعود كواتي بالنقل، أنه أمر بقيام صلاة الجنازة على يهودي أسلم لكنه لاحظ عزوفا للناس على الصلاة عليه، فسألهم :″لم لا تصلون على هذه الجنازة؟ قالوا له : هو يهودي وكان يصلي[79]. فقال ″رخة″ أفيكم من يشهد له بالصلاة؟ فقال الناس:نعم، من كل جانب ومكان. فقال لهم قد شهدتم له بالإيمان″ وقامت الصفوف وصلت الناس عليه. كان ذلك في تونس .

ورغم أخطاء اليهود ، أو بعضهم، تبقى الأحكام الإسلامية السمحة هي القاعدة المرجعية التي تحكم سلوك المسلمين تجاه اليهود.فالماوردي في ″الأحكام السلطانية ″ لا يرى أي حرج في إسناد الوظائف السامية في الدولة إلى الذميين باستثناء الخلافة والإمامة والإمارة على الجهاد، وما عدا ذلك يجوز للذمي أن يتحمل أعباء الوظائف الأخرى إذا لم يظهر عداوة للمسلمين. ويرى كذلك بجواز إسناد منصب الوزير إلى أهل الذمة بشرط أن يكون منصبا تنفيذيا فقط وأن لا يباشر الحكم، ولا ينظر في المظالم ولا يستبد بتقليد الولاة، وأن لا ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ولا يتصرف في أموال بيت المال ، .. ″ وليس فيما عدا هذه (الشروط) ما يمنع أهل الذمة منها (أي الوزارة) إلا أن يستطيلوا فيكونوا ممنوعين من الاستطالة ..″[80]. ويقصد الماوردي بهذه الوزارة، وزارة تنفيذية للسياسة والأحكام التي تصدر عن الخليفة والإمام، لذلك يسميها ″وزارة التنفيذ″ و..″ من اختصاصات هذا الوزير (التنفيذي) معاونة الخليفة في إدارة شؤون البلاد. فهو الواسطة بين الحاكم والرعية وله التوقيع عن الحضرة

ومراجعة شؤون العامة ..." فهو معين في تنفيذ الأمور وليس متقلدا لها" ..، وقد تشدد بعضهم في تقليد المناصب لأهل الذمة اعتمادا على أن هؤلاء استطالوا على المسلمين وتجاوزوا الشروط الموضوعية و(أحكموا) أيديهم على رقاب المسلمين "[81]. عملا بهذه الأحكام الشرعية السمحة، تذكر المصادر التاريخية الإسلامية بأن اليهود تقلدوا فعلا مناصب سامية في البلاد الإسلامية دون أية عقدة، منهم من كان في مستوى ثقة المسلمين ومنهم من خيب الظنون وانتهى إلى العزل أو القتل ...

اليهودي يعقوب بن كلس، الذي فوجئنا بعدم وجود أي أثر له في المصادر اليهودية التي اعتمدنا عليها، تقلد منصبا هاما لدى المعز لدين الله الفاطمي بالمغرب، ثم عين وزيرا بمصر، وتجمع المصادر على أنه خدم الدولة الفاطمية بكل إخلاص، رغم اختلافها في صدق إسلامه. بينما كانت التجربة مع يوسف بن اسماعيل بن نغريلة بغرناطة مثلا سيئة للغاية، لأنه استغل منصبه كوزير للاستبداد بالحكم والطعن في الإسلام والمسلمين جهرا مستغلا كبر سن الحاكم الحقيقي ومداومته على شرب الخمر إلى حد أنه لا يكاد يصحو، مستعملا الرشوة لإحكام قبضته في القصر فكانت عاقبته القتل من طرف الجماهير التي انتفضت وثارت ضده[82].

المرابطون والموحدون تفادوا توظيف اليهود في إدارتهم وذهب عبد المؤمن بن علي مثلا إلى حد أنه خيرهم بين الجلاء عن البلاد أو اعتناق الإسلام. لكن صرامته هذه لم تمنعه من إمهالهم حتى يبيعوا أملاكهم أو يتمكنوا من نقلها معهم. رغم هذا الدمج الواسع لليهود في المجتمع الإسلامي ، الذي يُمارَس عليه تعتيم مقصود، يصرّ مؤرخوهم على التباكي والتنديد"بالظلم" و"القمع" و"المعاناة" التي لم نعثر عليها في التاريخ الإسلامي.

بعد سقوط المرابطين والموحدين وافتقاد المغرب الإسلامي لقوة سياسية – عسكرية موحدة سادت الاضطرابات السياسية والانقسامات الداخلية وتناحرت الدويلات الصغيرة فيما بينها وعانى الجزائريون معاناة كبيرة من الانعكاسات الأمنية – السياسية – الإقتصادية لهذه الاضطرابات. ونال اليهود هم الآخرون نصيبهم من هذا التدهور الأمني الذي ساد البلاد عشية دخول العثمانيين، بحيث تعرضوا في عهد بني زيان إلى الطرد والملاحقة بتلمسان

مرتين علي التوالي سنة 1442م وسنة 1476 م ، ثم بمدينة "توات" و"تمنطيطت" ، إحدى أهم المراكز التجارية في شمال الصحراء، عشية سقوط غرناطة، بصورة أشد وأعنف منذ حوالي سنة 1488 م. انتهت هذه الأحداث الأخيرة بطردهم من هاتين المدينتين الواحتين ومن معظم المناطق الصحراوية المحيطة بها مع حلول السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادي وذلك على يد الشيخ الفقيه الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي .

محمد بن عبد الكريم المغيلي ويهود الصحراء :

في واحة " توات" ، المدينة العريقة التي تقع على مشارف الصحراء، الغنية بموقعها الجغرافي الحساس في الشبكة التجارية البرية ما بين القرن 11م والقرن 15م وبرأسمالها من التجارة والقوافل ومختلف الهياكل الضرورية للمبادلات الصحراوية أو العابرة للصحراء ، تحكم اليهود الذين كان عددهم كبيراً بهذه الواحة، حسب تأكيدات التاجر الجنوي أنطونيو مالفانتي، بشكل متفاقم تدريجيا في كل صغيرة وكبيرة، في أهم النشاطات الاقتصادية وأشدها حساسية، وفي السياسة والأمن وحتى في القضاء بطرق ملتوية غير مباشرة. وتراجعت سيادة المسلمين في هذه الواحة التجارية الاستراتيجية إلى الحد الذي يوحي بأنهم أصبحوا الذميين الفعليين، حسب المصادر التاريخية لذلك الوقت. النفوذ اليهودي بلغ ذروته مع نهاية القرن 15م وطـال حتى تعيين رجال الإدارة والسيطرة على الهيئات المحلية ومراكز القرار بواسطة المال والخدمات الاستشارية. لن يمر وقت طويل لتنفجر ردود فعل المسلمين أو بعضهم على الأقل، كما جرت العادة في مثل هذه الظروف، لوضع حد لهذا التسلط الجائر، ورد الأمور إلى نصابها، وللتحـرر من السيطرة التي فرضها عليهم اليهـود وحلفاؤهم من بعض المسلمين. ولم يبق أمام القوى الإسلامية الغاضبة سوى الدخول في مواجهة مباشرة مع هذه الطائفة ومسانديها.

شاب في مقتبل العمر، مثقف ومتدين، تقي وورع، غيور على الإسلام وديار الإسلام، كان واع بالتدهور والضعف الخطيرين اللذين أصابا المسلمين خصوصا في عصره المتميز بتناحر الدويلات والإمارات الصغيرة وبتأهب الأندلس للسقوط بيد المسيحيين ، وكان يتابع بحزن الموت البطيء للعظمة

الإسلامية والنظام الدولي الإسلامي الذي كان يحرك ديناميكة العالم. إنه محمد بن عبد الكريم المغيلي.

ولد بقبيلة "مغيلة" البربرية الأصل بتلمسان في سنة 844 هـ / 1440(*)، نشأ بتلمسان وأخذ تعليمه الديني الأولي بها، ثم انتقل إلى عدة مدن جزائرية أخرى، من بينها الجزائر أين تتلمذ على يد الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي المتوفي سنة 875هـ حوالي 1471م، والشيخ يحي بن إيدير. وقد أثر تكوينه الديني ووعيه بالمخاطر التي كانت تحدق بالجزائر وبكافة العالم الإسلامي عشية سقوط الأندلس على مواقفه من اليهود وانحرافاتهم، بحيث أعطتها صلابة وتشددا إلى حد الانزلاق في المغالاة تجسدتا فجأة على أرض الميدان بعد بضعة سنوات أثناء مطاردته لليهود بتوات وتمنطيط وملاحقتهم حتى مالي والنيجر...

أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، الشاب المثقف، الفقيه، المفكر، والشاعر، "...أحد أعلام الجزائر في فاتحة القرن العاشر الهجري ..."[83] كما يصفه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، يكون قد ترك تلمسان مسقط رأسه مغتاظا من سيطرة اليهود بها على المقاليد الفعلية للسلطة ولمختلف جوانب الحياة الاجتماعية – الاقتصادية – السياسية، رغم أن بعض المصادر ترجع ذلك إلى "أسباب مجهولة"، ويكون هذا العامل هو نفسه الذي دفع به إلى الارتحال إلى الصحراء بعد أن أتم دراسته في الشمال، بالعاصمة خاصة، وفي ذلك نوع من تبرئة الذمة من الانحطاط والانحلال الذي كان ينهك المسلمين بتواطؤ منهم. المغيلي كان يطمح إلى حياة إسلامية نقية على نهج السلف الصالح في الواحات الصحراوية بعيدا عن فساد المدن والحواضر الكبرى. الصحراء بالنسبة للمغيلي كانت رمزا للطهارة والنقاوة الفطرية والبساطة التي تسمح له بتجسيد النموذج الإسلامي الأصيل الذي كان يحلم به، وهي تُذكّره أيضا بصحراء الحجاز والجزيرة العربية حيث الحياة البدوية الفطرية التي حملت وتبنت الرسالة الإسلامية تحت قيادة الرسول محمد بن عبد الله ﷺ. وكان يرى كذلك في الصحراء ملجأ من تواطؤ بعض المسلمين مع اليهود الذين كانوا يدعمون نفوذهم يوما بعد يوم ويزيدون في إحكام قبضتهم على شؤون الرعية خصوصا في تلمسان العاصمة الزيانية وعاصمة أقوى سلطة جزائرية آنذاك.

لذلك بمجرد أن أتم دراسته بالشمال الجزائري، انتقل إلى الصحراء واستقر بمدينة "توات" بالقرب من واحة "تقرت" في سنة 1479م ثم استقر بتمنطيط بحي أولاد يعقوب قبل أن ينتقل إلى "بوعلي" قرب "تازولت" حيث يوجد إلى اليوم ضريحه والزاوية التي أسّسها. لكن صدمته كانت كبيرة عندما اكتشف بأن وضع المسلمين في هذه المدينة الصغيرة إزاء تزايد النفوذ اليهودي كان أسوأ منه في تلمسان مسقط رأسه، كما اكتشف أيضا أن واحتي "تقرت" و"تمنطيط"[84] كانتا تعيشان نفس الوضعية أو أكثر من حيث النفوذ اليهودي المتزايد المدعّم بحماية بعض المسلمين إمّا تواطأ أو إهمالا[85]. فكتب لذلك "رسالة في أحكام أهل الذمة" للتنديد بعدم احترام اليهود لشروط عقد الذمة [**].

المغيلي "... الرجل المقدام ...، الجسور ...، الجريء...، المتصلب في الدين" كما يصفه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي[86] رفض رفضا قاطعا هذا السلوك السلبي للمسلمين تجاه اليهود وهذا الصمت والتعامل العادي معهم الذي يوحي بالرضى والتواطؤ، "... حتى كان الواحد منهم، كما يقول هو نفسه يقرب (اليهودي) من نفسه أو عياله، أو يستعمله في أعماله، ويجعل بيده ما شاء من ماله مع أنه لادين له ولا مروءة..."[87]. و"... رأى تدهورا أخلاقيا كبيرا للمسلمين، وتمكينا لليهود من أسباب السلطة والنفوذ ونشاط هؤلاء في إحداث الكنائس أو البيع واستعلائهم بذلك على الإسلام والمسلمين، فغاظه ذلك كثيرا، وفكر في الأمر، وأراد أن يهجم بأصحابه على بيع ليهدمها ..."[88]. كان هذا حوالي 891هـ/ 1488م. ولم يطل الانتظار كي يتزعم المغيلي التيار الرافض لهذا الوضع ، وينظم طاقاته في صيغة حملة عسكرية لطرد اليهود ابتداء من سنة 1488م تقريبا لإيقاف الفساد والانحطاط الذي أصاب المسلمين وأنهكهم. وقد كان غضبه حاسما بحيث محا آثار اليهود من تلك المنطقة الصحراوية.

وقد بدأت مُناوشاته معهم إثر حادثة طارئة مع مجموعة من شبابهم بمنطقة "تاخفيفت"، حسب الرواية الشعبية، ثم تدهورت الأمور عندما تبنّت سلطات تمنطيط وعلى رأسها القاضي أبي محمد عبد الله ابن أبي بكر العصنوني، الذي دخل توات في سنة 1459م، مشروع بناء بيعة يهودية جديدة.

لكن المغيلي قبل تنفيذ ما عزم عليه ميدانيا ضد اليهود كان محتاجا إلى شرعية دينية وأخلاقية ، أو إلى نوع من الإجماع على شرعية فكرته، لذلك اتصل بالفقهاء ورجال الدين عامة في مختلف جهات الجزائر والمغرب العربي الإسلامي كما راسل حتى رجال الإدارة والسياسيين لمشاورتهم وطلب مساندتهم له في مشروعه. غير أن الخلافات سرعان ماطفت بينه وبين العديد ممن راسلهم أو قابلهم حول شرعية طرد اليهود وتهديم بيعهم وكنائسهم وخالفه فقهاء بقدر ما أيده آخرون. وقد تزعم التيار المعارض في الجزائر لمشروعه الفقيه عبد الله العصنوني قاضي " توات" وأدى ذلك إلى الإحتكام وإلى التشاور مع "علماء فاس وتونس وتلمسان ..." حسب عبد الرحمان الجيلالي[89]، وأدى هذا الجدال والنقاش حول هذا الموضوع إلى مساهمة كل من "الشيخ السنوسي، ومحمد بن عبد الجليل التنسي، والرصاع مفتي تونس، وأبو المهدي الماواسي مفتي فاس، وابن زكري مفتي تلسمان والقاضي أبو زكرياء يحي بن أبي البركات الغماري وعبد الرحمان بن سبع التلمسانيان " فيه[90]... كما حاول المغيلي كسب تأييد فقهاء فاس على وجه الخصوص ودعم السلطان المغربي، لكن محاولته باءت بالفشل. ومع ذلك لم يتراجع عن عزمه وتصميمه على محاربة اليهود. وبمجرد مابلغه تأييد السنوسي والتنسي، سارع هو وأتباعه إلى ارتداء لباس الحرب "... فقصدوا كنائس اليهود وأمر الشيخ بقتل من عارضهم دونها فهدموها عن آخرها ولم يتناطح في ذلك عنزان، ثم قال لهم من قتل يهوديا فله علي سبع مثاقيل وجرت يومئذ في ذلك أمور ..."[91] وقضى بالتالي على اليهود بتوات وتمنطيط في تلك الفترة كطائفة مهيكلة وقوية، وبقيت بهما مع ذلك بعض العائلات في حين أسلمت أخرى وهاجر آخرون إلى الواحات والمدن المجاورة. وقد احتفظت مدينة بشار بقبري حاخام تمنطيط شلومو بار بيريرو وابنه إسحاق كشواهد أثرية عن عهد غابر. لقد توفيا هناك عطشا خلال هجرتهما نحو الشمال قبل أحداث المغيلي بفترة قصيرة. ولما ظهرت بعض جيوب المقاومة في أوساطهم، طاردهم ولاحقهم حتى تومبوكتو و"السودان"، أي مالي والنيجر حاليا، حيث حرض عليهم حكامها. وقد كلفته هذه العملية حياة ابنه عبد الجبار المغيلي الذي قتله اليهود بتوات أثناء غيابه في مهمة دعوية ببلاد "التكرور" أي بـ"قاو" في سنة 1500م.

عندما بلغه خبر مقتل ابنه اشتد غضبه ولم يتحكم في نفسه، فطلب من سلطان "التكرور" إلقا القبض "... على أهل توات المقيمين بكاغو ، فقبض عليهم السلطان ..."[92] وأنكر عليه أحد الفقهاء إساءته إلى هؤلاء الأبرياء وهو أبو المحاسن محمود بن عمر" ... إذ لم يفعلوا شيئا، فرجع عن رأيه وأمر بإطلاقهم ورحل إلى توات ..."[93] في سنة 1503م وبقي مقيما بها إلى أن أدركته المنية سنة 909هـ / 1504 –1505م.

هذه بإيجاز خلاصة ما وقع بتوات وتمنطيط والصحراء عامة بين الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ويهود هذه المناطق. المؤرخون اليهود لا يتناولونها إلا في إشارات عابرة حتى لا يضطروا إلى التطرق إلى الأخطاء والتجاوزات اليهودية التي أنجبت أحداث توات هذه باستثناء يعقوب علُيلّ (Jacob Oliel) الذي دقّق فيهـا البحث في كتابه حول يهود الصحراء المشار إليه من قبل. وإذا حدث أن تطرقوا اليها فإن ذلك لا يتعدى بضعة أسطر موجهة أساسا للتنديد بالمغيلي و"بتعصبه" وللتقليل من أهمية الأحداث ذاتها وإبقائها بعيدة عن الأنظار...

الشيء المجمع عليه هو أن اليهود في تلك الفترة بلغ نفوذهم مستوى كبيرا أثار قلق بعض المسلمين خصوصا لما لاحظوا إهمالا في الالتزام بأحكام الذمّة ومساسا بالقيم والمبادئ الإسلامية عندما امتد هذا النفوذ حتى إلى تعيين كبار المسؤولين وشراء ذمم بعضهم[94].... خطورة الوضع كانت تتطلب دون شك إعادة وضع النقاط على الأحرف بالنسبة لليهود وللمسلمين معا. وشاءت الظروف والصدف أن يتبنى هذا الإصلاح فقيه متشدد تحكم تصرفه العاطفة والغيرة الدينيتين أكثر من العقلانية الإسلامية والنظرة الإستراتيجية المستقبلية الكفيلة بتحقيق تحولات جذرية في الواقع الجزائري المعيش آنذاك. لذلك بقي مشروع المغيلي حبيس الحدود المحلية لمنطقة توات وتمنطيط وتقرت وضواحيها، و لم يمس العمق الصحراوي إلا في صورة عابرة أثناء ملاحقة اليهود. ثم انتهى كل شيء بمجرد وفاة المغيلي وحتى قبل ذلك ببضعة سنوات عندما تحول إلى التعليم والدراسة بعد مقتل ابنه عبد الجبار. وهذا يعكس، كأقل شيء، ارتجالا دينيا – سياسيا واضحا.

المغيلي كان رجلا تقيا ، شديد التدين إلى حد التزمت وغيوراً إلى أبعد الحدود على الإسلام. عبد الرحمان الجيلالي يصفه بـ:"المتصلب في الدين" ، والفقيه أبو المحاسن محمود بن عمر اضطر إلى الوقوف في وجهه وإنكار تشدده على التواتيين وظلمه لهم باسم الدين في حضرة سلطان "التكرور" بـ: كاغو.

هذه الصفات التي تشكل شخصية وطبع المغيلي هي التي حركته لمواجهة يهود توات والصحراء بتلك الحماسة والجرأة والإصرار رغم رفض العديد من الفقهاء والسياسيين دعمه ومساندته على الأقل في الفتوى الدينية لتبرير مطاردة اليهود، فانزلق في التعصب والمغالاة الدينية التي دفعت إلى الاعتقاد بأن حركته تجاه اليهود نابعة ليس فقط من موقف ديني شرعي بل أيضا من كراهية شخصية وحقد ذاتي على اليهود جد محتملين ومن طبيعته المتشددة التي استفزها ما كان يتورط فيه الكثير من يهود عصره في المدن الجزائرية. و لا نجد أحسن من كتاباته حول قضية يهود توات للتدليل على الدور المهم الذي لعبته ذاتيته وطبعه في تحديد ورسم موقفه من اليهود زيادة على الدوافع الدينية الشرعية. يقول المغيلي في كتابه" مصباح الأرواح في أصول الفلاح "[95] حول اليهود:"... فمن لا يبعد بنفسه وأهله وماله وجميع أعماله عن الكفار، فهو أجهل من الحمار، لأنه لا عدو لنا مثل أعداء نبينا وسيدنا وشفيعنا محمد (ﷺ) ، لا سيما إخوان القردة، فإنهم أشد الناس عداوة لنا ". ولتبرير مواقفه من اليهود يستعرض بعض الحوادث العامة كقوله بأن قاض شغل عنده يهوديا ليغسل له ثيابه، إذلالا له،– حسب هذا القاضي طبعا – ففوجئ به عند عودته صدفة إلى البيت يبول عليها. كما يروي حادثة أخرى يقول فيها :"... وأخبرني أيضا بعض الناس أنه رأى يهودية تعجن خبز مسلم، تأخذ القمل من رأسها وتقتله بين أظافرها وتعجن قبل أن تغسل يديها، والأخبار في ذلك كثيرة ..."[96]. ثم يستنتج المغيلي في نفس الكتاب بعد استعراضه لمثل هذه الروايات ولأحكامه حولها بأنه :" ... ما أقل همة من لا ينفر منهم بطبعه وجوارحه وقلبه، وما أخس وأخزى من يسمح لهم بقربه، لأنه ما من أحد فيهم ينظر إلينا إلا ولسان حاله ناطق ببغضنا وسبنا والطعن علينا في ديننا ، حتى أنهم حرموا على أنفسهم ذبائحنا وأطعمتنا، والطبـــخ في قدورنا، والأكل في آنيتنا، وأعظــم من ذلك طعنهم في

نبينا واستهزاؤهم بصلاتنا .."[97]، و" ... كل ما زعموا أنهم ذبحوه لنا فهو جيفة، وكل ما زعموا أنهم صرفوه لنا فهو ربا "[98]....!

يضيف المغيلي في المرجع المذكور، أي " مصباح الأرواح في أصول الفلاح "، بأن الجزية نفسها ليست سوى إجراء يراد به إهانة اليهود وإذلالهم. لكن هذا خطأ فادح وانحراف خطير عن مفهوم الجزية في الإسلام، صدم حتى محقق الكتاب نفسه الأستاذ رابح بونار الذي انتقد المغيلي الفقيه.[99]

هل يمنع الإسلام التعامل مع اليهود اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وحتى سياسيا بسبب كونهم يهود أو كما يقول المغيلي لأنهم " ألد أعدائنا .. وأعداء نبينا (ﷺ) ..." مع العلم أن هذا الأخير نفسه لم يتخذ أي موقف مبدئي عدائي منهم رغم ما حدث في خيبر مع بنوقريضة وبنو النظير وبنو قينقاع، بل كل ما اتخذه إزاءهم من إجراءات هو تنظيمه حسب الشرع لعلاقاتهم بالدولة الإسلامية وبالمجتمع الإسلامي وتقنينه لهذه العلاقات في صيغة عقد الذمة، أما التجاوزات والجنح والجرائم التي يرتكبها الأفراد فيحاسبون عليها فرديا بدون أحكام مسبقة؟ ولا يلغى عقد الذمة جماعيا إلا إذا اتخذت التجاوزات والأخطاء طابعا جماعيا .

هل يمنع الإسلام الاشتراك مع اليهود في الأعمال ؟ هل يمنع المتاجرة معهم ؟ هل يمنع الاختلاط بهم أو الأكل معهم أو مصاحبتهم ...؟ هذه الأسئلة كان على المغيلي أن يبحث عن الجواب عليها في الكتاب والسنة قبل تقريره أحكامه، لأن الإسلام فرض الجزية على أهل الذمة مقابل الحماية في ظل حرية العبادة والتجارة وممارسة الحقوق والواجبات كاملة على غرار جميع رعايا الدولة الإسلامية دون تمييز، باستثناء شروط بسيطة تتعلق باحترام الدين الإسلامي والمجتمع الإسلامي وردت بتفصيل في كتابه "الأحكام السلطانية و الولايات الدينية " للفقيه علي بن محمد حبيب البصري الماوردي، وقد تم ذكرها من قبل، دون خلفيات عدائية. بخصوص الجزية التي يجزم المغيلي بأنها إذلال وإهانة لليهود يقول الماوردي أنها ..." موضوعة على الرؤوس واسمها مشتق من الجزاء، إما جزاء على كفرهم لأخذها منهم صغارا ، وإما جزاء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقا "[100]. وهو هنا استعرض التعريفين المحتملين لمفهوم الجزية

دون المغامرة في ترجيح أحدهما على الآخر رغم تفوقه العلمي الفقهي ونبوغه على المغيلي. لذلك فإن انحياز المغيلي للتعريف الأول لا يمكن رده إلا لطبيعته المتشددة وغيرته المغالية على الدين التي هي وليدة الظروف التاريخية السياسية –الاجتماعية الصعبة التي سادت في عصره.

أصل الجزية هو الآية 29 من سورة التوبة التي يقول فيها الله سبحانه وتعالى: " قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُه وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ"، ويفسر الماوردي إعطاء الجزية "عن يد" بتأويلين؛ الأول :"عن غنى وقدرة، والثاني أن يعتقدوا أن لنا في أخذها منهم يدا وقدرة عليهم"[101] وفي قوله تعالى:"وَهُمْ صَاغِرُونَ" يضيف الماوردي بأن هناك تأويلات:" أحدهما أذلاء مستكينين. والثاني أن تجرى عليهم أحكام الإسلام، فيجب على ولي الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل في الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها في دار الإسلام. ويلتزم لهم ببذلها حقان: أحدهما الكف عنهم. والثاني الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين"[102]. ثم يروي عن نافع عن ابن عمر أنه قال :" كان آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم أن قال :" احفظوني في ذمتي"[103]. والجزية لا تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء، ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد ولا تؤخذ من خنثى مشكل إلا إذا زالت خنوثته وإشكاله. ويلاحظ أن تفسير الماوردي للآية 29 من سورة التوبة يسير وفق اتجاهين: أولهما صارم متشدد يرى أن الجزية جزاء لليهود على كفرهم وإذلالهم تؤخذ منهم بنوع من التسلط والاحتقار، وثانيهما معتدل يرى أنها جزاء للمسلمين على حمايتهم لليهود ورفقهم بهم وتؤخذ بالرفق كحق مالي مقابل خدمة أمنية – اجتماعية– اقتصادية للذميين تمكنهم من العيش في أمن واطمئنان كباقي رعايا الدولة الإسلامية. ويميل الماوردي من خلال حرصه على ذكر آخر ما تفوه به الرسول ﷺ " إحفظوني في ذمتي" إلى الاعتدال، وإلى الترجمة المعتدلة للآية القرآنية.

ولد الماوردي أبو الحسن سنة 370 هـ وتوفي سنة 450 هـ ومعنى ذلك أنه عاش ما بين القرن العاشر والقرن الحادي عشر الميلاديين أي في فترة تاريخية

تتميز بهيمنة العالم الإسلامي على الساحة الدولية تحت قيادة الدولة العباسية في المشرق والأموية في الأندلس، ولم يعش حتى يرى الحملات الصليبية التي بدأت سنة 1095م أو سقوط الدولة العباسية في 1258م وتفكك الأندلس والمغرب العربي الإسلامي إلى دويلات صغيرة متناحرة. هذه الظروف التاريخة الإيجابية كانت مصدر ثقة في النفس بالنسبة للماوردي وأهل عصره عامة وهي تفسر تسامحه الكبير واعتداله مع أهل الذمة.

المغيلي إضافة إلى طبعه المتشدد شاءت الصدف أن يعايش اليهود في جزائر ضعيفة مفككة ومنقسمة على نفسها إلى دويلات متناحرة في آخر سكرات الحضارة الإسلامية وفي أجواء من الغموض والخوف من المستقبل الذي كانت تهدده الحملات الصليبية بضرباتها القاتلة في الأندلس وسواحل المغرب الإسلامي. هذه الظروف الصعبة والحرجة عقدت المسلمين ومست ثقتهم في نفسهم وقد انعكست في مواقف بعض السياسيين والفقهاء من بينهم الشيخ المغيلي الذي انحاز بتطرف إلى التأويل الصارم لما جاء في القرآن بخصوص أهل الذمة، وصدم الأستاذ رابح بونار محقق كتابه :" مصباح الأرواح في أصول الفلاح" بخصوص الجزية ، كما صدم من قبل الفقيه أبو المحاسن محمود بن عمر عندما طلب من سلطان بلاد "التكرور" القبض على تواتيين أبرياء بـ:"كاغو" قبل أن يتراجع عن خطأه ويأمر بإطلاق سراحهم.

أما بخصوص بناء المعابد اليهودية التي استفز وجودها المغيلي،،فالإسلام يقوم على مبدأ" لا إكراه في الدين" ويحترم حرية العبادات وممارسة الشعائر والهياكل والمؤسسات الضرورية لها إذا كانت لا تسيء للإسلام والمسلمين وتحترم الشروط الواردة في عقد الذمة[104].

المهم أن أحداث "توات" وتمنطيط" التي تزعمها المغيلي ، انتهت بطرد اليهود من جزء هام من الصحراء وتهديم معابدهم والقضاء على احتكاراتهم ونفوذهم وسطوتهم على الناس في نهاية القرن 15م ووضعت حدا لحركية تجارية وسيطرة اقتصادية انطلقت دواليبها منذ القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. ورغم أن التجارة الصحراوية اليهودية شهدت ازدهارا كبيرا في العهد العثماني إلا أنها لم تبلغ أبدا ما كانت عليه من قبل ، قبل عاصفة المغيلي.

حياة المغيلي لم تكن كلها مقاتلة وغزوات وحملات عسكرية، لأن أحداث مطاردة اليهود لم تدم سوى بضعة سنوات. والمغيلي قبل كل شيء رجل علم وثقافة وليس عسكريا، لقد قدم الكثير للدعوة الإسلامية في إفريقيا السوداء حيث ساهم بقسط وافر في نشر الإسلام "بالسودان" ، أي مالي والنيجر، بما فيها "السنغاي" ، بمساعدة سلطانها " الأسقيا محمد الأكبر" ... وحسب الشيخ عبد الرحمن الجيلالي " دخل (المغيلي) بلاد أهروتكدة واجتمع بصاحبها وأقرأ أهلها وانتفعوا به ، ثم دخل بلاد "كنو" و"كش" من بلاد السودان واجتمع بصاحب كنو واستفاد عليه وكتب رسالة في أمور السلطنة تحت عنوان " تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين" وهي مطبوعة بمصر.., ثم رحل إلى بلاد التكرور فوصل إلى بلدة كاغو واجتمع بسلطانها ساسكي محمد الحاج وجرى الشيخ على طريقته هنالك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وألف له تأليفا أجابه فيه عن مسائل ..."[105].

عاد المغيلي إلى توات بعد مقتل ابنه عبد الجبار المغيلي وأقام بها كمدرس بمساجدها ومدارسها، وكمؤلف له أكثر من 14 كتابا أغلبها في الفقه وبعضها في اللغة ، إضافة إلى الرسائل التي كتبها في الدعوة إلى الإصلاح وفي علم المنطق. ومن أهم مؤلفاته:" مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، " أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي"، و" البدر المنير في علوم التفسير"، و" مغني النبيل في شرح مختصر خليل"، و" تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين" ، فضلا عن مجموعة من القصائد أغلبها في مدح الرسول ﷺ...

أمضى المغيلي بقية حياته في "توات" إلى أن وافته المنية سنة 909 هـ/1504م أو 1505م. مات بعد أن نفخ في النفير على طريقته الجريئة المتصلبة لينبه المسلمين إلى ما آلت اليه أوضاعهم من انحراف وضعف وانحطاط أكّده سقوط غرناطة في سنة 1492م وما تلاه من انعكاسات خطيرة ، ولينذرهم بالمخاطر المحدقة بهم التي كانت تهدد مصير كامل منطقة المغرب العربي. ولم يمر وقت طويل على وفاته حتى احتل الإسبان جزءا كبيرا من سواحل المنطقة بعد أن سقطت الأندلس بأيديهم ...، وشاءت الصدف أن يدخل الكاردينال خيمينس (Ximénés) وPedro Navaro مدينة وهران من باب المرسى دون عناء بفضل خيانة

يهودي يدعى "اشطورا" (Stora) كان مكلفا "بحراسة الثغر"[106] بحيث فتح الباب للجيش الإسباني بتواطؤ قائد مسلم معه يصفه الجيلالي بـ:"منافق يتظاهر بالإسلام"[107]. كان ذلك سنة 1509. وبمجرد فتح باب المرسى للعدو"... تدفقت جنوده بخيلها ورجالها وجاءت كالسيل الجارف وساعدهم على ذلك بعض الخونة ممن باع ذمته تلقاء دريهمات معدودات مثل بني عامر وشافع وكرشتل، وحيمان وغمرة وقيزة، وأولاد عبد الله، وأولاد علي والونازرة "[108]. الإسبان آنذاك ذبحوا نحو 8000 من الأطفال والعجزة الذين لم يتمكنوا من الفرار من المجازر الرهيبة التي كانت ترتكب في المدينة المحتلة[109].

اليهودي "اشطورا" (Stora) كان يشغل منصبا ساميا في الجهاز المالي لدولة بني زيان كمسؤول كبير عن المكوس قبل أن يدير ظهره للجزائريين ويورط معه بعض المسلمين من أجل العمالة للإسبان،

فكانت خيانته نتيجة منطقية للتهاون والإنحلال اللذين أصابا المسلمين ..، وتأكيدا مُبرّرا إلى حدّ ما لمخاوف أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي. بمجرد سقوط المدينة، يذكر أحد المؤرخين اليهود بأنه " من أجل الاحتفاظ بامتيازاتهم التجارية، تحول كبار التجار اليهود الوهرانيين إلى مرشدين (GUIDES) للجيوش الإسبانية وممونين لها بالعبيد "[110] حتى من المسلمين، واستمر ذلك طوال القرن السادس عشر الميلادي.

على العموم إن أبرز الأحداث الصعبة التي عرفها اليهود في الجزائر منذ الفتح الإسلامي حتى دخول العثمانيين ، مهما قيل عنها ومهما حاولت الأوساط الصهيونية – اليهودية تضخيمها واستغلالها، تبقى أحداثا طارئة وعابرة ومحدودة جدا في الزمان والمكان، لم تؤثر على السير العادي لحياة اليهود..، وكانت مجرد زوابع عابرة بالمقارنة مع الاضطهاد والمجازر التي لا قوها على يد الرومان والبابليين في العصور القديمة، وبأوربا المسيحية فيما بعد إلى غاية القرن 20 م. ولم تكن حياتهم بالجزائر كما يصورها المؤرخون الصهاينة مجرد مطاردة وملاحقة ومقاتلة وحريات مقيدة، بل كانت حياة عادية جدا شاركوا فيها المسلمين أفراحهم وأحزانهم، وتقاسموا فيها عموما السراء والضراء.

الأحداث العنيفة التي عاشها بعض اليهود في بعض مناطق البلاد لم تكن سوى استثناءات عابرة تعود إلى ظروف سياسية عامة أو اقتصادية – اجتماعية طارئة بما فيها تلك التجاوزات والأخطاء اليهودية. والعنف السياسي الذي يرافق سقوط نظام أو دولة وصعود نظام أو دولة جديدين لم يقتصر على اليهود فقط بل مس حتى المسلمين الذين دفعوا أكبر حصة من ثمن الإختلالات السياسية والاضطرابات الاقتصادية – الاجتماعية في ذلك العصر. أما أسطورة الحقد الديني العنصري للمسلمين على اليهود فلا تعدو سوى ضرب من الخيال الدعائي الهادف إلى تشويه الحقائق التاريخية.

حملات فرض الطاعة على الشعب من طرف الحكام كما حدث عند ظهور دولة الموحدين ثم دولة المرابطين، وصراع الدويلات وا لإمارات في فترات الضعف والانحلال، وتناحر البدو والحضر، والقبائل فيما بينها، والقبائل مع الحكام، أثرت كثيرا على الأمن والاستقرار وورطت الجميع بما فيهم اليهود في الفتن والحروب. وكانت مصدر أحداث عنيفة واضطرابات خطيرة دفع الجميع ثمنها. اليهود في الجزائر كانوا مواطنين مكرمين كاملي الحقوق والواجبات، ولا نجد أحسن من كلمات حاخامهم الكبير في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات من هذا القرن موريس إيزنبث M. Eisenbeth (Grand Rabbin d'Alger) لتلخيص الأوضاع العامة التي عاشوها في البلاد. إيزنبث يقول: " ... هنا لم يكن اليهود ضحايا لا للقمع ولا للمعاملات الاستثنائية. لقد كانوا يتنفسون بحرية، وكان بإمكانهم التنقل بكل أمان، فعاشوا في سلام مع المسلمين وتمتعوا بحماية الحكام. كانوا يعيشون حياتهم الخاصة ويسيرون أعمالهم، ويتعاطون كل أنواع التجارة، ويقدسون الرب على طريقتهم الخاصة سواء كانوا في حاراتهم أم مختلطين بالمسلمين ..."[111]، ويسانده في هذا الرأي أندري شوراقي (A. Chouraqui) الذي يقر بأن ما تعرض له اليهود بالجزائر من مصاعب عبر التاريخ لم يكن أبدا ناتجا عن أحقاد مهما كانت[112].

2 - الدور الاقتصادي اليهودي والشبكة التجارية اليهودية بين القرنين 8 م و 15 م:

عندما دخل الإسلام إلى الجزائر تراجع الدور الاقتصادي اليهودي نسبيا تحت تأثير تغير البنيات الاقتصادية الجزائرية والدولية بسبب النظام الدولي الجديد الذي أقامته الدولة الإسلامية. وتطلب الاندماج اليهودي في النظام الجديد فترة زمنية قبل الانطلاق ثانية في المنافسة الاقتصادية والمساهمة في الحركة التجارية للعالم الإسلامي والمشاركة الواسعة في حركية المبادلات الإسلامية– المسيحية.

في المرحلة التي تلت دخول الإسلام إلى الجزائر حتى العهد العثماني، اشتغل اليهود بمختلف الحرف والمهن التي كانت سائدة في ذلك الوقت. أقلية صغيرة منهم متوسطة الحال عادة أو فقيرة اشتغلت بالزراعة والرعي، كما كانت نسبة هامة منهم تمتهن مختلف الصناعات الحرفية التي استقطبت حتى بعض التجار اليهود في فترات الكساد التجاري. لكن هذه المشاركة في الصناعة تركّزت عموما ، سواء في الجزائر أو في بقية المغرب العربي الإسلامي، حول الصياغة وصناعة الذهب والفضة والنحاس التي نبغوا فيها بامتياز وكادوا يحتكرونها لأنفسهم ، وكذلك في صناعة الخمور.

لكن أهم نشاط اقتصادي زاولوه في الجزائر باستمرار وعلى امتداد تاريخ تواجدهم بها ، وعلى مستوى واسع هو التجارة التي تعد ثابتة تاريخية من الثوابت اليهودية. كارل ماركس المفكر اليهودي الألماني يكون قد وصف ..." حضارة اليهود (بأنها) حضارة السوق وعقيدة التاجر" [113]. مسعود كواتي يجزم بأنه "..لا توجد تقريبا سلعة في أسواق المغرب الإسلامي وفي حوض المتوسط لم تمر على أيدي اليهود" [114]. ومن أهم هذه السلع التي يتفادى المؤرخون اليهود ذكرها والنبش فيها ؛ العبيد والغلمان، فقد كانوا من أكبر أربابها ومحتكريها حتى لا نقول محتكريها الرئيسيين. والتجار اليهودهم الذين ابتدعوا ظاهرة خصاء العبيد والغلمان[115]. وقد لمعت في الميدان التجاري أسماء يهودية عديدة بارزة ذات شهرة ونفوذ دوليين آنذاك ، مثل : جودة بن يوسف ، إسحاق اللاوي، نحري بن نسيم، إبراهيم بن بيجو، وخلفون بن نيتا نيال

الدمـياطي، الذين سجلوا حضورا قويا في التجارة بين المغرب والمشرق في القرن 12م، بينما امتدت نشاطات ابراهيم وخلفون حتى الهند. كما برزت عائلات يهودية كاملة في التجـــارة بين المغرب العربي والضفـــة الشمالية للبحر المتوسط مثل : بن النجار (Ben Netjar)، إسحاق ليفي (Issac Lévi) الذي يمكن أن يكون هو نفسه إسحاق اللاوي المذكور من قبل، بن هارون بكري (Bacri Ben Haroun)، بن دافي (Bondavi)، بن زكي (Ben Zequi) وإسحاق بن إبراهيم التواتي... برزت هذه العائلات في القرن 13م[116]، وكان أفرادها يشكلون من كثرة التنقل والإرتحال من بلاد إلى أخرى بسلعهم وبواخرهم وقوافلهم شركات متعددة الجنسيات بأتم معنى الكلمة. وأصبحوا هم أنفسهم شخصيات ذات هوية متعددة الجنسيات Des personalités multinationales يصعب تحديد انتمائها الجغرافي وهويتها الثقافية.

تطورت التجارة الصحراوية بواسطة القـوافل او ما يسمى بالتجارة العابرة للصحراء (Le commerce Transaharien) منذ الفتوحات الإسلامية تدريجيا إلى أن أصبحت عصبا حساسا في تجارة منطقة المغرب العربي الإسلامي الداخلية والخارجية، ونالت لذلك اهتماما خاصا من طرف يهود المنطقة الذين أصبحوا مع مرور الزمن أقطابها الحيويين الذين يتحكمون في ديناميكيتها وهياكلها حتى القرن 15م. تجارة القوافل هذه تطورت إلى شبكة قوية ومتشعبة تتوسط المبادلات بين شمال الصحراء حتى جنوب أوربا من جهة وجنوب الصحراء حتى مالي والنيجر والسينغال من جهة أخرى، كما امتدّت بعض فروعها حتى إلى المشرق وما جاوره. اليهود حققوا منها ثروات خيالية ونفوذا قويا في المنطقة.

يتفق المؤرخون والباحثون في موضوع التجارة الصحراوية في القرون الأخيرة من العصور الوسطى على كون هذه الأخيرة لم تعرف توسعها ونضجها الحقيقي إلا بانتهاء الفتح الإسلامي لمنطقة المغرب العربي في القرن 8م[117]. ومر تطورها بأربعة مراحل رئيسية تعكس مراحل تطور الدور التجاري لليهود الجزائريين، وحتى المغاربة والتونسيين والليبيين، ونسبة مشاركتهم في ديناميكتها، بحيث كلما زاد هذا النوع من التجارة توسعا كلما ازداد عموما دور اليهود فيها وتضاعف بالتالي نفوذهم في المنطقة.

تمتد المرحلة الأولى من القرن 8م إلى بداية القرن 11م، حيث تم خلالها وضع الهياكل القاعدية البشرية والاقتصادية الضرورية للتجارة الصحراوية أين احتجز اليهود لأنفسهم بها مراكز حساسة واستراتيجية منذ البداية. واقتصرت التجارة الصحراوية في هذه الفترة على منطقة المغرب العربي وبعض المدن الإفريقية السوداء المحاذية لها، مع بعض الامتداد إلى الشرق نحو مصر الفاطمية .

أما المرحلة الثانية الممتدة من القرن 11م إلى منتصف القرن 13م، فتتميز بظهور الإمبراطوريتين المرابطية ثم الموحدية اللتين –الأولى خاصة– أعطتا دفعا كبيرا للتجارة مع بلاد السودان المتمثلة حاليا في مالي والنيجر وبعض المناطق المجاورة لها. بينما تمثل المرحلة الثالثة، التي تغطي كل القرن 14 م وجزءا هاما من القرن 15، العصر الذهبي للتجارة العابرة للصحراء وللنفوذ اليهودي في حركيتها. لكن المرحلة الرابعة الممتدة من النصف الثاني من القرن 15م إلى القرن 16م كانت مرحلة كساد كبير لهذه التجارة وتفكك تدريجي لشبكة القوافل والتجار و لجميع الهياكل التابعة لها، مما أدى إلى تراجع ملموس في دور اليهود وفي إمكانياتهم الإقتصادية نسبيا. ويعود ذلك أساسا إلى الإضطرابات الكبيرة بحوض المتوسط والاكتشافات الجغرافية الحديثة، والتحولات العميقة التي رافقتها في النظام العالمي الذي كان سائدا آنذاك ، وكذلك إلى أحداث "توات" التي قادها محمد بن عبد الكريم المغيلي في نهاية القرن 15م ، ولوأن هذه الأحداث تبقى عاملا ثانويا إلى حد ما وظرفيا. بينما كانت التطورات السياسية الاقتصادية والجيوستراتيجية العالمية عاملا هيكليا عميق الأثر وحاسما.

* المرحلة الأولى من القرن 8 م إلى القرن 11م:

الكلام عن النشاط التجاري المكثف الذي عرفته الصحراء الكبرى يؤدي بنا حتما إلى تناوله في إطاره الجغرافي الطبيعي المغاربي بعلاقاته وروابطه بأوروبا وإفريقيا السوداء من أجل رصد الدور اليهودي فيه بوضوح.

في هذه المرحلة بدأت تبرز الهياكل الضرورية للتجارة عبر الصحراء، من قوافل ورؤوس أموال، وشبكة الطرق التي تمر منها هذه القوافل، والهياكل الأمنية وكذلك المراكز التجارية التي كانت بمثابة محطات للقوافل والتجارة التي ستصبح مستقبلا مدنا كبيرة وعامرة لعبت دور همزة الوصل بين أقاصي

الجنوب المغاربي والشمال، وبين الشرق والغرب. فكانت عصبا استراتيجيا ينظم وينسق حركة تجارة القوافل في الصحراء الكبرى وبينها وبين شركائها في الشمال والجنوب. ومن أبرز هذه المدن – المراكز التجارية الرئيسية التي شكلت النواة الأولى للتجارة الصحراوية وساعدت على ازدهارها، نذكر: تاهرت، وغارداية، وورقلة التي أقامها الرستميون الخوارج..، وكذلك "توات"، وتقرت، وسجلماسة، وتمنطيط، وبعض مدن الجنوب التونسي والليبي، وحتى بعض مدن جنوب الصحراء بمالي والنيجر وأبرزها تمبكتو وأوداغوست التي قال عنها البكري في "المسالك والممالك" بأنها تحتوي على عدّة أسواق، جامع كبير، وواحات بالإضافة إلى أحسن وأنقى ذهب في العالم.

هذه المدن التجارية سجلت حضورا قويا للعنصر اليهودي الذي كان يشكل نسبة هامة من السكان المقيمين بها، وتمكن من المراقبة المتزايدة لحركيتها الاقتصادية – السياسية سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وكانت وراء تنامي نفوذه على التجارة الصحراوية مع مرور الزمن.لذا أصبحت له قوة تجارية كبيرة بسجلماسة مثلا تنسق بإحكام جميع نشاطاتها مع يهود المناطق والبلدان الأخرى من المحيط إلى الخليج وشمالا مع يهود جنوب أوربا ؛ من إسبانيا حتى اليونان وتركيا في مراحل لاحقة. ولمعت في هذه المدينة التجارية أسماء يهودية بارزة أثرت كثيرا من التجارة الصحراوية، من بينها: أبو زكري يهوذا هـا– كوهين، وهو وسيط تجاري ثري عين بفضل نفـوذه وتجـربتـه في القرن 12 م بمنصب وكيل التجار الشمال – إفريقيين بالقاهرة.

بتوات وتقرت والقرارة وحتى ورقلة، وهي كلها مدن جزائرية ، أقام عدد معتبر من التجار والوسطاء اليهود الذين قدموا عموما إلى المنطقة من المشرق في الفترة التي أعقبت الفتوحات الإسلامية وبعد أن برزت أهميتها الاقتصادية [118]. كما استقرت مجموعة يهودية أخرى بمنطقة "توجان" في الجنوب التونسي، وبالصحراء الليبية، ومالي والنيجر وكذلك بمدينة تنديرمة جنوب شرق تومبوكتو ... [119].

وكانت هذه المراكز التجارية الصحراوية مرتبطة ببعضها البعض ارتباطا عضويا بفضل القوافل التجارية التي كانت تنتقل بينها في ذهاب وإياب منذ القرن الثامن الميلادي ، وكانت صلاتها وثيقة ودائمة بالمدن الشمالية كفاس

وبجاية وقسنطينة والقيروان وطرابلس...، فساهمت بالتالي مساهمة فعالة في وضع الأسس الأولى لهذه التجارة، ونسج شبكتها الأولى، ولعب اليهود دورا طلائعيا في تنشيطها بعد أن أحسوا بأهميتها.

في سنة 1173 كتب بنيامين التُطلي (Benjamin de Tudèle) الأندلسي يؤكّد بأن جماعة من يهود مدينة حلوان المصرية كانت تعبر الصحراء الكبرى بالقوافل من أجل إيصال سلعها إلى غانا (*).

في هذه الشبكة كانت المدن الشمالية بمثابة أسواق ومراكز تحويل للمواد المستوردة من أقاصي الجنوب قبل إعادة تصديرها إلى نفس الاتجاه الذي أتت منه عبر مدن شمال الصحراء المنتشرة من المحيط الأطلسي إلى ليبيا، وحتى إلى مصر.

يمكن إذن أن نقول بأن التجارة الصحراوية كانت تتحرك حسب ثالوث جغرافي يتكون من ثلاثة دوائر رئيسية هي : إفريقيا السوداء – مدن شمال الصحراء– مدن شمال منطقة المغرب العربي، حيث كانت اقتصادات هذه الدوائر متكاملة ومرتبطة ببعضها البعض ارتباطا عضويا. كما كانت لكل دائرة من دوائر هذا الثالوث وظيفة معينة ومحددة؛ فالأولى تقوم بجمع المواد والسلع الخامة، والثانية وظيفتها التوزيع بين الدائرة الأولى والثالثة، وتتكفل الدائرة الثالثة بعملية التحويل للمواد والسلع الخامة. وبما أن دور الدائرة الثانية إستراتيجياً وحساساً لأنها الوسيط والمحرك والممر الحيوي الذي يتحكم في كل النشاط التجاري فإن اليهود تمركزوا بصورة خاصة على مستوى هذه الدائرة، وهذا ما يفسر حضورهم المكثف بمنطقة توات آنذاك، غرداية، تقــرت وورقلة ...، وغيرها من المدن الواقعة شمال الصحراء بين الدائرتين التجاريتين الأولى والثالثة.

لقد استفاد اليهود من عدة مميزات مكنتهم من احتلال الصدارة في التجارة الصحراوية وحتى غير الصحراوية. أولها جغرافية – دينية وتاريخية تتمثل في تشتتهم عبر كامل المساحة التجارية الشمال – إفريقية الشاسعة، بمختلف دوائرها من أقصاها إلى أقصاها، في جو تضامني قوي يقوم على الرابطة الروحية التي تجمع بينهم. وقد مكّنتهم هذه الميزة من احتكار الإعلام الإقتصادي

– التجاري. والثانية هي الطبيعة السياسية الاجتماعية لمنطقة المغرب العربي حتى ظهور المرابطين والموحدين، إذ كانت مجزأة في غالب الفترات إلى إمارات صغيرة ومملكات مستقلة عن بعضها البعض تشكل كل منها قطبا سياسيا تجاريا قائما بذاته حيث يتم التقسيم الاجتماعي للعمل على أسس عرقية – دينية، بحيث أن كل قبيلة أو كل مذهب ديني يتخصص في وظيفة أو بضعة وظائف معينة تتوارثها عبر الأجيال وتصبح تقليدا متعارفا عليه.

كان نصيب اليهود في ظل هذا التقسيم يتمثل في بعض الحرف بصورة محدودة وفي التجارة بشكل واسع خصوصا وأنهم يمتلكون خبرة تاريخية عريقة فيها فضلا عن الدوافع النفسية – الاجتماعية (psycho-sociologique) المتمثلة في حبّ المال.

في هذه المرحلة الأولى من تطور تجارة القوافل استفاد اليهود كثيرا من انتشارهم الجغرافي في المراكز والمدن التجارية الحيوية ومن خبرتهم العريقة، لكن أيضا، وبصورة أهم، من التسامح الكبير والرعاية التي نعموا بها على يد الرستميين ومن الدور الحيوي الذي أصبحت تلعبه الجزائر ومنطقة المغرب العربي بين المشرق والأندلس من جهة، وبين العالم الإسلامي والعالم المسيحي وكذلك العالم الإفريقي من جهة أخرى. وقد برزت هذه الاستفادة في ثرواتهم التي شهدت نموا متسارعا وأوضاعهم العامّة التي عرفت الاستقرار والازدهار.

*** المرحلة الثانية (من القرن 11 م إلى القرن 13م):**

في المرحلة الثانية، رغم أن النشاط التجاري الصحرواي استمر في تطوره ونموه حسب الميكانيزمات السابقة دون أن يتأثر بتحول وجهة الحركة التجارية التونسية بأسواقها ومراكزها وهياكلها إلى مصر الفاطمية بعد تأسيس القاهرة، فإن الدور اليهودي قد تراجع بشكل ملحوظ لسبب جيوسياسي يتمثل في توحيد منطقة المغرب العربي من طرف المرابطيين الذين توسعوا حتى افريقيا السوداء، والموحدين الذين كان لهم نفس النفوذ والتأثير تقريبا على الوضع الجيو سياسي، حيث توحدت الهياكل التجارية وأصبحت تحت المراقبة الصارمة لهاتين الدولتين الإسلاميتين "الأورثوذكسيتين". نفوذ اليهود التجاري في الصحراء تراجع كثيرا لصالح المرابطين الذين تكفلوا

بأنفسهم بهذا القطاع بعدما بسطوا سلطتهم وسيادتهم على المنطقة، وأظهروا مقدرة كبيرة على التحكم فيه بفضل أصولهم الصحراوية من جانب، وبفضل قوتهم السياسية التنظيمية والتعبوية من جانب آخر. وقد تأثر النفوذ التجاري اليهودي كذلك بطرد المرابطين لهم من بعض المراكز التجارية الحساسة بالصحراء الناتج عن تشددهم الديني وعدم ثقتهم في العنصر اليهودي، لأسباب ذكرناها سابقا، وخوفهم عن مصير الإسلام والمسلمين في وقت كثرت فيه المؤامرات والهجمات الصليبية في المشرق والمغرب على المسلمين[120]. فأصيبت الشبكة التجارية اليهودية بالتصدع وتفككت بعض هياكلها حتى اضطر بعض اليهود في حالات محدودة إلى الاشتغال على المحور الشرقي: شمال إفريقيا– الهند مثل ابراهيم بن بيجو وخلفون بن نيتانييل الدمياطي.

أما الدولة الموحدية فقد كانت سيطرتها على الصحراء أقل إحكاما من سابقتها، ومع ذلك كانت تملك من القوة ما يكفي لمراقبة الجزء الأعظم من التجارة العابرة للصحراء بكل هياكلها من قوافل ومواصلات ومدن العبور. وقامت هي الأخرى بتشديد الخناق والحصار على اليهود في بداية وجودها على غرار الدولة المرابطية بنفس الدوافع ولنفس الأسباب.

مع ذلك سجلّت الوثائق التاريخية نشاطا مُعتبرا للتُّجار العبريين بمنطقة المغرب العربي وبالجزائر بصفة خاصة. ففي سنة 1235م، سُجلّت مراسلات ومبادلات تجارية عبر القوافل بين إسحاق بن إبراهيم التواتي بتوات ووكلائه وزملائه مناحيم بن ساسون وعوس (أو أوس) بن تُبِّر الهمشري والمسلم بن علي بن داوود بمدينة دمنهور المصرية. كما سُجلّت علاقات تجارية أيضا بين عمران المراكشي بتوات ونفس المجموعة المصرية[*].

لهذا كانت الفترة الممتدة من القرن 11م إلى القرن 13م صعبة بالنسبة لليهود في كامل منطقة المغرب العربي أثرت على نفوذهم وعلى قوتهم التجارية إلى حين سقوط المرابطين والموحدين وعودة الدويلات الصغيرة السهلة الاحتواء والاستغلال لحماية المصالح التجارية – المالية اليهودية.

*** المرحلة الثالثة (من النصف الثاني للقرن 13م إلى نهاية القرن 15م):**

بعد سقوط الدولة الموحدية وانقسام المغرب العربي الإسلامي إلى دويلات وإمارات صغيرة استعادت المصالح اليهودية نفوذها مستغلة في ذلك الرعاية المرينية والحفصية والزيانية مقابل الخدمات والمساعدات المالية والاستشارية التي كانت تقدم للملوك والأمراء. عودة اليهود إلى مسرح الأحداث بقوة سمحت لهم باسترجاع نفوذهم التجاري الذي كانوا قد فقدوه في عهد المرابطين والموحدين، كما بلغوا قوة سياسية جعلتهم يتقلدون المناصب الإدارية والسياسية العالية المستوى. وشاءت الصدف أن تتزامن هذه العودة القوية مع تبلور بعض التطورات الجديدة في حوض المتوسط وإفريقيا السوداء المحاذية للصحراء ساهمت بقدر وافر في دفع عجلة المبادلات التجارية إلى الأمام وبلوغها قمة النضج.

أول هذه التطورات ديمغرافي يتمثل في موجة الهجرة اليهودية من إسبانيا إلى منطقة المغرب العربي على إثر أحداث إشبيلية والباليار سنة 1391، حيث دعمت ، برصيدها من التجار والأثرياء والإطارات الدينية والفنية العالية المستوى التي تكونت في البيئة الأندلسية، التواجد اليهودي بالمنطقة على جميع المستويات، وشكلت خزانا من الإطارات واليد العاملة المؤهلة للشبكة التجارية اليهودية. أما التطور الثاني فيتمثل في استعادة المسلمين لمدينة "عكا" الفلسطينية سنة 1291م نهائيا[121] وانتهاء الحروب الصليبية بالمشرق مما أدى إلى تحقيق انفراج نسبي للأزمة المسيحية – الإسلامية بفضل ميل كفة ميزان القوى إلى المسلمين، وإلى استقرار كاف في البحر المتوسط لازدهار المبادلات التجارية بين ضفتيه الشمالية والجنوبية خصوصا في جهته الغربية. أما ثالث هذه التطورات الجديدة فهو التغيرات السياسية التي طرأت على جنوب الصحراء في نفس الفترة بظهور إمبراطورية مالي وهي إمبراطورية قوية توسعت من الحدود السينغالية إلى النيجر وبعض مناطق السودان وفرضت الأمن والاستقرار، الضروريين للنشاط التجاري، مما شجع على مضاعفة حجم المبادلات وحركتها من وإلى الشمال[122].

في هذه المرحلة تجاوزت تجارة القوافل الصحراوية - دود منطقة المغرب العربي والبلدان الإفريقية الزنجية المحيطة بها لتدمج أوربا المتوسطية في ديناميكيتها بشكل موسع ، وهي عملية بدأت بوادرها تظهر منذ نهاية المرابطين والموحدين. فأصبحت الدوائر الرئيسية لهذه التجارة تتمثل فيما يلي:

إفريقيا السوداء– منطقة المغرب العربي– أوربا المتوسطية. ويسير النشاط التجاري بينها حسب تنظيم عقلاني محكم وفعال يأخذ بعين الاعتبار كل التطورات السياسية والاقتصادية وجميع المعطيات التقنية للسير العادي والحسن له. ولعبت المراكز التجارية بشمال الصحراء دور همزة الوصل أو العمود الفقري لهذا النظام وطاقته المحركة لجميع هياكله الأخرى ومراكزه من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ومن أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، حيث جمعت حولها في نسيج من المصالح المتكاملة والمتشابكة عدة مدن وحواضر مثل : جنوة والبندقية وصقلية ومرسيليا... من جانب، وفاس، سجلماسة، قبل انحطاطها في النصف الثاني من القرن 14م. وقسنطينة وتلمسان وبجاية وعنابة من جانب آخر، ثم تمبوكتو و ولاطة، وأوداغوست، وغيرها...

كانت الجاليات اليهودية على وعي بالأهمية الجغرافية – الاقتصادية الاستراتيجية لشمال الصحراء فاستقرت أعداد هامة منها بمدنه من تمنطيط إلى توات وتقرت وغرداية وورقلة...، وسيطرت بالتالي في جو من التضامن القوي فيما بينها على هذا النظام التجاري سيطرة قوية. ولم تتمكن منافسة بعض التجار المسلمين، ولو باشتراكهم مع التجار اليهود في العديد من الأحيان، من كسر هذه الهيمنة التي بدأت تعرف أحجاما وأبعادا خطيرة على التوازن الاقتصادي – الاجتماعي– السياسي في الجزائر وفي المنطقة كلها. دور التجار اليهود كان قويا حتى في التجارة المتوسطية خصوصا أثناء الخلافات والأزمات السياسية– العقائدية بين ضفتي المتوسط حيث تتوقف حركة التجار المسلمين والمسيحيين خوفا من الاعتداءات والانتقامات. فتخلو الساحة بالتالي لليهود الذين كانوا يتحصلون على رخص وامتيازات خاصة من حكام وأمراء الدول والمماليك المسيحية والإسلامية على السواء لممارسة نشاطاتهم التجارية في أمان. كما لجأ اليهود إلى تزوير وثائق هوياتهم عند الضرورة

والتظاهر بالإسلام في بلاد الإسلام وبالمسيحية في العالم المسيحي من أجل الاحتفاظ بمواقعهم وأدوارهم في المحاور التجارية الأساسية لذلك الوقت[123].

لم يترك اليهود خصوصا في هذه الفترة أي شيء للصدف في نشاطهم، حيث وظفوا نظاما إعلاميا قائما بذاته شديد الفعالية، مصادره جميع الجاليات اليهودية التي تمد بعضها البعض بالمعلومات السياسية والاقتصادية والجغرافية..، الضرورية لاتخاذ القرارات الاقتصادية – التجارية[124]. لذلك كانوا أكثر اطلاعا على بنية الأسواق التجارية، والعرض والطلب بها، وعلى قنوات التوزيع وإمكانيات المواصلات وغيرها من الهياكل القاعدية للتجارة العابرة للصحراء.

وسط هذه الحركة التجارية التاريخية الكبيرة، برزت واحة توات كقطب ذي كثافة سكانية يهودية مرتفعة تدور في فلكه بقية المدن التجارية الصحراوية بعد أن عرفت هذه المدينة نموا متواصلا منذ القرن 8م و9م لم يقطعه لا قدوم المرابطين ولا الموحدين. لذلك أصبحت بين القرنين 14م و15م محطة تجارية حساسة على المحور : تلمسان – توات – النيجر. لكنها تحولت في نفس الوقت أمام الاحتكارات اليهودية القوية إلى قاعدة استراتيجية للتجار والأثرياء اليهود الذين أقبلوا من كل مكان للإقامة بها وسيطروا تدريجيا على أمورها مستغلين تساهل وتسامح الحكام الزيانيين والحفصيين الذي ساعدهم على توطيد نفوذهم في الصحراء وفي توات وتمنطيط على وجه الخصوص. هذا التسامح كانوا يقايضونه عموما بالمساعدات المالية التي لم تكن سوى رشاوي مقنّعة وبربط مصالحهم بمصالح بعض المسلمين بالاشتراك معهم في رساميل الصفقات التجارية. نفوذ اليهود واحتكاراتهم بلغت حدا رهيبا في توات وانتهوا إلى الاضطرابات التي كادت أن تمحو أثرهم منها في نهاية القرن 15 عندما تحرك الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي. وعندما زار التاجر الجنوي أنطونيو مالفانتي (Antonio Malfante) توات في سنة 1447م إندهش للرفاهية التي كان ينعم بها اليهود والذين قال بخصوصهم أن "تجارة (المنطقة) بين أيديهم"[*].

في الفترة الممتدة ما بين القرن 14م و15م ، كان اليهود يحتكرون تصدير الحبوب من الجزائر إلى الخارج وبرز " ...يهود توات.. كوسطاء تجاريين مع إفريقيا السوداء .. وكانوا على علاقات تجارية وثيقة بيهود وهران وتلمسان إذ

كانوا يبيعونهم الذهب المسحوق (la poudre d'or) وريش النعام مقابل شراء القمح والنحاس عنهم ..،(و) في الشرق الجزائري كان يهود بجاية يستوردون الفضة الأوربية لتموين الصناعة التقليدية المحلية، كما كانوا يتاجرون أيضا بالملح، والجلد (cuir)، والنسيج (textiles) والشموع، والعبيد (incirconcis). يهود قسنطينة الذين كانوا يهوون البيع بالتجوال (colporteurs) كانوا يحملون بضاعاتهم إلى مدن الجنوب باتجاه تقرت، قفصة وتوزر"[125].

*** المرحلة الرابعة (من نهاية القرن 15م إلى القرن 16م):**

مع نهاية القرن15 م اشتركت عدة عوامل جيو سياسية في إحداث موجة من التحولات العميقة على منطقة حوض المتوسط والصحراء، تتمثل أساسا فيمايلي:

أولا : سقوط الأندلس وما تلاه من احتلال إسباني لسواحل منطقة المغرب العربي واستيلاء على أهم مدنها التجارية وحلول الإسبان محل اليهود في العمليات التجارية الكبيرة. هذا الحدث تسبب في اختلال التوازن القديم للشبكة التجارية العامة التي سوف تحرم نسبيا من سوق هامة هي سوق جنوب أوربا. وحوّل المحور الثلاثي الأقطاب : أوربا المتوسطية– المغرب العربي– افريقيا السوداء، إلى محور ثنائي الأقطاب: المغرب العربي – إفريقيا السوداء فقط. ففقد اليهود بذلك دورهم الاستراتيجي كوسطاء تجاريين رئيسيين بين ضفتي المتوسط. ولم يبق مشتغلا على هذا المحور سوى عدد محدود جدا منهم.

شملت الهجمات المسيحية الصليبية على المغرب العربي حتى اليهود ولاحقتهم حتى على السواحل الجزائرية ومست بالتالي أمن التجارة اليهودية. كذلك عندما احتل الإسبان بعض سواحل غرب إفريقيا برزت محاور تجارية جديدة بحرية أساسا أفقدت المحاور القديمة، العابرة للصحراء، قيمتها وأهميتها وأدت إلى كساد تجارتها وإلى انحسار أكبر للدور اليهودي التجاري بالمنطقة .

ثانيا: تحولت الأنظار عن الذهب الإفريقي الزنجي إلى ذهب العالم الجديد الذي اكتشفه كريستوف كولومبس سنة 1492م أي في نفس السنة التي سقطت فيها الأندلس وانهار النظام الدولي الإسلامي لصالح نظام جديد غربي مسيحي – يهودي. ففقد حوض المتوسط والبلدان المحيطة به – خاصة الواقعة في

جنوبه — أهميتها نسبيا بالمقارنة مع السابق في التجارة والاقتصاد الدوليين لصالح المحيط الأطلسي وسواحل غرب أوربا، وبصورة أخف بعض سواحل غرب إفريقيا. فكانت هذه التغيّرات العميقة في الطرق التجارية العالمية ومحاورها وأقطابها الرئيسية بمثابة ثورة في الجغرافيا التجارية العالمية، تسببت في تخلف المراكز والأقطاب التقليدية والمسيطرين عليها عن الدور الريادي الطلائعي.

كان اليهود من أكبر المتضررين من هذه التحولات التي فاجأت العالم بأسره، فرحل من رحل منهم من المراكز القديمة ليواكب التطورات ويستقر حيث يستقر مركز الثقل الجديد للتجارة العالمية، وانحسر دور من بقي منهم بشكل كبير، خصوصا بعد أحداث توات التي طرد المغيلي على إثرها اليهود من أهم الواحات التجارية في الصحراء. فتفككت احتكاراتهم وشبكتهم التجارية التقليدية وأثرت بذلك على الوضعية المالية لمن كانت استثماراتهم التجارية متمركزة في الصحراء .

عرفت التجارة الصحراوية إذن عشية دخول العثمانيين إلى الجزائر اضطرابات واختلالات هيكلية أضرت باليهود بسبب التحولات العميقة التي طرأت على العالم فجأة سنة 1492م بسقوط الأندلس و الاكتشافات الجغرافية الحديثة، كما تأثر اليهود محليا بأحداث توات التي قضت على تجمعات يهودية كاملة بالصحراء، زالت بزوالها محاور تجارية بكاملها. التجارة في الشمال وإن تأثرت هي الأخرى بهذه التحولات تمكنت من الاستمرار بصورة أحسن من التجارة الصحراوية واستعادت حيويتها بمجرد طرد الأتراك العثمانيين للمحتلين الإسبان من السواحل الجزائرية. أما تجارة القوافل عبر الصحراء فقد تطلبت وقتا أكبر لتستعيد قوتها، لكن هذه القوة لم تبلغ أبدا ما كانت عليه من قبل. وهذا ربما ما سيدفع بنسبة كبيرة من يهود العمق الجزائري إلى الرحيل إلى المدن الشمالية التي بدأت تتسع شيئا فشيئا وتكتسي أهمية اقتصادية متزايدة وواعدة. هناك سيكون التجار اليهود على موعد جديد مع التاريخ حيث سيصنعون جزءا هاما منه أثناء العهد العثماني .

3 - الوضع الاجتماعي، الديني والثقافي لليهود في الجزائر منذ الفتح الإسلامي حتى دخول العثمانيين:

لقد سمح تنامي الثروة والنفوذ لدى اليهود الجزائريين ما بين القرنين 8م و15م بتحسين أوضاعهم الاجتماعية ومستوى معيشتهم، وانعكس ذلك بشكل إيجابي على مستوى نموهم الديمغرافي حتى أصبحت الجزائر وحدها، أي المغرب الأوسط، تشتمل حسب ريتشارد حيّون وبرنارد كوهين على13 إلى16 "جالية مهيكلة" بين القرن 10م ونهاية "العصور الوسطى"[126] أي القرن 15م، بغض النظر عن المجموعات الصغيرة المعزولة في المناطق الصحراوية البعيدة أو في الجبال. وذلك بنواحي قسنطينة، بجاية،و الجزائر، بْريشك Breshk، مستغانم، تنس ، القرارة، مازونة، مازقران، وهران، تلمسان، تمنطيط، وبعض مرتفعات جرجرة، ورقلة، تقرت ، بسكرة، نقاوس، والميزاب...الخ. هذه المجموعات اليهودية التي كانت تقيم في الجزائر احتفظت بخصوصياتها الدينية واتخذت منها محورا يدور حوله تنظيمها القبلي وجميع جوانب حياتها المادية والروحية، لذلك كان دائما يُنظر إليها كأقلية دينية بحتة وكان التعامل معها يتم بمقتضى عقد الذمة والشروط الممكنة الملحقة به.

من أجل تنظيم الطقوس الدينية وتوحيدها والتقليص من حدة التباينات الناتجة عن اختلاف أصول مختلف التجمعات اليهودية، فضلا عن الحاجة إلى التنظيم الطائفي الداخلي، بدأت الهياكل الدينية تبرز في الجزائر منذ القرن 10م و11م على غرار بقية أقطار المغرب العربي، حسب النماذج التنظيمية السائدة آنذاك. بينما اكتفت في حالات أخرى بنقل النماذج التنظيمية القديمة التي كانت موجودة بفلسطين. في هذه الفترة شهدت مدينة تلسمان ميلاد مؤسسة دينية – سياسية، تتمثل في منصب "الناجد" أو " المقدم"[127]، وهو الزعيم الروحي للطائفة اليهودية المحلية الذي تجمّعت وتوحدت حوله نشاطاتها الدينية وسلوكاتها الاجتماعية."الناجد" يمثل أعلى سلطة داخل الطائفة ويلقبه البعض بـ:" أمير الشعوب، ورئيس المحكمة والقائد القديم لقدماء يهوذا" (chef ancien des Ancien de Judas)، فهو يسيّر نظامها القضائي الداخلي، وهو الناطق باسم طائفته رسميا لدى السلطة الإسلامية، وهوالذي يسيّر كذلك ممارسة الطقوس والشعائر والأعياد الدينية...

هذه المؤسسة لم تكن وحيدة بل هي واحدة من جملة الهياكل التنظيمية الجديدة التي فرضها التطور الاجتماعي – الاقتصادي – السياسي الذي واكب الفتح الإسلامي للجزائر، والاختلافات الدينية بين الجاليات الشمال – إفريقية والجاليات التي فرت إلى الجزائر من إسبانيا القوطية، وتلك التي جاءت من المشرق في أعقاب الفتوحات وبعدها، فضلا عن العائلات التي كانت تلتحق بالجزائر في ظروف استثنائية من هولندا وأنجلترا وفرنسا... في القرنين 14م و15م. كانت الاختلافات الثقافية قد بدأت تطرح ضرورة توحيد أو تقريب الممارسات الدينية اليهودية من بعضها البعض على الأقل.الحاخام اليهودي الفرنسي المعروف بـ "Le rabbénou tam" (الرّبيّبْ تام) كان قد تنبه منذ القرن 12م إلى هذه الاشكالية وقام بمحاولة توحيد الطوائف اليهودية دينيا واجتماعيا بضمها إلى النظام القانوني اليهودي الفرنسي، لكنه فشل في ذلك.

وكان على اليهود الجزائريين الانتظار حتى القرن 14م كي يشهدوا محاولة أخرى مشابهة حققت نجاحا نسبيا على يد الحاخامين الشهيرين: ريباش أوريباخ(ribash) وراشباش أو رخباخ(rashbash)، لكن في هذه المرة حول نظام قانوني ديني إسباني من إثني عشر مادة يدعى: الحلخة (halakha) ويعرف أيضا بـ: تكنوث مدينة الجزائر Les takanoth d'Alger ، تطلب فرضه على الجاليات اليهودية الجزائرية، في العاصمة وضواحيها أساسا، وقتا ومجهودات وتحايلات كبيرة من طرف هاتين الشخصيتين اللتين ستتحولان في المستقبل إلى الرمز الروحي ليهود الجزائر على مر العصور. وأدت محاولاتهما هذه في كثير من الأحيان إلى مواجهات بين مختلف الجاليات اليهودية الجزائرية، القديمة والحديثة الوجود بالبلاد أو كما كانت تسمى بالعبرية: التوشابيم والميغورشيم (TOCHABIM ET MEGORACHIM)[128].

تأثير الحاخامين ونظامهما الجديد سوف يمتد حتى إلى منطقة توات بالصحراء أين كانت تصل فتاويهما وإرشاداتهما بواسطة أبراهام هاكوهين شلال، أحد تلامذة راشباش بمايورقة الإسبانية، عبر مرفأ حنُين القريب من تلمسان.

يُعتبر ريباش وراشباش من أكبر الزعماء الروحيين ليهود الجزائر الذين تركوا بصماتهم عميقة في حياتهم العامة. الأول هاجر إلى مدينة الجزائر

إثرأحداث الباليار وقشتالة وإشبيلية سنة 1391م فرارا من القمع الإسباني المسيحي. و اسمه الكامل: (Isaac Barfat Bar chechet) (1310– 1408– أو 1326– 1442). ولد ببرشلونة واشتغل بها حاخاما قبل ان ينتقل إلى سرقسطة (Saragosse) و(calatayud) (قلعة اليهود أو قلعة أيوب) وكتلونيا (catalogne) وبلنسية(valence) وطرطوشة (tortosa) ثم إلى مدينة مليانة ليحط رحاله بمدينة الجزائر التي قبل استقراره النهائي بها كان قد فاز بتعيين سلطان تلمسان له حاخاما كبيرا (Grand Rabbin) بفضل مساعي طبيب السلطان الخاص ومقربه اليهودي أستروك كوهين Astruc cohen. بمدينة الجزائر وضع نظام الحلخة ودونه وبدأ تطبيقه بمساعدة صديقه راشباش الذي خلفه على رأس الطائفة اليهودية بالعاصمة بعد وفاته، كما اشتهر بمجموعة من الفتاوى تخصّ الحياة الدينية والاجتماعية للطائفة.

راشباش هو أصلا طبيب من مايورقة (Majorque) ثم أصبح حاخاما كبيرا بمدينة الجزائر، إسمه الحقيقي سيمون (أو شمعون)بن سماح دوران Simon ben semah duran وأصل أجداده من منطقة بروفانس بجنوب فرنسا كما يبدو من بنية اسمه"Duran". ولد سنة 1361 وتوفي بمدينة الجزائر إما في سنة 1442 أوفي 1444. وعاش هو الآخر قمع واضطرابات ومطاردات سنة 1391 التي مارسها الإسبان المسيحيين ضد اليهود و المسلمين، ولم يلجأ إلى الجزائر مع ريباش إلاّ بسببها، واشتهر راشباش بفتاويه الثمانمائة (800).

إلى اليوم الحاضر مازال يهود الجزائر يحيطون هذين الزعيمين الروحيين بهالة من التقديس والاحترام ويقدمون لهما الأضحيات والقرابين في الأعياد الدينية. إنهما ينامان في ضريحيهما بمقبرة اليهود ببولوغين إلى اليوم، ومن هناك يحرسان المدينة ويهودها ويسهرون على راحتها وطمأنينتها كما يقول الفلكلور اليهودي على غرار الدوّر الذي يقوم به سيدي عبد الرحمن الثعالبي مع المسلمين في المعتقدات الفلكلورية الإسلامية.

وأصبحت مدينة الجزائر منذ قدوم هذا الثنائي إليها مركز إشعاع ديني يهودي فاق تأثير مدينة سجلماسة بالمغرب الأقصى، كما فاقت تلمسان مدينة تافيلالت تجاريا.

في الغرب الجزائري قامت شخصية يهودية أخرى بتأطير الجالية العبرية التلمسانية بلغت من الكاريسماتية حدا لم تبلغه أية شخصية أخرى وذاع صيتها في كامل شمال إفريقيا. إنها الشخصية الأسطورية المعروفة بـ: رب النقاوة أو الربي إفرايم النقاوة إبن "المعْلّمْ" إسحاق هاكادوش (أو هاقدّوش) النقاوة Le Maître Issac Hakadosh Enkaoua (1359– 1442) الذي لجأ إلى تلمسان فارا من القمع المسيحي بمدينة طليطلة.

في الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى دخول العثمانيين، إرتبط اليهود في الجزائر بعلاقات وثيقة مع يهود البلاد الإسلامية الأخرى ومع يهود أوربا ونقلوا عنهم جميعا نماذج مؤسساتية وتنظيمية دينية حاخامية. روابطهم بيهود فلسطين بقيت متميزة جدا تطبعها تلك الهالة من التقديس والتعظيم الناتجة عن قداسة الأرض الفلسطينية والرموز الدينية– الروحية والتاريخية التي تزخر بها. الروابط الدينية بقيت قوية بين مختلف الجاليات اليهودية المنتشرة في العالم الإسلامي وحول حوض المتوسط واتّسمت بتعاون قوي وتضامن واسع في جميع المجالات.

تميّزت الحياة الإجتماعية اليهودية في هذه الفترة على العموم باستقرار شامل وبازدهار اقتصادي ثقافي ديني كبير. كما تميز العنصر اليهودي بحركية جغرافية ديناميكية نابعة من ممارسته للنشاط التجاري، وهو النشاط الذي سيحرك ديناميكية تمدنه المبكر منذ أواخر القرن 15م، في سياق بحثه عن الأسواق المزدهرة ومعدلات الربح العالية والأسواق المالية حيث معدلات الفائدة الربوية مغرية، علما بأن أهم هذه الأسواق تمركزت منذ هذه الفترة في كبريات المدن والحواضر. أحداث توات وتمنطيط التي قادها المغيلي ساهمت هي الأخرى في هذه العملية بحيث انتقلت العديد من العائلات الصحراوية اليهودية إلى الإقامة في الشمال. كساد التجارة الصحراوية بعد الإكتشافات الجغرافية الحديثة وتغير بنية التجارة الدولية ومحاورها ، وسقوط الأندلس..، أدت كلها إلى تراجع الوضع الإقتصادي في الصحراء والمناطق الداخلية للبلاد وإلى تحول الريادة التجارية – الاقتصادية إلى المدن الكبرى المنتشرة على طول الشريط الساحلي للبلاد.

هذا الاستقرار العام والازدهار الاقتصادي- الاجتماعي صاحبه ازدهار ثقافي طبيعي خصوصا وأنه جاء في بيئة حضارية كانت في أوج عطائها، أنجبت خيرة العلماء والمفكرين للبشرية في ذلك الوقت من ابن رشد إلى ابن خلدون وابن طفيل وغيرهم. فاستفاد اليهود من هذه الحضارة الإسلامية وكونوا في أحضانها نخبة هامة من العلماء والمفكرين والأطباء، ونقلوا النظام المدرسي التربوي الإسلامي، فأنشأوا المدارس الحاخامية منذ القرن 10 م في تلمسان حيث لعبت دورا كبيرا في تعليم وتثقيف الجالية اليهودية وتكوين إطاراتها الدينية على الأقل في المستوى الأولي الابتدائي.

في ذلك الوقت كانت الجاليات اليهودية أمية على العموم، لكنها كانت تملك نخبة من الإطارات والمثقفين ؛ أدباء وفنانين وأطباء وعمال مهرة ذوي مستوى جيد لا يقل أهمية عن مستوى النخبة المسلمة. هؤلاء شكلوا النواة الرئيسية التي أطرت الجاليات اليهودية وسيّرت شؤونها الداخلية وعلاقاتها بالمسلمين وبالسلطة الإسلامية. أسماء عديدة منها معروفة ورد ذكرها في المراجع الإسلامية التاريخية، لكن المصادر اليهودية- الصهيونية لا تسلط الأضواء إلا على بعضها بطريقة انتقائية تتماشى مع إيديولوجيتها ومصالحها السياسية والاستراتيجية.

لقد شاركت شخصيات يهودية مثقفة عديدة في الحياة العامة للدويلات الإسلامية الجزائرية وبرز حضورها القوي داخل الإدارة السياسية والاقتصادية في الدولة الزيرية وفي الوسط الإباضي وفي دولة بني حماد أين أقام اليهود مدرسة تلمودية ترأسها سليمان ديان بن فرماس بعد وفاة سابقه إسحاق بن يعقوب الفاسي. أطباء ومستشاري الخلفاء والأمراء كانوا في الكثير من الحالات من اليهود. إبن عطاء هو إسمٌ للطبيب الخاص للمعز بن باديس الصنهاجي، وهو يهودي. إسحاق الإسرائيلي وهو يهودي أيضا كان هو الآخر طبيب عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين، كما كان موسى بن العازار طبيبا خاصا للمعزلدين الله الفاطمي. ونال اليهودي أستروك كوهين Astruc cohen مكانة أكبر لدى الزيانيين، بحيث كان طبيبا خاصا للأمير ومستشاره ومقربه ورئيسا للطائفة اليهودية التلمسانية قبل مجيئ صديقه ريباش. خليفة بن رقاصة الذي

ذكره الشوراقي برز هو الآخر في دولة بني زيان وتقلد عدة مناصب حتى بلغ منصب الحاجب قبل أن يغتال إثر اضطرابات سياسية حدثت بالقصر الملكي بينه وبين مختلف القوى الأخرى المتصارعة على النفوذ[129].

أعطى اليهود للجزائرعدة فلاسفة ولغويين وفقهاء وأدباء ساهموا بقدر ما في الديناميكية الثقافية – العلمية لذلك الوقت، أي في الجزائر الموحدية والمرابطية وجزائر الدويلات السابقة واللاحقة.وتدعّمت الشبكة التجارية الجزائرية الداخلية والخارجية بخرائط الجغرافيين اليهود المايورقيين (Majorquins) حتى و إن كانـت مكتفية ذاتيا بالأعمال الضخمة الشهيرة آنذاك للرحالة والجغرافيين المسلمين مثل المقدسي، المسعودي، البكري، ابن بطوطة وغيرهم. لكن هذه الخرائط لم يكن إنجازها ممكنا لولا التوجيهات والمعلومات التي وفّرها لهم التجار المسلمون بحوض المتوسّط وإفريقيا الأدرى بجغرافية بلادهم. وكانتـ خرائط الجغرافيين اليهود أكثر تداولاً لدى الأمم المسيحية منها لدى المسلمين. ومن أبرزها في أوساط الرحالة والبحارة والتجار، ″أطلس أبراهـام قراسك″ (أو هافنقريش، أو إبن قريش) L'Atlas d'abraham Gresque الذي ذاع صيته من بين مجموعة أخرى من الجغرافيين اليهود ذوي الأصول الميورقية الذين تردّدوا على منطقة المغرب العربي خصوصا والذين لجأوا إليها بعد أحداث إشبيلية والباليار سنة 1391 كي يتفادوا التمسّح الإجباري. نذكر منهم يهوذا قراسك (Yehuda Gresque) أو يهوذا بن قريش إبن أبراهام بن قريش، وكذلك أخيه حاييم، بالإضافة إلى بتروس روسيلي Petrus Roselli، وسوليري Soléri، وأوليفا (أو عُلَيْبَة) Oliva و أنجيلو دولسيرت Angelo Dulcert ...الخ [*]. لكن الرّيادة في هذا المجال بقيت في يد المسلمين مهما قيل عن النبوغ اليهودي.

الأعمال الفكرية لابن رشد وأبو حامد الغزالي سمحت بوجود فيلسوف يهودي من طراز موسى ابن ميمون الأندلسي الذي تظاهر بالإسلام قبل لجوئه إلى القاهرة عبر المغرب الأقصى والجزائر. هذا الأخير كان من أكبر المعجبين والمهتمين في عصره بفلسفة ابن رشد، فسار على نهجه ونبغ في الفلسفة حتى أصبح من أبرز مفكري العصر.ابن ميمون ألف عدة كتب أبرزها وأكثرها أهمية ″دلالة الحائرين″

الذي كتبه باللغة العربية قبل أن يُترجم إلى العبرية، وحاول على صفحاته"...التوفيق بين اليهودية والإسلام وبينها وبين الفلسفة، مما أغضب اليهود ولم (ينل) قبول المسلمين وأطلق اليهود على كتابه "ضلال المهتدين". [130]

ومع ذلك بقي ابن ميمون بقانونه المرجع الأساسي للقوانين اليهودية الدينية والفتاوى في شمال إفريقيا. ونظام الحلخة بمواده الإثني عشر المعروفة بـ (Les Takanoth d'Alger) ليس، سوى نموذج للتأثير العميق لثقافة ابن ميمون في الحياة اليهودية طوال عدة قرون. لكن هذا الفيلسوف رغم الإشهار اليهودي – الصهيوني بقي يدور دائما في فلك ابن رشد ويكرر أفكاره، وبذلك بقي مجرد تلميذ عاجز عن إنتاج الجديد، وتعكس أعماله بوضوح أستاذه. وأبرز عمل لابن رشد ترك بصماته في مؤلفات ابن ميمون هو "الأمر بالمعروف" حسب A.chouraqui [131].

فلسفة ابن رشد ستعطي أيضا الجاليات اليهودية الجزائرية بعد ابن ميمون مفكرا متوسطا حتى لا نقول رديئا هو سعدية قاوون (Saadia Gaon) الذي اشتهر بما يسميه A.Chouraqui فكرة "توازن القانون الديني" (l'equilibre de la loi religieuse). مفكر آخر من الصنف المتوسط برز في المنطقة هو يهوذا هاليفي أو اللاوي (1085– 1148)، (أو 1075 – 1141)؟، الطليطلي الذي عاش طويلا بغرناطة، أين اشتغل طبيبا وأستاذا قبل هجرته إلى المشرق. له كتاب عنوانه " الحجة والدليل في نصرة الدين الذليل"، حوالي 800 قصيدة شعرية مازالت تتغنّى بها بعض المعابد اليهودية، بالإضافة إلى كتاب "الحزري" (بالعبرية "كوزري") الذي ألّفه باللغة العربية. وكذلك اشتهر الطبيب المفكر يعقوب قابيسون Jacob Gabison بتلمسان في القرن 14م، فلسفته ميمونية.

مسعود كواتي يستنتج بعد عرضه للفلسفة اليهودية في "المغرب الإسلامي والأندلس حتى عهد الموحدين" بأنه لم تكن لليهود فلسفة آنذاك وكل ما كان لديهم منها نقلوه عن المسلمين، ويضيف بأن "...موسى بن ميمون قد غالج مسألة العقل والدين وهي مسألة عولجت من طرف الكثير من الفلاسفة كابن رشد وابن سينا وابن باجة، "وقد كان اليهود أول من اهتم بفلسفة ابن رشد وترجموا معظم كتبه إلى العبرية واعتبره فلاسفتهم أستاذا لهم، وتمكنوا من نظرياته" مما يبيح القول أن فلسفتهم كانت رشدية" [132].

أهمل اليهود في الجزائر كما في بقية المغرب العربي والأندلس لغتهم وأقبلوا على استعمال اللغة العربية، لغة الحضارة في ذلك العهد، ولم يكتفوا بالتعرّب فقط في المستوى الثقافي – العلمي النخبوي بل استعملوا العربية أيضا " ... كلغة تخاطب وتواصل بين الجاليات اليهودية في حوض المتوسط...(ف) أثّرت في اللغة العبرية نفسها، فتجددت وتطورت"[133]. ويذكر كواتي من اليهود الذين اهتموا بالدراسات اللغوية بما فيها المقارنة اللغوية التي كانت ميدانا علميا جديدا آنذاك كل من مروان بن جناح الذي يعتبره اليهود من الأوائل الذين كتبوا في النحو العبري ، والرائد الحقيقي في هذا الميدان في الأوساط اليهودية سعديا الفيومي صاحب "كتاب الأمانات" وترجمة عربية للإنجيل. ابن جناح له مؤلفات في النحو العبري باللغة العربية فيها تأثر واضح بأسلوب معاصريه المسلمين، كما درس بعمق اللغة العربية ونحوها وقواعدها.

في نفس هذا الميدان نبغ يهودي آخر من العمق الجزائري لغوي وطبيب وشاعر هو يهوذا بن قريش التاهرتي الذي أقام بفاس أيضا لبضعة سنوات، عاش في القرن 9م، درس البنيات المرفولوجية (structures morphologique) للبربرية وتعمق في دراسة العربية والآرامية والفارسية، وقد ترك بحوثا كاملة حول هذه اللغات. يهوذا بن قريش التاهرتي يصفه عادل نويهض في "معجم أعلام الجزائر" (1930) بـ :" واضع أسس النحو التنظيري"، كما يعتبر من بين رواد علم النحو المقارن.

في الشعر لم يبرز شعراء يذكرون في الجزائر من الطراز الرفيع ، والذين وجدوا منهم تأثروا عموما بالمواضيع الإسلامية وتقنيات وأسلوب الشعر العربي وقد كتبوا الشعر بالعربية وبالعبرية. لكن أبرز الشعراء اليهود الناجحين ظهروا في الأندلس مثل إسماعيل بن النغريلة الذي اقتبس لأول مرة في تاريخ الشعر اليهودي الشعر القصصي والخمريات والإخوانيات والغزل ووصف المعارك ووصف الطبيعة والرثاء، وابن جبرول الذي ألف لأوّل مرّة في تاريخ اللغة العبرية قصيدة طويلة في النحو العبري على غرار ألفية ابن مالك، كما كتب المقامات[134].

في تلمسان برز شاعر متوسط المستوى في القرن 14 هو علال بن صيدون Allal Ben Sidoun وأبراهام بن مائير زميرو Abraham Ben Meir Zamero.

منذ القرن التاسع الميلادي برز عدد من علماء الدين والحاخامات اليهودية بتاهرت ثم بعدها بمختلف الجهات في مختلف الدويلات والإمارات، ومنذ تلك الفترة يذكر أندري شوراقي والصلات وثيقة بينهم وبين المراكز العبرية البابلية في العراق وفي بقية بلدان العالم الإسلامي وعلى رأسها فلسطين. وبقي التبادل الثقافي – الديني حاضرا باستمرار في علاقاتهم خصوصا فيما يخص الأحكام الدينية والفتاوى.

لمعت تلسمان كقطب ثقافي – ديني عبري منذ ظهور المدارس الحاخامية بها في القرن 10م، مما دفع إليها بالكثير من العائلات اليهودية الأندلسية خصوصا منذ 1391م، حيث أقبلت عليها شخصيات دينية وثقافية معروفة تركت بصماتها عميقة في تطور جاليتها اليهودية وفي تاريخ المدينة ككل. "الولي الصالح": الربي إفرايم النقاوة" أو" رب نقاوة" (1359–1449م) كان من أبرز وأقدم هذه الشخصيات استقرارا بتلمسان فرارا من القمع الإسباني المسيحي الذي تعرض له اليهود سنة 1391م. هذا "الربّي" الذي جاء من طليطلة، وإن لم يترك وثائق مكتوبة أو مؤلفات تسمح بتقييم وزنه الديني– الثقافي، فإن ضريحه وحده الموجود قرب ندرومة إلى اليوم والذي مازال يحج إليه يهود الجزائر وحتى بعض يهود فرنسا وبقية أقطار شمال إفريقيا كل سنة يعد دليلا كافيا على دوره الثقافي – الديني آنذاك وسط جاليته إلى الحد الذي أعطاه كل هذه الكاريسماتية والقداسة التي لاتُمنح إلا إلى الشخصيات الاستثنائية.

شخصيات أخرى قدّمت إسهاماتها الثقافية– الدينية منذ أن التحقت بالبلاد، فبقيت أسماؤها محفوظة في الذاكرة الجماعية اليهودية الجزائرية، نذكر منها ريباش، صاحب كتاب "Les Takanoths d'Alger"(135)، وزميله راشباش، السابقي الذكر وسليمان (أو سلومون) بن سيمون دوران، Juda Kallac صاحب كتاب ديني بالعبرية تحت عنوان "ميسياح يلّيمين" "Messiah Yllemin"(136)، نقل جثمانه سنة 1921 م إلى المقبرة اليهودية ببولوغين أوSaint Eugène سابقا هو ومجموعة أخرى من كبار حاخامات الجزائر. ومن هؤلاء أيضا الفيلسوف الشاعر Abraham Ben Meir Zmiro، ويهوذا الأشقر juda Alashkar. وإذا كان Juda Kallac قد عاش في تلمسان وعاصر ريباش وراشباش، ورب نقاوة، فإن

يوسف إفرايم كارو (Josephe Ephraim Caro) (1488-1575) شخصية مخضرمة عاشت نهاية الدويلات والإمارات الصغيرة وعاشت كذلك النصف الثاني من حياتها في الجزائر العثمانية الموحدة، وهو أحد أعلام وقته الذين ملأوا الفراغ الذي تركه لدى الطائفة اليهودية موت ريباش وراشباش. يوسف إفرايم كارو حاخام إسباني الأصل أي من الميغورشيم، أقام مدة طويلة في الجزائر ثم لجأ إلى فلسطين احتجاجا على ما كان يعتبره تجاوزات دينية لليهود في الجزائر واستقر بمدينة صفد أين خلف أستاذه يعقوب بالرب (Jacob Berrab) بعد وفاته، إلى أن وافته المنية. يوسف الأشقر كان هو الآخر من الأعلام اليهود الدينيين ويدعى ER-RKYESE وهو أخ يهوذا الأشقر، الذي أتى برفقته إلى الجزائر من الأندلس بعد 1492[137].

الحركة الثقافية والدينية اليهودية عامة التي كانت سائدة في الجزائر ما بين الفتح الإسلامي والعهد العثماني لم تكن سوى جزء من الحركة الثقافية - الدينية الشاملة التي كانت سائدة في الجزائر والمغرب الإسلامي ورافدا من روافدها ووجها من أوجهها. أما الحديث عن ثقافة عبرية مستقلة بذاتها أو قومية تُعبّر عن شعب قائم بذاته منفصل عن محيطه الإسلامي فهذا ليس سوى ضرب من الخيال القومي الذي لا يمت للواقع بصلة ولا يتعدى كونه مجرد طرح قومي تزامن ظهوره في المؤلفات اليهودية مع ظهور الحركة السياسية القومية اليهودية المعروفة بالصهيونية في أواخر القرن 19م. وتقود هذه الحركة المحرفة للتاريخ مختلف الهيئات والمنظمات الصهيونية مثل الرابطة الإسرائيلية العالمية والحركة الصهيونية العالمية وغيرها. إن هذه الثقافة اليهودية وليدة البيئة الإسلامية العربية - البربرية التي كانت سائدة في الجزائر، بحيث نشأت في أحضانها ونمت واتسعت وتطورت بنموها واتساعها وتطورها، ثم تراجعت وانطفأت بتراجعها وانطفائها وتفاعلت معها بانسجام في كل حركاتها وفي كل ظروفها.

أكثر من ذلك، اتخذت هذه الثقافة اليهودية من اللغة العربية لسانها الذي عبر عن معظم صورها وأشكالها كما تُبيّن ذلك المؤلفات العديدة التي كتبها اليهود باللغة العربية قبل ترجمتها إلى العبرية، و بشهادة أندري شوراقي أحد أبرز المناضلين في الحركة الصهيونية العالمية ورئيس الرابطة الإسرائيلية العالمية

الذي يعترف بأن "اللغة العربية .. فرضت بصماتها العميقة في روح اليهودية بشمال إفريقيا. والظاهرة الأكثر إثارة وبروزا في تعرب اليهود هو استعمالهم للغة العربية في الأعياد والطقوس الدينية ولغايات صلواتية، حيث يقرأ الإنجيل في ترجماته العربية (على غرار ترجمة سعديا قاوون) في المعابد، ولا يتردد رجال الدين واللغويون وحتى الشعراء في استخدام العربية لتعليم حقائق عقيدة إسرائيل"[138]. آثار التعرب بقيت حاضرة بقوة في الشخصية الثقافية للفئات اليهودية القديمة الوجود بالجزائر إلى اليوم ولم تفد معها السياسة التغريبية التي مارسها الاستعمار الفرنسي طيلة 132 سنة. وفي عز العهد الاستعماري، مثلاً، يذكر الكاتب اليهودي الجزائري الأصل ألبير بن سوسان (Albert Ben Soussan) في Mon Algérie[139] بأن أباه في الثلاثينات والأربعينات (1930/1940) كان يترجم فوريا الصلوات والأدعية وما يُتلى أثناء الطقوس الدينية بالوسط العائلي إلى اللغة العربية حتى تتمكن جدته العجوز من فهمها ومتابعتها. وفي هذا ما يكفي لإثبات عمق الانتماء الثقافي لشرائح عريضة من يهود الجزائر للبيئة والحضارة العربية الإسلامية، رغم احتفاظها بهويتها الروحية. ألبرت بن سوسان، الذي قدمت عائلته من الأندلس إلى الجزائر إثر سقوط هذه الأخيرة بيد المسيحيين واستقر أجدادها بالغرب الجزائري قبل أن يغادر أبوه مدينة الغزوات ويقيم في مدينة الجزائر، مازال يكتب بحنين بأن جده كان "يتكلم بالعربية ويوُقّع بالعبرية"[140]. ويذكر أيضا باعتزاز بأنه كان ينادي جده مسعود :"بابا سيدي" وبأن أمه تدعى "عائشة"[141]. ألبرت بن سوسان مازالت ذاكرته تحتفظ بحرص شديد بالحكم والأمثال الجزائرية العربية التي تُشكّل إلى اليوم إحدى التوابل الرئيسية لمؤلفاته مثل :"التلمساني والفار ماتوريلهومش باب الدار" الذي ورثه عن أمه ، و" سوق بلا يهود كالقاضي بلا شهود"...

لقد جاء اليهود إلى الجزائر منذ أكثر من ألفي سنة بحثا عن الأمن والطمأنينة...، لكن استقرارهم النهائي والدائم بها لم يتم إلا بعد الفتوحات الإسلامية التي سمحت لأول مرة لليهود بالاندماج الطبيعي على أساس نفس الحقوق والواجبات كمواطنين داخل الدولة الإسلامية. في الأول كان تواجدهم بالجزائر لجوءا سياسيا، لكن في الفترة الإسلامية أصبح هجرة اختيارية ورغبة

قوية في الإقامة مع المسلمين، حيث شاركوهم حياتهم العامة رغم الاختلالات التي كانت تحدث في بعض الفترات الحرجة. أثناء إقامتهم مع المسلمين تمكن اليهود من تحقيق مستوى عال من النمو الاقتصادي والتطور الاجتماعي والسياسي، وقد ساعدتهم البيئة الحضارية الإسلامية المزدهرة على التقدم بخطوات طويلة بالثقافة اليهودية التي عاشت أرقى مستوياتها في ذلك العصر؛ الفنون، الآداب، الفلسفة، العلوم الدينية والعلوم اللغوية ، والعلوم الطبية وغيرها دخلتها الثقافة اليهودية بالجزائر من بابها الواسع بفضل الحضارة الإسلامية التي كانت مشعة على العالم في أجواء من التسامح العظيم والحرية التامة والمساواة مع المسلمين التي لم يشهدها اليهود من قبل في غير بلاد الإسلام. ومع ذلك بمجرد ما تغيرت موازين القوى الدولية لصالح العالم المسيحي في القرن 15م حتى شرعت فئات منهم في التحضير للتحالف مع الأقوى ودخلت في سلسلة من الخيانات وتحالفت حتى مع أعداء الأمس الذين قتلوهم وطاردوهم من إسبانيا بعد سقوطها من يد المسلمين. وقد لعبت هذه الفئات دورا حساسا وحاسما أحياناً في انهيار عدة مدن جزائرية وسقوطها بيد المحتلين الإسبان، وقامت كذلك بالإساءة للمسلمين والاعتداء عليهم ماديا ومعنويا. كل ذلك من أجل مصالح مالية مادية ظرفية عادة ما يُغلبونها على الاعتبارات المبدئية. الكاتب الفرنسي غوستاف ديزيليي Gustave des illiers ، وهو أحد المعادين لليهود في نهاية القرن 19م، قال عنهم :".. طالما وجدوا أية مصلحة في التظاهر بحب الوطن، سيكونون أذكياء بما فيه الكفاية للتظاهر بهذا الحب، لكنهم إذا استنفذوا مصالحهم المادية منه فإنهم سيلقون بالأقنعة أرضا.(إن) وطن هؤلاء الناس، يضيف ديزيليي، موجود حيثما توجد مصالحهم"![142].

الهــوامــش

1) توفي بالأبيار في صيف 1993 عن عمر يناهـز التسعين سنة، وهو أحد أقطاب الجالية اليهودية بالجزائر. حسب الدليل السياحي لمدينة الجزائر، (Guide Touristique. Alger, édité par la S.P.I.C.A., 8 rue Charras- Alger) الصادر في الخمسينات، "ولُد مارسيل بلعيش في سنة 1903 بمدينة الجزائر، وزاول دراساته بثانويتها وجامعتها التي تخرّج منها دكتوراً في القانون (الاقتصاد السياسي والقانون العام). في المجال السياسي، بدأ مشواره في سنة 1931م عندما تمّ انتخابه مستشاراً عامّاً للدائرة الانتخابية الثانية، وقد تكرّر انتخابه منذ هذا التاريخ. كما شغل منصب عضو سابق في المجلس السامي للحكومة، وهو الآن نائب في البرلمان الجزائري الذي أصبح النائب الثالث لرئيسه في سنة 1950 إلى جانب الرئيس فلْينوا (Flinois)". كما حاز مارسيل بلعيش، كأحد قدماء المحاربين الفرنسيين، على الميدالية العسكرية وعلى وسام الصليب الحربي، وشغل إلى غاية 1962 منصب رئيس المجلس العام، مما سمح له بأن يكون شخصية نافذة في الأوساط السياسية الجزائرية وصديقة للعديد من القادة الفرنسيين وعلى رأسهم وزير الداخلية آنذاك فرانسوا ميتران.

2) يهودي جزائري الأصل يقيم حاليا ومنذ الاستقلال بفرنسا، وأستاذ سابق بجامعة Rennes III، له عدد من الأعمال الأدبية وترجم عددا آخر من الروايات من الإسبانية إلى الفرنسية خاصة. بن سوسان كان يقيم بشارع داقير(Daguerre) بين تيليملي وشارع محمد الخامس بالعاصمة قبل الرحيل في 1962م.

3) أحد الانقلابيين ضد ديغول في 1960 برفقة الجنرالات الثلاثة : شال، زيلر، وسالان.

4) شخصية يهودية جزائرية حكم عليها بالإعدام بتهمة ارتكاب جرائم اقتصادية، الحكم نفذ سنة 1968م..

5) حسب عملية سبر آراء قامت بها أسبوعية Algérie-Actualités (العدد 1098، من 30 أكتوبر إلى 5 نوفمبر 1986) في أوساط الشباب حول تاريخ الثورة التحريرية، 28,89% منهم أي 1/3 فقط يعرفون أين تمت مفاوضات إيفيان. بعض المستجوبين يعتقدون أنها تمت في سطيف والبعض الآخر في قالمة أو خراطة أو حتى في طرابلس والصومام. أما السنّة التي وقع فيها إضراب الثمانية أيام ومعركة الجزائر فلا يعرفها سوى 1/5 من هؤلاء الشباب أي 21,48 % منهم فقط. ويورد بن يوسف بن خدة في كتابه :" جذور أول نوفمبر 1959" (ص27) أن طالبة في السنة الثالثة في معهد العلوم السياسية كتبت على ورقة امتحانها أن من بين القادة المساعدين للأمير عبد القادر، العقيد عميروش...

6) جـــاء هذا في حديث مع كاتبي Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire سنة 1981 في 26 ماي، أنظر نفس المرجع: ص 223.

7) جذور أول نوفمبر 1954 Les origines du 1er Novembre 1954 : Ben youcef Ben Khedda: P :25, 29. Editions DAHLAB 1989 .

8) من بينها: Au Nadir, (1976), Frimaldjézar (1973), la Bréhaigne (1970), Isbilia (1984), L'échelle de Mesrod (1965), Les Bagnoulis (1978)... ect.

9) Le dernier dévoir: A. Ben Soussan P. 31. Ecriture Arabe, l'Harmattan, Paris 1988.

10) Mon Algérie: Jean-Pierre Stora et Monique Ayoun. Edition Acropole 1989, Paris p. 33.

11) نفس المرجع ص : 33

12) نفس المرجع، ص : 65 ليلى العباسي كان مطربا محبوبا في مدينة الجزائر في الثلاثينات والأربعينات وذلك منذ بداية بروزه في وهران، وهو من مواليد سيدي بلعباس. من أبرز أغانيه: "وهران الباهية"، "هولّي ومحنّتي وعذابي"، "زْهيرو"، وهي من نوع الحوزي.

13) نفس المرجع ، ص : 66

14) نفس المرجع ، ص 128

15) أبوه سعديا شوراقي هو الذي بنى المعبد اليهودي لمدينة عين تيموشنت، كما تنتمي أمه "مليحة" إلى عائلة مائير Meyer المعروفة بالتدين. أندري شوراقي دكتور في الحقوق وفي الاقتصاد السياسي، وهو مدير" سلسلة سيناء" "La collection Sinaï"، مؤلفاته تدور حول اليهودية بمختلف جوانبها الروحية والدنيوية، عددها يتجاوز العشرين كتابا، وترجمت إلى 9 لغات، من بينها : Histoire des juifs en Afrique du Nord و Moïse .

16) André Chouraqui: Histoire des juifs en Afrique du nord. Hachette Paris 1985. p7.

17) نفس المرجع ص :8

18) Mon Algérie: Monique Ayoun et Jean-Pierre Stora. p. 19.

19) مونيك لهاروانية: Le radeau du désir: (Ed Belfond 1989).
أنظر: Mon Algérie: Monique Ayoun et Jean-Pierre Stora. p. 20.

20) يحدد قاموس (L3) Larousse السنة التي تمت فيها هجرة إبراهيم وقومه إلى فلسطين بسنة 1850 ق.م لكن هذا التاريخ يبقى نسبيا.

21) يفضل البعض اعتبار دور يوسف عليه السلام في النظام المصري آنذاك بمثابة منصب وزير الزراعة أو رئيس الحكومة.

22) قاموس (L3) Larousse، سنة 1985م.

23) قاموس (L3) Larousse، سنة 1985م.

24) يحدد حسين محمد عبد الرحمن في كتابه :"العرب و اليهود في الماضي والحاضر والمستقبل" تاريخ اعتلاء داوود العرش بسنة 1049 ق.م

25) "العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل" وقاموس (L3) Laroûsse.

26) La saga des juifs en Afrique du Nord: André Chouraqui. Edition Hachette Litterature 1972. p: 47.

27) Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire; Richard Ayoun et Bernard Cohen p: 27 Edition Jean-Claude Lattés. Paris 1982.

28) هذه الآثار ذكرها Gabriel Camps في بحثه Réflexion sur l'origine des juifs des Région Nord-Sahariennes الذي نشره في كتاب : Communautés juives des marges Sahariennes du Maghreb ص 62، Ed. Abitbol. Jérusalem 1982 ويذكر الباحث كذلك:
«... Un chapiteau très fruste et certainement de basse époque, trouvé à Rouahia près de Tiaret..(portant).. également une représentation de "Ménorah"». أما بخصوص الأسماء العبرية المنقوشة على العمود الأثري المذكور وجدت كالآتي : D(EVS ABR)AHAM, DEVS ISA(A)C .

29) أنظر دراسة لـ J.M.Lassare بعنوان: Onosmatique وردت في : "Communautés juives des marges" السابق الذكر ص 62 ذكرها : Gabriel Camps

30) أنظر :دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في الفترة الحديثة والمعاصرة، ص:283. ناصر الدين سعيدوني. الجزء 2 المؤسسة الوطنية للكتاب .الجزائر. 1988. وكذلك : كتاب الجزائر : أحمد توفيق المدني.

31) العلاقات السياسية و الحضارية بين العرب واليهود .. الدكتور علي حسن الخربوطلي، المطبعة الفنية الحديثة 1969، معهد البحوث والدراسات العربية – جامعة الدول العربية . ص : 38

32) العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود في العصور القديمة والإسلامية : الدكتور حسن الخربوطلي ص 38 ..

33) أنظر أيضا Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص : 30 و 31 ، و:Michel Ansky Les juifs d'Algérie.... ص : ، Editions de centre, paris 1950

34) La saga des juifs en Afrique du Nord: André Chouraqui. Edition Hachette France 1972. p: 59.

35) B. Cohen et R. Ayoun. Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'Histoire, Ed. J.C. Lattés Paris 1982, p:

36) أنظر B. Cohen et R. Ayoun. Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'Histoire, p: 29

37) هذا ما فعلوه أيضا مع الاستعمار الفرنسي بعد 19 قرنا بحيث تقمصوا الهوية والانتماء الفرنسيين بمجرد ما انهزم الجزائريون

38) أنظر مؤلفات B.Cohen و R.Ayoun و Henri Chemouilli ،Michel Ansky ،D.Bensimon و J.A Benayoun ...، ومنشورات معهد Ben-Zvi للبحوث حول الجاليات اليهودية الشرقية التابع للجامعة العبرية بالقدس...

39) في خضم الواقع الصعب الذي تعيشه البلاد، يلاحظ عودة إعلامية على صفحات الجرائد "الوطنية" لشخصيات يهودية وصهيونية، بوتيرة منسجمة مع وتيرة "تهدئة" الصراع العربي الإسلامي- الإسرائيلي اليهودي في إطار مشروع "السلام" في الشرق الأوسط. فهل هو تحضير للذهنيات وتعبيد للطريق ؟

40)كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبرفي أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: ابن خلدون

41) اليهود في المغرب الإسلامي (647م-م1269 م) من الفتح إلى سقوط الموحدين : كواتي مسعود . ص : 84، رسالة ماجستير تاريخ . الجزائر. 1992

42) نفس المرجع ص : 85 .

43) نفس المرجع ص : 85 ترجمة Deslane عنوانها: Histoires des bèrbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale: Ibn Khaldoun Alger 1852, Traduction de Deslane

44) نفس المرجع ص : 86.

45) أنظر : Joseph Tolédano. Les juifs Maghrébins, Edition Brepols, Belgique 1989, p: 207

46) أنظر: Histoire des juifs en Afrique du Nord.: Haim Hirschberg : ص : 35 و 36. 1935.

47) أنظر Haim Zafrani : Mille ans de vie juive au Maroc. ص 12 paris. 1985.

48)بعض المصادر اليهودية مثل "Les juifs d'Algérie" لريشارد حيون وبرنارد كوهين تركز كثيرا على مثل هذه الطقوس أو الفلكلور المتشابه، فيذكر نفس المصدر بأنه تم اكتشاف أن قبائل (بني مخفيلات) في أعماق الأوراس سنة 1955 مازالت تقدس أجداد يهود وتتلو حول أضرحتهم أدعية للتبرك هي عبارة عن خليط لغوي من البربرية والعبرية(Judéo-Bèrbère قبل بدء الحرث في كل سنة رغم اعتناقهم الإسلام منذ 14 قرنا.

49) Communautés juives des marges Sahariennes, Institut Ben-Zvi pour la recherch sur les communautés juives d'orient, YAD Izhak Ben-Zvi et l'Université Hébraïque de Jérusalem. 1982.

نشير في هذا السياق إلى أن وجود العنصر اليهودي بمنطقة "توات" و"القرارة" عريق جدا، إذ يذكر نفس المصدر بأن أول معبد يهودي هناك أي بالقرارة بعود تاريخه إلى سنة 517م، لكن هذا التاريخ يبقى نسبيا بسبب أحادية مصدره

50) Les juifs d'Algérie: Esquisses de l'histoire des juifs depuis les origines jusqu'a nos jours: Maurice Eisenbeth p.9 Institut de l'Encyclopédie Coloniale et Maritime., Paris

أما بخصوص يهود خيبر الذين هاجروا - كما يقال - إلى الجزائر وشمال إفريقية أنظر:
Les Israélites Algériens de 1830 à 1902: Claude Martin. p: 12 Edition Héraclès. Paris 1936.

51) اليهود في المغرب الإسلامي (647م – 1269م) من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين : كواتي مسعود ص : 81 رسالة ماجستير تاريخ. الجزائر 1992.

52) انظر رسالة الماجستير لمسعود كواتي :"اليهود في المغرب الإسلامي ..." ص : 111و112.

53) الشروط المستحبة هي في الحقيقة نتاج ظروف تاريخية خاصة خاضعة للاجتهاد وبالتالي هي قابلة للنقاش والمراجعة حسب الزمان والمكان. الماوردي يقول في "الأحكام السلطانية." (ص 127) بأنها "... لا تلزم بعقد الذمة حتى تشترط فتصير بالشرط ملتزمة ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لعهدهم، لكن يؤخذون بها إجبارا ويؤدبون عليها زجرا ولا يؤدبون إن لم يشترط ذلك عليهم".

54) ساعد اليهود المسلمين على فتح الأندلس وجندوا جاليتهم المقيمة بإسبانيا القوطية لهذه الغاية خصوصا وأنها كانت تعاني من الاضطهاد والقمع.

55) اليهود في المغرب الإسلامي : مسعود كواتي، ص : 99، رسالة ماجستير تاريخ. الجزائر 1992. ابن كثير يذكر في "البداية والنهاية"، ص 308 (الطبعة السادسة، منشورات مكتبة المعارف بيروت، الجزء الحادي عشر 1985) يعقوب بن يوسف ابن كلس بالمدح والثناء حيث قال :"... كان شهما فهما ذا همة وتدبير وكلمة نافذة عند مخدومه (أي المعز لدين الله)، وقد فوض إليه أموره في سائر مملكته، ولما مرض عاده العزيز (أي المعز) ووصاه الوزير بأمر مملكته ولما مات دفنه في قصره وتولى دفنه بيده وحزن عليه كثيرا، وأغلق الديوان أياما من شدة حزنه عليه".

56) اليهود في المغرب الإسلامي .ص 101

57) نفس المرجع : ص 114

58) أنظر اليهود في المغرب الإسلامي : مسعود كواتي، ص 99، رسالة ماجستير، تاريخ الجزائر 1992. في "البداية والنهاية" الجزء 11 الطبعة 6، منشوات مكتبة المعارف بيروت 1985 يبدو موقف ابن كثير من نسب الفاطميين غير محايد ويقوم على موقف سياسي وعلى النقل من مصادر لم تجزم بيهودية الفاطميين بل نقلت فقط ما قيل عنهم (ص:180)، مثل "الوفيات" لابن خلكان الذي يكتفي بعرض الآراء التي تقول بالنسب الفاطمي، ثم في النهاية يعبر عن ميله إلى الآراء المعاكسة بعد عرضها. أنظر كذلك "البداية والنهاية" ج 11، ص : 345، 346، 347.

59) نفس المرجع ص :100 كواتي م.

60) نفس المرجع ص :100 إلى 102

61) نفس المرجع ص :232

62) نفس المرجع ص :104. الطبيب ابن عطاء كان "ناجد" اليهود أي رئيس الطائفة.

63) مسعود كواتي : اليهود في المغرب الإسلامي ... ص 96 و97 نقلا عن ابن خلدون، كتاب: المبتدأ والخبر في أخبار العرب و العجم والبربر ... دولة برغواطة هي حسب كواتي (ص88) ".. أول دولة خارجية .. ظهرت سنة 124هـ / 742م في إقليم تامسنا (بالمغرب الأقصى تدعى اليوم الشاوية وهي ما بين سلا وأزمور على ساحل المحيط الأطلسي تحت

زعامة "طريف" ثم ابنه صالح الذي ادعى النبوة وشرّع ديانة خاصة لبرغواطة. عاشت هذه الدويلة أكثر من أربعة قرون حتى عهد الموحدين سنة 543هـ / 1148م. البكري يجزم بالنسب اليهودي لمؤسسها "طريف" الذي يقول أنه "ولد شمعون بن يعقوب ابن اسحاق" وابن خلدون يؤكد ذلك النسب بالنقل، كمايرى شلوش N. Slousch أن "دولة برغواطة إسلامية في شكلها، بربرية في طقوسها وعاداتها، و... يهودية في أساسها واتجاهاتها"، أنظر كواتي ص 89، 90، 91) وشهد سفير برغواطة أبو صالح زمور البرغواطي للحاكم المستنصر سنة 352هـ/ 963م بنفس النسب اليهودي غير أن كواتي يحاول التشكيك فيه باعتبار أن لو كان ذلك صحيحا لاستقطبت برغواطة بقية يهود المغرب الإسلامي. وهذا لم يمنع من تواجد اليهود بتامسنا.

64) وقد لعب الدور التجسسي لليهود أو بعضهم ضد جيوش الموحدين دورا هاما في تحريك العنف الموحدي ضدهم.

65) من بين أبرز العائلات التي فرت من العنف الموحدي، عائلة الميمونيين أو بني ميمون التي هاجرت من الأندلس إلى المغرب الأقصى ثم إلى المشرق إلى مصر خاصة، سنة 1165م، في عهد عبد المؤمن، وكان الفيلسوف موسى بن ميمون من أبرز عناصرها، وقد استقر بمصر.

66) A.Chouraqui: Histoire des juifs en Afrique du Nord، ص: 160.Hachette Paris 1985.

67) اليهود في المغرب الإسلامي: مسعود كواتي: ص 110، هذا الزي الذي يتمثل على العموم في قمصان عريضة فضفاضة زيادة على اللزوم سوداء اللون وقلانس زرقاء في الأول ثم صفراء في أوقات متأخرة. مع تعليق "الشيكلة" حول الرقبة وهو ما يشبه العقد الذي يحمل في وسطه صفيحة معدنية تتدلى على مستوى الصدر.

68) أنظر :اليهود في المغرب الإسلامي :مسعود كواتي ص 121

69) أنظر نفس المرجع : ص 121 حتى 124

70) النص منقول عن المرجع السابق حيث ورد في الصفحة 121

71) نفس المرجع ص : 124

72) في هذه المرحلة التاريخية (للقرن 10م و11م)تكون بعض العائلات اليهودية المشرقية قد حطت رحالها بالجزائر وبتونس خاصة، أصلها من قبائل بني دريد التي جاءت في إطار الهجرات الهلالية إلى شمال افريقيا، أنظر بحث اليهودية Un type d'Archive «les chansons de geste: Lucienne Saada في :... Communautés Juives des marges sahariennes. p30-31.

73) La saga des juifs en Afrique du Nord, André Chouraqui, p.p: 92- 93.

74) اليهود في المغرب الإسلامي : مسعود كواتي ص: 117.

(*) أنظر: André Raymond: Grandes villes arabes à l'époque ottomane p: 174. Edition Sindbad. Paris 1985.

(**) نفس المرجع.ص 174.

(***) أنظر: حياة كفاح: أحمد توفيق المدني. ج 1.
(****) أندري ريموند: نفس المرجع السابق. ص 177، 178.
(*****) أندري ريموند: نفس المرجع السابق. ص 178.
(******) أندري ريموند: نفس المرجع السابق. ص 178. ويسترسل الكاتب في الأمثلة مذكّرا بأن الأندلسيين اللاّجئين إلى تونس سكنوا الجهة الشمالية من حي "باب السويقة" على مقربة من ساحة "حلفاويين" وشكّلوا بذلك ما سوف يُعرف بـ: حومة الأندلس.
75) لكن أين هي كذلك دسائس اليهود في المؤلفات اليهودية؟ فهل تذكر هذه المؤلفات شخصية أبو الفرج اليهودي الذي ذكره J.M.Lassare (في Communautés juives des marges Sahariennes ص:62) نقلا عن النويري والذي حرض قبائل كتامة ضد الزيريين في القرن 10 حتى أشعل نار الحرب بينهم؟ وهل يذكر اليهود كذلك في مصادرهم الدسائس والفتن التي قامت بها بعض الشخصيات اليهودية في الكواليس في مختلف الدويلات الجزائرية؟ أنظر مثلا قضية اليهودي خليفة بن رقاصة لدى الأمير الزياني ابن يعقوب يوسف .
76) اليهود في المغرب الإسلامي : مسعود كواتي ص 139.
77) نفس المرجع ص : 139
78) نفس المرجع ص : 140
79) نفس المرجع ص : 140
80) أنظر "الأحكام السلطانية":الماوردي، ص: 24، 25 وكذلك "اليهود في المغرب الإسلامي: مسعود كواتي "ص:197 .
81) اليهودفي المغرب الإسلامي : مسعود كواتي ص : 197، 198 المناصب "الإستشارية" كانت من أكثر المناصب التي تولاها اليهود .
82) نفس المرجع، ص 213. في الأندلس استبدل حاكم لإمارة أندلسية وزيره اليهودي الذي قتلته الجماهير الناقمة عليه في انتفاضة شعبية بوزير نصراني فكتب شاعر معارض :

كـل يـوم إلى ورا ** بـدل البول بالخـرا
فـرمانا تـهـودا ** ورمـانا تنـصـرا
وسيصبو إلى المجو ** س إن الشيخ عمـرا

تقول الباحثة إستنادا إلى حديث أجرته مع شيخ مسلم طاعن في السن (83عام)، راوية للأصول بتونس سنة 1976 بأن فرع "بني ميمون" أو "ميمون" (Les Mimoun) الذين استقروا بسوق أهراس ثم رحلوا عنها نحو الجنوب الجزائري والتونسي فرارا من الاستعمار الفرنسي، وهم هلاليون، بأنهم من بين العائلات اليهودية الدريدية الهلالية. الشيخ الراوية التونسي المسلم الهلالي هو الآخر يقول أن هؤلاء عرب من خيبر ويسمون "يهود العرب" وهو يلتقي في هذه النقطة مع Claude Martin

(في Les israëlites Algériens de 1830 à 1902 ص : 12) الذي يرى بأن بعض يهود خيبر الذين فروا من يثرب سنة 628م يكونون قد استقروا بالجنوب الجزائري، بمنطقة قصور توات، ورقلة ، تقرت ، جانت، ... Lucienne Saada تذكر أيضا أن بعض عائلات الفرع الميموني اليهودي تعيش حاليا بفرنسا منذ 1962 وتعرف بلقب :"ميموني" (Mimouni)، وهي حسب الشيخ الراوية دريدية بعضها يقيم بتوجان بتونس .

(*) Les juifs au Sahara, le Touat au Moyen Age: Jacob Oliel. p: 106.

83) تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني: عبد الرحمن الجيلالي: ص 322 المطبعة العربية، الجزائر 1955، للمغيلي أيضا عدة مؤلفات في الفقه، وفي المنطق بحيث ناظر السيوطي بمصر في عدة أمور وقضايا في المنطق بواسطة عدة رسائل.

84) تمنطيط آنذاك، أي في نهاية القرن 15م، كانت مدينة تجارية حساسة ذات كثافة سكانية يهودية مرتفعة، وتقع بولاية أدرار الحالية .

85) أنظر: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي: محمد بن عبد الكريم المغيلي. ص : 9،8. تقديم وتحقيق عبد القادر زبايدية .ططظإ الجزائر 1974.

(**) Lés juifs au Sahara, le Touat au Moyen Age: Jacob Oliel P: 107.

86) تاريخ الجزائر العام ، الجزء الثاني: عبد الرحمن الجيلالي. ص : 322 المطبعة العربية. الجزائر 1955.

87) ورد كلامه هذا في :مصباح الأرواح في أصول الفلاح : محمد بن عبد الكريم المغيلي. ص 13، 14. تحقيق: رابح بونار الذي نقله عن رسالة المغيلي، سلسلة ذخائر المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، أكتوبر 1968.

88) مصباح الأرواح في أصول الفلاح : ص 13، 14. الكنائس والبيع هي Les synagogues .

89) تاريخ الجزائر العام ، ج 2 : عبد الرحمن الجيلالي ص 322

90) نفس المرجع . ص 322

91) نفس المرجع . ص 323

92) نفس المرجع . ص 324

93) نفس المرجع . ص 324

94) كانت مدينة تلمسان تعيش هي الأخرى في تلك الفترة تسلطا يهوديا أثار بعض الشعراء، فقال أحدهم فيها:

تلـمسان أرض لا تليـق بحالنـــا * * ولكن لطف الله نسأله في القضـا

وكيف يحب المرء أرضا يسوسها * * يهود وفـجــار ومن ليـس يرتضى

95) مصباح الأرواح في أصول الفلاح: محمد بن عبد الكريم المغيلي : تحقيق وتقديم: الأستاذ رابح بونار، ص 37، سلسلة ذخائر المغرب العربي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، أكتوبر 1968.

96) نفس المرجع ص : 38.
97) مصباح الأرواح في أصول الفلاح ، المغيلي ص :39
98) نفس المرجع ص : 42
99) نفس المرجع ص : 45، 46. مثل هذه التجاوزات في حق الذميين كانت تحدث من حين لآخر بصورة عادية، لكن كاستثناءات. مسعود كواتي يذكر في أطروحته "اليهود في المغرب الإسلامي ..." ص :138، بأن القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي منظور "... عاقب .. أحد اليهود بالضرب حتى الموت بعد أن شهدت عنده البينة بسب النبي صلى الله عليه وسلم، ويبدو أن هذا العقاب صارم، يضيف كواتي، ولكن القاضي عاقب المذنب بعد أن عرض عليه الإسلام فأبى. وبفعلته هذه انتقضت ذمته، واستحق القتل ...".
100) الأحكام السلطانية والولايات الدينية : على بن محمد حبيب البصزي الماوردي، ص : 124، سلسلة القانون والمجتمع، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983.
101) نفس المرجع. ص . 124
102) نفس المرجع. ص . 125
103) نفس المرجع. ص . 125 . إضافة إلى الجزية تضاف إلى عقد الذمة الشروط الستة الواجبة حسب الماوردي المذكورة من قبل، والشروط الستة الأخرى المستحبة التي كانت نتاج ظروف تاريخية واجتهادات فقهية غير ملزمة لأحد بل مستحبة فقط.
104) في "الأحكام السلطانية" يقول الماوردي في هذا السياق (ص:127):" ولا يجوز أن يحدثوا في دار الإسلام بيعة ولا كنيسة، فإن أحدثوا هدمت عليهم ويجوز أن يبنوا ما استهدم من بيعهم وكنائسهم العتيقة،، وإذا نقض أهل الذمة عهدهم لم يستبح بذلك قتلهم ولا غنم أموالهم ولا سبي ذراريهم مالم يقاتلوا ووجب إخراجهم من بلاد المسلمين آمنين حتى يلحقوا مأمنهم عن أدنى بلاد الشرك. فإن لم يخرجوا طوعا أخرجوا كرها".
105) تاريخ الجزائر العام الجزء الثاني: الشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ص 323.
106) نفس المرجع ص 183
107) نفس المرجع ص 183
108) نفس المرجع ص 183
109) نفس المرجع ص 183
110) Les juifs d'Algerie : Images et textes : Jean Laloum et Jean-Luc Allouche pour le collectif : P.246 Ed. du scribe Paris 1978.
111) موريس إيزنبيث شغل منصب "الحاخام الكبير" لمدينة الجزائر من بداية الثلاثينات حتى وفاته سنة 1957، وهو من أحسن المؤرخين اليهود لتاريخ اليهود في الجزائر، له عدة مؤلفات منه Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque, pages vécues (1940- 1943). Les juifs d'Algérie (Esquisse de l'histoire des juifs jusqu'à nos jours)...

112) André Chouraqui: la saga des juifs en Afrique du Nord، ص :80.

113) اليهود في المغرب الإسلامي : م، كواتي ، ص : 228

114) نفس المرجع : ص، 144

115) نفس المرجع : ص، 144.

116) انظر: إضافة إلى Les juifs d'Algerie : 2000 ans d'histoire : Richard Ayoun et Bernard Cohen P.88.89.90;

- Les juifs de Mostaganem: Norbert Bel-Ange. p: 23,24, ed l'HARMMATHAN. Paris 1990.

117) أنظر : مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها قبل 1830م: عبد القادر حليمي، الطبعة الأولى 1972، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي. الجزائر. إضافة إلى Communautés juives des marges Sahariennes du Maghreb: Ed Michel Abitol

118) بعض المؤرخين الغربيين يتكلمون عن هجرة يهودية إلى شمال إفريقيا من الموصل والبصرة في القرن 9م؟ وحتى إلى تاهرت ومنطقة الميزاب مع الخوارج بين القرن 10م و12م؟

119) معظم هذه الجاليات غير موجودة حاليا سواء لرحيلها الاختياري أو الإضطراري

(*) أنظر: Les juifs au Sahara: p :81.

120) في مثل هذه المواجهات بين المرابطين واليهود، خير اليهود بين اعتناق الإسلام أو الطرد أو القتل لمن يقاوم، لكن مثل هذه الحالات كانت ظرفية ومحدودة زمنيا ومكانيا. الدولة المرابطية تأسست على يد يوسف بن تاشفين ودام وجودها من 1061م إلى 1147. أما الدولة الموحدية فقد قامت سنة 1147م وسقطت في سنة 1269م.

(*) أنظر: Les juifs au Sahara, le Touat au Moyen Age: p: 71 a 80

121) الصليبيون عندما احتلوها أطلقوا عليها إسم : مملكة Saint-Jean d'Acre . حررها صلاح الدين الأيوبي في المرة الأولى سنة 1187م ثم سقطت ثانية بيد الصليبيين قبل تحريرها نهائيا عام 1291م.

122) كانت إمبراطورية مالي تصدر العبيد والذهب والنحاس وريش النعام بواسطة تجار توات وتقرت وورقلة وغرداية وتمنطيط ..، إلى تلمسان وقسنطينة وبجاية وفاس لتحول هناك ثم تصدر ثانية إلى جنوب أوربا (البندقية، جنوة،...)، وتستورد مقابل ذلك المواد المحولة القادمة من ضفتي المتوسط، وبعض المنتوجات الغذائية كالحبوب وغيرها...

123) أنظر: Les juifs de Mostaganem: Norbert Bel-Ange. ed. l'Harmmathan. Paris. 1990.

124) كان التنسيق بين مختلف الجاليات اليهودية كبيرا ومكثفا في الدوائر الرئيسية الثلاثة للتجارة الصحراوية وكثيرا ما كان للتجار اليهود الأوروبيين وكلاء بشمال المغرب العربي، وحتى في العمق الصحراوي. ونفس الشيء ينطبق على يهود المغرب العربي. والعلاقات التي كانت قائمة بين يهود مدينة تنس ويهود البندقية خير مثال على ذلك. ومن

بين أهم الشخصيات اليهودية التي برزت في التجارة بحوض المتوسط الغربي.. في القرنين 13م و14م وهي من أصول جزائرية أو من الشخصيات التي ستستقر أو تقيم على الأقل بالجزائر بعد القمع والمطاردة الإسبانية ما بين 1391 و1497، نذكر : مرزوق بن أبراهام بن علال في النصف الأول من القرن 14م وإسحاق ليفي Issac Lévi ، وبن هارون بكري Ben Haroun - Bacri، وبن النجار Ben Natjar في النصف الثاني من القرن 13م، و عائلة سليمان مالكي Malequi Salomon التي قدمت من مايورقة واستقرت بالمغرب الأقصى وتلمسان وقسنطينة (أنظر Les juifs d'Algérie, 2000 ans d'histoire, p: 89) وHaron Ben Haron التاجر الرأسمالي الكبير في النصف الأول من القرن 14 م، حيّون بن موسى بن الزغد Hayon Ben mose Ben Esarde، وكانوا كثيري التردد أو الإقامة بمستغانم (أنظر: Norbert Bel-Ange : Les juifs de Mostaganem، ص 25).

(*) أنظر: Les juifs au Sahara: p: 86.

125) Les juifs d'Algérie: Images et textes ص 244.

126) R.Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire و B.Cohen، ص :62. عدد هذه الجاليات لا يعكس كثافة ديمغرافية لأن عدد اليهود الإجمالي في الجزائر بقي دائما محدودا، لكنه يعكس تشتتا جغرافيا هاما. بعض هذه الجاليات لا يتعدى عددها بضعة عائلات.

127) أي زعيم الطائفة اليهودية. في أقصى الغرب الجزائري والمغرب الأقصى يقال له: الناجد أما في وسط البلاد وشرقها وجنوبها يدعى : المقْدّم أو قايد اليهود،أو الشيخ ...، أول من اعتلى هذا المنصب بالقيروان هو الطبيب إبراهيم بن ناثان بن عطاء (أو أبو إسحاق إبراهيم ابن عطاء).

128) التوشابيم : هم اليهود الجزائريون القدامى السابقون للجالية اليهودية الأندلسية التي فرت إلى الجزائر بعد أحداث 1391 و1492 و1497م بينما الميغورشيم هم الذين جاؤوا إلى البلاد متأخرين ابتداء من هذه الأحداث العنيفة بالأندلس.

129) كان ذلك في عهد الخليفة أو الأمير ابن يعقوب يوسف الذي اعتلى الحكم في 1286م، أنظر:
Les saga des juifs en Afrique du Nord: A. Chouraqui. p:82.

(*) بعد أحداث الباليار في سنة 1391م والطرد الجماعي لليهود منها، فرّ أغلب الجغرافيين اليهود وصنُّاع الخرائط وأدوات الإبحار إلى شمال إفريقيا والمغرب الأقصى بصفة خاصة. ولم يبق منهم بالضفة الشمالية للمتوسط سوى الذين تخلّوا عن االديانة اليهودية واعتنقوا المسيحية مثل يهوذا بن قريش (Juda Cresques) السابق الذكر إبن أبراهام بن قريش الذي أنجز "الأطلس" الشهير بطلب من الملك شارل الخامس، ملك فرنسا، منذ 1375م ولم ينته منه إلاّ في سنة 1381، بحيث سلّمه إلى خليفته شارل السادس. بعد تنصرّه، حول يهوذا بن قريش اسمه إلى Jayme Ribes ، كما غيّر أخوه حاييم اسمه إلى خوان دي فاليسكا (Juan de Vallescha) ثم غابريال دي فاليسكا (Gabriel de Vallescha). كما تنصرّ يهودي آخر من نفس الاختصاص في هذه الفترة التي أعقبت 1391 وهو:ميثادي فيلاديستيس (Mecia De Villadestes) ...

130) اليهود في المغرب الإسلامي : مسعود كواتي . ص: 175. إبن ميمون هو أبو عمران موسى (أو موشي بالعبرية)إبن ميمون بن عبد الله، فقيه يهودي، فيلسوف وطبيب ولُد بمدينة قرطبة بالأندلس في 1135م وتوفي بالقاهرة في سنة 1204م. ترك الأندلس إلى مدينة فاس ثم إلى فلسطين ومصر، عبر الجزائر حسب البعض أو مباشرة حسب البعض الآخر. وأصبح أحد أبرز أطباء بلاط صلاح الدين الأيوبي.

لم يكن موسى بن ميمون جزائريا، لكن تأثير فكره وأعماله كان عميقا في الثقافة اليهودية بالجزائر على الأقل من خلال نظام ريباش وراشباش وفتاويهم المشهورة بـ: "Les "Responsa .

131) انظر كتابي La saga des juifs en Afrique du Nord: A.Chouraqui, L'Histoire des Juifs en Afrique du Nord. Ed Hachette 1985.P 160.

132) اليهود في المغرب الإسلامي: م، كواتي، ص :186

133) نفس المرجع ص :161.

134) اليهود في المغرب الإسلامي :م، كواتي ، ص : 183

135) حسب Eisenbeth Maurice يكون ريباش قد ألف كتابه هذا في مخطوط سنة 1394م، ولم ينشر إلا في 1738م حسب Nobert Bel-Ange على يد يهودي يدعى Meïr Crescas (أو مائير القريشي) بأمستردام، الذي "يزعم بأن الكتاب بقي مخطوطا طوال 120 عاما" (Les juifs de Mostaganem N. Bel-Ange.p:31) وهذا معناه أن الكتاب ألف سنة 1418م؟ أنظر كذلك: "...M. Eisenbeth "Les juifs en Algérie et en Tunisie ، إضافة إلى كتابه الآخر: Les juifs d'Algérie l'Esquisse de l'histoire des juifs jusqu'à nos jours

136) هذا الكتاب عبارة عن Un commentaire sur les glosses Bibliques de Rachi

137) الأخوان يهوذا الأشقر (أو الصقّر) Juda Alashkar ويوسف الأشقر Yossef Alashkar أبوهما هو موشي الأشقر Moshé Alashkar رجل متدين من الأندلس، العائلة كبيرة وتعد من أشراف اليهود، أنجبت الأطباء والشعراء عبر السنين، أحفادها مستقرون اليوم بفرنسا. يهوذا الأشقر استقر بعد الفرار من الأندلس 1492، بمستغانم أما يوسف فأقام بتلمسان بعد 1502، حسب شوراقي، مرورا بفاس وأصبح من أبرز رجالها الدينيين، ترك مخطوطا عنوانه: Saphenat Peaneah (Le Révelateur des mystères)

: Saphenat Peaneah (Le Révelateur des mystères) موجود بتلمسان.

138) شوراقي أندري p:91 La saga des juifs en Afrique du Nord: A. Chouraqui. جزائري الأصل من نواحي عين تيموشنت له عدة مؤلفات حول تاريخ يهود شمال إفريقيا أجداده ينحدرون من أصل أندلسي من بلدة شُراقة حسب ما ورد في أهم أعماله.

139) Mon Algéri: Monique Ayoun et Jean-Pierre Stora. Edition Acropole 1989 Paris

140) l'Harmattan. Ecritures arabes Albert Bensoussan, devoir le dernier, Paris 1988, p: 32.

141) Albert Bensoussan, l'Echelle de Mesrod (parcours algérien de mémoire juive),p:10, 1984

142) Les juifs algériens et la question antisémite en Algérie: Gustave des Illiers, p: 3 et 16

المـــراجع

1) باللغة العربية:

1 – العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل : الدكتور حسين محمد عبد الرحمن، منشأ المعارف، الإسكندرية

2 – دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في الفترة الحديثة والمعاصرة: ناصر الدين سعيدوني الجزء 2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر 1988

3 – العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود. الدكتور علي حسن الخربوطلي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، جامعة الدول العربية 1969 المطبعة الفنية الحديثة:

4 – الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني: مولاي بلحميسي. SNED الجزائر 1979.

5 – حرب الثلاثمائة سنة : أحمد توفيق المدني ، الطبعة الثالثة، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984.

6 – أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي: محمد بن عبد الكريم المغيلي تحقيق وتقديم: عبد القادر زبايدية SNED الجزائر 1974

7 – مصباح الأرواح في أصول الفلاح: محمد بن عبد الكريم المغيلي، تقديم وتحقيق : الأستاذ رابح بونار ، سلسلة ذخائر المغرب العربي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1968 الجزائر.

8 – تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني: عبد الرحمن الجيلالي .المطبعة العربية 1955 الجزائر.

9 – حياة كفاح: أحمد توفيق المدني. الجزء الأوّل. الطبعة الأولى.

10– اليهود في المغرب الإسلامي والأندلس حتى عهد الموحّدين:مسعود كواتي، رسالة ماجستير تاريخ. الجزائر1992.

11 – البداية والنهاية: إبن كثير. الجزء 11. الطبعة 6. منشورات مكتبة المعارف، بيروت. 1985.

12 – أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي: محمد بن عبد الكريم المغيلي، تقديم وتحقيق: عبد القادر زبايدية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

13 – الأحكام السلطانية والولايات الدينية: علي بن محمّد حبيب البصري الماوردي. سلسلة القانون والمجتمع، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983.

14 – مدينة الجزائر، نشأتها وتطوّرها قبل 1830: عبد القادر حليمي، الطبعة الأولى. المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي. الجزائر 1972.

2) باللغات الأجنبية

1) - Larousse dictionnaire (L3) 3 volumes, ed 1984.
2) - La saga des juifs en Afrique du Nord: André Chouraqui, Hachette 1972.
3) -Communautées juives des marges sahariennes du Maghreb. Ed Abitol, Jérusalem 1982, institut Ben-Zvi Jérusalem .
4) - Les juifs d'Algérie, 2000 ans d'histoire: Bernard Cohen et Richard Ayoun, 1982, J. C. Lattés, Paris.
5) -Les Juifs d'Algérie du décret Crémieux à la libération: Michel Ansky, Edition du centre, Paris 1950.
6) - Une diaspora méconnue, les juifs d'Algérie: Henrichémouilli, Paris 1976, Paris publications.
7) - Les Juifs en Algérie, Esquisse Historique depuis les origines jusqu'à nos jours, Maurice Eisenbeth, Institut de l'Encyclopédie Coloniale et Maritime.
8) - Les Juifs de Mostaganem: Norbert Bel-Ange: L'Harmathan, Paris 1990.
9)- Mon Algérie: Jean pierre Strora et Monique Ayoun; 1989 Paris, Ed: Acropole.
10) - Les Juifs Algériens et la question antisémite en Algérie: Gustave des Illiers, Imprimerie P. Croscenzo.
11) - Grandes villes arabes à l'époque ottomane: André Raymond. Ed Sindbad. Paris 1985.
12) - Feuillets d'El-Djazaïr: Henri Klein. L. Chaix Editeur. Alger 1937.
13) - Algérie-Actualités (Journal hébdomadaire), n° 1098 du 30 octobre au 5 novembre 1986.
14) - L'échelle de Mesrod .(parcours algérien de mémoire juive): Albert Ben soussan 1984.
15) - Histoire des juifs en Afrique du Nord: André Chouraqui. Hachette. Paris 1985.
16) - Les Israëlites algérien de 1830 à 1902: Claude Martin. Edition Héraclés Paris 1936.
17) - Les Juifs d'Algérie, Images et textes: Jean Laloum et Jean-Luc Allouche pour le collectif. Edition du Scribe. Paris 1978.
18) - Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque: Maurice Eisenbeth.
19) - Le Dernier devoir: Albert Bensoussan. Ecritures Arabes. L'Harmattan. Paris 1988.
20) - Guide Touristique d'Alger, édité par la S.P.I.C.A. 8 rue Charras Alger.

الفصل الثاني
اليهود في الجزائر خلال العهد العثماني
(1516م – 1830م)

مقدمة :

I- الوضع العام للجزائر خلال الحكم العثماني

1) مرحلة انطلاقة الدولة العثمانية في الجزائر
2) مرحلة القوة والاستقرار
3) مرحلة الضعف والإنحطاط

II- الحياة الاجتماعية-الثقافية ليهود الجزائر خلال العهد العثماني

1) الحالة الديمغرافية والتوزع الجغرافي لليهود في الجزائر.
أ – مرحلة النمو الديمغرافي السريع
ب – مرحلة الإستقرار
جـ – مرحلة التقهقر
د – التوزع الجغرافي وظروف الإقامة
2) البنية العرقية– الثقافية (ethno-culturelle) ليهود الجزائر
أ – التوشابيم (Tochabim) أو الأهالي
ب – الميغورشيمMégorachim أو الأندلسيون – الإسبان
جـ – يهود ليفورن (Les juifs francs أو Les Grana)
د – آثار الهجرات الميغورشيمية والليفورنية على الهوية الثقافية ليهود الجزائر
هـ– ريباش (Ribash) وراشباش(RASHBACH) في الفلكلور اليهودي الجزائري
3) البنية الاجتماعية – المهنية (Socio- professionelle) ليهود الجزائر.
4) البنية الاجتماعية– الثقافية (Socio - Culturelle) ليهود الجزائر
أ – الأزياء والألبسة اليهودية
ب – الصراع الثقافي من خلال العادات والتقاليد
جـ – الحياة الثقافية – الفكرية والتعليم
د – الخلافات السياسية والمصلحية بين اليهود

5) التنظيم الطائفي لليهود
أ – النظام الطائفي
ب – القضاء
جـ – المذاهب الدينية
6) مكانة اليهود داخل المجتمع الجزائري وعلاقاتهم بالمسلمين

III- الوضع الاقتصادي - السياسي (Economico-politique) لليهود.

1) الوضع التجاري في حوض المتوسط بين القرنين 15 م و16م ، ومواقع اليهود فيه
2) دور اليهود في التجارة الدولية في حوض المتوسط وفي التجارة الخارجية الجزائرية منذ نهاية القرن 16 :
أ – الرسوم والجمارك والضرائب
ب – اليهود في أوربا
جـ – مسؤولية السلطة العثمانية في الانزلاقات والتجاوزات اليهودية بالجزائر
3) يهود مدينة ليفورن (Livourne) الإيطالية
4) شركة بكري – بوشناق .. آلية السيطرة اليهودية على الجزائر
أ – ظهور عائلتي بكري وبوشناق بمدينة الجزائر
ب– المنافسة بين الشركة اليهودية والشركات الفرنسية
جـ – البعد الدولي لقوة شركة بكري– بوشناق .. ودعم الماسونية واليهودية العالمية
د– موقع الجزائر في "الاستراتيجية الروتشيلدية"
هـ – قضية الديون
و – الاحتكارات والامتيازات التجارية
5) دور اليهود في سياسية الجزائر الخارجية
6) ثورة الإنكشارية

IV- اليهود .. واحتلال الجزائر

1) مات الملك ..عاش الملك ..! (viva les franchais)
2) النهب ... السلب .. الابتزاز.. والوعيد

مقدمة

أثناء الحكم العثماني للجزائر عرفت الحياة اليهودية تطورات عديدة في جميع جوانبها غيرت بنياتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وأثرت تأثيرا عميقا حتى على هيكلتها الطائفية الداخلية وحتى على دورها السياسي. بداية الحكم العثماني للجزائر كانت بالنسبة لليهود المقيمين بها مرحلة انتقالية سواء للمهاجرين الجدد أو للقدماء ريثما تستقر الهجرات الجماعية من الأندلس ويتم الاندماج بين الطرفين ويتأقلم المهاجرون مع الحياة الجزائرية وديناميكيتها العامة.

التطورات والتحولات العميقة في بنية المبادلات الدولية والمحلية وقنوات حركتها من طرق ومواصلات، التي طرأت مع نهاية القرن 15م إثر الاكتشافات الجغرافية الحديثة و التطورات العلمية التي واكبت النهضة الأوربية، أثّرت هي الأخرى على التوزيع الجغرافي لليهود بالجزائر وأدت إلى حركة واسعة من الأرياف، والمدن الداخلية خاصة، نحو المدن الشمالية التي احتضنت خمسة أو ستة من كبرياتها أغلبية اليهود الذين مستهم حركية التمدن المبكر هذه. كما أن الاضطرابات والأحداث السياسية والعسكرية التي رافقت سقوط الدويلات والإمارات الصغيرة وبسط النفوذ العثماني على البلاد لم تكن تسمح باستقرار سريع للحياة العامة في الجزائر سواء بالنسبة لليهود أو للمسلمين. لكن هذه الظروف لم تحل دون تعايش وتأقلم النخبة الدينية والنخبة التجارية– المالية المقربة من الدوائر الرسمية مع الأوضاع العامة والاستفادة منها في إعادة هيكلة الطائفة اليهودية وفق قواعد جديدة.

القرن السادس عشر كان مرحلة مخاض بالنسبة لليهود حيث سيبرزون بعده بقوة إلى واجهة الأحداث تدريجيا منذ القرن السابع عشر، خصوصا بعد توافد يهود مدينة "ليفورن" (Livourne) الإيطالية على البلاد. أما القرن الثامن عشر والعقود الثلاثة من القرن 19م التي سبقت الاحتلال الفرنسي للجزائر فهي مرحلة نضج وقوة ونفوذ لهذه الطائفة حيث لعبت أدوارا حساسة في الاقتصاد والسياسة محليا وخارجيا.

مشاركة اليهود في الحياة الجزائرية العامة خلال الحكم العثماني لم تكن ضعيفة أو تافهة إلى الحد الذي يجعلها تلقى كل الإهمال الذي لقَيتْهُ من طرف المؤرخين وخاصة اليهود، بل كانت مشاركة، بإيجابياتها وسلبياتها، واسعة ونشيطة بلغت ذروتها في العقود الأخيرة السابقة للاحتلال، مما يجعلها تكتسي أهمية معتبرة تستدعي البحث والاهتمام.

أهمية تسليط الأضواء على تاريخ يهود الجزائر أثناء الحكم العثماني تعود إلى سببين رئيسيين: أولهما تحديد الدور اليهودي في هذه الفترة خصوصا في أواخرها، حيث عاشت البلاد نوعا من الغموض السياسي والفوضى تزامنتا مع نفوذ يهودي سياسي – اقتصادي قوي، وهذا لا يأتي إلا بالاطلاع على ديناميكية الحياة اليهودية بالجزائر وبنياتها وعلاقاتها بالغير، وتطورها التاريخي طوال الفترة العثمانية. وثانيهما هو الصمت غير البريء للكتاب والمؤرخين اليهود خصوصا ذوي الأصول الجزائرية منهم إزاء الدور اليهودي في الجزائر العثمانية، والتقليل من أهميته لتبرير عدم الاهتمام به والتعتيم المقصود عليه. هؤلاء عندما يتطرقون إلى هذه الفترة من تاريخهم لا يتناولونها إلا من جوانبها الفلكلورية والدينية، وفي مقابل ذلك يسهبون في ذكر ما يعتبرونه "جورا" عثمانيا و"مظالم"، عانى منها أجدادهم. لكن غالبية هؤلاء المؤرخين والباحثين يميلون إلى عدم النبش في هذه المرحلة التاريخية بسبب، كما يقولون، إما انعدام الوثائق أو الجمود العام الذي ساد هذه المرحلة على جميع المستويات إلى الحد الذي أفقدها أية قيمة أو أهمية تاريخية. لذا فهم لا يرون أية فائدة من تناولها بالبحث والدراسة وذلك تفاديا لأي إحراج دون شك.

هكذا ينظر أبرز المهتمين من اليهود المعاصرين بهذا الموضوع إلى هذه الحقبة التاريخية الهامة بما فيهم: جوال – علوّش بن حيّون، نوربيرت بيلانج، ريشارد حيون وبرنارد كوهين، موريس إيزنبث، أندري شوراقي، جورج فيربو، هنري شمويلي (أو الصموئيلي؟)، دوريس بن سيمون و ج. حنون وغيرهم...
(Joelle-Allouche Benayoun, Norbert Bel-Ange, Richard Ayoun et Bernard Cohen, Maurice Eisenbeth, André Chouraqui, George Virebeau, Henri Chemouilli, Doris Bensimon et J. Hannoune)...
ومن بين المؤلفات العديدة لهذه المجموعة من المؤرخين والكتاب لا يمكن أن نعثر سوي على لمحات خاطفة من تاريخ يهود الجزائر في العهد العثماني تنحصر عموما في الجانب الفلكلوري والديني وفيما سمي بـ"الظلم" و" القمع "

و"المعاناة"وحتى "الإذلال" والتي تُعرض غالبا بطريقة ستاتيكية خارج إطارها ومحيطها التاريخي لتكريس الغموض وتسهيل تمرير كل مايراد تمريره من أفكار..

مثلا، أندري شوراقي، وهو أحد أبرز رواد تاريخ يهود الجزائر وشمال إفريقيا كافة، يتناول بإسهاب الحياة اليهودية الجزائرية في العهد الروماني والبيزنطي وحتى في العهد الإسلامي. لكن بمجرد حلول سنة 1516م، تاريخ بداية حكم الأخوين العثمانيين عروج وخير الدين للجزائر، يظهر عليه بعض التردد ويقفز على تاريخ يمتد من هذه السنة المذكورة إلى سنة 1830، أي على مدى أكثر من ثلاثة قرون، بصورة مفاجئة، إذ ينتقل مباشرة من عهد الدويلات والإمارات الصغيرة المتناحرة في القرن الخامس عشر إلى مرحلة الاحتلال الفرنسي للبلاد. أما ما بين هاتين المرحلتين يبدو أنه تافه وغير مهم بالنسبة لهذا الباحث.

في تعليله لهذا الموقف غير الموضوعي يقول ان السبب هو انعدام الوثائق ...(؟) ويكتفي لذلك بالإشارة السطحية في صفحتين فقط إلى هذه المرحلة العثمانية ليس من أجل هذه المرحلة في حد ذاتها بل من أجل تهيئة الأذهان لتقبل دور اليهود أثناء الغزو الفرنسي سنة 1830م، وبعد أن يقوم بتكريس وترسيخ فكرة أن العهد العثماني هو عهد "القرون الظلامية" (les siecles Obscurs) التي لا يوجد فيها ما يستحق الذكر، وأنه يمثل أيضا :"قرون الإضطهاد" (les siecles d'oppression) بالنسبة لليهود ، وأن هذا "الظلام" وهذا "الاضطهاد" سيزولان ويُرفعان عن اليهود بغزو الجنرال دوبورمونت (Debourmont) للجزائر في 1830 م الذي يقدمه كمنقذ للجزائر ولليهود خاصة من "الاضطهاد" و"الظلام"[1]. هذا ما نجده في كتابه: Histoire des Juifs en Afrique du nord (تاريخ اليهود بشمال إفريقيا). أما في La Saga des juifs en Afrique de Nord [2] فإن مبرر "انعدام الوثائق" أدى به إلى تجاهل الفترة العثمانية تجاهلا كاملا دون إشارة إليها لا من بعيد ولا من قريب، ولو أن هذا المبرر لم يحل دون وصفه الدقيق للحياة الاجتماعية – الثقافية – الدينية للطائفة اليهودية خلال هذه الفترة بعد إخراجها من سياقها ومحيطها السياسي – الاقتصادي – التاريخي الحساس[3] في فصل أسماه "الحياة الداخلية"، جعله يتوسط العهد الإسلامي والمرحلة الاستعمارية للتقليص من صدمة الفراغ الناتج عن تغييبه لتاريخ عمره ثلاثة قرون و14 عاما ..!

أما الكاتبان Joelle - Allouche Benayoun و Doris Bensimon، فلم يتناولا في كتابهما: "Juifs d'Algerie Hier et Aujourd'hui" (يهود الجزائر بين الأمس واليوم) الفترة العثمانية من تاريخ يهود الجزائر سوى في صفحة واحد ...(؟)، حيث لم يذكرا فيها سوى ظروف بداية الحكم العثماني للبلاد بشكل سطحي وخاطف إضافة إلى بعض الملاحظات عن يهود المغرب الأقصى. بينما لم يشيرا إلى يهود الجزائر في هذه الفترة سوى ببضعة جمل وعبارات[4]!

نفس المواقف أيضا، رغم بعض الفروقات الطفيفة، إتّخذها الآخرون مثل Norbert Bel- Ange في كتابه: les juifs de Mostaganem [5] و Henri chemouilli في Une Diaspora meconnue[6]، و George virebeau، و J.Hannoune ويختلف عنهما Richard Ayoun و Bernard Cohen في كتابهما: les juifs d'Algerie : 2000 ans d'Histoire[7] في تكريسهما لعدد أكبر من صفحات كتابهما للفترة العثمانية ولو أن المحتوى والمنهج هما نفس المحتوى والمنهج الموجودين في المؤلفات السابقة الذكر. ما جاء في هذه الصفحات ورد تحت عنوان: L'intermède Turc أي "الفاصل التركي"، للتقليل من أهمية المرحلة وإظهارها كمرحلة توقفت فيها الحياة وأمسك فيها التاريخ عن الحركة، وكفترة فراغ واستراحة لعجلة التاريخ.

ويعتبر "الحاخام الكبير"(أو الحبر الأعظم (Le Grand Rabbin) (Maurice Eisenbeth)[8] الكاتب الوحيد في هذه المجموعة من يهود الجزائر الذي تطرق بشيء من التفصيل إلى الفترة العثمانية والدور الاقتصادي ÷ السياسي اليهودي خلالها والنفوذ الكبير الذي بلغته بعض الشخصيات اليهودية بالجزائر، وذلك في كتابه: Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque اليهود في الجزائر وتونس في الفترة التركية)[9]. ولم يتمكن هو الآخر من التزام الموضوعية وتفادي المبالغات حيث طغى عليه الافتخار والتمجيد "للذكاء اليهودي" و"للعبقرية" اليهودية.

حياة اليهود في الجزائر العثمانية في الحقيقة لم تكن مجرد "معاناة" و"ظلم" و"ظلام"، ولم تكن "جحيمية" كما تصفها الرابطة الإسرائيلية العالمية بل كانت حياة عادية لا تختلف عن حياة بقية الجزائريين بإيجابياتها وسلبياتها ولا يمكن فهمها إلا في سياقها التاريخي وبمنطق ذلك العصر الذي يسمح باكتشاف أن "

أكثر مراكز الحياة اليهودية ازدهارا في البلاد المسلمة،.... (في ذلك الوقت) .. تتمثل في الإمبراطورية العثمانية"[10]. ولا يمكن مقارنة وضع اليهود بأوربا مع وضعهم في الجزائر العثمانية التي احتضنتهم عندما فروا لاجئين إليها من المطاردات الإسبانية والهولندية والفرنسية والبريطانية أثناء القرون الوسطى، حتى أن الكثير من الرحالة الأوربيين اندهشوا لمشاركتهم العادية في الحياة الجزائرية على جميع المستويات وللأفضليات والامتيازات التي تمنح لهم من طرف الحكام دون بقية المواطنين المسلمين. وذلك ما سمح لأغلبية الجالية اليهودية بالجزائر بالاندماج الواسع في المجتمع الجزائري خصوصا في المناطق الداخلية من البلاد كما سنرى ذلك من خلال نشاطاتها وعاداتها وتقاليدها وحتى نظامها الطائفي الداخلي.

I - الوضع العام في الجزائر خلال الحكم العثماني

مباشرة بعد سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس سنة 1492م، وفي ظل حالة الضعف والانقسام الخطير الذي ساد منطقة المغرب العربي والتنافر والتناحر الذي طغى على علاقات إماراته ودويلاته..، كان من الطبيعي جدا أن تمتد شهية الانتقام والتوسع لدى الملوك الإسبان إلى سواحل المغرب العربي بعد أن تأكدوا من حالة الضعف والفرقة السائدة بالمنطقة . فسرعان ما تجسدت هذه الأطماع في احتلال المرسى الكبير بالغرب الجزائري سنة 1507 م ، ثم مدينة وهران سنة 1510، والسواحل الشرقية للبلاد، وحصن البنيون (penon) في 1516م بمدينة الجزائر الذي تم من خلاله تضييق الخناق على المدينة ومحاصرتها تحضيرا للاستيلاء عليها الذي لم يتحقق بفضل الإخوة خير الدين وعروج. وقد امتد الزحف الإسباني حتى إلى بعض المدن التونسية ...

في هذه الظروف الحرجة التي مرت بها منطقة المغرب العربي والجزائر بشكل خاص، ظهر الأخوان عروج وخير الدين بسواحل مدينة جيجل وتكفلا بمساعدة الجزائريين على مقاومة الاحتلال المسيحي الإسباني للبلاد وطرده منها بعد معارك عنيفة ومقاومة شرسة وطويلة قضت تدريجيا، لكن نهائيا على أطماع الإسبان في المنطقة.

هذه الخدمة العظيمة التي قدمها خير الدين وعروج للجزائريين، أكسبتهما ثقة وتعاطف الشعب وساعدتهما على البقاء في الجزائر وقيادتها في تلك الظروف العسيرة لمواجهة التحديات الأجنبية. فأسس عروج بذلك الدولة الجزائرية العثمانية التي شكلت الصورة الأولية للجزائر الحديثة سنة 1516 وسيرها لمدة عامين قبل أن يخلفه أخوه خير الدين في 1518م إثر استشهاده في تلمسان. فبدأت الجزائر منذ ذلك التاريخ مرحلة جديدة بنفس عثماني، بقدر ما أوصلها إلى أعلى قمم العظمة والقوة العسكرية في البداية، أسقطها أيضا في متاهات الضعف والتفكك والانحطاط والفوضى في فترات لاحقة جعلت القوى المعادية تتكالب عليها لفترة طويلة إلى أن وقعت بيد المحتلين الفرنسيين في 5 جويلية 1830 في ظروف معقدة وغامضة.

لقد مرت الجزائر العثمانية بثلاثة مراحل رئيسية : مرحلة الانطلاقة، مرحلة القوة والاستقرار ، ثم مرحلة الضعف والانحطاط منذ نهاية القرن 18م.

1) مرحلة الانطلاقة:

وتشمل فترة البيلربايات وجزء كبير من فترة الباشوات تمتد من 1516 إلى أوائل القرن 17[11] . هذه المرحلة افتتحها عروج وخير الدين بربروس ، وحسن باشا بن خير الدين، وحسن آغا وصالح رايس ، ... وكانوا كلهم من خيرة رياس البحر الجزائريين الذين قادوا البلاد بحكمة في ظروفها الصعبة واستهلكوا فترات حكمهم، التي تراوحت بين مد وجزر بسبب الأطماع الصليبية التي كانت تحوم حول البلاد، في وضع دعائم وأسس الدولة الجزائرية الناشئة على أنقاض الدويلات والإمارات الصغيرة المتطاحنة فيما بينها، وفي تنظيم وتدعيم هياكلها ومؤسساتها الإدارية والعسكرية، وفي الدفاع عن البلاد ورد الهجمات الصليبية وإخماد الثورات والفوضى التي أنتجها التمزق السياسي على عهد الدويلات. فتكللت جهود هؤلاء القادة الكبار بتوحيد الجزائريين تحت راية الخلافة الإسلامية العثمانية التي بسطت الأمن والطمأنينة على البلاد في هذه المرحلة، إنطلاقا من مدينة الجزائر التي أصبحت منذ 1516 –1518م عاصمة المغرب الأوسط سابقا. كانت هذه الفترة ثرية بالأحداث[12] والتقلبات والتحولات السريعة التي غيرت وجه منطقة المغرب العربي كافة والمعطيات الجيوستراتيجية بالبحر الأبيض المتوسط الذي أصبح من جبل طارق إلى صقلية مياها إقليمية جزائرية في ظرف وجيز.

2) مرحلة القوة والاستقرار:

استمر تصاعد وزن الجزائر إلى أن بلغت في هذه المرحلة الثانية أقصى عظمتها وقوتها اللتين جعلتاها تتصدر طليعة القوى الإسلامية في مواجهة القوى الأجنبية المسيحية التي كانت تهدد غرب العالم الإسلامي حتى أصبحت تعرف آنذاك بـ :" دار الجهاد" و "المحروسة" من طرف العناية الإلهية والأولياء الصالحين، حسب معتقدات ذلك العهد.

إذا كان القرن 16 قرن الانطلاقة، فإن القرن 17 يعتبر الفترة الذهبية للجزائر أثناء العهد العثماني ومرحلة قوة واستقرار على مختلف المستويات بإجماع معظم المؤرخين.

في هذه المرحلة سيطرت الجزائر سيطرة شبه تامة على حوض المتوسط الغربي وبلغت خلالها السفن الجزائرية حتى السوّاحل الإنجليزية والأيسلندية

والإسكندينافية، وكذلك إلى سواحل أمريكا اللاتينية وجزر المارتينك، وأصبحت بفضل الأجيال الأولى من رياس البحر "... سيف القوة العثمانية المسخر ضد الصليبية المسيحية ..."[13]. الجزائر تحت حكم هؤلاء البحرية عاشت أحسن فتراتها اقتصاديا وسياسيا وأمنيا وعرفت توسعا عمرانيا هاما بسبب الإقبال الكبير على الإقامة بها من مختلف أقطار المغرب العربي والأندلس وحتى من مدن جنوب أوربا من تجار ورجال أعمال ، ومغامرين. لكن بمجرد ما وقع انقلاب داخل نظام الإيالة La Régence في منتصف القرن 17 م أصبح الحكام يُعيّنون من طرف السلطة العسكرية الإنكشارية ويُختارون من بين ضباطها أو من بين أعضاء مجلس الديوان دون أي تدخل من الباب العالي الذي كان إلى غاية ذلك التاريخ صاحب سلطة تعيين حاكم الجزائر. لم يعد الباب العالي بالتالي يملك سوى الموافقة بعدما كان التعيين والغزل من صلاحياته. ومنذ هذا التحول السياسي الحساس، فتح الطريق نحو حكم الجزائر في وجه كل من هب ودب في غياب دور السلطة المركزية بإسطمبول التي بدأت قوتها تتآكل تدريجيا . ومنذ ذلك التاريخ أيضا بدأ العد التنازلي للجزائر العثمانية[14] في الوقت الذي تحركت فيه أوربا في نهضة شاملة غيرت تدريجيا موازين القوى بين الشرق والغرب .

3) مرحلة الضعف والانحطاط:

بدأت الجزائر تسير نحو الضعف والانحطاط منذ الانقلاب السياسي – المؤسساتي السابق الذكر في أواسط القرن 17م، إلا أن تأثيرات هذا التحول العميق والخطير في نفس الوقت لم تبدأ في الظهور إلا في أواسط القرن 18م وبلغت ذروتها في نهايته وبداية القرن الذي تلاه. لذلك يمكن أن نقول أن هذه المرحلة الأخيرة بدأت في القرن 18م وانتهت بالاحتلال الفرنسي للبلاد في 1830. ويمكن إيجاز عوامل هذا "السقوط الحر" فضلا عن العامل الطارئ السابق الذكر فيما يلي :

*** داخليا :**

1 – فساد السياسة العسكرية عامة وسياسة التجنيد بشكل خاص بعد أن زال العمل بالمعايير الجادة والصارمة والمقاييس الفعالة السابقة، حتي أصبح الانخراط في الجيش بمتناول كل من هب ودب والفرص مفتوحة حتى لمن كانوا

.. قد أُدّبوا وأُدينوا .. (حتى) .. كان من بين المجندين يهود ويونانيون ختنوا أنفسهم "[15] تظاهرا بالإسلام ليقُبلوا في الجيش الإنكشاري، ويصعدوا في سلّم المراتب العسكرية ...

2 – فساد سياسة البلاد عامة. ومن بين أهم مظاهرها الصراعات على السلطة بين الديوان و الإنكشارية، وبين الأتراك والكراغلة، وبين رياس البحر والإنكشارية، وبين القبائل والسلطة المركزية، وبين القبائل فيما بينها...

فشاعت الانقلابات العسكرية والثورات الداخلية ضد الحكام ولعبت تجاوزات الإنكشارية وجور السياسة الضريبية دورا كبيرا في تلك الاضطرابات[16]. فكانت نتائج هذا الفساد العام وخيمة على البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا.

3 – سوء التسيير الاقتصادي للبلاد بحيث أنه منذ أن ضعف الأسطول البحري، تقلصت موارد البلاد من البحر[17] في الوقت الذي بدأ فيه الركود الإقتصادي يدب في كامل الجهاز الإنتاجي الجزائري. فنتج عن ذلك عجز في الميزان التجاري للإيالة، عمل الحكام على مواجهته بالزيادة في الضرائب وتشجيع الاحتكارات الاقتصادية اليهودية والأجنبية لزيادة مداخيل الدولة من الضرائب المفروضة عليها. لكن نتائج هذه الإجراءات كانت سلبية جدا لأنها أوقعت المصير الإقتصادي للبلاد بيد أقلية احتكارية يهودية تمكنت في وقت لاحق، منذ نهاية القرن 18، حتى من التدخل في القرار السياسي ومراقبته ليس في صالح البلاد بل وظفته في أحيان كثيرة لخدمة مصالحها السياسية والمالية. كما تحطم الجهاز الإنتاجي بشكل أكثر خطورة بسبب تسلط المحتكرين من جانب، وانخفاض القدرة الشرائية من جانب آخر، فكانت النتيجة الحتمية تتمثل في اختلالات شاملة واضطرابات سياسية – اجتماعية عمقها الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي الذي كان سائدا في هذه المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني للجزائر. وقد أدى سوء تسيير التجارة الخارجية سواء مع أوربا أو مع الدول المجاورة إلى تسرب عوائدها الضخمة إلى خزائن هذه الدول وخزائن التجار الكبار اليهود، دون أن تستفيد منها البلاد . كما أثر عدم إقامة الحكام لنظام نقدي ثابت وفلسفتهم الارتجالية التي يعوزها بعد النظر ووضوح الرؤية المستقبلية تأثيرا جد سلبي على الاقتصاد عامة.

4 – إنتشار الكوارث: بعضها مرتبط بالوضع السياسي الاقتصادي الأمني كالمجاعات التي تؤثر على الحالة الصحية للمجتمع وتؤدي إلى انتشار وتفاقم الأوبئة الفتاكة، وبعضها الآخر طبيعي مثل غزو الجراد والجفاف اللذان تسببا في أزمات غذائية انعكست مباشرة وبصورة جد خطيرة على الأمن الغذائي والوضع الصحي[18]، إضافة إلى الزلازل العنيفة على غرار زلزال مدينة الجزائر في سنة 1716 الذي خرب ثلثي (2/3) المدينة، والزلازل التي تلته في نفس المدينة سنة 1718م، وفي سنة 1733 م وسنة 1818، وكذلك زلزال مدينة وهران سنة 1792، وآخر ضرب بعنف مدينة عنابة سنة 1815م، قبل أن يضرب زلزال آخر بقوة مدينة البليدة والمتيجة سنة 1825.

هذه الظروف الصعبة استغلها بعض التجار والوسطاء اليهود في المضاربة وتحقيق أرباح خيالية مكنتهم تدريجيا من التغلغل في مراكز اتخاذ القرار ومراقبتها وحتى استغلالها لمصالحهم بتواطؤ بعض الإطارات السياسية العليا للنظام العثماني الجزائري ، وذلك عبر آليات التجارة الداخلية والخارجية الجزائرية التي ساعد ارتفاع معدلات الربح فيها على التراكم السريع للرأسمال التجاري والمالي اليهوديين و تحولهما إلى قوة ضغط سياسية لها ثقلها في صنع القرارات الداخلية والخارجية.

يهود ليفورن (Livourne) كانوا المحركين الأساسيين لهذه العملية حيث برزت على رأسهم عائلتا بكري (Bacri) وبوشناق (Busnasch) اللتان أطلق عليهما المؤرخون والسياسيون الأوربيون الذين عرفوا الجزائر وتعاملوا معها في القرنين 18 و19 م لقب : "ملوك الجزائر"، وهو لقب سيتحول بعد حوالي قرنين إلى عنوان رواية حول هذا الموضوع كتبها Roland Bacri أحد أحفاد العائلة السابقة الذكر.[19]

*** خارجيا:**

من بين العوامل الخارجية الرئيسية لانحطاط وضعف الجزائر العثمانية نذكر:

1 – الغارات والهجمات العسكرية الخارجية على الجزائر سواء من طرف جيرانها بالمنطقة ، أو من طرف أوروبا المسيحية التي تحالفت دولها منذ القرن 18 م على محاربة الجزائر وتحطيمها، حيث تجلى ذلك بوضوح خلال مؤتمر إيكس لاشابيل Aix-La Chapelle في 30 سبتمبر 1818 م بحجة محاربة القرصنة والعبودية.

هذا المؤتمر اتخذ قرارا بتوجيه إنذار إلى الجزائر وتونس وطرابلس من أجل إلغاء نشاطاتها العسكرية البحرية ، وقعته كل من فرنسا وبريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا. وفي حالة رفضه من طرف الداي حسين بالنسبة للجزائر، وهو ما حدث فعلا، كان على الجزائر أن تنتظر ردود فعل قوية ومنظمة من قبل الدول الأوربية الموقعة على قرار المؤتمر. كلفت فرنسا إلى جانب بريطانيا بتنفيذ القرارات الصادرة عن المؤتمر الذي استغلته لتدعيم نفوذها بالجزائر واحتكار أسواقها وتحويل نتائج التحالف الأوربي لحسابها الخاص سياسيا واستراتيجيا واقتصاديا في المنطقة.

2 – أما العامل الثاني، وهوعامل هيكلي ، فيتمثل في التغيرات العامة لموازين القوى العالمية ولأنماط الإنتاج، وللمعطيات الجيوستراتيجية الجديدة الناتجة عن الاكتشافات الجغرافية الحديثة والثورة العلمية المعرفية الديناميكية التي غيرت وجه العالم منذ عصري النهضة والأنوار بأوربا. هذه التطورات منحت أوربا دفعاً قوياً نحو التقدم والعصرنة على جميع المستويات، فكانت عناصر تفوق لها ، في وقت ظل جل اهتمام الإمبراطورية العثمانية منصبا على قوتها العسكرية، ولم تتمكن من مسايرة هذه التحولات الكبيرة أو فهمها أو ربما حتى الوعي بها في الجزائر باستثناء الصحوة التي سجلّها التاريخ لمصر في عهد محمّد علي باشا. وفي الوقت الذي كانت فيه الصحوة الأوربية وديناميكية التطور الشامل تدفعان بأوربا إلى الأمام بوتيرة جد متسارعة كانت الجزائر والإمبراطورية العثمانية كلها منطوية على نفسها تحت أنقاض حضارة غربت شمسها بسقوط الأندلس وتتجه دون وعي نحو نهايتها. ورغم الاتصال الوثيق للجزائر بأوربا إلا أنها لم تستفد من آثار الحركية الفكرية والعلمية الأوربية ومن إشعاع التطور الاقتصادي والثورة الاقتصادية التي حركتها المدرستين الاقتصاديتين الكلاسيكية والفيزيو قراطية ، لأن هذا الاتصال ما كان يتم إلا في شكل حروب ومعارك خاطفة لا مجال فيها لأي تباد ل ثقافي أو فكري ، أو في شكل تجاري حيث حال الوسطاء والتجار الأجانب واليهود خاصة باحتكاراتهم دون قيام أي احتكاك من هذا النوع بين أروبا والجزائر.

التجار الجزائريون المسلمون لم يتمكنوا من الصمود في الأسواق الدولية بسبب تجاهل الدولة لهم من جانب وبسبب المضايقات والوشايات المسيحية واليهودية خاصة التي كانت تمارس ضدهم في هذه الأسواق ومع رجال السياسة في الداخل والخارج .

في هذه الأجواء العامة عاش اليهود الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر بصورة عادية لم تعكرها إلا بعض الأحداث الاستثنائية النادرة. ابتدأوها في هدوء واحترام للقواعد العامة التي تحكم سيرورة المجتمع الجزائري، ثم حدث انقلاب في أوساطهم بمجيء يهود ليفورن الإيطالية الذين قادوا الجالية اليهودية بالجزائر نحو مسار مناقض تماما للمصالح الجزائرية عامة بحيث حولوها تدريجيا إلى أقلية متناقضة الرؤى مع عامة المجتمع وجعلوا مصالحها متعارضة مع مصالحه . وكان هذا التحول بداية لاضطرابات خطيرة معقدة عانى منها المسلمون واليهود على السواء وبقيت آثارها ماثلة في الوعي الجماعي للطرفين .. وانتهت بتورط خطير للجالية اليهودية أو زعمائها على الأقل في احتلال الجزائر في 5 جويلية 1830.

II-الحياة الاجتماعية والثقافية ليهود الجزائر خلال العهد العثماني

طوال القرن 15م وبدايات القرن 16م مرت الطائفة اليهودية بالجزائر بتطورات عميقة وشاملة تحت تأثير المستجدات والتطورات الجديدة التي طرأت على حوض المتوسط والعالم في هذه الفترة، إذ أثرت على وضعيتها داخل المجتمع الجزائري، نظرا لانعكاساتها المباشرة عليه، والتي تجسدت في تغير الطرق التجارية وشبكاتها المعهودة، وفي التوزيع الجغرافي للتجارة داخل البلاد ومع الخارج إقليميا ودوليا، إضافة إلى التحولات التي طرأت على نوعية هذه المبادلات من سلع وخدمات التي فرضها العصر ونموذج الطلب الذي ساد آنذاك.

لقد أدت هذه الظروف إلى زعزعة الاستقرار الاقتصادي - الاجتماعي للطائفة اليهودية ولمواقفها في الخريطة التجارية خصوصا وأنها كانت تمر بظروف داخلية صعبة من الناحية الأمنية ناتجة عن الاضطرابات السياسية التي سادت عشية دخول العثمانيين إلى الجزائر، فضلا عن تدهور الوضعية الأمنية أثناء عملية بسط النفوذ العثماني على البلاد على يد الأخوين عروج وخير الدين فيما بعد. فأحداث تلمسان في الحي اليهودي سنتي 1442 و 1476م، وأحداث توات و تمنطيط التي تزعمها المغيلي حوالي 1488/1490، إضافة إلى أحداث دخول خير الدين بربروس إلى تلمسان الذي قابله يهودها بالمقاومة في حارتهم ودفعت بخير الدين إلى قمعهم، تعتبر نماذج من بين حالات عديدة في هذه المرحلة التاريخية الانتقالية عن الصعوبات التي واجهت يهود الجزائر. أما يهود الأندلس المهاجرون إلى الجزائر فلم يكونوا بأحسن حالا من الأهالي السابقي الذكر لأن حداثة تواجدهم بالبلاد لم تكن لتسمح لهم باستقرار سريع أوباندماج سهل في المهجر الجزائري خصوصا وأن أغلبهم ترك أمواله وأملاكه في الجزيرة الإيبرية فرارا من المجازر المسيحية التي نظمها الملك فردينا ند (Ferdinand) وإيزابيلا (Isabella). وهذا ربما ما أدى بنسبة هامة من اللاجئين من الأندلس سنة 1492م إلى البقاء مترددين لفترة طويلة بين الاستقرار النهائي

والدائم بالجزائر والعودة إلى إسبانيا مقابل القبول بالشرط الرئيسي الذي فرضه فرديناند و زوجته وهو التخلي عن اليهودية والاعتناق الإجباري للديانة المسيحية. هذا الشرط طبق على اليهود، والمسلمين على السواء، قبل أن يطردوا نهائيا في بداية القرن 17م.

لقد اضطر اليهود تحت كل هذه الضغوط والاضطرابات إلى البحث عن توزانات جديدة ومواقع جديدة حيث يمكنهم أن يعيدوا هيكلة أمورهم في مناطق أكثرأمنا واستقرارا، وأدى هذا إلى حركة جماهيرية عفوية من مراكز تجمعهم التقليدية في المناطق الداخلة والعمق الجزائري إلى المدن الشمالية خصوصا الساحلية منها التي تتوفر فيها الشروط الأكثر ملاءمة لممارسة الوساطة التجارية منذ مطلع القرن 15م.

حركية التمدن هذه عرفت تسارعا كبيرا بتدفق عدد كبير من العائلات اليهودية الجزائرية إلى جانب تلك المتوافدة من الأندلس على أهم المدن الشمالية كالجزائر ووهران وقسنطينة ومستغانم وتنس وتلمسان وشرشال وبجاية..، حتى أصبحت المراكز الحضرية الكبرى تُشكّل أهم نقاط تمركز العنصراليهودي في الجزائر في ظرف لايتجاوز قرنين. هذه الحركة التمدنية، كما يؤكد ذلك ريشارد حيّون وبرنارد كوهين، بدأت قبل القرن 15م، إلا أنها نشطت أكثر منذ هذا التاريخ وطوال القرن 16م إلى أن أصبح معظم أفراد الجالية اليهودية في القرن 18 م من سكان المدن ، باستثناء يهود الميزاب وبعض الواحات الأخرى[20]. وهذا مالم يحدث مع المسلمين الذين بقيت أغلبيتهم الساحقة مستقرة بالأرياف.

لقد كان هذا السلوك الاجتماعي للجالية اليهودية الجزائرية سلوكا يعبر عن وعي بالتطوّرات العميقة التي هبت على العالم وعن مسايرة مرنة للأحداث وقدرة كبيرة على التأقلم معها لأن التطورات الدولية والإقليمية والعلمية جعلت من المدن خصوصا التي تطل على حوض المتوسط الأقطاب الجديدة المحركة للحياة العامة ومراكز الثقل الجديدة لحركية النمو والتطور. هذا السلوك يعكس أيضا إطلاع اليهود على الأحداث المحلية والدولية وهو ما ساعدهم على التعايش معها. فالمهاجرون مثلا من إسبانيا والبرتغال سنتي 1492م 1497م تفادوا

الاستقرار بصفة عامة في المدن التي سيحتلها الإسبان ما بين 1507 م و 1512م مماَ يدل على بعد نظر وقدرة على التنبؤ بالمستقبل أوبعبارة أخرى بالأطماع الإسبانية في شمال إفريقيا[21].

من نتائج هذه الحركة الديمغرافية والهجرات الجماعية اليهودية داخل التراب الجزائري أو من الخارج إلى الداخل حدوث تحولات هيكلية في البنية الديمغرافية الثقافية والاجتماعية للجالية اليهودية بالجزائر وتغيرها تغيرا عميقا.

1) الحالة الديمغرافية والتوزع الجغرافي لليهود في الجزائر:

لما قدم العثمانيون إلى الجزائر كانت الجالية اليهودية قد تمركزت في المدن الكبرى وخاصة المدن الشمالية منها بأعداد كبيرة بعد أن بدأ يتراجع دور الريف تدريجيا ويتغير وجه العالم مع مطلع القرن 16م.ورغم عدم توفر أرقام دقيقة حول عددهم آنذاك يمكن تحديد حجمهم تقريبا إستنادا إلى بعض الوثائق والمصادر التاريخية الغربية ومذكرات الرحالة الأوربيين الذين مروا من الجزائر خلال الفترة العثمانية على غرار Venture de Paradis ،Degrammont ، Lespes ،P. Dan ،Masson وغيرهم الذين أصبحت مؤلفاتهم المراجع الأساسية للوضع الديمغرافي العام في تلك الحقبة بالجزائر.

لقد كان عدد أفراد الطائفة اليهودية الجزائرية يتراوح في المتوسط ما بين 20000 و 30000 نسمة يزيد ويتناقص حسب الظروف والأحداث الاقتصادية والسياسية التي تمر بها البلاد ، والتي تتحكم حتى في تشتتهم الجغرافي وحركتهم من منطقة إلى أخرى داخل البلاد. وأغلب التقديرات العددية المتوفرة حول يهود الجزائرتتعلق أساسا بيهود المدن الكبرى وخاصة مدينة الجزائر، بحيث استقطبت هذه الأخيرة كأقصى حد من 10.000 إلى 12000 يهوديا، مقابل 4000 إلى 7000 بوهران وقسنطينة ، وعدد أقل يقدر بالآلاف أو حتى بالمئات في المدن الصغيرة أوذات الأهمية التجارية الضعيفة والمتوسطة، من مستغانم والغزوات وعنابة إلى الواحات الجنوبية، خاصة منطقة الميزاب ...

لقد تم التطور الديمغرافي لليهود بالجزائر حسب ثلاثة مراحل ذات ارتباط وثيق بالمراحل الثلاثة السابقة الذكر لتطور الجزائر العثمانية:

أ – مرحلة النمو الديمغرافي السريع:

وتشمل المرحلة الأولى من الحكم العثماني في الجزائر ، أي من 1516م إلى بدايات القرن 17م ، حيث يعود تسارع النمو الديمغرافي للجالية اليهودية في هذه الفترة إلى الهجرات الكبرى لليهود الفارين من إسبانيا والبرتغال إثر سقوط غرناطة سنة 1492م ثم في سنة 1497 م بسبب المطاردات والملاحقات المسيحية التي كانت تهددهم.كما سمحت النشاطات الكثيفة للأسطول الجزائري بالبحر المتوسط باستقطاب عدد هام من التجار والوسطاء (negociants) اليهود من أوربا وغيرها الذين تحولوا في فترة وجيزة إلى أهم زبائن غنائم الأسطول البحري ومحتكري تجارة الأسرى والعبيد المسيحيين. الجزائر آنذاك كانت أرض أمن وسلام وملجأ لآلاف اليهود، بقدر ما كانت أيضا سوقا نشطة ليهود آخرين درت عليهم أرباحا خيالية عندما كانت في أوج اتساعها.

ب – مرحلة الإستقرار:

وتتناسب مع المرحلة الثانية من الحكم العثماني للبلاد، إذ تمتد طوال القرن 17م وإلى أبعد من ذلك، إلى غاية منتصف القرن 18م. في هذه الفترة استقر عدد السكان اليهود بعد نمو متسارع في المرحلة السابقة نظرا لتقلص حجم الغنائم البحرية الناتج عن تقلص نشاط البحرية الجزائرية ومغامراتها العسكرية بسبب الانخفاض الكبير لحركة السفن المسيحية خوفا من الأسطول الجزائري في الحوض الغربي للمتوسط في فترة أولى، ثم إلى ارتباط الدول المسيحية بمعاهدات مع الإيالة، مما أدى إلى تقلص المواجهات وبالتالي الغنائم التي كانت موردا تجاريا أساسيا لليهود.

ومن جهة أخرى كان لتوقف الهجرات اليهودية الجماعية من الخارج،[22] خصوصا منذ سنة 1609م تاريخ آخر الهجرات من إسبانيا بعد La Reconquista، أثر كبير على استقرار النمو العددي لليهود بالجزائر. الأوبئة والمجاعات لعبت هي الأخرى دورا هاما في كبح الهجرة وفي الهجرة المعاكسة وبالتالي في استقرار عدد اليهود بالبلاد بسبب ارتفاع نسبة الوفيات. العديد من العائلات اليهودية غادرت الجزائر بصورة دائمة نهائية أو مؤقتة سنتي 1734 و1737..، وأثناء غزو الجراد في 1702م و1708م، ثم 1733..، وكذلك إثر زلزال 1716م الذي أتى على ثلثي مدينة الجزائر...

ج – مرحلة التقهقر:

تمتد من منتصف القرن 18م إلى الاحتلال وإن كانت المرحلة التي حكم فيها الداي مصطفى باشا استثنائية (من 1798إلى 1805) بسبب تشجيعه للاحتكارات اليهودية واعتماده الكبيرعلى الوسطاء اليهود سياسيا واقتصاديا، داخليا وخارجيا. في هذه المرحلة بدأ عدد اليهود في الجزائر في التناقص خصوصا بعد ثورة الإنكشارية التي أدت إلى مقتل الداي مصطفى باشا والتاجر اليهودي نفطالي بوشناق سنة 1805م والفوضى التي تخللتها وراح ضحيتها عدد كبير من اليهود وأملاكهم . كما أثّرت الاضطرابات السياسية – الاجتماعية التي سادت ابتداء من سنة 1800 من ثورات داخلية في الشرق والغرب والمجاعات والأوبئة والجراد والزلازل المتتالية [23] إضافة إلى الركود الاقتصادي، خصوصا بعد أن ضعف الأسطول الجزائري وتراجع حجم الغنائم بصورة محسوسة، إلى تقلص عدد اليهود بالبلاد وارتفاع نسبة الهجرة المعاكسة حتى في أوساط الطبقة التجارية الغنية .[24]

مدينة الجزائر كانت تضم لوحدها حوالي 1/3 السكان اليهود بالجزائر على العموم، ويمكن اعتبار الحركية الديمغرافية اليهودية بها نموذجا ملموسا، ومُعبِّرا، عن التطور الديمغرافي اليهودي بالبلاد.

دييغو دي هاييدو (Diego de Haedo) أسير إيالة الجزائر طيلة سنوات عديدة، ألّف كتابا عن المدينة والحياة العامة بها وحاول خلاله تقدير عدد سكانها اليهود. فلجأ إلى إحصاء عدد البيوت بالمدينة وحدّدها بـ:150. كان ذلك حوالي سنة 1580م. ثم للحصول على عدد السكان ضرب عدد المساكن اليهودية في العدد المتوسط لأفراد العائلة اليهودية المعروفة بارتفاع نسبة الولادات بها مما يسمح بتصور (10 X150) أي 1500 يهودي.

في نفس الفترة تقريبا، أي في عهد البيلربابات، كتب Degrammont في Histoire d'Alger يقول بأنه يقيم بمدينة الجزائر "... 10000 نسمة يترددون على 100 مسجد، معبدين (لليهود) ، وكنيستين (chapelles) كاثوليكيتين، (مضيفا بأن اليهود)، كان عددهم حوالي 2000 نسمة".[25] وعن Le Miroir de la charité chrétienne ينقل Maurice Eisenbeth بأن عدد "... اليهود (منذ 1616) تضاعف كثيرا

بمدينة الجزائر أين يقيم حوالي 8000 إلى 9000.." نسمة منهم ، وهو العدد الذي كان يقدر بـ: 9000 إلى 10.000 نسمة حسب شهادة P.DAN الذي زار المدينة حوالي سنة 1634م. Masson هو الآخر يؤكد نفس الرقم في نفس السنــــة. عدد اليهود بمدينة الجزائر بلغ سنة 1674 حسب Le chevalier d'Arvieu تقريبا 12000 نسمة. بينما في سنة 1754 إثر عدة كوارث طبيعية وانتشار خطير للأوبئة الفتاكة إضافة إلى توقف حركة الهجرات اليهودية الجماعية، تقلص هذا العدد إلى 7000 أو 8000 نسمة حسب المذكرة الرسمية التي قدمها المهندس M.Ricaud أسير الإيالة هو الآخر إلى السلطات الرسمية الإسبانية. وساد هذا الانكماش لعدد اليهود بالمدينة ولو بشكل متذبذب منذ هذه الفترة. الأرواح التي كانت تحصدها المجاعات والزلازل والأوبئة، كالطاعون الذي قضى على "... 14334 مسلما و1774 يهوديا و 613 مسيحيا ..." سنة 1787 حسب Raynal لم تعد تجد ما يعوضها بعد أن توقفت الهجرات الجماعية. تقدير M.Ricaud لعدد اليهود بالمدينة سنة 1754 ، أكده Venture de Paradis هو الآخر. لكنه يذكر بأنه اعتمد على عدد البيوت التي حددها بـ 180 بيتا ليصل إلى نفس الرقم. لكن يبدو أن عدد البيوت اليهودية المذكور لا يمكنه أن يتسع إلى 7000 أو 8000 يهودي الذين ذكرهم ، لذلك لا ندري كيف توصل إلى هذا التقييم لعدد اليهود بمدينة الجزائر.

قبل هذا التاريخ بحوالي 30 سنة أي في 1725 م قدر Laugier de Tassy عدد البيوت اليهودية بمدينة الجزائر بـ: 5000 بيت. فهل يعود هذا التباين الواسع في تحديد عدد المساكن اليهودية والسكان اليهود إلى أخطاء في التقدير أم إلى تباين في معايير الإحصاء، أم إلى الآثار العميقة للظروف الطارئة كالكوارث الطبيعية التي لحقت بالمدينة في القرن 18م ..؟

في أواخر عهد الإيالة قدّر القنصل الأمريكي شيلْرَ Shaler سنة 1818 عدد اليهود المقيمين بالمدينة بـ: "... حوالي 5000 "[26] نسمة ، وهو عدد مقبول إذا تتبعنا التطور الديمغرافي اليهودي بهذه المدينة والظروف التي مرت بها من أحداث سياسية – اجتماعية، وكوارث طبيعية على غرار ثورةالإنكشارية سنة 1805م التي أدت إلى هجرة 300 عائلة يهودية من الجزائر، والمجاعات التي مست المدينة أثناء ثورتي بن لحرش وبن الشريف بين 1800 و 1817، إضافة إلى زلزال

سنة 1818م الذي هزها بقوة. عدد اليهود بمدينة الجزائر بقي مستقرا في العشرية الأخيرة من عمر الإيالة حول 5000 نسمة مع زيادات وانخفاضات طفيفة ظرفية محدودة.

على العموم يمكن القول بأن عدد أفراد الجالية اليهودية بمدينة الجزائر وحدها في العهد العثماني كان يقدر بـ : 2000 إلى 5000 نسمة في فترة البيلربايات والجزء الأعظم من المرحلة الأولى من هذا العهد، ليبلغ طوال القرن 17 وبداية القرن 18 م ، أي في مرحلة القوة والاستقرار، من 10 آلاف إلى 12 ألف نسمة، قبل أن ينخفض في مرحلة الضعف والانحطاط، منذ منتصف القرن 18م إلى غاية الاحتلال سنة 1830م، إلى ما بين 9 آلاف حتى 5 آلاف نسمة. ونشير هنا إلى أن أقصى حد بلغه عدد اليهود بمدينة الجزائر في هذه المرحلة الأخيرة والذي قدر بـ : 9 آلاف نسمة تحقق في الفترة التي شاعت فيها الفوضى والاحتكارات اليهودية على عهد الداي مصطفى باشا والتي امتدت حتى بعد وفاته ببضعة سنوات[27].

رغم هذه المحاولات الإحصائية النسبية لعدد اليهود بمدينة الجزائر، يبقى العدد الحقيقي الدقيق مجهولا ، لأن المعايير التي استند إليها المؤرخون الغربيون تفتقر هي الأخرى إلى الدقة والوضوح وتعتمد فقط على المشاهدة السطحية؛ فهي لا تفرق مثلا بين المقيم بالإيالة بصفة دائمة والمهاجر المؤقت وعابر السبيل، وذوي الجنسيات الأجنبية المقيمين بالمدينة لأهداف تجارية ظرفية فقط. كما لم تأخذ هذه المعايير بعين الاعتبار الغائبين عن المدينة بسبب نشاطاتهم التجارية وغيرها ، وكذلك المتظاهرين بالإسلام مع بقائهم سرا على اليهودية لأن هذه الظاهرة بقيت مستمرة حتى في العهد العثماني ولو أنها كانت محدودة. وقد علق عليها عبد الواحد المراكشي بأن ".. في الحقيقة أن بعض اليهود استمروا خلال مدة طويلة في قيامهم بدينهم سرا، وفي نفس الوقت يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد ويُعلّمون أولادهم القرآن (و) كانوا يسلكون هذا المسلك لكي لا تفرض عليهم الجزية"[28].

فيما يخص المصادرالتي اعتمدت في تحديدها لعدد اليهود بالمدينة على إحصاء البيوت اليهودية وضرب عددها في متوسط عدد أفراد العائلة، تبقى

مصداقيتها ودقتها هي الأخرى هشة لأنها لم توضح إن كانت قد أحصت البيوت اليهودية المتواجدة داخلة الحارة فقط أم حتى خارجها وداخل أسوار المدينة أو حتى بضواحيها وريفها القريب، فضلا عن استجالة التحقق هل كانت هذه البيوت عامرة أم شاغرة لأن الظروف السياسية - الأجتماعية والكوارث الطبيعية الطارئة كثيرا ما أدت إلى هجرة العديد من العائلات اليهودية من مدينة الجزائر نحو اتجاهات اخرى محلية أو أجنبية تاركة ديارها مهجورة...

لكن على العموم توُفرّ هذه المصادر في مجموعها صورة عامة ولو تقريبية للاتجاهات والتحولات الرئيسية للحركية الديمغرافية اليهودية العامة وبنيتها وتوزعها الجغرافي عبر التراب الجزائري.

كان الحضور اليهودي في المدن الجزائرية الأخرى أقل أهمية منه في مدينة الجزائر. يذكر فشيه بأن مدينة قسنطينة كانت تأوي حوالي 5000 يهوديا،[29] وعدداً أقل يقدر هو الأخر بالآلاف في وهران وتلمسان ومدن أخرى.

د- التوزع الجغرافي وظروف الإقامة:

عاشت التجمعات اليهودية في المدن الشمالية خصوصا الساحلية منها في فلك الظروف والأحداث العامة التي كانت تُصنع، أو تطرأ، في العاصمة، وتأثرت مباشرة بما كان يحدث في الإيالة وبقرارتها. غير أن درجة هذا الارتباط والتأثر بها تتناقص حدته كلما زادت المسافة الفاصلة بين المراكز التنفيذية لقرارات وسياسات الإيالة والتجمعات اليهودية، وهي لا تختلف في ذلك عن علاقة المسلمين بالسلطة المركزية. بحيث كلما ضعف حضور السلطة كلما زادت هذه التجمعات في تدعيم استقلاليتها الذاتية. حياة اليهود في الجنوب والواحات مثلا كانت أكثر استقراراً منها في الشمال لبعدها عن اضطرابات ومعارك وكوارث الشمال وهذا ما ساعد على نوع من الاستقرار الديمغرافي ومن ديمومة التوطن بهذه المناطق بحيث يقدر عمر إقامة العائلات اليهودية بها بالقرون بينما نسبة كبيرة من يهود الشمال خصوصا العاصمة لا تتجاوز إقامتها بمدنها بضعة سنوات بسبب تأثير الأوضاع السياسية - الأمنية والاقتصادية.

في مدينة الجزائر، مثلا، كثيرا ماغادرت عائلات يهودية بأكملها البلاد لمجرد كساد تجارتها بحثا عن أسواق أكثر ربحية في جنوب أوربا أو في تونس

والمشرق العربي، كما أن إقامة بعضهابها لا تتعدى وقت جمع الأموال والثروات في سنوات الرواج الاقتصادي – التجاري والإستقرار والأمني – السياسي. العودة إلى الجزائر تحكمها أيضا نفس المحفزات ومدى استمرار توفر هذه المحفزات والشروط إلى الحد الذي جعل حياتهم مقسمة بين الجزائر مثلا وإيطاليا وتونس وفرنسا وإسبانيا .. وبالتالي كانت هويتهم مركبة من كل هذه الهويات المختلفة، مما يؤدي إلى صعوبة تحديد جنسية هذه العائلات.[30] فهي إذن تنتمي إلى كل هذه البلدان ولا تنتمي في نفس الوقت لأي بلد منها. لكن كان هؤلاء كشركاتهم ومحلاتهم متعددي الجنسيات. فكانت عائلة Cohen Preciosa مترددة بين مدينة الجزائر ومدينة ليفورن الإيطالية لفترة طويلة، حسب رواج أعمالها والوضع الأمني، فهي موجودة بالجزائر لبضعة سنوات، ثم تغادرها إلى إيطاليا، ثم تعود إلى الجزائر عندما يعود إليها الأمن والرخاء، وهكذا .... عائلتا Salomon و Stora وكذلك Meriam Balchim عاشت كلها على نفس الطريقة متنقلة بين ليفورن ومدينة الجزائر. أحداث طارئة دفعت كذلك بكل من هارون المُعْطي Aaron Moati، موسى سليمان Moise Soliman وموسى بوشناق Moise Busnash، إلى ترك الإيالة باتجاه ليفورن لعدة سنوات[31] ..

وفي نفس هذا السياق تدخل أيضا هجرة عشرات العائلات الليفورنية في نهاية القرن 17م والقرن 18م إلى مدينة الجزائر حيث ازدهرت أعمالها وتجارتها في خضم الفوضى والضعف اللذين سادا بالإيالة في أواخر القرن 18م وبدايات القرن 19م على عهدي حسن باشا ومصطفى باشا ما بين 1792م و 1805م، وقد عاد البعض منها إلى ليفورن وإلى فرنسا في أوقات لاحقة.

سكن اليهود في الجزائر بمختلف أصولهم مختلطين مع المسلمين سواء في نفس الأحياء والمدن كما هو الأمر بالنسبة لليفورنيين، أو في الحارات المحاذية لها، أو بالقرب من قصور الملوك والأمراء سواء في العهد العثماني أو في الفترة التي سبقته. الإقامة في الحارات اليهودية لم تكن إجبارية أو عنصرية ولا يوجد ما يدل على ذلك لكن حرص الحكام على أمن اليهود وحمايتهم من الإعتداءات والتجاوزات في أوقات الأزمات والاضطرابات السياسية – الاجتماعية هو سبب وجود هذه الحارات بمحاذاة قصور الحكام ومقرات إقامتهم. الذين فضلوا

الإقامة خارج هذه الأحياء اليهودية لم يمنعهم أحد من ذلك ، لكن الأغلبية الساحقة منهم بقيت متمسكة بشدة وعناد بالبقاء في الحارة منغلقة على نفسها بعيدا عن الأعين الفضولية.

ظهرت الحارات اليهودية بشكل رسمي بقرار من السلطات في المغرب العربي بمدينة فاس لأول مرة سنة 1438م وسميت :"الملاح" ، وذلك لأسباب أمنية بحتة لحماية اليهود من غضب الجماهير إثر أحداث اجتماعية طارئة حسب أندري شوراقي .[32] ثم برزت ثاني حارة بمراكش في 1557 م، والثالثة بمدينة مكناس عام 1682م لنفس الأسباب والغايات. نفس الظروف أحاطت بظهور الحارات اليهودية في كل من الجزائر وتونس بصورة رسمية. عقد الذمة يفرض على الدولة الإسلامية حماية أمن وممتلكات وحريات اليهود ، لكن هذا لا يعني أن الحارة كظاهرة إجتماعية عفوية لم تكن موجودة قبل هذا التاريخ، فقد ظهرت بإرادة اليهود وبدون تدخل الدولة أو أي ضغط كان، لأن التجمعات السكنية على أسس عرقية أو دينية، أو الإثنين معا، أو مهنية، كانت ظاهرة عادية وشائعة في القرون الماضية كما رأينا في الفصل السابق. وما تزال مستمرة حتى اليوم في جميع أنحاء العالم وحتى في إسرائيل نفسها حيث تجمع يهود كل بلد – خصوصا السفارديم[33]– في حي خاص بهم أو في مدن وقرى ومستوطنات معينة..

في الحارة أو الملاّح كتب Pidou de saint-olon يقول :" منُح اليهود من وسائل الراحة أكثر مما منُح للمسلمين أنفسهم " في العديد من الظروف والمناسبات. وكان الشعور بالطمأنينة والراحة والأمن بها من بين عوامل تمسكهم بها دون شك.

إن نشأة الحارة بقرار رسمي تزامن في الجزائر مع وجود حكام معروفين بالعدل والحكمة والصلاح. فحارة اليهود بقسنطينة مثلا بُنيت بأمر من صالح باي[34] المعروف بطيبته وسماحته كتكريم لليهود، بحيث خصص لهم أرضا واسعة بسيدي الكتاني وقدم لهم مساعدات ومساهمات في إنشائها وتزيينها حرصا منه على منحهم الاستقلال الداخلي الكافي والأمن الضروري لقيامهم بنشاطاتهم ومشاركتهم في الحياة العامة بصورة طبيعية.

في مدينة وهران، بمجرد مااسترجع الباي محمد الكبير المدينة من الإسبان سنة 1792م استدعى "... يهود معسكر ومستغانم وندرومة وتلمسان...(و) خصص لهم مكانا واسعا لبناء حيهم الجديد وقطعة أرض لاتخاذها مقبرة".[35] وأغمض عينيه لحاجته إلى خدماتهم الاقتصادية عن تعاون اليهود أو بعض اليهود على الأقل مع المحتلين الإسبان ضد المسلمين ومتاجرتهم بالأسرى الجزائريين الذين وقعوا في قبضة الإسبان، ولم ينزلق في محاسبة الطائفة على أخطاء الأفراد، كما حدث في عدد من الحالات. كما قلب صفحة الخيانة الكبيرة التي أسقطت مدينة وهران في يد الإسبان في سنة 1509م، حيث فُتح باب من أبواب المدينة غدرا لتدخل منه الجيوش الإسبانية من طرف يهودي يدعى "أشطورا" (Stora) بتواطؤ مسلِمَيْن كانا يعملان لحسابه، وذلك في الوقت الذي كان الجميع داخل المدينة المحصنة يتهيأ بعزم لمواجهة الهجوم الإسباني من فوق الأسوار والحصون.

في المزاب عاش اليهود جوا من الأخوة والتسامح مع المسلمين الإباضيين ولم يسجل التاريخ أية تجاوزات أو انتهاكات لحقوقهم. فقد كان كل طرف يعيش في حيّه محترما غيره وسط تقسيم اجتماعي منسجم متكامل للعمل. وقد شجع المزابيون أثناء العهد العثماني إقامة العنصر اليهودي في مدنهم، واستقدم بعضهم حرفيين يهود من الجنوب التونسي ووفروا لهم أحسن الشروط لممارسة مهنهم وحقوقهم وحرياتهم. واستمر هذا الجوار والتعايش الطبيعي طيلة قرون حتى سنة 1961–1962 عندما اختار اليهود المزابيين الرحيل إلى إسرائيل وبالضبط إلى صحراء النقب بسيناء بتحفيز ودفع من الوكالة الصهيونية العالمية والرابطة الإسرائيلية العالمية اللتين تكلفتا بتنظيم وتمويل الهجرة. كما اختار بعضهم فرنسا حيث تتجمع أغلب العائلات اليهودية الميزابية التي هاجرت إلى هذا البلد، والتي تقيم في الوقت الحالي، في مدينة ستراسبورغ Strasbourg وفي باريس بدرجة أقل.[36]

ويمكن التأكّد من رخاء العيش الذي عاشه اليهود مع الميزابيين في غرداية وضواحيها لدى عائلات: برتوش Partouche، عطية Attia والباز El-Baz وغيرهم الموجودين بفرنسا منذ 1962. علماً بأن آل برتوش أتوا إلى غرداية في

نهاية القرن 15م لاجئين من مطاردة عبد الكريم المغيلي في تمنطيط، ولم يكونوا ليتوطنوا بها لو لم يطب لهم بها المقام.

كان عدد اليهود في منطقة القبائل قليلا جداً، لذلك لم يحتاجوا إلى التجمع في حي خاص بهم بل عاشوا مثل سكان المنطقة جنبا إلى جنب بصورة طبيعية حيث اشتغلوا عادة بصناعة الحلي والجواهر الفضية والذهبية خصوصا في ضواحي "بني يني" (Beni yenni)، وتكلموا اللهجة القبائلية ولبسوا كالقبائل. لكن اهتمام أهل المنطقة بصناعة الحلي الفضية خلق نوعا من المنافسة لم تشجع اليهود على الإقامة بالمنطقة [37] باستثناء بعض التجمعات في المنطقة المذكورة وفي الصومام بسيد عيش وأقبو وقرقور، ووادي مرسى وتاكيتونت بأقبو وبني خيار بقرقور وما بين شعبة الآخرة ووادي أميزور. [38]

2 – البنية العرقية– الثقافية ليهود الجزائر:

تتكون الجالية اليهودية التي عاشت بالجزائر طيلة العهد العثماني من فئتين رئيسيتين هما : اليهود الأهالي، ذوي التاريخ العريق على هذه الأرض، الذين توالوا على البلاد منذ ما قبل الميلاد حتى الفترة التي سبقت المطاردات المسيحية الإسبانية لليهود في القرن 14 م والقرن 15م ودفعت بالآلاف منهم إلى الهجرة إلى الجزائر. وكذلك اليهود القادمين منذ هذا التاريخ من أوربا ومن إسبانيا بصفة خاصة إلى مختلف المدن الجزائرية حيث استمر تدفقهم على البلاد حتى وقت متأخر من فترة الحكم العثماني. الفئة الأولى تدعى "توشابيم" (tochabim) بالعبرية و(Les tochab) بالفرنسية والأهالي بالعربية، أما الفئة الثانية فتعرف بـ "ميغورشيم"(Mégorachim) بالعبرية و(Les Mégorach) بالفرنسية ويهود الأندلس أو إسبانيا بالعربية.

أ – التوشابيم أو الأهالي :

تشتمل فئة اليهود الأهالي على تلك الموجات التي استقرت بالجزائر منذ العهد الروماني وربما قبله فرارا من نبوخذنصر (586 ق.م) ومن تيتوس نوهضئ(70م) ، ومن فخطخمئ (117م) ومن Hadrian (135 م) ، ومن القوط في القرن السابع الميلادي. كما تشتمل على بعض يهود الجزيرة العربية الذين

تمّت هجرتهم إلى الجزائر وشمال إفريقيا عامة بعد الفتح الإسلامي، وعلى بعض يهود بني دريد الهلاليين الذين قدموا إلى الجنوب التونسي وبصورة أقل إلى الجزائر أثناء الهجرة الهلالية الكبيرة من المشرق إلى المغرب في القرن 10م.

أصبح التوشابيم مع مرور الزمن عنصراً منصهرا في المحيط الثقافي – الحضاري والاجتماعي الجزائري يصعب تمييزهم عن غيرهم من الجزائريين لو لا اختلاف الدين والطقوس الروحية والطبائع النفسية المكتسبة من التلمود ومن قرون التشرد والتشتت. عمق الاندماج والانصهار الثقافي في المجتمع الجزائري لهذه الفئة اليهودية أدى بالجزائريين المسلمين إلى تسميتها: "يهود العرب" أو "اليهود الأصليين "[39] لتمييزها منذ القرنين 14م و 15م عن اليهود الأوربيي الأصل. ولقّبهم آخرون: " اليهود الشّيكليين" نسبة إلى "الشيكلة" وهي صفيحة معدنية كانوا يعلقونها حول أعناقهم لتمييزهم عن غيرهم. ثم ظهرت التسمية العبرية الجديدة في الأوساط اليهودية المعروفة بـ : التوشابيم بعد القرن 14[40] إثر أحداث إشبيلية وقشتالة والباليار في 1391م.

ب : الميغورشيم أو الأندلسيون – الإسبان :

الفئة الرئيسية الثانية هي فئة اليهود الذين لجأوا إلى الجزائر عندما بدأت الدويلات والإمارات الأندلسية تتساقط تحت ضربات الإسبان المسيحيين خصوصا في سنوات 1391 و 1462 و1492 و1497.. ثم في 1608/1609م. هؤلاء اليهود صدر مرسوم ملكي بخصوصهم في 1492/03/31 يقضي بطردهم من إسبانيا خلال مهلة لا تتجاوز جويلية من نفس العام، بعدها أقيمت المحاكم الاستثنائية وصودرت الأملاك اليهودية وأجبر اليهود والمسلمون على السواء على اعتناق المسيحية أو الموت ...، قبل الطرد النهائي في 1608/1609. اليهود لم يكونوا أثناء هذه الأحداث أسوأ حالا من المسلمين الذين ساعدوهم، رغم المحنة و المعاناة وصعوبة الظرف، على الاستقرار بالمغرب العربي.

هذه الفئة اليهودية سميت : " اليهود الإسبان" أو "اليهود الأندلسيين". في الأوساط العبرية عرفوا بـ : " الميغورشيم"[41] وأيضا بـ: " الكبّوسيين" نسبة إلى "الكبّوسة" الحمراء التي كانوا يضعونها على رؤوسهم،[42] وهناك أيضا من يلقبهم بـ: " السفارديين" (Les Sepharades) أو Saphardim بالعبرية.

وتنسب كذلك إلى هذه الفئة بصورة مجازية بعض العائلات اليهودية المتواضعة العدد الأشكينازية الأصل والتي لا تربطها أية صلة عرقية بالفئة السفاردية حيث قدمت من إيطاليا سنة 1342م، ومن هو لانده سنة 1350 ومن فرنسا سنة 1403م، وحتى من إنجلترا في 1422م. البعض يدعوها أحيانا: "يهود الإفرنج". ثم في النصف الثاني من القرن 16م انتقلت عدة عائلات يهودية مغربية وتونسية إلى الجزائر للاستفادة من الاستقرار السياسي والتجاري والتوسع الاقتصادي بالجزائر.[43]

بفضل تكوينهم الديني المتفوق على مستوى اليهود الأهالي وبفضل إمكانياتهم العددية والثقافية – العلمية والمادية والحضارية النابعة من البيئة الأندلسية ... تمكن الميغورشيم من إعتلاء الريادة والطليعة اليهودية بالجزائر في ظرف وجيز، ومن فرض ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم وطقوسهم في مناطق تواجدهم، بحيث نافسوا بقوة ثقافة وعادات الأهالي وتمكنوا من التفوق عليها ومن الاستحواذ على المراكز الديناميكية الإستراتيجية للجالية اليهودية في البلاد ومن الاستيلاء على مسؤولية تمثيلها في علاقاتها بالمسلمين وبالسلطات الرسمية بعد أن سحبوا البساط تدريجيا من تحت هؤلاء التوشابيم.[44] الثنائي اليهودي المتكون من الحاخامين ريباش وراشباش كان أول من تكفل بهذه العملية ونجح في إحداث هذا الانقلاب السياسي – الثقافي داخل الطائفة اليهودية وبسط نفوذه عليها تدريجيا منذ نهاية القرن 14 وبداية القرن 15م. وبقيت السلطة داخل الطائفة اليهودية محتكرة منذ هذا التاريخ من طرف الميغورشيم إلى غاية قدوم يهود ليفورن ودخولهم في منافسة حادة معهم منذ القرن 18 م إنتهت إلى نتائج مأساوية في العديد من الأحيان.

المقاومة الثقافية والاجتماعية الشديدة لليهود الأهالي لم تنجح في دفع الزحف الميغورشيمي بالرغم من اتخاذها أشكالا عنيفة في بجاية مثلا وتنس وشرشال، وكان مصيرهم التهميش والطرد من واجهة الأحداث. النظام الطائفي الجديد الذي أتى به الميغورشيم أصبح هو النظام الرسمي الذي تعاملت معه أكثر السلطة العثمانية وقد فُرض تدريجيا على مدينة الجزائر وضواحيها وعلى مدن أخرى مثل بجاية وتلمسان... وتم ذلك إمابالإقناع أو التراضي أو بالضغط والوعيد.

حاول ريباش الذي كان أول من تزعم هذا النظام الجديد باعتلائه لمنصب "الحاخام الكبير" فضددخؤ رفخمغ أن يوحد جميع "الجاليات" اليهودية بالبلاد تحت سلطته في جميع شؤون حياتها حول نظام الحلخة (Halakha)[45] الذي قنن كل ما يتعلق بالأحوال الشخصية من حياة زوجية وعائلية والميراث. هذا النظام استمده من النظام الطائفي اليهودي الإسباني، لكنه لم ينجح في جعله نظاما ذا بعد وطني شامل لجميع يهود الجزائر وانحصر العمل به في بعض المدن الشمالية بصورة خاصة، بحيث كلما بعدت المسافة بين مختلف الجاليات والتجمعات اليهودية بالبلاد عن مدينة الجزائر المركز الرسمي للحاخام الكبير كلما ضعفت الطاعة والولاء لريباش وتقلص نفوذه، لتتحول علاقة بعض التجمعات اليهودية في العمق الجزائري بالحاخام الكبير مجرد علاقة تنسيق أو تشاور مع الاحتفاظ بالاستقلالية الذاتية. وفي المناطق النائية المعزولة وفي أقصى الجنوب لم تكن لليهود بها أية علاقة بنظام الحلخة وبزعيم الطائفة اليهودية بالعاصمة الحاخام الكبير. هؤلاء بقوا منطوين على أنفسهم، تحكمهم قواعد النظام القبلي الذي كان سائدا لدى جميع الجزائريين ويرأسهم "الشيخ" أو "المقدم"، بحيث كان لكل تجمع يهودي "شيخه" أو "مقدمه" الذي يُسيِّره باستقلالية تامة عن بقية التجمعات.

ريشارد حيّون وبيرنارد كوهين لا يكادان يعترفان بمقاومة التوشابيم للميغورشيم ويجزمان بأن عادات وتقاليد وطقوس الميغورشيم تم تبنيها أوتوماتيكيا من طرف اليهود الأهالي، وذلك من أجل إخفاء الخلافات اليهودية – اليهودية بالجزائر في القرن 15م. لكن زشفشـ عزصـ همزدمقه يؤكد بدون تردد بأن: "... قدوم اليهود الإسبان في بداية القرن 15م لم يتم دون صدامات سواء خارج أو داخل الطائفة ..."[46] اليهودية. ريباش نفسه لم يكن ممكنا له أن يتمكن من التغلب على الذين رفضوا الدخول تحت طاعته لو لا نجاحه في التقرب السريع من الحكام المسلمين وكسب ثقتهم بفضل استغلاله لعلاقات بعض أشراف اليهود الأهالي مثل Astruc Cohen في تلمسان. مما منحه نفوذا وقوة سياسية مكنته من الاستيلاء على مراكز القرار والنفوذ اليهوديين ومن تهميش النظام القديم الذي يدور حول "الشيخ" و"المقدم" وذلك بدعم سياسي

من بعض هؤلاء الحكام على غرار حكام بني زيان.[47] كانت احتجاجات اليهود الأهالي تُقابل وتُواجه بضغط السلطات الرسمية في صالح ريباش والجالية الميغورشيمية القادمة من إسبانيا التي منحت لها امتيازات استثنائية لمساعدتها على الاستقرار بالجزائر بعد المآسي التي تعرضت لها على يد المسيحيين. ومع ذلك فإن ريباش قد نجح رغم هذه الاحتجاجات وهذه المقاومة من طرف اليهود الأهالي في مالم ينجح فيه الحاخام الفرنسي في القرن 12م Le Rabbenou TAM الذي حاول توحيد الجالية اليهودية بضمها إلى النظام القانوني اليهودي الفرنسي دون جدوى.

ج – يهود ليفورن (Livourne)، (Les juifs Francs) أو (Les Grana) :

يهود ليفورن يشكلون فئة عرقية –ثقافية قائمة بذاتها تنتمي جغرافيا وثقافيا إلى أوربا، واستقرارها بالجزائر حديث العهد، بحيث جاء في وقت متأخر نسبيا من عمر الإيالة وبقي متذبذبا إلى غاية الاحتلال . قدمت هذه الفئة إلى الجزائر المدينة من مدينة ليفورن الإيطالية في نهاية القرن 17م وطيلة النصف الأول من القرن 18م خصوصا في الفترة الممتدة بين 1720 و 1740م ثم في عهدي حسن باشا ومصطفى باشا. كانوا يلقّبون بـ:" اليهود المسيحيين" أو "يهود النصارى" أو "Les Juifs Francs"، أو"الإفرنج" لأنهم اعتبروا دائما أجانب غير جزائريين سواء من طرف التوشابيم أو من طرف الميغورشيم أو حتى من طرف المسلمين ، كما عرفوا أيضا بـ: Les Grana خصوصا في تونس.[48] ، مع العلم أن هذه العبارة ليست سوى صيغة الجمع لكلمة ڤورني (Gourni) في اللهجة العاميّة التونسية. وقد كان لهذه الجالية سوق يحمل اسمها بمدينة تونس، إشتهر بـ: سوق الڤرانا.

أحدثت هذه العائلات الليفورنية بقدومها إلى الجزائر انقلابا كبيرا في موازين القوى داخل الطائفة اليهودية. فاستولت على مقاليد زعامتها وعلى مراكز قرارها ومختلف شؤونها الحيوية وانتزعت رئاسة الطائفة من يهود الأندلس الميغورشيم على غرار ما فعلته هذه الفئة الأخيرة مع التوشابيم في القرن 15م. وساعدها على هذا النجاح السريع تفوقها التقني والثقافي نظرا لإحتكاكها الكبير بالنهضة الأوربية وبحركية التطور الشامل في مختلف ميادين الحياة

خلال عصر " الأنوار" بأوربا. الحاخام الكبير لم يعد ميغورشيميا منذ قدوم يهود ليفورن إلا في حالات جد إستثنائية، وبدلا من العائلات الإسبانية الأصل مثل بن دوران (Ben Duran) وصرور Serror، التي يرجع أصلها إلى Rashbash، التي كانت تسيطر على زعامة اليهود، جاءت عائلات بكري (Bacri)، وبوشناق (Busnash) وبوشارة أو بوشعرة (Bouchara) الليفورنية لتدفع بها إلى خلف واجهة الأحداث وتحتل طليعة وريادة يهود الجزائر حتى الاحتلال وذلك منذ منتصف القرن 18.

الليفورنيون، وعلى رأسهم عائلتي بوشناق وبكري ، ستتسع دائرة نفوذهم في الجزائر إلى أن يتحولوا إلى عنصرسياسي– إقتصادي قوى في البلاد تحسب له كل الحسابات. وقد أحسنوا تطبيق سياسة اللعب على التناقضات المسيحية والإسلامية وتوظيفها لخدمة مصالحهم وأهدافهم، بحيث كما لعبوا دور الوسطاء التجاريين والسياسيين في الجزائر التي مونوها حتى بالأسلحة في أوقات الحصار والمقاطعة قاموا في الوقت ذاته بلعب نفس الدور في العالم الأوربي المسيحي الذي شكلوا إحدى آليات توسعه في منطقة المغرب العربي ..، إلى أن مالت الكفة للأوربيين بوضوح فأعلنوا عن اختيارهم الانتماء إلى أوربا المنتصرة.

د– آثار الهجرات الميغورشيمية والليفورنية على الهوية الثقافية ليهود الجزائر:

لم يمر هذان الانقلابان الميغورشيمي والليفورني الإيطالي دون ترك آثار عميقة على الشخصية الثقافية ليهود الجزائر ، إذ اقتلعاها تدريجيا من جذورها وبيئتها الجزائرية، ليجراها شيئا فشيئا نحو الثقافة والحضارة الغربية. ولم تسلم من عملية السلخ الثقافي هذه سوى بعض التجمعات اليهودية بالصحراء وبأقصى الجنوب وببعض المناطق المعزولة في جبال الأوراس مثلا وجرجرة، وهي جد قليلة عدديا، لأن أغلب اليهود كانوا قد استقروا في المدن في العهد العثماني.وربما كانت هذه العملية من بين عوامل تقلص الحس بالانتماء الجزائري لدى أغلبية يهود المدن عشية سقوط الحكم العثماني في الجزائر واختيار الانحياز العلني إلى فرنسا بدون تردد. بينما بقي يهود الأرياف والمناطق المعزولة والصحراوية مترددين في الولاء إلى فرنسا والانتماء اليها حتى نهاية القرن 19م ، ومنهم من بقي يرفض الانتساب إلى فرنسا حتى

الاستقلال مثل يهود الميزاب وغرداية[49] مثلا، ومنهم من بقي شعوره بالانتماء إلى الجزائر خيارا ثابتا إلى اليوم وهم مازالوا يقيمون في البلاد بصورة عادية كمواطنين جزائريين كاملي الحقوق والواجبات. لكن الاختيار الاستراتيجي المتمثل في الانحياز إلى الاستعمار حركته كذلك الروح الانتفاعية المصلحية، فضلا عن تأثير السياسة خصوصا منذ أواخر القرن 18م. فعائلتا بكري وبوشناق كانتا تنسقان خططها، حسبما يبدو، مع العائلة الروتشيلدية بأوربا...[50] لتحقيق أهداف يهودية محلية ودولية.

الكتّاب اليهود لا يتحدثون عن مسخ ثقافي أو عن انقلاب سياسي – ثقافي بخصوص تغريب أو تغرب يهود الجزائر، بل يتكلمون عن ذوبان عفوي للتوشابيم في الثقافة الميغورشيمية ثم اندماج الإثنين معا في الثقافة الليفورنية لتكتمل عملية التغريب أو التغرب مع الاندماج في الثقافة الفرنسية التي لا ينظرون إليها كثقافة المحتل بل كثقافة عالمية ناشرة للحضارة. ويفسرون هذا الاندماج العفوي – حسبهم – للتوشابيم في الميغورشيم بتخلف الفئة الأولى بسبب جزائريتها وانحرافها لذلك عن اليهودية الصحيحة خلال قرون إقامتها بالجزائر مقابل تقدم وتحضر الميغورشيم والليفورنيين بفضل ثقافتهم الأوربية الغربية. لذلك فهم يعتبرون تغريب التوشابيم صحوة ثقافية وتصحيحا لمسار اليهود الأهالي الثقافي وعودة طبيعية إلى الأصول اليهودية الصحيحة.

وكما يبدو، لا تخلو هذه النظرة إلى التوشابيم من العنصرية والاحتقار بسبب "ذنب" وحيد هو تأثرهم ببيئتهم الحضارية الإسلامية، العربية – البربرية. بعض اليهود الأوربيين القدامى والمعاصرين ذهبوا حتى إلى إنكار صفة اليهودية عن معتقدات وشعائر اليهود الأهالي لمجرد أنها تختلف عن معتقدات وطقوس وعادات يهود أوربا. الحاخام إسحاق برفت بارشيشت المعروف بـ :راشباش وهو أحد زعماء اليهود الميغورشيم الذي قدم إلى الجزائر مع ريباش في 1391م وخلفه في زعامته للطائفة بعد وفاته، كتب يقول عن "يهود العرب" أو اليهود الأهالي مايلي:" ...حين قدمنا إلى هذه البلاد، لم نجد عادات يهودية، لأن سكان هذه البلاد لم يعتادوا الحكم في منازعاتهم وفقا لقوانين ديانتنا، فجميع القضايا كانت تعرض على القاضي المسلم".[51] ومن بين اليهود المعاصرين كتب ريشارد

حيّون و برنارد كوهين ينتقدان بأسلوب غير مباشر تعرب يهود الجزائر القدامى أي الأهالي في سياق حديثهماعن يهود مدينة الجزائرما يلي:"مدينة الجزائر.. تدهورت جاليتها اليهودية الأصلية (منذ القرن 10م)، وتمزقت،(لأن) يهودها تعربوا".[52] فالتعرب حسب الكاتبين هو سبب التدهور والتمزق. هذا الحكم غير معقول إذن سواء بالنسبة إليهما أو بالنسبة لـ راشباش ولا ينم سوى عن حقد دفين إزاء كل ما يرمز للعرب والعربية والإسلام. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو : هل اليهودية حكرا على قوميات معينة؟ هل من الضروري أن يكون اليهودي أوربيا أو أمريكيا حتى يكون يهوديا ؟ وهل اليهودية دين أم قومية أو مجموعة عرقية؟

هذه النظـرة العنصرية مازالت قائمة إلى اليوم في إسرائيل نفسها بين اليهود العرب أو اليهود الشرقيين بصفة عامة واليهود الغربيين أي بين السفارديم والأشكنازيم ، بحيث تعتبر هذه الفئة الأخيرة نفسها الوريثة الوحيدة والشرعية لليهودية الصحيحة ولذلك احتكرت السلطة والمراكز الحساسة في الدولة وتنظر باحتقار إلى السفارديم وتتصرف معهم كوصية عليهم .

أول نشاط بادر إليه الحاخام الكبير ريباش وبعده راشباش لمّا قدم إلى الجزائر هو مكافحة التفتح التوشابيمي على المسلمين والإسلام. ففرض عليهم سلوكا انطوائيا لسلخهم عن بيئتهم. والذين رفضوا محاولته هذه وتمسكوا بعاداتهم وتقاليديهم اليهودية الجزائرية همشوا وتعرضوا حتى للاعتداءات الكلامية ومختلف أشكال الاحتقار والتقزز. هذا العناد الثقافي هو الذي سمح باستمرار وجود هذه الفئة ولو في أعداد محدودة إلى غاية 1962م راضية بمصيرها وبنظرة بقية اليهود إليها. في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن كان مصطلح "Juif indigène" ما يزال متداولا لتسمية اليهود الأهالي الذين كان ينظر إليهم باحتقار على أساس أنهم عرب جزائريون يهوديو الديانة. الشخصيات الفنية اليهودية مثل: إيدمون ناثان يافيل Edmond Nathan Yafil، موزينو Mouzino، بن فراشو Ben faracho، ولاهو صرور Seror Laho وسليم هلالي وغيرهم،[53] كانت أسماؤهم عندما تذكر في الصحافة عامة تكون مقترنة بصفة "اليهودي الأهلي" "Le Juif indigène". وتجدر الإشارة إلى أن اليهود الأهالي،

أي التوشابيم، لم يصمدوا فقط أمام التغريب الذي أتى به ريباش وراشباش والميغورشيم عامة بل تمكنوا حتى من احتواء عائلات ميغورشيمية عديدة وتعريبها وجزأرتها بفعل الاحتكاك والاختلاط. فاسم Mouzino الحقيقي هو Saul Durant وهو إذن من أحفاد Rashbach الذي اسمه الحقيقي هو Simon Ben Semah Duran (سيمون بن سماح دوران)،و Laho Seror يعود هو الآخر إلى نفس النسب لأن آل Serror ينحدورن من الإبن الوحيد لراشباش وهو Salomon Duran ..

يهود غرداية على سبيل المثال كانوا يصنفون هم الآخرين في عداد "اليهود الأهالي" سواء لدى بقية اليهود أو لدى المحتلين الفرنسيين ، وكانوا من أكثر اليهود الأهالي محافظة وانعزالا إلى حد اعتبار كل غريب عن حارتهم إلى غاية 1962 أجنبيا حتى ولو كان يهوديا ، ولا يسمحون للتجار اليهود الغرباء بدخول الحارة إلا كعابري سبيل فقط، وهذا ما سمح لهم بالمحافظة على هويتهم ثقافيا وعرقيا ومن البقاء بعيدا عن التأثر الثقافي الغربي سواء الذي أتى به الميغورشيم أو الليفورنيون أو الاحتلال الفرنسي،[54] وحالة يهود غرداية تنطبق على جميع يهود الصحراء،[55] فيهود غرداية فضلوا العزلة والانطواء الذاتي حتى في العهد الاستعماري ولم يمسهم مرسوم كريميو الصادر في 1870 إلا في سنة 1961 لتسهيل ترحيلهم من الناحية القانونية عندما تبين أن الجزائر على وشك الاستقلال. لكن في نهاية المطاف اختارت العائلات اليهودية الغنية مثل عائلة Makhlouf Partoshe وعائلة Benanas الرحيل إلى فرنسا والعائلات المتوسطة والفقيرة رحلت بواسطة مبعوثين إسرائيليين وصهاينة إلى إسرائيل.

لكن تجذر يهود غرداية في الثقافة الجزائرية حال دون الاندماج السريع في مواطنهم الجديدة وبقوا إلى اليوم متميزين ثقافيا عن غيرهم من اليهود ، فهم شرقيون أكثر منهم فرنسيون غربيون،وهذا ما جعل مختلف الكتّاب والمؤرخون اليهود الغربيي الثقافة يصفونهم بأحلك أوصاف التخلف والجهل والبدائية. وحتى مراكز البحوث والدراسات الغربية والإسرائيلية التي تهتم بالدراسات اليهودية لم تبدأ في الاهتمام بالدراسات اليهودية الشمال – إفريقية والجزائرية إلا في أوقات متأخرة من الستينات والسبعينات من هذا القرن. ويلاحظ عموما

في أعمالها وأعمال مختلف الكتاب والمؤرخين اليهود نقص كبير في حضور العنصر اليهودي الأهلي (indigène) بالمقارنة مع العناصر اليهودية الغربية الثقافية. فعند استعراض الشخصيات اليهودية البارزة في الجزائر على سبيل المثال، عبر التاريخ العثماني والاحتلالي لا نعثر سوى على بكري، وبوشناق وبوشارة، وبن دوران، وAlphandery، وDaninos، وAbraham BLOCH، وMeyer، وLoufrani، وAboulker، وRaymond Léris، وReinette، وLazarus، وEisenbeth، ... وغيرهم من ذوي الأصول الإسبانية والإيطالية والفرنسية ، بينما لا تذكر المصادر التاريخية اليهودية الشخصيات الجزائرية الأصلية إلا في حالات نادرة أو لا تذكرها على الإطلاق أمثال : بن النجار، ميموني ، بن هارون، هارون، الباز، يافيل ، موزينو، شوقرون (Choukroun)، خلفون، عطية، وسلمون مالكي، وإسحاق ليفي أو اللاوي وAstruc Cohen ،..

هـ – ريباش وراشباش في الفلكلور اليهودي الجزائري:

ريباش وراشباش هما من أكبر زعماء وحاخامات اليهود بالجزائر الذين تركوا بصمات عميقة في حياتهم العامة وفي الفلكلور اليهودي الجزائري. بعد وفاتهما أصبحا من الأولياء الصالحين اليهود حيث يمثلان إلى اليوم بالنسبة لهذه الطائفة ما يملثه سيد عبد الرحمان الثعالبي والوالي داده بالنسبة للمسلمين.

الإثنان هاجرا إلى الجزائر بسبب أحداث الباليار وقشتالة واشبيلية في سنة 1391م فرارا من القمع و الاضطهاد المسيحي .

ريباش هو الحاخام إسحاق برفت بارشيشت، تاريخ ولادته ووفاته غير محدد بالتدقيق. بعض المصادر تعتبره من مواليد سنة 1310م أو 1408 م والبعض الآخر يرى بأن هذا الحاخام عاش ما بين 1326– و 1442م. ولد ببرشلونة حيث نشأ واشتغل بها حاخاما،[56] ثم انتقل إلى سرقسطة (Saragosse) حيث ترأس جاليتها اليهودية في 1372 وبعدها إلى قلعة أيوب أو قلعة اليهود (Calatayud) ، وبعدها إلى كتلونيا (Catalogne)، بلنسية (Valence) وطرطوشة (Tortosa) ، قبل أن يلجأ إلى مدينة مليانة إثر أحداث 1391م ليستقر نهائيا في مدينة الجزائر بعد إقامة مؤقتة في مدينة تلمسان حيث

عينه سلطان الإمارة الزيانية حاخاما كبيرا (Grand Rabbin) بفضل مساعدة صديقه Astruc Cohen ومساعيه لدى السلطان بحكم منزلته عنده لأنه كان طبيبه الخاص ومساعده ومقربه.

ريباش اتخذ من الشريعة اليهودية الكتلونية ونظام الحلخة (Halakha) السائد بها نموذجا لتشريع قوانين خاصة بيهود الجزائر تعرف بـ: Les Takanot d'Alger وهي قوانين تنطبق على مختلف الجاليات اليهودية خارج الإطار المحلي العاصمي، فتخص جميع يهود البلاد عكس La Haskhama التي هي قوانين جهوية محلية.

Les Takanot d'Alger جعل منها ريباش دستورا قانونيا ودينيا لتأطير حياة الطائفة اليهودية بالجزائر وتقنين الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث، وتنظيم الشؤون الإقتصادية كالتجارة والضرائب ... والأمور الدينية بكل ما تحتوي عليه من شعائر وطقوس وصلوات وأعياد ..

لكنه لم ينجح كما كان ينتظر في فرضها على جميع التجمعات والجاليات اليهودية بالبلاد، بحيث كما تبناها البعض وتبرم منها البعض الآخر، وتمرد عليها آخرون، وانقسمت على نفس النسق مواقف اليهود من ريباش وزميله ومساعده راشباش. هذه القوانين يكون ريباش قد وضعها سنة 1421م حسب البعض أو سنة 1394 حسب البعض الآخر.

أهم شيء قام به راشباش هو تدوين القوانين التي وضعها ريباش وجمعها تحت التسمية السابقة الذكر. خلف راشباش ريباش بعد وفاته في زعامة يهود مدينة الجزائر وعمل على توسيع نفوذه إلى مختلف جهات الوطن، حيث اصطدم بتردد البعض ومناهضة البعض الآخر رافضين التدخل في شؤونهم الداخلية والمساس باستقلالهم الداخلي. راشباش هو Simon Ben Semah Duran (سيمون بن سماح دوران) وكما يبدو من اسمه Duran فهو فرنسي الأصل، ولد سنة 1361م بإسبانيا وتوفي بمدينة الجزائر إما في سنة 1442 م أو في سنة 1444. في ما يورقة (Majorque) مسقط رأسه اشتغل طبيبا وحاخاما قبل لجوئه إلى مدينة الجزائر فرارا من أحداث 1391، حيث ساعد ريباش على توحيد يهود الجزائر حول العادات والتقاليد والقوانين اليهودية القشتالية والكتلونية.

ريباش وراشباش توفيا بـ :" البهجة" ، مدينة الجزائر ، ودفنا إلى جوار بعضهما البعض بالمقبرة اليهودية خارج القصبة بمحاذاة الباب الشمالي الغربي للمدينة المعروف بـ :باب الوادي. وفي سنة 1880م حوُلت رفاتهما لأسباب عمرانية أثناء توسيع المدينة إلى مقبرة بولوغين الحالية حيث مازالا محل تقديس وتبرك من طرف اليهود الجزائريين وحتى الفرنسيين، وأول ما يقوم به عادة اليهود العائدون إلى البلاد بعد رحيل 1962م، هو زيارة ضريح الحاخامين أو" الربانيم" (Rabbanim) كما يقال بالعبرية و إشعال الشموع على قبريهما وتلاوة أسفار من التوراة والعهد القديم والدعاء والتضرع لهما .

بعض المصادر ترجح بأن سنة تحويل رفاتهما إلى مقبرة بولوغين (شوظ-هفضخإپزف) هي سنة 1896م.[57] رفاة ريباش وراشباش مازالت إلى يومنا هذا بنفس المقبرة رغم الأصوات المتعالية من حين لآخر داعية إلى نقلها إلى إسرائيل دون أن تجد التأييد الكافي من طرف اليهود المقيمين حاليا بالجزائر وحتى من بعض الذين هاجروا إلى فرنسا بعد الاستقلال.

تركت الأحداث المصيرية والظروف الصعبة التي عاشها اليهود الفارين من إسبانيا إلى الجزائر بصحبة القادة الروحيين الذين أنجبتهم هذه الظروف الحرجة آثارا بالغة العمق في لاوعي الطائفة اليهودية وفي ذاكرتها الجماعية خصوصا لدى الميغورشيم. ولم تنس أبدا هذه الفئة الأخيرة يد المساعدة التي قدمها لها هؤلاء الزعماء الروحيون من تأطير ديني واجتماعي في أصعب فتراتها سواء أثناء الرحيل من إسبانيا أو أثناء الاستقرار في الجزائر بحيث قادوا خطواتها الصعبة بحكمة حتى تجاوزت المحنة السياسية – الدينية التي ألمّت بها في قشتالة وكتلونيا والباليار. الفلكلور اليهودي خلد في الجزائر هذه المرحلة التاريخية والدَور الريادي الذي لعبته هذه الإطارات الروحية اليهودية. فالعديد من الأساطير تعيد تركيب مشاهد الرحيل الجماعي واللجوء إلى الجزائر والمعاناة والاضطرابات والغموض الذين تخللوا هذه الفترة الصعبة. وفي قلب هذه الأساطير وضعت الطائفة اليهودية الجزائرية أقطابها وأبطالها الروحيين كمنقذين للفارين من القمع المسيحي يواسون المنكوبين ويساعدونهم على "عبور البحر" إلى "الأرض الموعودة" الجديدة التي كانت تجسدها الجزائر في

هذه المرة بدلا من فلسطين. وتعود إلى الأذهان مرة أخرى حادثة عبور البحر الأحمر فرارا من فرعون تحت قيادة موسى عليه السلام، وما جاء في الإصحاح 8، السفر 1، من الإنجيل: "وكلّم الرب موسى، إذهب إلى فرعون وقل له ، هكذا قال الرب ، دع قومي يرحلون"[58] ...

شُبِّه هؤلاء القادة الروحيون بموسى عليه السلام في هذه الأساطير وأحيطوا بهالة من التعظيم والتقديس جعلتهم يبدون وكأنهم أنبياء جدد أرسلهم الرب لإنارة الطريق نحو الخلاص لـ: " شعب الله المختار" .

في هذه الأساطير يُقدم ريباش وراشباش دائما كبطلين كاريزماتيين يتمتعان بقدرات ميتافيزيقية خارقة ويجسدان الخير في مواجهة قوى الشر التي تلاحق اليهود حيثما حلوا، وذلك بفضل تقواهما وتدينهما وورعهما الشديد.

في إحداها تُحكى حكاية قدوم راشباش من إسبانيا إلى الجزائر بصورة سريالية عجيبة، بحيث أثناء إقامته في السجن بصحبة مجموعة من اليهود ، قام برسم سفينة كبيرة على أحد جدران الزنزانة، بمجرد أن لمسها زملاؤه بأصابعهم تحولت بفضل قدراته العجيبة إلى سفينة حقيقية زرعت الأمل وقتلت اليأس الذي سكن هؤلاء المساجين. فركبوها بمباركته وتحت رعايته جميعا، وفروا على متنها بعد أن اخترقت جدار السجن وكأنها شبح طائر دون أن تُخلّف أي ضرر، مهما كان نوعه، بفضل كرامات راشباش. ووجد الركاب أنفسهم على سفينة الحاخام وهي تشق بهم عباب البحر المتوسط متجهة إلى بر الأمان، مدينة الأمن والسلام والطمأنينة؛ مدينة بني مزغنة التي أصبحت مدينة الجزائر حيث ينتظرهم إخوانهم المسلمون بالحفاوة والترحاب[59] .

ويروي ريشارد حيون وبيرنارد كوهين حكاية أخرى تقول بأن جماعة من اليهود وقعوا في قبضة الأتراك بالبحر المتوسط الذين عزموا على تسليمهم للإسبان(؟)..، ولم يجدوا مخرجا من هذه الورطة إلا بفضل القدرات الخارقة للشيخين اللذين كانا يقودان السفينة المقلة لهم. الشيخان افتعلا عاصفة هوجاء بإلقائهم أنبوبا سحريا في البحر، فأعاقا الطريق في وجه الأتراك الذين كانوا يحاصرونهم ويطاردونهم، وهكذا نجوا جميعا بأعجوبة. هؤلاء الشيخان يسميان Harchorech و Arivas. لكن حيون و كوهين يعتقدان أنهما ليسا سوى

ريباش وراشباش. أما الأنبوب السحري فيعيد إلى الأذهان عصا موسى عليه السلام السحرية.

مثل هذه الأساطير عديدة ومتنوعة في الفلكلور اليهودي وتُعبِّر عن الأثر الخاص لأحداث 1391م في الذاكرة الجماعية للطائفة اليهودية وحالة الخوف والشعور بفقدان الأمن التي كانوا يعانونها، والتي كان ضروريا أن يتجاوزوها بطريقة لا واعية بالتعويض لما افتقدوه بالأساطير والخرافات البطولية الملحمية لتعيد لهم بعض التوازن البسيكو– إجتماعي. ريباش وراشباش احتكرا لوحدهما مواقع رئيسية في هذه الميثولوجيا اليهودية الجزائرية، ويليهما في الأهمية الحاخام رب النقاوة أو Rab EphraïmEnkaoua (1359 – 1442)[60] الذي عاصرهما بمدينة تلمسان قادما إليها في عداد موجة الرحيل لسنة 1391م، وبضعة زعماء روحيين آخرين على غرار الرّبّي هلاّل بن صيدون Rabbi Hallal Ben Sidoun ويوسف بن منير Joseph Ben Menir... وآخرون مثل ميمُون بن سعديا النجار Maimoun Ben Saadia Najar بقسنطينة.. وأبراهام بن حكيم Abraham Ben Hakim وعمران بن مِرْواس الفُراتي Amran Ben Merovas ephrati بوهران.

3– البنية الإجتماعية – المهنية ليهود الجزائر

كانت المرحلة الانتقالية التي عاشها يهود الجزائر في نهاية القرن 15 م وبداية القرن 16م أثناء دخول العثمانيين مرحلة صعبة من الناحية المادية خصوصا بالنسبة للطبقة الفقيرة المعدمة التي كانت تشكل نسبة هامة منهم.

تعود هذه الصعوبة إلى حداثة إقامة المغورشيم بالجزائر التي لم تكن لتسمح لهم باستقرار مادي ثابت، فضلاً عن كون الكثير منهم ترك أمواله وأملاكه بإسبانيا أثناء الفرار من الاضطهاد والقمع. كما أثّرت الأحداث السياسية الداخلية في الجزائر أثناء دخول العثمانيين على اليهود الأهالي وزعزعت استقرارهم المادي خصوصا بعد تراجع تجارة القوافل إثر التحوّلات العميقة التي طرأت على الاقتصاد الدولي. لكن هذا لا يعني أن كل التوشابيم افتقروا أو أن جميع المغيورشيم قدموا إلى الجزائر بأيْدٍ فارغة مجردين من أموالهم.

هذه المرحلة الحرجة أنتجت رغم الاختلاف الثقافي حدا أدنى من التضامن بين مختلف الطبقات الاجتماعية اليهودية في المدن التي لم تشهد خلافات عميقة

بين الميغورشيم والتوشابيم،[61] كما دفعت بالفئة الأولى إلى التماسك والتعاون فيما بينها لمواجهة التحديات المادية في هذه الفترة تحت رعاية الحكام المسلمين الذين قدموا لهم يد المساعدة المادية لتسهيل استقرارهم بالبلاد، خصوصا خير الدين بربروس الذي أنقذ هو شخصيا عددا من الفارين اليهود من إسبانيا بعد سقوط غرناطة في 1492م.

ساهمت حركية التمدن في تعميق الهوة المادية بين مختلف الطبقات الاجتماعية اليهودية، لأن الرواج التجاري والحرفي أصبح أهم في المدن، خصوصا المدن الشمالية الساحلية، منه في الأرياف والمناطق الداخلية والصحراوية، وهذا ماأدى مع مرور الزمن إلى تعمق التفاوت المادي بين اليهود حسب المناطق.لكن هذا لا يعني أن يهود الشمال كانوا متجانسين من حيث مستوى المعيشة والإمكانيات المادية.

لكن على العموم كانت الطائفة اليهودية تتكون من طبقة تجارية غنية جدا، وطبقة فقيرة جدا تتوسطهما طبقة التجار الصغار والحرفيين. وكانت درجة الفقر والغنى تختلف حسب أهمية المدن الاقتصادية وحسب الموقع الجغرافي، أي حسب تواجد الجالية في الشمال أو في المناطق الداخلية أو في الصحراء وأقصى الجنوب .

اشتغل اليهود بمختف المهن والحرف التي كانت سائدة في الجزائر العثمانية كغيرهم من المسلمين والمسيحيين، وتخصصت كل طبقة اجتماعية منهم في نشاطات معينة تتناسب وإمكانياتها.

استولت الطبقة الغنية اليهودية المتكونة أساسا من الليفورنيين على التجارة الكبيرة الحجم وعلى احتكارات الجلود والشموع والأقمشة والحرير، وعلى تجارة المصابيح والخردوات الأوربية وريش النعام القادم من مالي والنيجر عبر الميزاب، وأيضا على الصوف والخمر والعنب الجاف، وعلى التبغ بوهران، وحتى على القردة ببجاية. ومن المعروف أن بوشناق وبكري لوحدهما احتكرا منتوجات الجزائر في القرن 18م من الشموع والجلود والأصواف والحبوب التي كانا يصدرانها إلى الضفة الشمالية من المتوسط، وحتى إلى هولاندة والولايات المتحدة الأمريكية.[62] كما اشتغل اليهود أيضا بتجارة الأسلحة سواء بطرق شرعية أو غير شرعية.

خبرة اليهود التجارية واحتكاك الكثير منهم بأوربا وبالتقنيات الجديدة التي ظهرت بها خلال التوسع الكبير للمبادلات الدولية الذي أفرزه تطور وتقدم الاقتصاد الرأسمالي والتوسع الصناعي وكذلك ظهور السفْتجة (زشفخص ذ زر زمههزع) بالجزائر لأول مرة ساعدت كلها اليهود على النجاح في احتكار التجارة الجزائرية تدريجيا والإثراء الواسع منها.[63] ومن بين عوامل نجاح يهود ليفورن في احتكار التجارة الجزائرية يمكن أن نذكر ما يلي :

1 – حيازتهم لهياكل تجارية منتشرة عبر كامل حوض المتوسط حيث ينشط وكلاؤهم وعملاؤهم وهم في أغلبهم يهود إذا لم يكونوا من ذوي القربى. فمنحتهم هذه الأفضلية إمكانيات واسعة ومرونة كبيرة في تسويق سلعهم كيفما يشاؤون وبأفضل الأسعار، إضافة إلى اقتصاديات الحجم (Economies d'Echelle) التي يوفرها التنسيق الكبير بين هذه الهياكل .

2 – إمكانياتهم المالية الضخمة التي جعلتهم يقومون بعمليات ذات حجم كبير حتى على مستوى الحكومات ومكنتهم من تقديم الخدمات البنكية للحكام – عند الحاجة إليهم – التي تجلب لهم عادة ريوعا سياسية وتجارية متعددة خصوصا وأن ثروات بعضهم فاقت حتى ثروات الدايات أنفسهم حسب ما يشاع في بعض المصادر التاريخية.

3 – هذه الإمكانيات المالية جعلتهم ينفذون إلى عالم السياسة والحصول على نفوذ سياسي قوي لدى مختلف الحكام ، سواء في الجزائر أو غيرها من البلدان، سمح لم باكتساب امتيازات كبيرة دعمت قدراتهم على المنافسة في الأسواق المحلية والدولية. ففي الجزائر مثلا يذكر حيون و كوهين بأن اليهود ″ لم يكونوا يدفعون سوى ثلث (1/3) التعريفات الجمركية الرسمية″..[64]

ومن جانب آخر، لعبت أموال ونفوذ البارون اليهودي آمشيل روتشيلد Amshel Rothschild حسب سبيريدوفيتش Spiridovich دورا بارزا في النجاح التجاري–السياسي ليهود ليفورن بالجزائر وفي تفوقهم على اليهود الميغورشيم والتوشابيم، وربما حتى في احتكارهم لزعامة الطائفة اليهودية الجزائرية. فالوسيط التجاري اليهودي الكبير نفطالي بوشناق، مثلا كان أحد أكبر التجار اليهود الليفورنيين المقربين إلى الداي، وفي نفس الوقت تزعم

اللوبي الروتشيلدي في الإيالة، وعمل على توريط الجزائر ضمن لعبة موازين القوى بين الدول الأوربية وخاصة في الصراعات التي كانت قائمة بين فرنسا وبريطانيا. وخلق الاضطرابات والأزمات فيما بينها جميعا من أجل تحقيق مخططات العائلة الروتشيلدية اليهودية ذات البعد العالمي من أجل سيطرة "شعب الله المختار" على "القوييم" (Goyim)، أي الشعوب غير اليهودية، رغم أن بعض الآراء ترى أن هذه الفكرة مجرد وهم من نسج الخيال.[65]

بفضل هذه المميزات والأفضليات، لم تصمد أمام هذه العائلات الليفورنية حتى العائلات الثرية الإسبانيـة الأصل التي كانت تنشط بكثرة في منطقة جبل طارق قبل هجرتها إلى الجزائر على غرار: Sasportas، Gabison، Cabecca، Benseria، Angel، Senucha (أو Semicha حسب بعض المصادر) المتمركزة بمدينة وهران،[66] ولا حتى الميغورشيم الأقوياء بمدينة الجزائر مثل: Ben Duran,Serror، Stora، Ben Haïm ... وغيرهم.[67]

إلى جانب الطبقة الغنية، مارست الطبقة المتوسطة، التي كانت متكونة أساسا من الميغورشيم في المدن الساحلية والداخلية وحتى من التوشابيم في جرجرة والواحات وأقاصي الصحراء، التجارة الصغيرة التي تعتمد أساسا على الحرف كالصياغة والمجوهرات الفضية، ببني يني، وغرداية مثلا، والذهبية، والخياطة التي ازدهرت في قسنطينة، والصباغة، والغزل والحياكة، والطرز، والصفيح، والقياطين ...، و وهي كلها حرف كانت رائجة وصاعدة في سلم النشاطات الاقتصادية الديناميكية آنذاك. ويقال أن حتى ملابس الدايات وعائلاتهم كانت تصنع من طرف اليهود في ورشات خاصة داخل قصور الحكام.

إضافة إلى ذلك اشتغلت الطبقة المتوسطة أيضا ببعض المهن الأخرى كصناعة الزجاج، ومقابض البنادق، وبالصيد البحري، وصيد المرجان، وأوكل إلى بعضهم صك النقود وتغييرها ومراقبة أوزانها. كما امتلكت هذه الطبقة محلات تجارية عديدة بمختلف المدن الجزائرية في الشمال وفي الجنوب كغرداية وتقرت. ويذكر Noushi أن اليهود كانوا يملكون حوالي 106 محلا لبيع النسيج، مثلا في مدينة قسنطينة وحدها، بينما لم يكن المسلمون يملكون سوى 45 فقط.

أما الطبقة الفقيرة المعدمة وهي على العموم تتكون من اليهود الأهالي فقد مارست أحط المهن في سلم النشاطات الاقتصادية الذي كان سائدا آنذاك مثل تنظيف الشوارع والأزقة، وطرد الجراد، ودفن جثث الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام. لكن هذه المهن لم تكن وقفا عليهم دون غيرهم لأنها مورست حتى من طرف الطبقات الفقيرة المسلمة مثل "البساكرة" الذين اشتهروا في مدينة الجزائر بتفريغ الأوساخ، و" ...تنقية المجاري المائية والآبار وحفرها واشتهروا أيضا كسقائين ينقلون الماء من العيون والينابيع إلى البيوت مقابل عمولات."[68] لذا، لا يمكن اعتبار اشتغال بعض اليهود بمثل هذه المهن مظهرا من مظاهر الاحتقار الديني والعنصري كما يوحي بذلك البعض.

ومن الطبيعي أن يؤدي اختلاف مستوى المعيشة من طبقة إلى أخرى إلى اختلاف نمط المعيشة، بما فيه أماكن الإقامة والسكن، فإذا كانت المساكن الفخمة خارج الحارات داخل الأحياء الراقية بالمدن أو بالبساتين الجميلة بالضواحي من نصيب الطبقة الغنية التي كانت تعيش إلى جانب المسلمين في ظروف مادية جيدة، فإن الطبقتين المتوسطة والفقيرة بقيت حبيسة الحارات في ظروف مادية تختلف من شخص إلى آخر حسب الإمكانيات، رغم أن مظهرها، حسب العديد من المؤرخين ، كان دائما يوحي بالفقر المدقع .

هذه الفروقات الطبقية اليهودية– اليهودية والتفاوت الطبقي بين اليهود وغير اليهود بقيت قائمة حتى أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، مما يؤكد بأن أسبابها لا علاقة لها بما يسمى بالتمييز العنصري – الديني الذي يقال أن المسلمين مارسوه ضد اليهود، خصوصا وأنّ مؤرّخيهم ومعظم المؤرخين المسيحيين أثناء الحكم العثماني خاصة، حرصوا على تصويرهم دون تمييز في أقصى درجات الفقر والمسكنة. فبينما سكن الأغنياء أثناء الاحتلال بفيلات بولوغين Saint-Eugène و تيليملي وما حولها و Mustapha (منطقة ساحة أول ماي حتى مشارف حيدرة حاليا).. مع الأوربيين، بقيت الطبقات المتوسطة والدنيا في أسفل المدينة (La basse ville) بنواحي باب عزون وشارع لالير، أو أحمد بوزرينة حاليا La Rue de la lyre .... قبل أن ينتقل بعضها إلى باب الوادي..."[69]

إذا كانت الطائفة اليهودية تنقسم إلى طبقات وتختلف عن بعضها البعض من حيث مستوى المعيشية وتتصارع كذلك فيما بينها خلال المنافسة التجارية ..، فإنها

تلتقي مع بعضها البعض حول عدة سلوكات كممارسة الغش والرشوة والمضاربة والتزوير والربا الفاحش والتهرب من الضرائب .. خصوصا أثناء الأزمات التي تمر بها البلاد حيث تضعف سلطة الدولة وهيبتها.[70] أحمد توفيق المدني يذكر أنهم ".. كانوا يجعلون مصالحهم المادية فوق كل عاطفة وفوق كل اعتبار"ويؤكد بأن احتكارهم للقمح هو سبب أزمة القمح والمجاعات[71] أثناء العهد العثماني...

التناقضات المصلحية بين اليهود تتراجع هي الأخرى عادة أمام الرابطة الروحية والمصلحة الدينية العليا لكل الطائفة بحيث كانت هذه الرابطة من القوة ما جعلها تحول دون حدوث أي انفجار خطير أو انشقاق عميق داخل يهود الجزائر. رغم الأحداث والمناوشات التي كانت تقع هنا وهناك من حين لآخر لأسباب مادية أو روحية مذهبية أو حتى زعامية تتسبب فيها منافسة العائلات الكبيرة والغنية على المناصب القيادية للطائفة. فبقي الدين بذلك إسمنت وحدة اليهود وتماسكهم الذي نجح في إذابة الخلافات والتناقضات المادية، والثقافية – العرقية، والمذهبية – الدينية بين مختلف شرائح وطبقات وأعراق يهود الجزائر.

4– البنية الإجتماعية – الثقافية ليهود الجزائر :

اندماج اليهود في المجتمع الجزائري اقتصاديا لم يكن لينجح كل هذا النجاح لولا اندماجهم أو تأقلمهم – على الأقل– الثقافي الواسع، الناتج عن فهمهم العميق للشخصية الجزائرية وبنيتها النفسية والثقافية والحضارية، فضلاً عن الأمن والاستقرار الذي نعموا به في الجزائر وقدم تواجدهم بالبلاد الذي يعود إلى آلاف السنين.[72] المؤرخون والرحالة الذين اهتموا بالجزائر في العهد العثماني صدمهم التشابه الكبير في المعيشة والعادات والثقافة بين اليهود، خصوصا الأهالي، والمسلمين، باستثناء يهود ليفورن ، لذلك احتاروا وترددوا في تقييم الوضع اليهودي بالبلاد وفي كيفية الحكم على العلاقات بين المسلمين واليهود التي كانوا يتصورون بأنها على نفس التوتر والتردي وحتى الاضطهاد السائدين بأوربا .

أ – الأزياء والألبسة اليهودية :

فيما يخص عادات اللباس اليهودية الجزائرية، كانت الطائفة الإسرائيلية ترتدي إلى جانب ألبستها الخاصة الداكنة اللون، التي أشيع أنها إجبارية،[73]

مختلف الأزياء الجزائرية التي كانت سائدة لدى المسلمين بالمدن والأرياف، سواء في الشمال أو في الجنوب في مختلف المناسبات والمواسم والأعياد والأحزان. فقد لبس اليهود أثناء العهد العثماني نفس السروال "الساتاني" (en Satin) الذي ينحدر حتى الساق المعروف لدى المسلمين بـ " سروال التستيفة" أو" سروال عرب" أو "سروال اللوبية" حاليا، كما غطوا رؤوسهم على غرار المسلمين أيضا بالطربوش أو"الشاشية" أو بالكالوطة" Calotte التي تحاط بعمامة سوداء أو بيضاء، مع بعض الاختلافات الطفيفة في طريقة الارتداء. ولبسوا أيضا نفس "جلابة" المسلم الجزائري سواء كانت بيضاء أم سوداء، فضلا عن "البرنوس الأبيض الفاخر ..."[74] الذي خصصه اليهود للأعياد والأفراح والمناسبات الدينية وللعبادة داخل المعابد أيام السبت (Sabbath). وعرفوا أيضا "البدْعية" و"الغليلة" اللتين كانتا أساسيتين في المدن الجزائرية الكبرى آنذاك. كما انتعلوا نفس الخف ونفس النعل ونفس "البلغه" التي انتعلها المسلمون .

أما الأطفال فقد كان لباسهم النموذجي إما "البلوزة" أو "القندورة" في الأرياف وفي الجنوب، أو "سروال العرب" والقميص أو الصدرية le Gilet ذات اللون الأسمر القريب من الصفرة أو حتّى "البدعية" و"الغليلة" عند الأغنياء منهم. في تونس، بمدينة " جربة" و" قابس" مازال الأطفال اليهود يلبسون إلى اليوم "البلوزة " والصدرية" Gilet.

لكن وُجدت بعض الاختلافات الطفيفة في الملبس بين اليهود أنفسهم، فالميغورشيم كانوا يغطون رؤوسهم بقبعات ، أشكالها غريبة عن الجزائر ، على النموذج الطيلطلي مثلا، حسب شهادة Haédo ، بينما تميزت عنها قبعات الفرنسيين ليس فقط بشكلها الهندسي بل أيضا بانحدار طرفها من الوراء وتدليه على طول الرقبة.[75] أما اليهود الأتراك القادمون من القسطنطينية والليفورنيون فكانوا يلبسون حسب نماذج الأزياء السائدة في بيئتهم الأصلية، إذ كان زي اليهود الأتراك هو نفس زي المسلمين بتركيا ولم يكونوا يختلفون عنهم إلا في لون العمامة التي كانت صفراء بالنسبة لليهود ، وفي الجزمة (bottes) السوداء، بينما كان هندام يهود ليفورن أوربيا خالصا ماعدا بعض اللمسات الثانوية ذات الطابع الشرقي العربي الإسلامي.[76] يهود ليفورن اشتهروا بتقليدهم للأزياء

الأوربية وحتى للعادات والتقاليد وطريقة الكلام الأوربية بطريقة استعلائية جعلت اليهود الأهالي وحتى المسلمين يقولون عنهم بسخرية بأنهم "يشربون الماء بالفرشاة".

نفس التطابق في الهندام والأزياء عرفته المرأة اليهودية. فلم تكن تتميز عن المسلمة في شيء تقريبا ، ابتداء من "الفوطة" الحريرية أو القطنية المزركشة بخطوط متوازية براقة متألقة كانت تلفها على كتفيها خارج البيت إلى "المحرمة" أو الوشاح (foulard) القطني أو الحريري – حسب الإمكانيات – المطرز بالذهب الذي تستر به شعرها وكامل رأسها وتحيط به وجهها، باستثناء العينين. لتأثرها بالعادات والأخلاق الإسلامية السائدة التي تعتبر شعر المرأة عورة وتحبذ حتى سترالوجه، وهذا رغم أن الديانة اليهودية لا ترى أي حرج في الكشف عن الوجه والشعر.

كما عرفت المرأة اليهودية نفس "الكوفية" التي تستعملها المسلمة للزينة في الأفراح والأعياد، وهي مطرزة بالذهب ومرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة أو بالفضة، وعرفت أيضا "القبقاب" و"الحايك" الحريري، أو الكشميري الذي لم يكن خروج المرأة من البيت ممكنا بدون التحافه ، و"الخمار" أوالعصبة التي توضع على الرأس كالتاج للزينة، و"الصرّمة"، و"الفرْملَة"، و" السروال" النسائي الفضفاض الذي يتدلى حتى القدمين لاعتبارات أخلاقية مرتبطة بالمحيط الإسلامي. وكذلك الحلي والجواهر والأحجار الكريمة التي كانت تزين بها العنق والمعاصم والأقدام..، وحتى "الحنة" التي كانت تصبغ بها الأيدي والشعر، إضافة إلى "الكحل" للأعين والحاجبين وحتى للشعر.

المرأة اليهودية على العموم كانت كالمسلمة في حياتها العامة، تعيش في البيت أساسا في جو محافظ لكنه أقل محافظة منه لدى المسلمات لأنها تتمتع بحرية نسبية في الحركة خارج البيت. ولم تبدأ حياتها في التغيّر والخروج عن التقاليد الجزائرية إلا في العهد الاستعماري في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20. آنذاك، كانت الحركة النسوية ودعوات "حرية المرأة" لدى الطائفة اليهودية قد بدأت تنتشر تحت تأثير الثقافة الفرنسية ، وقد قوبلت لفترة طويلة بعداء ورفض التيار اليهودي المحافظ القوي في الجزائر.[77]

ب- الصراع الثقافي من خلال العادات والتقاليد:

لم يكن الأمر مختلفا كثيرا بالنسبة للعادات والتقاليد اليهودية التي كانت روحها جزائرية بحتة يتداخل فيها الفلكور اليهودي بالفلكلور الجزائري غير اليهودي تداخلا عجيبا وتمتزج عبرهما الثقافتان امتزاجا واسعا، ولو أن مدى هذا التداخل والامتزاج يتقلص نسبيا بالنسبة للميغورشيم حتى يكاد يغيب بالنسبة لليفورنيين رغم أن بعضهم تأثر بمرور الزمن بالثقافة والعادات الجزائرية. فالكثير من السلوكات الثقافية والعادات والتقاليد التي تبنتها الطائفة اليهودية نابعة أصلا من البيئة الثقافية الجزائرية الإسلامية، كتقديس الأولياء والصالحين والتبرك بهم، ولو أن جذور هذه العادة قديمة جدا وسبقت ظهور الإسلام، وطريقة إحياء الأعياد الدينية والأفراح[78] وكذلك نظام الزواج والخطوبة والطلاق، وأيضا تعدد الزوجات على غرار المسلمين ، وشيوع الزواج المبكر... الخ.

لم يفلح نظام الحلخة (Halakha) الذي أتى به ريباش وراشباش في القضاء على هذه المظاهر والسلوكات التي طبعت اليهودية الجزائرية ذات الطابع الشعبي النابعة من المحيط الثقافي - الحضاري الجزائري. ورغم ضغوط الميغورشيم الأوائل وتعنيفهم لليهود الأهالي واحتقارهم لهذه العادات والتقاليد ورغم الانتقادات الشديدة اللاذعة التي كانت توجه لهم حتى في أوقات لاحقة على يد الليفورنيين، فإن السلخ التام لليهودية الجزائرية عن وعائها وبيئتها الخاصة لم يتحقق. وبقيت الروح الشرقية الإسلامية، العربية - البربرية، حاضرة في نفسية اليهودي الجزائري على اختلاف أصوله، لأن الميغورشيم لم يسلموا من التأثر بالعادات التوشابيمية بالاحتكاك بها. كما احتوت هذه الثقافة والفكلور اليهودي الأهلي نسبيا العديد من العائلات الليفورنية بحيث رغم بقاء كل فئة مستقلة بعاداتها وثقافتها عن الأخرى حصل نوع من التبادل الفلكلوري كحد أدنى بين هذه الملل اليهودية بالجزائر. ورغم سياسة الفرنسة والتغريب على مدى أكثر من قرن بقي الطابع الثقافي المحلّي حاضرا في اليهودية الجزائرية حتى لدى الذين رحلوا إلى فرنسا بعد 1962 أو إلى إسرائيل.[79]

أثناء العهد العثماني تعرّب الميغورشيم وحتى بعض الليفورنيين وأصبحوا يتكلمون نفس لغة التوشابيم على سبيل المثال، كما تجزأرت بعض طقوسهم وأنظمة أفراحهم وأعيادهم، وحتى الأسماء شاعت في أوساطهم بالعربية بقدر

شيوعها بالعبرية. فموريس إيزنبث يذكر بأن ˝ حوالي 50% من الألقاب التي يحملها اليهود ... هي من أصل عربي أساسا وبربري ˝.[80] فالأسماء التي تمنح للمولودين اليهود الجدد، رغم تقلص استعمالها في أواخر عشريات الاحتلال بسبب موضة الأسماء الفرنسية والتأثير الثقافي الفرنسي الذي أتى بنزعة التفرنس لدى اليهود المتعلمين والأثرياء والميسوري الحال ، هي عادةً أسماء عربية مثل يحي، عيوش (Ayouche)، مخلوف، Yechich، خليفة ، خلفون، مسعود ، سعدون ، سعيد، سعدية، ميمون ، لعزيز ،ئدضدصخم، سلاّم ، حويتو. أما بالنسبة للنساء : نجامي Nedjami، قمرة ، مالحة، عزيزة، مسعودة، عائشة،... كما اتُّخذت أسماء استثنائية بهدف إبعاد العين والأرواح الشريرة والجنون مثل، خميّس (من الخامسة في عين الشيطان)، حويتو (من الحوت)، أُوسيّاف Négrillon ، ياقوتة، عليلش ...[81]

الميغورشيم، سرعان ما تعودوا، على غرار التوشأبيم والمسلمين، على ظاهرة تقديس الأولياء والتبرك بهم وزيارة أضرحتهم ودخلت في عداد عناصر بنيتهم الفلكلورية – الدينية، وقد عرفت هذه الظاهرة الفلكلورية – الروحية التصوّفية انتشارا واسعا في الجزائر أثناء العهد العثماني وتوسع أثناء الاحتلال بتشجيع من السلطات الاستعمارية. وعكس ما كان متوقعا، حسب ريشارد حيون وبرنارد كوهين، أصبحت هذه الظاهرة ميزة من ميزات يهود الجزائر الميغورشيم وساهمت في تقريبهم من الأهالي أكثر من الليفورنيين.[82]

اليوم، يقوم يهود الجزائر على اختلاف أصولهم العرقية– الثقافية، وحتى يهود فرنسا الذين كانوا ذات يوم جزائريين، وبعض العائلات التونسية والمغربية، بالحج سنويا إلى ضريح الحاخام والولي الصالح ˝رب النقاوة˝(Rabbi Ephraîm Enkaoua) إبن Maitre le Israel Hakadosh Enkaoua بندرومة قرب تلمسان. هذا التقليد الذي كاد يزول في الستينات وبداية السبعينات أعيد إحياؤه وبعثه من جديد وأصبح إلى غاية بداية التسعينيات مناسبة يتجمع فيها آلاف اليهود حول الضريح سنويا خصوصا بعد أشغال توسيعه في السنوات الأخيرة، وسط أجواء مهيبة تمارس فيها طقوس يهودية وتقام فيها الاحتفالات التقليدية ، وتقدم القرابين، والأدعية والصلوات...

التبني المغورشيمي للعادات التوشابيمية لم يتوقف فقط على زيارة "الرب" (Le Rab) كما يلقب "رب النقاوة" عادة، بل قصدوا أضرحة أخرى عديدة في مختلف جهات الجزائر أثناء العهد العثماني والاحتلالي مثل ضريح يوسف الأشقر (Joseph Alashkar) وضريح ER-Rkyése بالقرب من تلمسان أيضا، وكذلك ضريح "ربي هلال بن صيدون" Rabbi Hallal Ben Sidoun، الذي تقول الأسطورة الشعبية اليهودية أنه أعاد الحياة لمسلم بعد وفاته من أجل تفنيد شهادة زور لمجموعة من المسلمين ضد يهود،[83] وضريح ريباش وراشباش بالمقبرة اليهودية ببولوغين بمدينة الجزائر، وضريح Rabbi Joseph Ben Menir بقسنطينة الذي يذكر R. Ayoun و B. Cohen أنه كان مزارا ومقصودا حتى من طرف بعض المسلمين ..(؟)[84]

لم يتوقف تردد اليهود في الجزائر على هذه الأضرحة فقط، "....فليس من النادر أن نلاحظ توجه إسرائيليين إلى أضرحة إسلامية أو حتى مسيحية حيث يقدمون القرابيين ويؤدون صلواتهم وابتهالاتهم...، ومن المألوف أن نشاهد وسط المسلمين الزائرين لضريح مرابط شهير بندرومة إسرائيليين قدموا للتبرك".[85] A. Ben soussan ذكر في "le dernier devoir" بأن اليهود في العهد الاحتلالي كانوا يترددون على ضريحي سيد يحي وسيدي بن يونس ببئر مراد رايس بمدينة الجزائر تماما كالمسلمين.[*]

يرى أندري شوراقي في ظاهر تقديس الأولياء لدى يهود الجزائرعامة عادة وتقليدا قبّاليا، ورثوه عن الحركة القبّالية التي أنشأها الربّي شمعون بار يوشاي (أي شمعون بن يوشع) Rabbi Simeon Bar Yochai في القرن الثاني الميلادي وتطوررت ونمت بفعل التأثير الإسلامي ..(؟)[86]

الطقوس التي يمارسها اليهود في هذه المناسبات هي طقوس متشابهة ومشتركة بين جميع يهود البلاد، وبينهم وبين المسلمين أيضا ، بحيث تُحضرّ القرابين مسبقا، وتُشعل الشموع والمصابيح الزيتية حول الضريح، ويُذبح الدجاج أو الكباش أو غيرها تقربا من الولي ليفرج عنهم الكروب والهموم ويساعدهم على تحقيق الأحلام والأماني .

وكما كانت هناك الزيارات غير المنتظمة وغير المقيدة بمناسبة معينة والتي تؤدَّي فرديا أوعائليا، كل حسبَ احتياجاته النفسية والروحية الخاصة، توجد أيضا طقوس جماعية دورية تمارس فصليا أو سنويا في تواريخ معينة ومحددة حول الأضرحة المقدسة، وأبرز هذه المناسبات الزيارات الجماعية التي تؤدى كالحج كل سنة إحياء وتخليدا لذكرى الربّي شمعون بن يوشع القديس القبالي الشهير الذي عاش في القرن الثاني الميلادي.[87] هذه الذكرى يُحتفل بها مع حلول الربيع في 18 ماي من كل سنة عبر كامل شمال إفريقيا، وتقام الطقوس والاحتفالات في أي ضريح كان في مستوى وحجم مكانة هذا القديس لاستحالة زيارته بفلسطين لبعد المسافة وضعف الإمكانيات. وتقام في هذه المناسبة "الهيلولة" اليهودية الشهيرة وهي مزيج من الخرافة والشعوذة والمعتقدات الفلكلورية – الروحية التي تلتقي مع بعضها في أجواء سريالية – روحية.

"الهيلولة" هي طقس ديني يهودي يقام احتفالا "... بزواج القديس من الرب..."[88] (Les noces du saint avec dieu)، يأتي المؤمنون خلالها بالآلاف، فقراء وأغنياء دون أي فرق أو تمييز تجمعهم نفس الحمية والحماس للمشاركة في مراسيم الاحتفال والزيارة وللتضرع والابتهال طلبا للعون على تحقيق الآمال والتمنيات وتخفيف المحن والمصائب.

خلال الحفل يقيم مجموع الزوار قرب الضريح وحواليه لعدة أيام سابقة ليوم "الهيلولة"، يمضونها في التحضير لمراسيم العيد، وفي الصلوات، وملاقاة الأهل والأصدقاء، ثم في المساء من اليوم المرتقب يقتربون من الضريح المقدس حيث يقومون بتلاوة النصوص المقدسة، ويرتلون الصلوات والأدعية بصوت مرتفع وجهوري، تحت الأضواء الخافتة للمصابيح الزيتية والشموع التي أُشعلت هبة وقربانا لروح القديس...، إلى أن يدخل الجميع في عالم روحي ملؤه الخشوع والجلال ...، فتزداد الأصوات حماسة وارتفاعا أثناء الترتيل شيئا فشيئا...، إلى أن ينادي الجميع ويصرخون بأعلى صوتهم معلنين ظهور القديس وعودة روحه: " ها هو جا. *Le voilà- il est là*" في إعجاب ونشوة وذهول وحماسة...، "... فيتكلم الأبكم، ويتحرك المشلول، ويستعيد المكفوف البصر..."[89].

وفي منتصف الليل، تزور روح القديس جموع المؤمنين حسب المعتقدات اليهودية الفلكلورية، لتستجيب لانتظار الحجاج. ثم يمضي الحاخامات بقية الليل في تلاوة الزوهر (zohar) والترتيل، وفي أداء الصلوات ...، في حين يبدأ الزوار في الانصراف بمحاذاة الضريح.[90]

"وفي الصباح والايام الموالية إلى غاية عيد La pentecôte ؛ تبقى الحركة نشيطة وكبيرة حول مكان الضريح. إذ يقضي الزوار هذه الأيام في تقديم الصدقات وإطعام الفقراء والاعتكاف والتعبد..."[91].

مراسيم "الهيلولة"، التي لاتقام فقط لشمعون بن يوشع بل حتى لأولياء آخرين، تطورت مع مرور الزمن وأدخلت عليها تعديلات وإضافات حسب المكان والزمان. ففي مدينة مستغانم، مثلا، يذكر أحد اليهود المقيمين حاليا بفرنسا أنه تم إدخال حفلات راقصة على الطريقة الأوربية في نهاية احتفالات "الهيلولة" أثناء الحقبة الاستعمارية. فيقول: " .. كنا نذبح ثورا بمقبرة (ضريح) في غرفة غسل الأموات ...، وبمجرد ما يقطع اللحم ويجزأ يوزع على كل يهود المدينة، فيشوى، ويأتي الناس بمختلف المأكولات زيادة على هذا الشواء، لقضاء يوم نزهة داخل المقبرة... على أنغام الموسيقى العربية– الأندلسية. وينتهي العيد في المساء بحفل راقص في قاعة كبيرة وبأزياء السهرة ... لقد كانت لحظات عظيمة."[92] يقول هذا اليهودي بشوق وحنين.

نعثر كذلك على البعد الثقافي الجزائري في الشخصية الثقافية ليهود الجزائر في العديد من مظاهر الشعوذة والمعتقدات الخرافية وفي عمق الإيمان بالأرواح الخفية الشريرة وقواها الغيبية الخطيرة على البشر... وغيرها من المظاهر. فاليهود مثل المسلمين، وأحيانا حتى المسيحيين، يشكلون أحد أهم مستهلكي خدمات المشعوذين في الجزائر، حيث يلجأون إليهم للوقاية من "العين" الحسودة، أو "العين الحارة" كما يسميها البعض، ومن "الجنون" والقوى الغيبية الشريرة. وصفة العلاج تعتمد عادة على مختلف أشكال الطلاسم وعلى ذبح القرابين، والسحر...، وهي كلها معتقدات لها جذور عميقة أيضا في تاريخ اليهودية ومعتقدات بني إسرائيل. فاليهودي كالمسلم متعود على استعمال "البخور" و"الجاوي"و "الفاسوخ" وعلى كتابة "الحروز" للأطفال الرضع لوقايتهم

من الأعين الحسودة الثاقبة، مع حشوها عند الضرورة "بالفاسوخ" و"الكبريت" ووضعها تحت وسادة الطفل أو تحت فراشه، أو تعلق حول رقبته. كما تعوّد أيضا على استعمال "القصبر" و"الزعتر" وغيرها من العقاقير والأدوية التقليدية.

اليهود وضعوا هم الآخرين السكين تحت الوسادة أو صفيحة الحصان تحت الفراش لطرد "الجنون" والأرواح الشريرة ومنعها من إيذاء الإنسان. وعند ازدياد مولود جديد عند العائلة اليهودية تقام له الأفراح والطقوس المختلفة كقراءة مقاطع وأسفار من الكتاب المقدس، ويتسامر أهله إلى وقت متأخر من الليل وسط الأغاني أحيانا، والألغاز والأحاجي أحيانا أخرى.[93]

كما عمل اليهود أيضا بما فيهم الميغوراشيم وحتى بعض الليفورنيين بعادة قراءة أسفار من الكتاب المقدس على الموتى، وهي طقس كان يتولاه أشخاص محترفون لقاء مبلغ من المال. وحتى في الأدعية والابتهالات كان هؤلاء اليهود جزائريين حتى النخاع، بحيث كما يذكر المسلم أولياءه الصالحين مستنجدا بهم عند المفاجآت السيئة مناديا "آسيدي عبد القادر!!" أو "يا سيدي عبد الرحمان!!" خصوصا عند التعثر، أو سقوط طفل صغير على الأرض، أو حادث طارئ، أو خوف من شيئ ما، أو صدمة، أو تمني، أو التعوذ من شيئ ما...، ينطق اليهودي عفويا بأسماء أوليائه وقديسيه مستغيثا بـ Rabbi Simeon Bar Yochai أو الربّي مائير بعل Rabbi Meir Ba'al. كما يلجأ اليهودي هو الآخر عند التقزز والاستعاذة من شيئ ما إلى عبارة "اسم الله S'mallah"، وعند الاستغاثة بالرب إلى عبارة "آستار" أو "الله يسترنا"، وعند الجلوس أو القيام إلى عبارة ما تزال متداولة إلى اليوم تردد على أفواه الشيوخ خاصة وهي "يا ربي!" أو "يا ربنا!".[94]

أخذت الطائفة اليهودية بمختلف أعراقها عن الجزائر أيضا عادات ومراسيم الزواج من نظام وإجراءات الخطوبة حتى تنظيم حفل الزفاف ودخول العريس والعروس بيتهما الجديد، رغم معارضة نظام الحلخة و تكنوته (les takanoth) الإثني عشر التي وضعها ريباش لمثل هذه التقاليد لدى اليهود التوشابيم.

ريباش حارب هذه العادات لدى اليهود الأهالي وقنن كل ما يتعلق بالزواج والحياة اليهودية حسب النظام اليهودي الإسباني الذي عمل كل ما في وسعه لإحلاله محل نظام الأهالي الجزائري، وتمكن من التقليص نسبيا من التأثير الثقافي

الاجتماعي على التوشابيم،[95] غير أنه لم يكن يتصور أن كثيرا من هذه العادات التي حاربها سيتأثر بها مع مرور الزمن الميغورشيم وحتى بعض اليهود الليفورنيين.

نظام ريباش لم يتمكن مثلا من القضاء على ظاهرة تعدد الزوجات في الأوساط اليهودية حتى وإن نجح في التخفيف من شيوعها، ولا من كبح ظاهرة الزواج المبكر الذي انخفض حتى إلى سن 11سنة لدى الفتيات اليهوديات في مدينةالجزائر أين كان من العيب والعار أن تبقى الفتاة عانسا حتى سن 15 أو 16 عاما مثلا نظرا لحس "الشرف" القوي الذي كان سائدا آنذاك في المجتمع الجزائري إلى حد المغالاة.[96]

ذكر الكاتب الانجليزي Lancelot Addison بأن سن الزواج لدى الفتيات انخفض حتى إلى 10سنوات، وعملية الزواج والمصاهرة تبقى محصورة عادة في الإطار العائلي أو القبلي في أقصى تقدير "... للمحافظة على النسل وتقوية... " [97] العرق.كما سادت عند اليهود كذلك عادة عرض آثار دم فض البكارة ليلة الزفاف على الأهل من طرف العريس تأكيدا وافتخارا بعفة العروس، وذلك على الأقل لدى التوشابيم، كما هو معمول به على مستوى كبير حتى اليوم عند المسلمين خصوصا في الأرياف.

كانت الأعراس اليهودية في الجزائر خلال العهد العثماني، وحتى بعده، على العموم صورة طبق الأصل لأعراس المسلمين بجميع خصائصها الجهوية الشكلية والتفاوتات في المراسيم و الطقوس من منطقة إلى أخرى. في هذه الأعراس اليهودية نصادف جميع عناصر ديكور العرس الجزائري التي ما يزال بعض يهود الجزائر الذين رحلوا بعد الاستقلال إلى فرنسا متمسكين ببعضها حتى اليوم.[98] فإضافة إلى الجو الحيوي الصاخب على إيقاع الطبول وأنغام الزرنة، ودفئ الأصوات المرافقة " للآلاجية" في تأديتهم للأغاني والموسيقى العربية الأندلسية، والزغاريد المتعالية بحمية، و الرقص الجزائري الأصيل، عرفت الأعراس اليهودية الحنة والشموع والألبسة الفاخرة المخصصة للأفراح خصوصا أثناء "التصديرة". وكانت خير الأطباق والأطعمة التي يُكرم بها المدعوون هي أطباق جزائرية بحتة مثل "الشربة" و "الشطاطح" (جمعٌ، مُفرده: الشطيطْحَة) و"الكسكسي ".[99] العرس اليهودي في الجزائر كان يتوج هو الآخر

بتوزيع ألذ ما وصلت إليه عبقرية الجزائريات في مجال صنع الحلويات مثل "الطمّينة"، و" المقروض" بمختلف أنواعه، و"القنيدلات"، و"السفيرية"، و"النوقة" التي كانت محبوبة جدا لدى اليهود، و"التشاراك"، و"الباقلاوة" وغيرها.[100]

لكن كان العرس اليهودي يتميز عن غيره بمراسيم :العَدْوَة والهَدْوَة"، حيث يجلس المدعوون زوجا زوجا إلى جانبي العروس ويقدمون الهبات قبل الذهاب إلى المعبد، ثم يلي هذه المراسيم العرس بصورة عادية.

على العموم بقيت جهود ريباش وراشباش عاجزة أمام هذا التداخل الثقافي – الاجتماعي – الفلكلوري سواء في مدينة الجزائر أو في قسنطينة حيث كان يوجد الحاخام يوسف بن دافيد Ben David Joseph أو في بجاية أين كان Rabbi Shem Tob Ha Levi أو في وهران حيث Amram Ben Merouas Ephrati أو بُحنَيْن حيث Moise Gabbai وغيرها من المدن التي كان بها رجال دين مؤيدين للسلطة الحاخامية المركزية بمدينة الجزائر أو على الأقل متعاطفين معها أو محترمين لها.

وجدت أيضا أعياد مشتركة بين اليهود والمسلمين أثناء العهد العثماني مثل عيدي "البوريم" الأول والثاني.

في 23 سبتمبر 1541 م كان شارل الخامس Charles Quint يحاصر مدينة الجزائر بأسطول بحري ضخم شاركت فيه معظم الدول الأوربية، وكان شارل الخامس يُسيّر الحصار من هضبة مرتفعة مطلة على القصبة تدعى اليوم Tagarin أو "الثغرة" كما كان يسميها الأندلسيون آنذاك. على هذه الهضبة بنى فسطاطه الذي سيبني العثمانيون في محله فيما بعد ما سيعرف بـ "حصن الامبراطور" (fort l'empereur) أو "كدية الصابون". ولما لم تكن مدينة الجزائر قادرة ماديا وعدديا على رد هذا الاعتداء المسيحي الكبير، كان السكان يستعدون لمقاومة انتحارية يائسة، وكانت الجالية اليهودية ترتعد خوفا من هذه الحملة المسيحية التي كان يقودها الإسبان الذين اضطهدوهم بالأمس القريب ولاحقوهم حتى سواحل المغرب العربي وما زالوا إلى غاية ذلك التاريخ يكنون لهم الكره والعداء الشديدين ويطاردونهم ويقتلونهم حيثما وجدوهم. أحداث 1391م و1492م كانت وحشيتها ما تزال ماثلة في الأذهان. المسلمون أنفسهم

كانوا خائفين من نتائج المواجهة الفاصلة مع المسيحيين لعدم تكافؤ الإمكانيات، وهنا تدخل الولي الصالح المسلم "والي داده"[101] الذي خرج من القصبة متوجها إلى شاطئ "تافوره" ودعا في ابتهالاته وتضرعاته بانهزام الحملة المسيحية وضرب البحر بعصاه من شدة الغيض عدة مرات...، وفجأة تحققت المعجزة، إذ تغير الجو وهاج البحر، وحطم بأمواجه تقريبا كامل مراكب الأسطول المسيحي فأصاب الرعب شارل الخامس ومن تبقى من جيوشه وسارعوا إلى مغادرة البلاد والرجوع منهزمين إلى إسبانيا حيث أصبح... محل سخرية الناس ومطاردة الأطفال بالحجارة.

المعجزة التي حقق بها الولي داده انهزام الحملة المسيحية والحدث في حد ذاته يعتبران حقيقة تاريخية يتفق حولها المؤرخون الجزائريون والأوربيون، غير أن نصيب الأسطورة والخرافة الشعبية، ونصيب الحقيقة الموضوعية لا يعلمها أحد إلى حد الساعة.

اليهود الذين بقوا طوال الحصار في بيوتهم ومعابدهم خائفين أمام الشموع طوال أيام الحصار كانت فرحتهم عظيمة بنفس قدر فرحة المسلمين بهذا الانتصار العجيب. ومنذ ذلك اليوم أصبحوا يحتفلون بذكراه كالمسلمين وذلك إلى وقت متأخر من العهد الاحتلالي كل يوم 4 Hesvan (نهاية أكتوبر وبداية نوفمبر) من كل سنة. هذا العيد أصبح يعرف بعيد "البوريم الأول" le premier pourim d' alger.[102]

أما عيد "البوريم الثاني" فجاء تخليدا كذلك لذكرى فشل حملة إسبانية – مسيحية أخرى ضخمة أرعبت سكان مدينة الجزائر وخاصة اليهود للأسباب التاريخية السابقة الذكر. هذه الحملة التي قادها الكونت أوريلي O'reilly الإيرلندي الأصل حاكم مدريد جاءت في 8 جويلية 1776م، وانتهت بفشلها أمام مقاومة السكان. اليهود والمسلمون على السواء خلدوا ذكرى هذه المعركة الكبيرة باحتفالات سنوية. "عيد البوريم الثاني" Le deuxième pourim d'Alger هو التخليد والاحتفال اليهودي السنوي بهذه الذكرى الذي يقام في 11 جويلية من كل عام. وكان كلما حل أحد هذين العيدين اللذين هما في الواقع عيدي نجاتهم من قبضة الإسبان أكثر من عيدي نجاة المدينة من الاحتلال، تُنظم وتُقرأ أشعار دينية في المعابد أيام السبت السابقة للذكرى ثم في أيام العيد ذاته من طرف

مجموعة من الشعراء الدينيين على غرار: jacob Toua و Abraham Toua، Moise Méchite، Abraham Salomon Hassarfati بالنسبة للبوريم الأول، وNehorai Azoubib، Aaron Jacob Jonathan، Cohen de samuel ben naim و Abraham Toubiana بالنسبة للبوريم الثاني.(103)

ج ــ الحياة الثقافية – الفكرية والتعليم :

الحركة الفكرية – الثقافية والدينية اليهودية بالجزائر أثناء العهد العثماني لم تكن حركة مستقلة بذاتها عن بيئتها أو تحمل طابعا قوميا كما يوحي بذلك بعض الكتاب اليهود والصهاينة حاليا، بل كانت جزءا من المحيط الثقافي الجزائري تحمل في طياتها جميع خصائص الحركة الفكرية – الثقافية الجزائرية.

الانحطاط الثقافي – الفكري الجزائري والتراجع الذي أصاب الحضارة الإسلامية آنذاك إنعكس على الحياة الثقافية اليهودية في البلاد وسقط اليهود والمسلمون على السواء في التقليد وعجزوا عن الاجتهاد والتجديد في جميع المجالات. فابن ميمون بقي المرجع الأساسي للقوانين الدينية والتشريعات الجديدة التي كانت تفرضها الحاجة. والكتابات اليهودية سواء بالعربية أو بالعبرية بقيت تجتر الإنتاج الثقافي – الفكري اليهودي والإسلامي القديمين بدءا بمؤلفات ابن رشد والغزالي مثلا على غرار: "الأمر بالمعروف" ، وابن ميمون، إلى مؤلفات Saadia Gaon صاحب فكرة " توازن القانون الديني " (l'equilibre de la religion). ويطغى على الفلسفة والفكر الديني اليهودي الجزائري ذلك الطابع الميثولوجي الصوفي (mystique) والتطلعات الغيبية التي سادت بعد انحطاط وتراجع الحضارة الإسلامية بسقوط الأندلس، وهذا ربما ما جعل اليهودي الجزائري جزائريا شرقي الروح والثقافة في أعماقه مهما تغير مظهره وشكله الخارجي.

لقد أنتجت الطائفة اليهودية بالجزائر في هذا الإطار الذي ميزه الجمود الثقافي والتقليد نخبة من المفكرين والأدباء والشعراء، بغض النظر عن المستوى، عكسوا الثقافة اليهودية الجزائرية أثناء العهد العثماني التي وضعوا لها أفكارها وأشعارها وقوانينها وأحكامها الدينية والدنيوية(104). ومن أبرز وجوه هذه النخبة المثقفة نذكر:

* يهوذا عياش Juda ou Yehouda Ayache : مولود بشمال إفريقيا سنة 1690م ومتوفي بالقدس عام 1760[105]. رحل عن الجزائر احتجاجا على السلوكات والتصرفات السيئة والمتنافية مع الدين لرؤساء الطائفة اليهودية بمدينة الجزائر بعد أن اشتدت خلافاته معهم. مواقفه الشجاعة والجريئة المعارضة للتجاوزات الدينية مكنته من حيازة مكانة خاصة وتقدير واحترام كبيرين لدى يهود المدينة الذين بقوا يحتفظون بذكراه بإجلال وتقديس إلى اليوم كأحد أبرز وأصلح متديني الطائفة وأتقاهم أثناء الفترة العثمانية. درس التلموذ تحت إشراف الحاخام أو الربّي سليمان صرورْ Rabbi Salomon Serror بمدينة الجزائر، وشغل بها منصب قاضي (dayyan) الطائفة من 1728 إلى 1756م. ويذكر ر. حيون و ب. كوهين وم. إيزنبث[106] بأن يهوذا عياش ترك عدة مؤلفات أشهرها : Beth Yehouda أي "بيت يهوذا" الذي جمع فيه مختلف عادات وتقاليد و أعراف الطائفة اليهودية الجزائرية ونماذج حياتها ومعيشتها، الكتاب أُلف سنة 1740م.

* يوسف إفرايم كارو (Joseph Ephraim Caro) (1488–1575): هو أحد أعلام اليهود الجزائريين في وقته الذين عوضوا الفراغ الذي تركه موت ريباش وراشباش لدى الطائفة اليهودية في الشمال، وهو حاخام إسباني الأصل من الميغورشيم. بعد إقامته في الجزائر لجأ إلى فلسطين حيث استقر بمدينة "صفد" وخلف أستاذه "يعقوب بالرب" Jacob Berrab بعد وفاته. يوسف إفرايم كارو، وإن لم يترك أعمالا مكتوبة تذكر باستثناء "شولحان عاروخ"، ساهم في الحركية الثقافية– الدينية اليهودية لذلك الوقت واعتبر من النخبة المثقفة في مدينة الجزائر لدى الطائفة.[107] وبعد هجرته إلى فلسطين أصبح من أبرز الفقهاء اليهود في العالم.

* يهوذا قلاّش Juda Kallash الذي عاصر "رب النقاوة" واستقر بتلمسان، إشتهر بكتابه "Messiah Yllemin" الذي علق فيه عن Les gloses bibliques de Rachi[108]

* سعديا بن إيلي شوراقي (Saadia Ben Elie chouraqui): ولد سنة 1604 وتوفي سنة 1704 له كتاب في الرياضيات ولو أنه مجرد اجترار وتكرار لمبادئ الرياضيات والحساب المتعارف عليهما آنذاك، عنوانه : "Mone Mispar" أي

"حاسب الأعداد" (Le Calculateur du nombre) ، إنتهى من تأليفه سنة 1691 م ونشر لأول مرة سنة 1973 عندما أصبحت الحركة الصهيونية تعمل على جمع وإبراز كل ما يخدم فكرة الشعب اليهودي والوطن اليهودي والهوية الإسرائيلية وبالتالي الإيديولوجيا الصهيونية.

* سعديا قاوون (Saadia Gaon): له رسالة " Dissertation Homilétique " Sur le Décalogue، جرت العادة أن يتلى محتواها بالمعابد الجزائرية في اليوم الأول لعيد الـ: Pente côte. في سنة 1924 م وضع Isaac Morali تفسيرا لها، ورغم أن سعديا قاوون من رواد الثقافة العبرية في القرون الوسطى غير أن صدى أعماله بقي حيا إلى غاية القرن 20م في الأوساط الثقافية العبرية بالجزائر[109].

* يعقوب قابيسون Jacob Gabison: وهو من عائلة Gabison أو Gavisson الإشبيلية الأصل التي هاجرت إلى غرناطة سنة 1392 ثم إلى الجزائر سنة 1492 ولو أن بعض فروعها بقيت متنقلة ومترددة بين الإقامة تارة في جبل طارق وتارة أخرى في الجزائر. هذه العائلة اشتغلت عموما بالتجارة، لكن هذا لم يمنعها من الاشتهار في ميدان الطب وفي الشعر أبا عن جد. وكان يعقوب هذا أحد أفرادها الذين نجحوا في الميدان الثقافي – العلمي، بحيث ألّف بمساعدة Abraham Gabison كتاب "OMER HA shikha" الذي استعرض فيه بطابع رومانسي الإيمان الذي لا يتزعزع لليهود الخاضعين " للظلم (Perfidices) العثماني". عائلة Gabison بالجزائر ارتبطت بعلاقات مع حكام الجزائر العثمانية منذ 1574م وطيلة القرن 17، أي قبل المنافسة الليفورنية[110].

إضافة إلى هذه الأسماء برز في الميدان الشعري في الفترة العثمانية كل من موسى شيش Moïse Chiche، أبراهام توُا Abraham Toua ويعقوب توُا Jacob Toua، أبراهام سليمان هاسرفاتي Abraham Salomon Hassarfati، نيهوراي أزوبيب Nehorai Azoubib، يعقوب دي صموئيل بن نعيم Jacob de Samuël Ben Naîm، هارون كوهين جونثان Aaron Cohen Jonathan وقد جمعت أشعارهم التي كانت تتلى في عيدي البوريم في كتاب عنوانه: Le Qerobatz d'Alger. تخصصت هذه المجموعة من الشعراء في الشعر الديني التصوفي الذي لقي رواجا كبيرا أثناء الحكم العثماني الذي كان فترة بلغ فيها الجمود الثقافي أشده كما انجذب

فيها الناس بصورة مغالية إلى عالم الروحانيات على حساب العالم المادي الذي كانوا يعيشونه وانطووا على أنفسهم كتعبير اجتماعي عن العجز الفكري والجمود الحضاري الذي حال دون تأقلم الناس ومسايرتهم للتطورات الشاملة التي كانت تشهدها الكرة الأرضية خصوصا في نصفها الشمالي.

نال الشعر الديني والتصوفي حصة الأسد عند المسلمين كذلك وكان موضة العصر بحيث نبغ فيه لخضر بن خلوف بمدينة مستغانم مثلا ومحمد بن مسايب بتلمسان والشيخ بلقاسم الرحموني الحدادي بقسنطينة و عبد الكريم الفكون والحسين الورثلاني، وسيدي محمد بن الشاهد وسيدي بن علي بمدينة الجزائر، وغيرهم من الذين مازالت أشعارهم تتداول إلى اليوم أثناء الحفلات الدينية في الزوايا والمساجد وأيضا لدى مطربي الغناء "الشعبي".

هذه النخبة اليهودية المثقفة والمتعلمة كانت بمثابة العقل والمرجع الفكري والديني والقانوني للطائفة اليهودية، وقد قاسمها هذا الموقع الاجتماعي – الثقافي عدة حاخامات وزعماء روحيين بحيث حتى وإن لم يتركوا آثارا مكتوبة شاركوا في المناقشات الدينية – التشريعية اليهودية وساهموا في الحركية الثقافية بأقدار متفاوتة وكانت لهم سلطة معنوية – أخلاقية نافذة على الطائفة. نذكر منهم : يهوذا الأشقر بن موشي الأشقر (Yehouda Alashkar fils du grand Moché Alashkar) بمستغانم، ويوسف الأشقر (Yosseph Alashkar) بتلمسان الذي ينتمي إلى نفس العائلة[111]، وآخرون ...

لقد ساهم التوشابيم في هذه الحركية الثقافية – الدينية ولو أننا لم نعثر على أي إنتاج أو إسم لهم في الإنتاج الثقافي – الديني أثناء العهد العثماني ، وذلك بتأثيرهم بمعتقداتهم وأفكارهم وعاداتهم في حياة الميغوراشيم اليومية وبإثرائهم التراث اليهودي الميغوراشيمي الإسباني – الأندلسي بصفة عامة. فعنهم وعن المسلمين الجزائريين أخذ الميغوراشيم اللغة العربية والتركية وتفتحوا على عوالم جديدة علما بأن انتقال الأفكار، والمعتقدات، واللغة التي تحمل معها ثقافتها بالضرورة، يؤثر حتما على عالم الأفكار والثقافة عامة.

الإحتكاك الثقافي بين اليهود الأهالي المغورشيم والليفورنيين والمسلمين، وبالعالم المسيحي بصورة ثانوية، أدى إلى ميلاد خليط لغوي هو حوصلة لغات

هذه الثقافات في القرنين 17م و18م لدى يهود الجزائر، ويتكون أساسا من اللغة العربية ومن مفردات تركية وإفرنجية أغلبها إسبانية أو إيطالية أو فرنسية بصورة ثانوية جدا . هذا الخليط اللغوي الذي يحتوي بطبيعة الحال على العبرية أطلق عليه "لغة الفرنك" (Le Franc) أو Ladino في بعض الأحيان. لكن على العموم اللغة العبرية كانت ضعيفة الاستعمال، فمحمد داده يذكر بأنها لم تكن تستعمل إلا في المعابد كلغة لممارسة الشعائر الدينية فقط. وكان معظم اليهود، حسبه، يجهلون معانيها(112).

الاحتكاك الثقافي بين مختلف الأعراق والملل اليهودية في مدن شمال البلاد خاصة بقدر ما قرب بينها في ميادين معينة كاللغة وبعض العادات مثلا، خلق تصادما ومواجهات في ميادين أخرى تحولت إلى عناصر فتنة وتفرقة دفعت عادة بكل فئة إلى الانطواء على نفسها والتصرف بعنصرية تجاه الأخرى. حدث هذا بين الأهالي والميغورشيم، وبين الليفورنيين والميغورشيم، وبين الأهالي والليفورنيين. هذه الخلافات بلغت أقصاها مثلا بين الأهالي واللاجئين من إسبانيا حول نقطة حساسة تتمثل في الطقوس الدينية وممارسة الشعائر حيث تمسكت كل فئة بتشدد بعاداتها وتقاليدها وطريقة ترتيلها للأشعار الدينية داخل المعبد(113). الخلاف يمكن أن يوصف بالمذهبي إلى حد ما.

كما لعبت المنافسة الاقتصادية دورها في المناوشات التوشابيمية – الميغورشيمية، بينما كانت هذه المنافسة السبب الرئيسي في الصراع الميغورشيمي – الليفورني على النفوذ الاقتصادي والسياسي الذي انتهى في بعض الأحيان إلى أحداث دامية. كنماذج لهذا الصراع نذكر اعتراض التوشابيم مثلا على قرار السلطات الزيانية بتخفيض الجزية بالنصف للميغورشيم مساعدة لهم إثر لجوئهم من إسبانيا. في تلمسان كان هذا الاحتجاج سلميا، لكن بمدينة تنس تحول إلى مشادات وصدامات عنيفة بين الفئتين بسبب غضب الأهالي وخوفهم من منافسة الميغوراشيم ، وقد حدث نفس الشيء ببجاية أيضا. مثل هذه الخلافات وقعت حتى بين المتنافسين من الفئة الواحدة، فقد حدثت قطيعة بين يهود وهران الإسباني الأصل بزعامة عائلة Sasportas واليهود المهاجرين من تيطوان وطنجة إلى وهران في وقت متأخر. فرغم الاحتكاك الواسع لهذه الجالية الأخيرة

بإسبانيا والبيئة الأندلسية اعتبروا دائما من التوشابيم لأن أصولهم القديمة تعود إلى اليهود القدماء بشمال إفريقيا ولكونهم أكثر ميلا إلى الثقافة الإسلامية العربية – البربرية.

المنافسة الاقتصادية الشديدة كانت أصلا سبب القطيعة التي بلغت حد تحريم آخر حاخامات هذه الفئة الأخيرة وهو Samuel Nahon الزواج من اليهوديات الوهرانيات الإسبانيات الأصل. وقد حدثت صدامات أخرى بشرشال كذلك بين التوشابيم والميغورشيم الذين لجأوا إليها إثر سقوط الأندلس وبداية الحكم العثماني للجزائر. وقد لا نبالغ اذا قلنا أن العصبية القبلية والذهنية الإثنية القوية في مجتمعات المغرب العربي قد تكون لعبت دورا ما في هذه الأحداث، لأن هذا السلوك بقي حاضرا دائما لدى يهود الجزائر، في غرداية مثلا، حتى 1962.
في مدينة مستغانم يذكر Norber Bel-Ange في كتابه "يهود مستغانم" "Les Juifs de Mostaganem" نقلا عن جريدة "Le courrier de Mostaganem" بأن يهود هذه المدينة أثناء الاحتلال الفرنسي في نهاية القرن 19م رفضوا أن يدفن موسى بكري Moïse Bacri بمقبر تهم بسبب كونه يهوديا غير مستغانمي بل من مدينة الجزائر رغم انتمائه إلى عائلة Bacri المعروفة التي تزعمت الطائفة اليهودية لسنين طويلة أثناء الحكم العثماني وبعده ورغم كونه أخ يعقوب بكري الشهير فضلا عن إقامته لعدة سنوات بمستغانم قبل وفاته.[114]

نتائج الصراع الثقافي –الاقتصادي – السياسي بين هذه الفئات إنتهت في نهاية المطاف إلى تفكيك النظام الطائفي القديم وتهميشه في مرحلة أولى ثم إلى تهميش نسبي للنظام الذي أتى به الميغورشيم ثم إلى احتكار الليفورنيين لزعامة الطائفة وفرضهم لإرادتهم عليها منذ منتصف القرن 18م على المستويات السياسية والتجارية– الاقتصادية خاصة، والدينية بصورة أقل . من الناحية الثقافية لم تكن هناك خلافات تذكر بين الميغورشيم والليفورنيين بقدر ما كانت موجودة بينهما كفئة غير جزائرية ثقافيا وفئة الأهالي.

الحياة اليهودية الجزائرية العامة تم تقاسمها في الأخير على النحو التالي : السياسة والتجارة الكبيرة لليفورنيين، الحياة الاجتماعية الثقافية– الدينية متقاسمة بين الليفورنيين والميغورشيم الذين تكفلوا بـ: الخدمات المكملة (sous - traitance) خاصة، أما الدوران في فلك هاتين القوتين السياسيتين– الثقافيتين – الاقتصاديتين،

فقد ترك لليهود الأهالي الذين كان نصيبهم التهميش والإقصاء من البنى الفوقية. القوى التغريبية تفوقت في الأخير واحتكرت كل شيء ولم تترك للقوى "الأصيلة" سوى المشاركة في جدلية المبادلات الثقافية – الفلكلورية على مستوى البنى التحتية وبصورة محدودة كما رأينا.

أثناء الفترة العثمانية، نعم اليهود باستقلال ذاتي كالعادة في الدين والتعليم والقضاء. وساعدت هذه الاستقلالية وهذه الحرية العقائدية في ظل الإسلام على نمو وازدهار مختلف الاتجاهات والمذاهب اليهودية كالحركة القبالية التي عرفت انتشارا معتبرا في الجزائر خلال القرن 18م ، البعض يقول لأول مرة، تحت زعامة أبراهام توبيانا، جوزيف أبو الخير (Aboulker) وآرون موآتي(أي هارون المُعطي)[115]. ابراهام توبيانا الذي كان قاضيا (dayyan) بمدينة الجزائر يُعدّ من أبرز عناصر هذه المجموعة التي أدخلت الطقوس والمعتقدات القبّالية في اليهودية بالجزائر، وقد توفي في 02 سبتمبر 1792م .

الاستقلال التام في ميدان التعليم ساعد الطائفة على الإعادة المستمرة لإنتاج النخبة الثقافية – الدينية الضرورية للتأطير والتسيير الطائفي الداخلي وذلك بفضل المؤسسة الحاخامية التي تكفلت بهذه المهمة.

التعليم كان يتم بطريقة تقليدية، على غرار ما كان معمولا به لدى المسلمين، يغلب عليه طابع الحفظ والاستذكار وكان مستواه على نفس ضعف وجمود نظام التعليم الإسلامي. وكما قسّم المسلمون مراحل التعليم ومستوياته إلى : تعليم القراءة والكتابة للأطفال في الكتاتيب بين 5 و6 سنوات، وتعليم القرآن بعد هذا السن، ثم ارسال ابناء الميسورين إلى المدارس العليا حيث تُدرّس الآداب والفقه... (وحتى أبناء المعوزين، على نفقة الحبوس) ..، عمد اليهود علي غرار هذا النظام إلى تقسيم نظامهم التعليمي إلى مرحلة أولى حيث تعلم القراءة بين 4 و8 سنوات، ثم يدرس تاريخ العهد القديم (l'Ancien testament)، وبعدها في المرحلة الثالثة تلُقن مبادئ الكتابة والحساب. أما الأغنياء فيرسلون أبناءهم إلى أوربا لتعلم اللغات وتقنيات التجارة العصرية. هؤلاء أغلبهم من الليفورنيين.

التعليم كان يتم بالعبرية والعربية التي كثيرا ما كانت تكتب بالحروف العبرية،[116] أما تعليم البنات فكان نادرا مثلما هو الحال عند المسلمين، وخُصصت لهن مدارس خاصة تديرها نساء يهوديات.

د- الخلافات السياسية والمصلحية بين اليهود الجزائريين:

لم تخل العلاقات اليهودية - اليهودية بالجزائر من الصراعات على النفوذ والخلافات النابعة من اعتبارات مصلحية مادية، سياسية، إقتصادية واجتماعية اتخذت عدة أشكال، وذلك سواء بين الفئات العرقية أوداخل نفس الفئة ، أو حتى بين أفراد العائلة الواحدة. مثل هذه الصراعات بلغت أشدها ابتداءً من نهاية القرن 17 م وبداية القرن 18 مع قدوم يهود ليفون إلى مدينة الجزائر واستيلائهم على مقاليد السلطة والزعامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية داخل الطائفة ، ولو بالظلم والاستبداد والتجاوزات المختلفة في حق إخوانهم في الدين وحتى في حق المسلمين أيضا.

عمق الخلافات وشدة الصراعات كانا يختلفان من منطقة إلى أخرى حسب الأهمية التجارية والاقتصادية لهاوحسب درجة التجانس العرقي - الثقافي، بحيث كلما زادت الأهمية التجارية لمدينة معينة مثلا و تقلصت في نفس الوقت درجة التجانس العرقي - الثقافي كلما اشتدت المنافسة وتعمقت التناقضات بين اليهود. فالصراع بينهم كان أعنف بمدينة الجزائر منه في قسنطينة أو مستغانم ، كما كان بهذه المدن أشد منه بالمدن الصغرى الأقل أهمية اقتصادية. مثل هذه الصراعات مثلا لم تكن موجودة تقريبا بين يهود الميزاب الذين يشكلون عنصرا متجانسا ولا بمنطقة بني يني مثلا لضعف التجارة في المنطقة و بالتالي الضعف العددي لليهود بها. بينما في مدينة بجاية، ذات النشاط التجاري الواسع، والتي كانت تأوي عدداً من اليهود الميغورشيم والتوشابيم وحتى بعض الليفورنيين وربما حتى بعض العائلات القادمة من فرنسا وغيرها من البلدان الأوروبية، بلغ الصراع أشده في القرن 15م و16م قبل أن يتراجع نسبيا الدور الاقتصادي التجاري لهذه المدينة لصالح مدن أخرى ناشئة كمدينة الجزائر وعنابة ومستغانم ..

المصالح التجارية والنزعة المادية لدى اليهود كثيرا ما تغلبت، ظرفياً، على الرابطة الروحية والمبادئ التضامنية الدينية اليهودية في مثل هذه الصراعات التي اكتست في غالب الأحيان طابعا اجتماعيا - اقتصاديا في إطار عرقي - ثقافي، علما بأن مراكز القوى السياسية - الاقتصادية - الاجتماعية اليهودية ومجموعات

المصالح المتناقضة كانت منتظمة ومهيكلة حول الانتماءات الثقافية– العرقية سواء كان الانتماء للجزائر أو لإيطاليا أو لإسبانيا أو لتركيا .. إلخ.[117]

بعض هذه الصراعات حدثت مثلا في تلمسان الزيانية قبل مجيء العثمانيين، وقد تم ذكرها سابقا، بحيث عندما قرر السلطان الزياني مساعدة اليهود اللاجئين من إسبانيا إلى مدينته بإعفائهم من دفع نصف قيمة الجزية المفروضة آنذاك، اعترض اليهود الأهالي بشدة ونقموا على السلطان وعلى إخوانهم في الدين، لكن بقي الاحتجاج سلميا. غير أن الصراع بين هاتين الفئتين انتهى في مدينة تنس إلى صدامات عنيفة بينهما. وإلى نفس النتيجة أيضا وصلت الأمور في مدينة بجاية بعد بضعة سنوات فقط من أحداث تنس، واستدعت تدخل ريباش راشباش لتهدئة الصراع بين الطرفين.

يؤكّد ر. حيّون وب. كوهين [118] بأن الصدام التوشابيمي – الميغوراشيمي ببجاية يعود سببه إلى المنافسة التجارية القوية التي أحدثتها الفئة الثانية والتي تسببت في كساد أعمال ونشاطات الفئة الأولى. ومن جهة أخرى إلى رفض الميغورشيم دفع نصيبهم من الضرائب المفروضة على يهود بجاية. تطويق أحداث بجاية وتهدئة التوتر بين اليهود من طرف ريباش وراشباش تم بإخضاع الأهالي إلى اللاجئين من إسبانيا بمختلف المناورات وحتى بالتهديد وبالمقاطعة أو استخدام القوة لفرض الأمر الواقع، وقد ساعدتهما علاقاتهما الجيدة بالحكام المسلمين على ذلك .

في مرحلة متأخرة من الحكم العثماني، بلغت المنافسة التجارية حد التوتر في علاقات المتنافسين اليهود: عائلات بن إيشو Bénichou وبن زاكن Benzaquen وضرمون Darmon وبكري Bacri الليفورنية من جهة، ومن جهة أخرى العائلات التي هاجرت إلى وهران من جبل طارق عندما ازدهرت بها التجارة في أواسط العهد العثماني على غرار: Gabison، Cabecca، Benseria، Angel، و Senucha...الخ. المنافسة الشديدة على الأسواق دفعت بكل طرف إلى تحريك تحالفاته. فيهود وهران تعاونوا مع إسبانيا أو مع الإنجليز المتمركزين في جبل طارق من أجل تدعيم مواقعهم في الأسواق المحلية والدولية، ويهود مدينة الجزائر الليفورنيون تحالفوا مع فرنسا ومع الداي كما فعلت عائلة بكري.[119]

المؤسسة الحاخامية اضطرت أمام تزايد النزاعات التجارية وتفاقم التجاوزات خصوصا محليا إلى إنشاء "مجلس التجار"(Le Conseil des Marchands) للفصل في هذه النزاعات وتسيير الشؤون التجارية والمالية اليهودية بصورة أفضل.

الخاسر الأكبر في هذه الصراعات والمنافسات هم التوشابيم الذين تم إقصاؤهم من المنافسة وأيضا من أدنى الاعتبارات، بحيث بقوا محل احتقار وازدراء وبقيت طريقة حياتهم كلها بما فيها الجانب الديني محل سخرية واستهزاء. هذه الفئة المنهزمة التي رفضت الذوبان ألصقت بها جميع الصفات السلبية من "جهل " وبدائية" و"تخلف" و"توحش" حتى من طرف الزعماء الروحيين للفئات العرقية – الثقافية الأخرى مثل راشباش وريباش الذي قال بأنه لم يجد عندهم "عادات يهودية" ، وشكك في انتمائهم الديني بسبب تعربهم وبسبب كونهم كما يضيف :" .. لم يعتادوا الحكم في منازعاتهم وفقا لقوانين ديانتنا، فجميع القضايا كانت تعرض على القاضي المسلم...".[120] لقد حوِّل التوشابيم على يد الميغورشيم إلى يهود من الدرجة الثانية، ثم تراجعوا إلى الدرجة الثالثة عندما جاء الليفورنيون وقضوا على نفوذ الميغورشيم، وأصبحوا نواة الطبقة اليهودية الفقيرة الكادحة أو المتوسطة في أحسن الظروف داخل الطائفة اليهودية في الجزائر. وأصبحوا أيضا وسيلة في يد أثرياء اليهود وزعمائهم الذي يستغلونهم اقتصاديا وسياسيا لتحقيق أغراضهم الاقتصادية – السياسية، ودفعوا غالبا ثمن أخطاء وتجاوزات الأثرياء بأرواحهم وأملاكهم أثناء الاضطرابات الشعبية الاحتجاجية على التجاوزات اليهودية.

5 – التنظيم الطائفي لليهود :

كان التنظيم الطائفي اليهودي يقوم على مؤسسة "الشيخ" أو "مقْدَّم اليهود" الذي يعينه الحكام المسلمون ويسير طائفته في إطار استقلالية داخلية ، إلى أن جاء ريباش وراشباش اللذان فرضا نظاما جديدا نواته "الحاخام الكبير" (Le Grand Rabbin)، ويسيِّر وفق أسس جديدة وبصلاحيات مركزية واسعة طبقا للعادات القشتالية والكتلونية اليهودية. هذا النظام الجديد عرف توسعا كبيرا بمرور الزمن على حساب النظام القديم وخلق في البداية ازدواجية تنظيمية إلى أن تم تقليص مساحة سريان نظام "الشيخ" وحصره في الأرياف والمناطق

النائية والصحراء. وهكذا أصبح نظام "الحاخام الكبير" هو الأساس يتصدر طليعة المؤسسات اليهودية ويحتكر التعامل مع المسلمين والسلطة الإسلامية باسم الطائفة اليهودية، ولم يؤثر فيه قدوم الليفورنيين إلا في بعض الجزئيات

أ- النظام الطائفي:

قبل حلول الميغورشيم بالجزائر كانت الطائفة اليهودية الجزائرية المتكونة من الأهالي عبارة عن تجمعات أو مجموعات عديدة منتشرة في البلاد ومستقلة داخليا عن المسلمين وعن بعضها البعض. وكانت لكل مجموعة مؤسستها الدينية – الاجتماعية التي تنظم سير حياتها العامة اليومية من ممارسة الشعائر أو تطبيق التعاليم الدينية والحكم في المنازعات وتقنين النشاطات الاقتصادية والتحدث باسم المجموعة في الأمور العمومية الطابع مع العالم الخارجي عن المجموعة. رئيس كل مجموعة وزعيمها الروحي والدنيوي هو، كما سبق أن ذكرناه، " شيخ اليهود " أو " مقدم اليهود" الذي يعينه الحكام المسلمون برضا هذه المجموعة. وكانت تربط هذه المجموعات المستقلة داخليا علاقات وروابط دينية وثقافية وحتى عائلية، وتجارية وسياسية، وهي العلاقات التي كانت أكثر نشاطا وتنسيقا بين مختلف مجموعات أو جاليات – كما يصفها البعض – الطائفة اليهودية.

أحدث قدوم يهود إسبانيا، الفارين من أحداث 1391م بصورة خاصة ما يمكن تسميته بالثورة على هذا النظام الطائفي التقليدي، بحيث حل محله تدريجيا نظام مركزي أحادي القطب يعتمد على سلطة واحدة شاملة لجميع اليهود – نظريا على الأقل – يرأسها "الحاخام الكبير" الذي يسميه البعض : رئيس الأمة اليهودية Chef de la nation juive ويساعده في تسيير شوون الطائفة مؤسسة تدعى: المجلس الطائفي. رئيس الطائفة أو الحاخام الكبير يحتكر جميع السلطات والقرارات وله كل الصلاحيات في تسيير طائفته، بعد أن يعينه الحاكم المسلم، وفق نظام " الحلخة" Halakha الذي أتى به الميغورشيم إلى الجزائر. هذا النظام الجديد أصبح النظام الطائفي اليهودي الرسمي منذ القرن 14م، وعرفت سلطته امتدادا في النفوذ جغرافيا عبر مدن أخرى طوال القرون اللاحقة. وتهمش بالتالي النظام التقليدي الذي بقي محصورا في المجموعات اليهودية التوشابيمية المقيمة

في المناطق النائية والصحراء. وكان للحاخام الكبير ممثلون في هذه المدن يُسيّرون شؤون يهودها وفقا لتعليمات السلطة اليهودية المركزية بمدينة الجزائر وللنظام الطائفي المركزي في صورة مصغرة.[121] قوانين ريباش الإثنا عشر أصبحت المرجع التشريعي الرسمي في الأحوال الشخصية.

المجلس الطائفي الذي كان من المفروض أن يوازن السلطات الممنوحة لرئيس الطائفة ويشاركه جماعيا في اتخاذ القرارات حُوّل عن مهامه في بعض الفترات ليصبح أداة طيعة في يد الرئيس يستغله بطريقة استبدادية حسب أهوائه. فتحول الحاخام الكبير إلى مؤسسة لا تقل استبدادا عن مؤسسة "الشيخ" أو"المقدم" التي أعيب عليها ومازال يعاب عليها إلى اليوم استبداداها بالحكم بصفة مطلقة. في الواقع أصبح الحاخام الكبير في حالات عديدة أكثر ديكتاتورية من الزعيم التقليدي إلى الحد الذي دفع بالطائفة أن تقدم الشكاوى ضده للحكام العثمانيين وتطلب عزلهم وتعويضهم بآخرين أكثر استقامة وعدلا.

يتكون المجلس الطائفي الذي يشكل النواه المركزية المسيرة لشؤون الطائفة من رئيس الطائفة "الحاخام الكبير" (le Grand Rabbin) وهو زعيمها الرّوحي والدنيوي وصاحب الكلمة الأخيرة فيها. قد يكون تاجرا في نفس الوقت أو معُلّما ...، المهم أن يكون غنيا ومؤهلا ثقافيا ودينيا لممارسة مهامه..، إلى جانب مجموعة من الأعوان المساعدين الذين يعينهم بنفسه. وتتكون هذه المجموعة أساسا من أربعة إداريين يسمون: (Tobe hair)، وأربعة مسؤولين عن الخزينة والمالية وجمع الضرائب يدعون: (Gezbarim)، وثلاثة قضاة أي (Dayyanim)... ويتكفل المجلس الطائفي تحت إشراف الحاخام الكبير بإمامة المؤمنين في صلواتهم وممارسة الطقوس الدينية داخل المعبد، وبالأعمال والنشاطات الخيرية وبختان المولودين الجدد في يومهم الثامن حسب العادة اليهودية، وبتنظيم بعض مراسيم الزواج، وبدفن الموتى وتسيير المقبرة، وبتعليم العبرية و" العهد القديم" للأطفال ، وحتى بذبح الماشية حسب الطريقة الشرعية، وأيضا بتسيير مختلف النزاعات في المحكمة الحاخامية.

قبل انعقاد المجلس الطائفي الشهري يقوم اثنان من أعضائه دوريا يسميان: "مقدما الشهر" "بتسيير شؤون الطائفة الجارية المعتادة والقضايا المستعجلة،

لكن لم تكن لهما أية حرية في اتخاذ القرارات وكان عليهما وعلى جميع زملائهما في المجلس الطاعة المطلقة للرئيس حتى لا ينالهم غضبه وعقابه الذي قد ينتهي إلى العزل أو أكثر من العزل ظلما وتعسفا. فالرئيس إذن هو الحاكم المطلق للطائفة الذي يسيرها ويوظفها كيفما شاء حسب أهوائه وأغراضه، والمجلس الطائفي لم يكن على العموم سوى واجهة "ديمقراطية".

إن هذا النفوذ الكبير والصلاحيات الواسعة والمطلقة التي تعطيها المؤسسة الحاخامية لرئيس الطائفة كاناسببا مباشرا في انحراف العديد من رؤساء الطائفة المتعاقبين عن مسؤولياتهم واستغلالهم الرهيب لليهود من أجل أغراض ومصالح مادية شخصية دفعت في العديد من الحالات إلى التظلم والشكوى منهم لدى الدايات.

محمد داده يذكر في هذا السياق بأن رئيس الطائفة "... كان يمارس وظيفته بجور واستبداد، وكانت تحت تصرفه شرطة المدينة (مدينة الجزائر وغيرها)، التي كانت.. (تعاقب وتقمع وتحبس الخارجين عن طاعته) وحتى من لم يرقه تصرفهم لا غير، والجدير بالذكر أنه كان يملك سجنا في مسكنه الخاص.." ![122]

هذا النفوذ الكبير وهذه الصلاحيات الواسعة والمطلقة كانت بصورة رئيسية وراء الصراع الشديد بين المغورشيم والليفورنيين الذي جسده الصراع بين عائلة دوران (Duran) المنحدرة من Simon Ben Semah Duran، أي راشباش وعائلة بكري بين سنتي 1805 و1811. المؤرخون والرحالة الأوربيون والأمريكيون الذين زاروا الجزائر أثناء العهد العثماني يجمعون على الانتهازية والتدهور الأخلاقي الكبير لرؤساء الطائفة اليهودية بالجزائر خصوصا في نهاية القرن 18 وفي القرن 19 م[123]، مما أدى بهم إلى التورط في أزمات سياسية واقتصادية انتهت في الكثير من الأحيان إلى إحداث نقمة شعبية معادية لليهود خصوصا في مدينة الجزائر دفع ثمنها البسطاء والأبرياء، وأثرت على العلاقات بين اليهود والمسلمين لأنها كانت تغذي في كل مرة الحذر والريبة المتبادلة بين الطرفين. فساد النخبة اليهودية الحاكمة للطائفة في هذه الفترة عكر على هذه الأخيرة نعمة الحكم الذاتي والتسامح الإسلامي. المؤرخون اليهود لا يتطرقون إلى هذه القضية، بل كل ما استقطب اهتمامهم حول هذه الفترة هو "اضطهاد" الدايات للطائفة اليهودية و" ابتزازهم" لها ...!

منذ قيام النظام الطائفي الجديد على يد ريباش وراشباش انفرد الميغورشيم بزعامة الطائفة ومنصب "الحاخام الكبير" إلى غاية سنة 1750 م، حيث انتزعهما منهما يهود ليفورن بواسطة عائلة بوشارة (أوبوشعرة) وعائلتي بكري وبوشناق. وتراجع منذ ذلك التاريخ نفوذ و دور العائلات الأرستقراطية الإسبانية- الأندلسية واختفت من واجهة الأحداث أسماء صرور Serror، وبن حييم Ben Haim، وسطورا Stora ، وعياش Ayache، ووليد Oualid. ولم يبق منهم في حقل المنافسة على الزعامة الطائفية سوى بن دوران Ben Duran الذي نجح في الوصول إلى رئاسة الطائفة في فترات قصيرة ومتقطعة إثر أحداث ثورة الإنكشارية واغتيال رئيس الطائفة آنذاك نفطالي بوشناق (Neftali Busnash) الوسيط التجاري اليهودي الكبير والداي مصطفى باشا سنة 1805م. وقد كلفت هذه المنافسة اليهودية بن دوران حياته سنة 1811م، وأدت إلى خلافات عميقة وخطيرة يهودية – يهودية داخلية وإلى خيانات ووشايات متبادلة لدى الدايات الذين تدخلوا في النهاية بقوة لوضع حد للنزاع بين عائلتي بكري وبن دوران وتهدئة التوتر الذي أزعج الإيالة سياسيا. ثورة الانكشارية أعطت إشارة الانطلاقة لهذا الصراع الشديد بين عائلتي دوران وبكري الذي دام ست سنوات.

تربّع نفطالي بوشناق على رئاسة الطائفة لسنوات طويلة في مدينة الجزائر ليصبح المنصب شاغرا بمجرد اغتياله من طرف الانكشارية سنة 1805 م هو والداي مصطفى باشا بعده بحوالي شهرين. طموحات عائلة دوران للفوز برئاسة الطائفة كانت ماتزال قوية وعلاقة هذه العائلة بالعائلات الليفورنية القوية النفوذ بقيت سيئة بسبب المنافسة الشديدة فيما بينها. شغور المنصب زاد في حدة المنافسة والمناورات والوشايات ببعضها البعض لدى السلطات العثمانية. الداي الجديد أحمد بن علي (خوجة الخيل سابقا) عيّن يوسف بكري Joseph Bacri رئيسا للطائفة وأصله طبعا من ليفورن الإيطالية وهو صديق وشريك بوشناق المغتال من طرف الإنكشارية. لكن بروز بعض الخلافات المالية بين الداي الجديد والزعيم اليهودي الجديد أدت إلى اعتقال الأول للثاني وسجنه بـ:" المزور" بالميناء القديم لمدينة الجزائر –أي الأميرالية– حيث ينام مع العبيد ليلا، ويشتغل في محجرة باب الوادي نهارا. فاستغلت عائلة دوران، أو بن

دوران، هذه الفرصة لتتقرب من الداي ويصبح دافيد دوران رئيسا للطائفة اليهودية. علاقات الداي بعائلة بكري بدأت تتحسن بعد فترة وجيزة وتكللت بإطلاقه سراح جوزيف أو يوسف بكري وابنه دافيد بكري والعديد من أفراد عائلتهما المعتقلين إثر النزاع المالي الذي شب بينهما. دافيد دوران الذي أثار هذا الإجراء قلقه وتخوفاته من مناوات بكري ومؤامراته عمد إلى الوشاية بمنافسه لدى الداي أحمد حتى يتخلص منه، ونجح في ذلك بحيث أدخله الداي ثانية إلى السجن برفقة صديقه اليهودي موسى عمار في 4 أيار 1806.لكن مظالم دافيد دوران واستبداده تجاه اليهود أضعفا من حظوظ بقائه على رأس الطائفة اليهودية التي تذمرت من تصرفاته وتزايدت شكاويها ضده لدى الداي حتى اضطر هذا الأخير إلى عزله وتعويضه بـ: بن تيبي (Ben Tibi) في 20 جويلية 1806 قبل أن يعود دافيد بكري في 10 نوفمبر 1806 إلى رئاسة الطائفة بعد إطلاق سراحه وإنتهاء الخلاف بينه وبين الداي.

لم يهضم دافيد دوران بسهولة عودة منافسه وعدوه إلى مكانته القديمة، فوشى به مرة أخرى إلى الداي حاج علي (1809 – 1815) متهما إياه بالتآمر على الداي مع السلطان العثماني بإسطمبول .. وهكذا قرر الداي إعدام بكري وتنفيذ الحكم فيه يوم 4 فيفري 1811م. لكنه لم يرتح لـ: دافيد دوران ورأى فيه مناورا خطيرا، فأعدمه هو الآخر في 19 أكتوبر 1811 وأعاد عائلة بكري إلى رأس الطائفة اليهودية بحيث أوكل هذا المنصب إلى جوزيف بكري، أو جوزيف كوهين–بكري، وهو أب دافيد الذي تم إعدامه. وبعد فترة حكم وجيزة لهذا الأخير نفاه الداي إلى مدينة ليفورن، أين قضى بقية أيامه هناك إلى أن وافته المنية، تاركا وراءه رئاسة الطائفة في الجزائر لأخيه يعقوب بكري. الحاخام أبراهام بلوخ Abraham Bloch يتهم يعقوب هذا بتآمره على أخيه مع الداي من أجل المنصب في أحد مؤلفاته[124].

ومنذ هذه الحادثة بقيت عائلة بكري على رأس الطائفة ممثلة بـ : يعقوب إلى غاية الاحتلال سنة 1830، واستمرت في هذا المنصب لعدة سنوات بعد الغزو.وهكذا تم القضاء على كل طموحات عائلة دوران ومن ورائه جميع الميغورشيم ليتأكد نهائيا تفوق الليفورنيين على جميع يهود الجزائر. هؤلاء اللفيورنيون لم يكن يهمهم إجراء التعديلات أو الإصلاحات على النظام الطائفي

بقدر ما كانت تهمّهم السلطة والنفوذ السياسيين – الاقتصاديين والريوع المترتبة عنهما ، لذلك لم يؤثر قدوم هذه الفئة إلى زعامة الطائفة على بنية النظام الطائفي ومؤسساته الإدارية والاقتصادية – الاجتماعية والدينية والقضائية.

ب : القضاء :

يصف E.MAINZ النظام القضائي الطائفي اليهودي في كتابه "يهود الجزائر تحت الحكم التركي" Les Juifs D'Alger sous la domination Turque بالعبارات التالية:"كانت السلطة القضائية خاضعة هي الأخرى للمقدم (أي رئيس الطائفة)، وكانت مطبقة بتفويض من محكمة حاخامية تتألف من ثلاثة قضاة.وتذمر اليهود كثيرا بحق أو بغير حق من تحيز وظلم المحاكم الحاخامية. وعلى أية حال، فإن اليهود فضلوا في كثير من الأحيان أن يتوجهوا إلى المحاكم الإسلامية، غير أن بعضهم رأى في ذلك عصيانا دينيا وخيانة"[(125)]

كانت لليهود إذن محاكمهم الخاصة المستقلة عن السلطة الإسلامية، حيث تسير وفق قوانينها الخاصة. لكن نظم القضاء لم تكن موحدة إذ تميزت كل مدينة بتشريعها الخاص، وأبرز هذه التشريعات تشريع وهران، تشريع قشتالة الذي أدخله الوافدون من الأندلس وإسبانيا إلى بعض المدن، وتشريع مدينة الجزائر الذي وضعه ريباش والذي كان الأكثر شيوعا. هذا الأخير مشتق من التشريع السابق مع بعض التعديلات والإضافات.كما وجد تشريع آخر هو ذلك الذي عرف باسم صاحبه: يهوذا عياش وقد ألفه سنة 1740م. ومع ذلك كانت الفتاوى والاستشارات الفقهية متبادلة بين مختلف المناطق، ولو أن الفتاوى القادمة من مدينة الجزائر كانت الأكثر كاريسماتية.

عدم ثقة اليهود في محاكمهم التي عرفت بفسادها وعدم نزاهتها جعلت لجوءهم إلى المحاكم الإسلامية للبت والفصل في منازعاتهم أمرا يكاد يكون عاديا لولا انتقاد بعض المتشددين في الدين لهذا السلوك واعتباره خروجا عن التعاليم اليهودية. لكن مثل هذه الانتقادات لم تكبح هذه الظاهرة ولم تمنع شيوعها بكثرة .

المحاكم الإسلامية تنظر في النزاعات اليهودية وفق المبادئ القرآنية وتعاليم الإسلام، واليهود فضلوها عن محاكمهم الخاضعة لسلطة رئيس الطائفة المستبد لعدالتها.

حالات الإجرام والمسائل الجنائية عامة ، والقضايا المتعلقة بالسياسة وأمن الدولة وكل ما قد يحدث ضررا بالمسلمين كانت كلها من صلاحيات المحاكم الإسلامية العثمانية كالقتل والسرقة، وقطع الطريق، والزنا ، والإعتداء على الديانة الإسلامية ... الخ .

الكُتّاب والمؤرخون الذين درسوا أو عايشوا يهود الجزائر في العهد العثماني يجمعون عل تعفن النظام القضائي اليهودي لاعتماده على ″..الرشوة والاستبداد..″،[126] ويوافقهم في هذا الحكم حتى بعض الكتّاب اليهود. ولا يمكن تفسير هذا الفساد والتعفن بالرداءة والانحلال اللّذين سادا وميزا العهد العثماني في الجزائر، لأن القضاء الإسلامي آنذاك رغم فساد النظام السياسي في المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني كان قضاء عادلا نسبيا يتميز بمستوى أخلاقي عالي بشهادة اليهود أنفسهم. ويكفي للتدليل على ذلك أنه كان ملجأ لكل يهودي مظلوم بين أهله وأولي أمره[127]

ج – المذاهب الدينية :

لم تخل الديانة اليهودية في الجزائر على غرار البلدان الأخرى والأديان الأخرى من الصراعات المذهبية. القوى الدينية الرئيسية أثناء الفترة العثمانية، وهي قوى كانت متصارعة بسبب اختلافاتها الشعائرية – المذهبية، تتمثل في حركة القبّالة – أو القبّاليين– التي ظهرت في الجزائر في القرن 18م، وتزعمها كل من Abraham Toubiana، Joseph Aboulker وMoati Aaron.. بصورة خاصة، والتي كانت مهيكلة حول جمعيات قراء الزّوهر مخصقج زع المنتشرة كثيرا في مدينة الجزائر وقسنطينة وغرداية.[128] كما كانت الحركة السبتية L'hérésie Sabbatianiste متمركزة أساسا بمدينة وهران حيث تزعمتها إحدى العائلات الأرستقراطية للمدينة وهي عائلة CANSINO.موريس إيزنبث يؤكد بأن اليهودية الجزائرية قبّالية أساسا.[129]

في القرن 18، أدى الاختلاف الشعائري بين يهود الجزائر، خصوصا في مدينة الجزائر بالذات، بخصوص الصلاة المعروفة باسم Chemoné Esré وطريقة وكيفية أدائها مع ″البيوّتيم″ (Piyyutim)، أي الأشعارالدينية التي ألفها القباليون Toubiana وMoati وغيرهما، إلى اضطرابات وخلافات داخل المعابد اليهودية،

نتج عنها انشطار المؤمنين إلى فئتين؛ الأولى تـدعى (باشتانيم) Pachtanim، وهي مناصرة للطريقة التقليدية لأداء Chemoné Esré و"البيوتيم" المعمول بها منذ ريباش وراشباش، واستمرت في الوجود حتى في عهد الحاخام موريس إيزنبث (M.Eisenbeth) في الثلاثينات والأربعينات من القرن 20م. أما الفئة الثانية فتسمى: "ميقوباليم" Meqoubalim، وهي التي تزعمها القباليون السابقو الذكر الذين أدخلوا إضافات و تعديلات على ممارسة هذه الشعائر والطقوس منذ حوالي 1755م، أي بعد بضعة سنوات فقط من وفاة الحاخام يهوذا عياش، وتبنتها عدة معابد. وهي تنسب اتجاهها إلى الزعيم الروحي اليهودي آري الأسد (أو الربّ هاري) Ari le lion أو Rab Hari، أو كما يلقبه آخرون أيضا إسحاق لورية Isaac Louria الذي عاش في القرن الثاني الميلادي وأسس بمعية Rabbi Simeon Bar Yohai حركة القبالة قبل أن يتوفيا ويدفنا بفلسطين. ربي آري هو واضع أسس الإيمان بأنه يمكن التعجيل بمجئ المسيح المنقذ عن طريق العذابات الجسمانية والصوم واتباع الملائكة وطرد الأرواح الشريرة من الجسد والتعويذات والتعزيمات، وهي كلها من خصائص حركة القبالة.

تتكون صلاة Chemoné Esré من 18 دعاء مباركة bénédictions قبل أن يضاف إليها "chema" زمـ ذات الأهمية الخاصة في الشعائر اليهودية. الخلاف الذي قام حول هذه الصلاة يتمثل في كيفية وتزامن أداء الصلاة و"البيوتيم" أي الأشعار الدينية. فالقباليون يرون بوجوب البداية بالصلاة وإتمامها ثم الانتقال إلى ترديد الأشعار الدينية، وتزعم هذا الفريق كل من Abraham Toubiana و Ichoua و Sidoun و Joseph Aboulker و Aaron و Moat الذين طبقوا هذا الطرح في المعابد التي كانوا يشرفون عليها بصفتهم رجال دين أي حاخامات. بينما يعتقد الفريق الآخر بوجوب البدء بصلاة Chemoné Esré جماعيا مع ترديد المجوِّد l'officiant لها بصوت أكثر ارتفاعا عن أصوات المصلين لكن دون المضي حتى نهايتها، بل يجب – حسبه– التوقف عن الصلاة بطريقة منتظمة لتلاوة بعض "البيوتيم"، ثم مواصلة الصلاة بعد ذلك، ثم "البيوتيم"، وهكذا حتى النهاية. هذه الصلوات الثمانية عشر الميمونية (من ابن ميمون) الروح كتبها Ezra ونشرت بالبندقية في 1622 وتعرف أيضا بـ The Breviary حسب L.Addison [130]

أدّى تشدد كل فريق في موقفه إلى تعمق الخلاف واستفحاله لمدة سنتين حتى بات يهدد الوحدة اليهودية في الجزائر، ولما تفاقمت هذه الأزمة وتحولت إلى مناوشات واضطرابات من حين لآخر بين الباشتانيم والمقوباليم، تمّ عرض القضية على الزعيم الروحي الذي ذاع صيته آنذاك في الأوساط اليهودية بشمال إفريقيا وهو حاخام تونس مسعود رفائيل الفاسي الذي تدخل للفصل في النزاع الديني ووضع حدا لتطور هذا الخلاف اليهوّدي– اليهودي وحال دون تحوله إلى مواجهات وانشقاقات. واحتفظ بعد ذلك كل فريق بطقوسه وخصوصياته مع احترام الآخر، وبقيت هذه الإزدواجية حتى نهاية عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر.[131]

6)– مكانة اليهود داخل المجتمع الجزائري وعلاقاتهم بالمسلمين:

الكتّاب والرحالة الأوربيين وصفوا الحياة اليهودية في الجزائر بأنها حياة عبودية ومذلة وبالغوا في وصفها بأقسى الأوصاف المأساوية والدرامية. مبعوثو الرابطة الإسرائيلية العالمية (Alliance Israelite Universelle) نعتوها بـ:" الجهنمية".[132] لكن لا هؤلاء ولا أولئك كانوا على اطلاع دقيق على بنية المجتمع الجزائري آنذاك، ولم يتخذوا في أحكامهم بعين الإعتبار أوضاع اليهود في العالم آنذاك ونظرة الشعوب والأمم إليهم والمحيط التاريخي السياسي والاجتماعي والفكري لتلك الفترة.

لقد كان النظام العثماني في الجزائر نظاما استبداديا دب فيه الفساد والانحراف منذ الانقلاّب والتحول المؤسستي الذي حدث في منتصف القرن 17م حيث أسقط طبقة رياس البحر من السلطة وفتح المجال أمام الإنكشارية التي احتكرت السلطة إلى غاية 1830، علما بأن هذه الأخيرة كانت تجند في أوساطها كل من هب ودب من مغامري ومرتزقة جنوب أوربا دون احترام لأدنى المعايير الأخلاقية والسلوكية والشروط الدينية والعقائدية التي كان معمولا بها داخل المؤسسة العسكرية على عهد رياس البحر. وقد أصبح العديد من هؤلاء المرتزقة والمغامرين مسؤولين كبارا في الإيالة وانعكست عدم كفاءتهم وتدهورهم الأخلاقي وجهلهم السياسي والديني على تسيير البلاد وعلى الرعايا المسلمين واليهود. وهؤلاء كان همهم الرئيسي جمع الأموال وضمان معاش رغد في بلدانهم الأصلية عندما يزاحون من السلطة لأن أغلبهم كان لا يخرج من قصر

الداي إلا مقتولا أو فارا من انقلاب انكشاري. لذلك لم يعيروا اهتماما كبيرا إلى عامة الشعب سواء كانوا مسلمين أو يهود وعاملوهم على حد سواء بقبضة من حديد وبصرامة كبيرة. وقد كانت هذه الصرامة والشدة لدى هذه الطبقة الحاكمة ميزة طبعت سلوك الحكام العثمانيين في كامل الإمبراطورية العثمانية. وقد صورها المؤرخون والكتّاب الأوربيون واليهود في مؤلفاتهم وكأنها كانت مقتصرة فقط على اليهود رغم أن معاناة المسلمين منها لم تكن أقل من معاناة اليهود أو ربما أكثر منها. فسلوك الحكام تجاه اليهود لم يكن سلوكا عنصريا نابعا من التمييز الديني بل كان تجسيدا لتقاليد وفلسفة الحكم العثمانية ونتيجة أيضا لفسادهم السياسي والأخلاقي على العموم، باستثناء بعض الحكام النادرين مثل الداي محمد بن عثمان باشا، وصالح باي بقسنطينة في النصف الثاني من القرن 18م والداي حسين باشا الذين شملت استقامتهم وحكمتهم وعدلهم جميع سكان البلاد وعم في زمنهم الرخاء والاستقرار والطمأنينة لدى الجميع، مسلمين ومسيحيين ويهود، ومازالوا إلى اليوم محل مدح وثناء الجميع.

صرامة حكام الجزائر يجسدها مثلا نظام العقوبات على الجنايات والجنح الذي كان يعتبر عاديا في ذلك الوقت لدى المجتمع الجزائري ولم يثر قلق أو إحتجاج يهود ذلك العهد المعنيين أكثر به من يهود هذا العصر.العقوبات كانت تتراوح حسب الجنحة من Les Bastonnades أي "الفلقة" – من 30 إلى 1200 ضربة على بطن القدمين – التي كانت تنفذ في قصر الداي،[133] إلى الضرائب والغرامات المالية.، إلى السجن، والنفي، والصلب، والإعدام. الإعدام كان فيه نوع من التمييز العرقي – الطبقي بغض النظر عن الانتماء العقائدي، إذ كان يتم بفصل الرأس عن الجسد أمام الناس بحد السيف بالنسبة للجزائريين المسلمين، وبالخنق سرا بالنسبة للأتراك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أنبل من غيرهم، وبالحرق بالنسبة لليهود. اليهود كانت تنفذ فيهم أحكام الإعدام بالقرب من الباب الشمالي الغربي للقصبة المعروف بباب الوادي حيث توجد بمحاذاتها خلف صور المدينة المقبرتين اليهودية والمسيحية.

في ذلك الوقت لم يكن قد سمح بعد لليهود بأوربا وخاصة بفرنسا بدفن موتاهم، وكان عليهم انتظار حلول الليل لمواراة جثث الموتى سرا في أي قطعة

أرض كانت، في شارع مهجور أو في غابة بعيدة عن الأنظار وإلا أصابتهم أقسى العقوبات من طرف المسيحيين.

في فرنسا لم يحصل اليهود على حق المواطنة إلا في سنة 1792م بعد الثورة الفرنسية، بينما في الجزائر والعالم الإسلامي لم يكن هذا المشكل مطروحا، لأن اليهود اعتُبروا بمقتضي التعاليم الإسلامية وعقد الذمة مواطنون كاملو الحقوق والواجبات من ديانة أخرى لم يجبرهم الإسلام على تركها كما كان يفعل المسيحيون بإسبانيا آنذاك.

في العهد العثماني عاش اليهود بالجزائر محترمين، لكن ليس بالضرورة محبوبين لأن أحداثا عديدة كانت تسيء إلى علاقات المسلمين باليهود وتزرع الأحقاد وتضعف الثقة بين الطرفين.

على مستوى النخبة الحاكمة حتى وإن لم تهتم السلطة كثيرا باليهود العوام، تعاملت كثيرا مع نخبتهم وأشرافهم وجعلت منهم ممولين للأهالي، ومستشارين، ووكلاء تجاريين، ومفاوضين سياسيين، ودبلوماسيين، وحتى مشاركين في القرارات السياسية الإستراتيجية دون أية عقدة إيمانا بانتمائهم إلى الجزائر وولائهم لها حتى وإن لم يكن هؤلاء اليهود أوفياء لهذه الثقة وهذا الإكبار الذي لم يتمتع به المسلمين من غير الأتراك إلا نادرا.[134] وهذا ما أدى إلى أحداث وانتفاضات احتجاجية ضدهم. وإذا وُجد احتقار وظلم لليهود في الجزائر فإنه جاء من نخبتهم، الليفورنية خاصة، التي تسلطت على ضعفاء الطائفة ومتوسطيها باستبداد لا يقل عن استبداد السلطة الحاكمة بالبلاد إلى أن اضطروا إلى الاستنجاد بالدايات وبالمحاكم الإسلامية طلبا للعدل والقصاص.

اليهودي الإنجليزي Mendelssohn جزم في كتابه حول "يهود إفريقيا" The jews of Africa الصادر سنة 1920 بأن "النظام الجديد التركي (في الجزائر) قد حسن ظروف (حياة) اليهود" [135] كما كتب كل من GIBB وBowen في كتابهما Islamic Society and the west "المجتمع الإسلامي والغرب" أنه "منذ ظهور الخلافة وحتى زوال الغيتو في أوربا نجد أكثر مراكز الحياة اليهودية ازدهارا في البلاد المسلمة، هي العراق خلال الحكم العباسي وإسبانيا خلال السيادة العربية وفيما بعد، الإمبراطورية العثمانية".[136] كما نقل أندري ريموند

عن يهودي آخر يُدعى صموئيل أوسك Sammuel Usque أنه شجّع اليهود حيثما كانوا على الإقامة بالعالم الإسلامي آنذاك بالعبارات التالية: "هنا، تجدون أبواب الحرية مفتوحة دائما على مصراعيها لكم حتى تتمكنوا من ممارسة ديانتكم اليهودية ممارسة كاملة". [*]

الاعتداءات والتجاوزات في حق اليهود التي ضخمها وهوّلها بعض الأوربيين وأيضا اليهود المعاصرين خاصة لم تكن تجاوزات منُظّمة أو منتظمة بل كانت عبارة عن جنح فردية متفرقة كان يرتكبها الجنود الإنكشاريون. ولم تكن مقصورة على اليهود فقط بل طالت حتى المسلمين الذين عانوا من فساد وفوضى الجيش الإنكشاري الذي اشتهر بعدم الانضباط وبالنهب والسلب والاعتداء على أملاك المواطنين كافة دون تمييز، لأن هذا الجيش كان مُشكّلا، كما ذكرنا سابقا، من اللّفيف الأجنبي والمرتزقة والمغامرين الذين كانوا حريصين على العودة إلى بلادهم وأهلهم بأكبر قدر ممكن من المال.[137] فساد الدولة وانحطاطها العام وتفشي الفوضى فيها كان بسببه. وعندما استفحل أمره اضطر السلطان العثماني بالباب العالي في أواخر عهد الإيالة إلى حل الجيش الإنكشاري وإلغائه –لكن بعد فوات الأوان – في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية.[138] لقد كانت الجزائر عموما رمزا للأمن والحرية والاستقرار بالنسبة لليهود إلى حد أنهم شبهوها في أساطيرهم الشعبية وفلكلورهم بالأرض الموعودة، وكانت تجربتهم بها من أحسن الظرورف الحياتية التي عرفوها في العالم. آنذاك كانت أوربا المسيحية ما تزال تشكل جحيما بالنسبة لليهود.

حادثة فتح اليهودي Stora مثلا لأحد أبواب مدينة وهران لجيوش Pedro Navarro والكاردينالXiménés سنة 1509 التي أسقطت المدينة في يد الإسبان، لا نعثر لها على أثر لا في أعمال A. Chouraqui ولا في كتاب R.Ayoun وB.Cohen ولا في أغلب الأعمال اليهودية.[139] Marie Bugéja تؤكد هذه الخيانة بالعبارات التالية: "... في 1509، عندما استولى الكاردينال Ximénés على وهران، تمت مساعدته من طرف اليهود..."[140] وذلك كمحاولة للتقرب منه. وحدث لهم عكس ما كانوا يتوقعون. طموحاتهم، تضيف الكاتبة كانت "عبارة عن أوهام". وعندما شعروا بخدعةXiménés لهم وتقتيلهم دون تمييز كغيرهم من المسلمين

قامت بعض المجموعات منهم بالدفاع عن نفسها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه دون جدوى. أندري شوراقي يصف هذه المحاولة اليائسة للنجاة من قبضة الإسبان كمشاركة لليهود بوهران في مقاومة المحتلين الإسبان. وتكررت الخيانة في تلمسان سنة 1543 عندما احتلها الإسبان، وتكررت مرة أخرى نفس النتائج المعاكسة لليهود.

الكتّاب والمؤرخون اليهود لا يذكرون أيضا سرقة يهودي بوهران كان من أعوان الباي بوكابوس لكنوز هذا الأخير، بعد تنحيته وقتله من طرف الداي، وهروبه بها إلى إسبانيا حيث كادت تتحول القضية إلى حرب بين الجزائر وإسبانيا. كما لا يذكرون أيضا اختلاس يعقوب بكري لأموال الداي حسين الذي كلفه بنقلها وتحويلها إليه بإيطاليا بعد رحيله إثر احتلال الجزائر. كما لا يشيرون إلى التجويع المنظم للشعب من طرف كبار التجار اليهود الذين كانوا يصدّرون القمح الجزائري إلى الخارج في عز المجاعات والأزمات الاقتصادية ... والأمثلة عن هذه الخيانات والجرائم عديدة ولا تحصى أثناء الفترة العثمانية ولا يتسع المجال لذكرها.

أثناء احتلال الإسبان لمدينة وهران تعاون معهم اليهود إلى أقصى الحدود، وصالوا وجالوا ضد المسلمين، وظلموا وتعدوا على حرماتهم وقد عكس بعض الشعراء هذا السلوك اليهودي في قصائدهم الداعية للوهرانيين إلى اليقظة والمقاومة[141]:

فكيف ياقبائل العربان ** عفاكم الله من الشيطان
أتخذموا هارون في وهران ** يهوديا ملعونا في القرآن
مع ديك كافر نصراني ** يعبد، ياويلاه، عودا فاني

كما كتب آخر يستنهض همم بعض بني عامر الذين استسلموا وخضعوا للإسبان واليهود بحسرة شديدة:

فمن مبلغ عنّي قبائل بني عامر ** ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
أيا معشر الإسلام أين فحولكم ** أما أبصروا في السبت عبد الحرائر
وتحت اليهودي غادة عربية ** يعالجها الخنزير فوق المزابر

III - الوضع الاقتصادي - السياسي لليهود

تطوّرت مواقع اليهود الاقتصادية– السياسية في الجزائر العثمانية حسب تطور نفوذهم التجاري والمالي في البلاد خصوصا بعد أن استقر الوضع السياسي وازدهرت التجارة. نمو وتراكم الرأسمال التجاري والمالي اليهوديين بلغا ذروتهما في القرن 18 والقرن 19م وتمكنا من نسج تحالفات سياسية كبيرة داخلية وخارجية ومن نسج شبكات واسعة وقوية من المصالح ليس فقط في الجزائر بل حول كامل المساحة الجغرافية المحيطة بحوض المتوسط. هذا النمو الذي كان قد بلغ فترته الذهبية في القرنين 13م و14م وفي كل القرن 15 تقريبا توقف و تراجع طوال القرن 16م بسبب الأوضاع السياسية المضطربة في الجزائر وفي الحوض الغربي للمتوسط إثر سقوط الأندلس، كما تأثر بالتحولات التي طرأت على التجارة الدولية والنظام الدولي الذي أصبح نظاما غربيا مسيحيا بعد أن كان شرقيا إسلاميا وذلك إثر انحطاط الحضارة الإسلامية والاكتشافات العلمية والجغرافية الحديثة التي حركت ديناميكية التطور بأوربا. الاضطرابات التي رافقت هذه التحولات العميقة وهذا التغيير للأدوار بين الشرق والغرب الذي أحدث اختلالات في الحركة التجارية بالمتوسط أثّر على المواقع الاقتصادية– السياسية القديمة لليهود في الجزائر وأدخلها في مرحلة صعبة تطلب الخروج منها بهياكل جديدة ومتطابقة مع الأوضاع الجديدة فترة زمنية طويلة تجاوزت القرن،

1) الوضع التجاري في حوض المتوسط بين القرنين 15م و16م ومواقع اليهود فيه:

تراجع دور اليهود الجزائريين في نهاية القرن 15 و في القرن 16م تجاريا في حوض المتوسط بالمقارنة مع القرون السابقة التي ساد فيها الاستقرار بين الضفتين، حيث ازدهرت آنذاك منطقة المغرب العربي والأندلس اقتصاديا وعم فيهما الرخاء. ويعود هذا الانحسار إلى الانعكاسات الاستراتيجية و السياسية والاقتصادية – التجارية لمجموعة من المعطيات الجديدة التي تتمثل في

الاكتشافات الجغرافية الحديثة (أمريكا،، رأس الرجاء الصالح، مضيق ماجلان..) وسقوط المسلمين في الأندلس عسكريا وسياسيا وثقافيا..، إضافة إلى الأحداث السياسية والاضطرابات الداخلية في الجزائر ومنطقة المغرب العربي في ظل الانقسام إلى دويلات وإمارات صغيرة متناحرة. هذه المعطيات الجديدة زعزعت النظم والطرق التجارية التقليدية وغيرت مراكز ثقل التجارة الدولية والمحلية وأثرت سلبيا بالتالي على المواقع التقليدية لليهود في هذه الشبكة. فتفككت هياكلهم وتحالفاتهم ومصالحهم التي كانت منتشرة على ضفتي المتوسط وممتدة في العمق الجزائري والمغاربي عامة حتى تومبوكتو غاو وتَنْديرْمَه.

أفلت تسارع هذه التطورات العامة وتشابكها زمام التجارة الدولية والمحلية من قبضة اليهود الذين أدخلتهم هذه الظروف في مرحلة صعبة في جميع المجالات وأصبحوا عرضة لجميع الاحتمالات بعد تدهور الأوضاع الأمنية في غربي المتوسط. تزامنت هذه التطورات على المستوى المحلّي مع البروز المفاجئ للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي أحدث اختلالاً حاسما في حياة اليهود الاقتصادية بمدن شمال الصحراء. حركة الشيخ المغيلي ضربت أكثر المناطق حساسية في هذا النظام وهي منطقة، "توات"، "تقرت" و"تمنطيط" وأهم المراكز التجارية بشمال الصحراء التي كانت تمثل همزة الوصل بين البحر المتوسط وشمال الجزائر من جانب، والصحراء وبلدان جنوب الصحراء من جانب آخر. وسلمت غرداية والميزاب عامة من هذه الضربة المغيلية لوضعيتها الخاصة المذهبية والسياسة، لذلك لجأ بعض اليهود الفارين من تمنطيط إلى هذه المنطقة. حملة المغيلي كانت ضربة في عمق المصالح اليهودية بالجزائر والمغرب العربي، امتدت انعكاساتها لمدة طويلة حتى بلدان جنوب أوربا التي كانت تربطها مصالح اقتصادية – تجارية بالجزائر. وتطلب إصلاح هذا الاختلال الذي أحدثه المغيلي بالنسبة لليهود أكثر من قرن، بعدها أعادوا هيكلة أمورهم ومصالحهم حسب الأوضاع المحلية والدولية الجديدة وعادوا بقوة إلى الساحة التجارية والسياسية كعنصر فاعل له نفوذ كبير. واستعادوا بعض النفوذ حتى في التجارة الصحراوية، لكن المرحلة الجديدة جعلت مدن الشمال أكثر أهمية تجارية وأكثر مردودية وبالتالي سارع اليهود إلى الإقامة والتوطن فيها.

من هذه المرحلة الصعبة التي امتدت طيلة القرن 15م وبداية القرن 16م، لم يبق اليهود مكتوفي الأيدي، بل تمكنوا رغم التوترات السياسية– الأمنية والاختلالات التجارية من المحافظة على بعض مواقعهم التجارية بالجزائر وحوض المتوسط. وواجهوا الظروف السياسية الصعبة التي كانت تعيق نشاطاتهم بالتحايل بمختلف الطرق والوسائل كالحصول، مثلا، على جنسيات مزدوجة إسلامية مسيحية، أوعلى رخص استثنائية بحق الإقامة المزدوجة على ضفتي المتوسط، تحسبا للطوارئ المفاجئة، أو بتزويرالوثائق والهوية بانتحال أسماء أوربية في أوربا وعربية في المغرب العربي أو بالتظاهر بالمسيحية في الضفة الشمالية من المتوسط وبالإسلام في ضفته الجنوبية ... الخ. قبل هذه الفترة التاريخية، عندما كانت العلاقات في القرن 13م مثلا متدهورة بين الجزائر و جاك الغازي Jacques le conquérent الذي أعلن الحرب على التجارة الجزائرية وسمح بمضايقتها في 1274م، لم يتأثر كل اليهود من هذا التدهور في العلاقات بين الطرفين لأن Jacques استثنى من إجراءاته هذه تجارة يهود تلمسان. وقد اختار أيضا الملوك الأوربيون، أثناء التوترات السياسية بين ضفتي المتوسط، بعض اليهود لتكليفهم بمهمات دبلوماسية في المغرب العربي. ومن بين هؤلاء اليهود الذين كلفوا بمثل هذه المهام: Bondavi بتلسمان، Ben Zequi بـ: Brechk وCANSINO بالمغرب الأقصى.[142]

بذلك تمكنوا من الاستمرار في النشاط عبر أهم القنوات التجارية بين ضفتي المتوسط، خصوصا بين منطقة المغرب العربي ومملكتي أَراغُونْ ومايورقة ومدن أخرى إسبانية وفرنسية. من بين التجار اليهود الذين برزوا في هذه القنوات وبرعوا في التحايل على الظروف والأحداث السياسية الأمنية نذكر: Issac Lévi ، Ben Haroun Bacri، وBen Netjar ... وغيرهم[143] الذين يرجع Nobert Bel Ange أصلهم إلى المغرب العربي، الشئ الذي يفسر لجوءهم الدائم إلى الجزائر خاصة وإلى تونس والمغرب الأقصى إثر الاضطرابات والقمع الإسباني – البرتغالي،– المسيحي لليهود. وهذا نظرا لمعرفتهم واحتكاكهم الواسع بسكان هذه البلدان الثلاثة واطمئنانهم إليهم، ولانتمائهم الثقافي على الأقل إلى هذه المنطقة. جنسيات هؤلاء الرسمية، الكتالونية والمايورقية عامة، لا تعبّر بالضرورة عن

الجنسيات الحقيقية. المصادر التاريخية سجلت التردد الكبير والنشيط لهؤلاء التجار على مختلف المدن الساحلية الجزائرية. Nobert Bel Ange يذكر مثلا استنادا إلى الأرشيف والسجلات الإدارية المحفوظة بفرنسا بأن مدينة مستغانم لوحدها كان يتردد عليها بشكل شبه دائم عدد من العائلات التجارية اليهودية الثرية في القرن 14م. ذكر من بينها: Malequi Salomon وهو ينتمي إلى عائلة "مالكي" المعروفة التي استقرت بتلمسان أثناء العهد العثماني والعهد الاستعماري، وانتقلت بعض فروعها إلى مدن جزائرية أخرى، وHayoun Ben Mose Ben Esarde، وHaron Ben Haron اليهودي الرأسمالي الثري،[144] وكانت تربط هؤلاء بالمدينة المذكورة روابط تجارية وطيدة.

ساعدت التناقضات والعداوات والحروب الدينية المتواصلة بين المسلمين والمسيحيين منذ القرن 14م التجار اليهود على القيام بدور الوسطاء بفضل إجادتهم لاستغلالها وللتظاهر بالحياد. فتمكنوا من التوغل التجاري في عمق الضفتين المتوسطيتين، وهو الأمر الذي كان صعبا على المسلمين الذين كانوا عرضة للهجمات والمضايقات المسيحية عند اقترابهم من الضفة الشمالية للمتوسط، وصعبا أيضا على المسيحيين الذين لم يكن ممكنا لهم تجاوز في أفضل الظروف بعض الموانئ المحدودة مثل "حنُين" و"مستغانم" أو "تنس".[145] من بين الريوع التي تحصل عليها التجار اليهود من التظاهر بالحياد في الصراع المسيحي – الإسلامي حصولهم على الامتيازات الاستثنائية لممارسة نشاطهم التجاري من طرف الملوك المسيحيين، مما دعم قدراتهم التفاوضية والتنافسية في الأسواق الدولية والمحلية. لكن مثل هذه الامتيازات لم تكن بمتناول كل اليهود بل انحصرت في بعض أغنيائهم وأكثرهم نشاطا وتكيفا مع الظروف السياسية– الأمنية الصعبة. هؤلاء الأغنياء تمتعوا في القرنين 14و15بحماية حكام "كاتالونية" و"مايورقة" في الوقت الذي طرد فيه أغلبية اليهود إلى المغرب العربي.

في سنة 1359 – حسب Nobert Bel Ange[146] – منح Pierre 5 le cérémonieux لكل يهود البلاد الإسلامية حق حرية التجارة مع مايورقة بصفة مطلقة ..، وأعطى كل التسهيلات ليهود الجزائر(Bèrbèrie) للاستثمار أو التجارة بالباليار. لكن ابتداء

من 1375م بدأت حملة مطاردتهم ونهب ممتلكاتهم وبلغت ذورتها سنة 1391 حيث اضطر يهود إسبانيا إلى الفرار إلى عدة مدن جزائرية خصوصا إلى تلمسان عاصمة بني زيان آنذاك الذين أحسنوا استضافتهم وإكرامهم. ومع ذلك لم تنقطع روابطهم نهائيا بإسبانيا بحيث سمح المجلس العام لبالما (Palma) في سنة 1416م ليهود مملكة تلمسان بالاستقرار والإقامة بهذه الجزيرة لغايات اقتصادية. وبقوا لذلك مترددين، في حركة دائمة، على العالم الإسلامي والجزيرة الإيبيرية، ومترددين كذلك في اختيار مكان إقامتهم الدائمة واستقرارهم النهائي بسبب المخاطر المرتفعة في المنطقتين على أمنهم وتجارتهم. فاستمروا على هذه الوضعية المؤقتة حتى الطرد النهائي لهم سنة 1492 حيث لم يستمر في النشاط التجاري مع إسبانيا سوى أقلية صغيرة سمحت لها تحايلاتها وبعض الامتيازات بالبقاء.

لما انخفض التوتر والمواجهات العسكرية النابعة من الحقد الديني المسيحي، بين المغرب العربي وجنوب أوربا وانفرج الوضع نسبيا بفضل التوازن النسبي الذي أحدثه رد الفعل القوي للبحرية الجزائرية على الاعتداءات المسيحية، مما أدى إلى تحفيز المبادلات التجارية وإعادة تنشيطها بين الطرفين، كان اليهود قد بدأوا يتأقلمون مع الأوضاع الدولية الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية الجديدة، خصوصا هؤلاء الذين حققوا ثروات هائلة وتراكم كبير لرؤوس أموالهم التجارية والمالية من خلال تعايشهم حتى مع الأوضاع الصعبة السابقة.لقد أصبحوا أكثر من غيرهم قدرة على الاستحواذ في المستقبل على الدور الطلائعي التجاري في حوض المتوسط عامة وفي الجزائر بصفة خاصة بفضل هذه الرساميل وبفضل خبرتهم الواسعة أيضا في هذا المجال وشبكاتهم المتكاملة المتضامنة التي صمدت حتى في أقسى الظروف الأمنية.[147] وكان من الطبيعي أن يستحوذوا على مثل هذا الدور التجاري القوي ليس فقط لإمكانياتهم المادية، المالية والتقنية، بل كذلك لماكيافيليتهم اللامحدودة التي منحتهم أفضليات وريوع سياسية واقتصادية دعمت أكثر قوتهم التنافسية منذ نهاية القرن 16 م. فمثلا استفاد التجار اليهود من غنائم البحرية الجزائرية التي كانوا المتاجرين الرئيسيين بها وحققوا منها أرباحا

طائلة فضلا عن السمعة والمصداقية السياسيتين التي اكتسبوها لدى الأمم المسيحية من المتاجرة بالعبيد والأسرى المسيحيين والتي كانوا يصورونها لهذه الأمم على أنها مساعدة لهم على عتق وتحرير رقابهم... وبلغت الماكيافيلية ببعضهم إلى حد التخلي عن الديانة اليهودية عندما احتل الإسبان وهران حفاظا على مصالحهم وروابطهم التجارية – المالية معهم. Jacob Sasportas كان هو وابن أخت Jacob Cansino le sage أحد أبرز التجار اليهود الذين كفروا بدينهم من أجل المصالح التجارية على التوالي في سنتي 1650 و1669م.[148] كذلك عندما حرر المسلمون مدينة وهران انقلب اليهود من جديد ضد الإسبان مع المسلمين واستحوذوا على أهم الاحتكارات التجارية بها بالتنسيق مع يهود مدينة الجزائر وجبل طارق والباليار وليفورن والمشرق...

نهاية القرن 16م في الجزائر كانت بداية لمرحلة جديدة عرف خلالها اليهود فترتهم الذهبية تجاريا وماليا وسياسيا، وبلغ أثناءها نفوذهم بالبلاد حدا أدهش الرحالة والدبلوماسيين الأجانب على غرار الأمريكيين James Cathcart وWilliam Shaler والفرنسي Devoize والإنجليزي Falcon ...

2) دور اليهود في التجارة الدولية في حوض المتوسط وفي التجارة الخارجية الجزائرية منذنهاية القرن 16م:

رغم الاضطربات التي عمت في حوض المتوسط منذ نهاية القرن 15وحتى بداية القرن 17م حافظ اليهود بصعوبة على حد أدنى من الحضور في التجارة المتوسطية وعرفوا كيف يستفيدون اقتصاديا من التشتت الجغرافي لإخوانهم اللاجئين من الأندلس، بحيث وظفوهم في الهياكل التجارية المنتشرة في شمال إفريقيا وجنوب أوربا، من وهران وتلمسان ومستغانم والجزائر وقسنطينة، إلى تونس وطرابلس، وليفورن والمشرق ومرسيليا... ثم ساعدهم على النجاح أكثر الانفراج السياسي النسبي واستقرار وتيرة الصراع الإسلامي المسيحي منذ نهاية القرن 17م. فجعلوا من ليفورن ومرسيليا ومدينة الجزائر "مثلثا تجاريا ذهبيا" ومحورا رئيسيا لنشاطهم التجاري المتوسطي الذي كان آنذاك يشكل ليس فقط الهيكل الأساسي للتجارة المتوسطية؛ بل وأيضا أحد الأقطاب الكبرى للتجارة الدولية في ذلك الوقت. وبلغوا من القوة والنفوذ التجاريين ما جعل

السلطات الفرنسية تطردهم من مرسيليا متذرعة بحجة "تواطئهم" مع "...قرصنة شمال إفريقيا وأعداء الحكومة..."،[149] عندما أحست بخطر منافستهم يضايق ويعرقل مصالحها في مطلع القرن 18م. ولم تعهد فتح هذه المدينة في وجه المؤسسات اليهودية التجارية إلا في سنة 1813.[150] ويمكن القول على العموم بأن مختلف السلع والبضائع من ماشية وحبوب وتوابل وأصواف وقطن وريش النعام وذهب وفضة وعبيد وأسلحة وغيرها لم تكن تعبر حوض المتوسط في أي اتجاه كان إلاّ عبر القنوات التجارية اليهودية أساسا، خصوصا منذ منتصف القرن 18م.وتذكر المصادر التاريخية أنه حتى المحاولات الفردية التي قام بها بعض التجار المسلمين الناجحين من أجل المشاركة في التجارة البحرية الجزائرية تم إفشالها. والتاجر المعروف باسم: إبراهيم، يعتبر خير مثال على ذلك، بحيث بلغت تجارته حتى جزر المارتينيك (Les Martiniques) ونجح في ربط وتوطيد علاقات قوية مع أهلها وكسب ودهم وصداقتهم، لكن حاكم هذه الجزر، الفرنسي، طرده منها، وذهبت شكاويه واحتجاجاته إلى ملك فرنسا أدراج الرياح. هل فشل إبراهيم بسبب دينه الإسلامي أم بسبب ضغوط ما على حاكم المارتينيك ولدى الملك لإزاحته من المنافسة التجارية؟ المؤرخون يجمعون على اشتهار التجار الجزائريين المسلمين بالإخلاص والوفاء والأمانة ...[151]

كان الجزائريون المسلمون جد نشطين في المجال التجاري، لكنهم لم يتمكنوا من منافسة اليهود لأن الحكام يفضلون التعامل مع اليهود ومساندتهم بدلا من المسلمين، وربما لو سُمح لهم بما سمح به لليهود لما بقي الاقتصاد الجزائري تحت رحمة هؤلاء واحتكاراتهم في أواخر عهد الإيالة ولما وصلت البلاد إلى الاحتلال.

إذا كانت التجارة البحرية قد بلغت آنذاك مستوى قياسيا ، فإن التجارة عبر الصحراء بواسطة القوافل شهدت انكماشا معتبرا بالمقارنة مع وضعها فيما بين القرنين 13م و15م، لأن توسع الأولى تم على حساب الثانية لعدة عوامل سياسية واقتصادية وجيو استراتيجية سبقت الإشارة إليها. فأدى توسّع التجارة البحرية المتوسطية بيهود الصحراء إلى الإقبال التدريجي على الشمال خصوصا وأن الأسواق عرفت نموا كبيرا بالمدن الساحلية منذ بدايات الحكم

العثماني. هذا التطور التجاري الهام الذي شهدته الجزائر في هذه الفترة سمح للمسلمين الأهالي أيضا بأن يمسكوا بنسبة هامة من هذه التجارة، كما انفتح المجال حتى لنشاط بعض القناصل والسفراء الأوربيين تجاريا.

لم تكن التجارة عبر الصحراء تسير بشكل اعتباطي أو عفوي، بل كانت خاضعة لنظام محكم ودقيق ومكتمل يشمل جميع مراحل حركة السلع من الأسواق المصدرة إلى الأسواق المستوردة حيثما كانت. وتجمع بين هذين المركزين تلك القناة الديناميكية المتمثلة في الوسطاء والخبراء التجاريين وأعوانهم وقوافل الجمال والمحطات الصحراوية الوسيطية والشبكات الإعلامية التي توفر المعلومات والمعطيات الضرورية للسير الطبيعي للعملية. التجار اليهود الجزائريون كانوا أيضا من أبرز وأقوى الوسطاء المحركين لهذه التجارة على طول هذه القناة ولعبوا دور همزة الوصل بين الشبكة التجارية الصحراوية أو"القارية" والشبكة التجارية البحرية، علما بأن الروابط الديناميكية بين بلدان شمال المتوسط وشمال المغرب العربي والهوامش الصحراوية الشمالية والجنوبية جد ضرورية للسير الأمثل للمصالح التجارية والاقتصادية هذه بالنسبة للجميع. اليهود تفوّقوا في فترات عديدة على المسلمين لأن طموحاتهم كانت تتجاوز طموحات تجار القوافل المسلمين ومراكز ثقلهم لم تنحصر فقط في الجزائر بالصحراء بل كانت موزعة بين مرسيليا وليفورن ومدينة الجزائر.[152]

تجارة القوافل العابرة للصحراء التي أصبحت في هذه الفترة مختلطة إلى حد كبير بين اليهود والمسلمين كانت تتم حسب محور شمالي – جنوبي، ينطلق من مختلف المدن الشمالية – حسب أرزقي شويتام[153] إلى متليلي في الجنوب ومن هناك تنقلها قبائل الشعانبة لتوصلها إلى أسواق المنيعة، ومن هذه الأخيرة يحملها رجال التوارف والخنافسة إلى تومبوكتو عاصمة مالي آنذاك. محمد دادة[154] يذكر أيضا بأن نسبة معتبرة من تجارة القوافل هذه كانت تتم داخليا بين قسنطينة وتلمسان ووهران ومستغانم ومعسكر والجزائر وغرداية وتقرت وتوات ...الخ. فكانت القوافل مثلا تنقل بواسطة اليهود من الجزائر إلى قسنطينة الحرير، والنسيج، والأقمشة، والمصابيح والخردوات الأوربية، وشاركهم في

النشاط على هذا المحور التجاري حتى المسلمين وبعض الأوربيين، ولو بشكل ثانوي، من المقيمين بالجزائر بسبب مهامهم الدبلوماسية بها وقد امتد نشاط بعض هؤلاء القناصل إلى محاور تجارية أخرى ومدن أخرى. Nobert Bel Ange أشار هو الآخر إلى طرق تجارية اشتغل بها اليهود، وهي طرق غير الطرق التقليدية المعروفة مثل المحور: مستغانم– إفكان – معسكر – تلسمان – الجنوب الجزائري، والمحور: معسكر – الجنوب والصحراء مباشرة.[155]

أما السلع المتبادلة فهي معروفة وتتمثل آنذاك في : العاج، العبيد، ريش النعام، gommes، الجلود التبر، والذهب .. في الاتجاه :جنوب – شمال. وأنسجة القطن (cottonades)، الشاي، السكر، الزيوت، التوابل أو البهارات، التمور، الأقمشة الصوفية و الحريرية، الحبوب، الشحوم، المصنوعات الأوربية وغيرها في الاتجاه :شمال – جنوب. منها ما يوزع داخل الجزائر ومنها ما ينقل إلى مالي والنيجر وحتى إلى السينغال.[156] ونشير إلى أن تجارة ريش النعام كانت قطاعا محتكرا في جميع مراحله من طرف اليهود لأنه تابع أكثر من أي قطاع آخر إلى الأسواق الدولية الأوربية حيث كان الطلب على ريش النعام في أعلى مستوياته وأقصى رواجه، وحيث النفوذ اليهودي والقوة التنافسية اليهودية أقوى بفضل يهود الشتات المنتشرين في كل مكان واقتصاديات السلم (Economie d'Echelle) الناتجة عن الإحتكار اليهودي لهذه التجارة، مما يجعل أسعارها عند اليهود جد تنافسية. مدينة ليفورن الإيطالية كانت أبرز مركز لإعادة توزيع ريش النعام القادم من الجزائر في العالم المسيحي بدون منازع.[157] ويذكر محفوظ قداش أيضا بأن التجارة الخارجية للصوف كانت هي الأخرى محتكرة من طرف "مقدم" اليهود رسميا مقابل دفعه نسبة 2% للإيالة كحقوق جمركية.[158]

أ – الرسوم الجمركية والضرائب:

لم نكن لنتناول هذا الموضوع بالإهتمام لولا مبالغة البعض، عن قصد أو عن جهل، في ما وصف بالإبتزاز الرسمي للسلطة العثمانية بالجزائر ليهودها بواسطة الرسوم الجمركية والضرائب التي، كما يقولون ، تفوق تلك المفروضة على بقية التجار وعلى غير اليهود عامة داخل البلاد أضعافا.

يقول مؤلف: Les Juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire[159] بأن التجار اليهود في الجزائر كانوا خاضعين لرسوم استثنائية عنصرية (discriminatoires) قدرها بـ 12،5 %، بينما لم تفرض على الأوربيين في المقابل سوى نسبة 5% . لكن ما لم يوضحاه، وهو الأهم، هو أن الرسوم في العهد العثماني كانت نوعين : الرسوم الخاصة بالأوربيين وهي منخفضة على العموم لتشجيع الواردات القادمة من أوربا والضرورية للإيالة ..، ورسوم خاصة بأهل البلاد مهما اختلفت دياناتهم وأصولهم العرقية؛ بمعنى أن نفس الرسوم التي فُرضت على اليهود كانت هي نفسها مفروضة أيضا على المسلمين، ولو أن بعض الظروف الاستثنائية النادرة والعابرة خلقت بعض التفاوتات الطفيفة الظرفية في نسبتها بين اليهود والمسلمين.[160] فالحكم إذن بالعنصرية على النظام الجمركي من طرف الكاتبين يعتبر حكم اعتباطيا وغامضا لأنه لا يوضح بأن ما كان مفروضا على اليهود كان مفروضا كذلك على المسلمين، وهذا موقف غير معقول من طرفهما وفيه إساءة واضحة لتاريخ الجزائر في العهد العثماني الذي يبدو أن هناك إصرار منظم على تشويهه إذا ما تصفحنا مختلف المولفات اليهودية في هذا المجال خصوصا من طرف يهود الجزائر الذين اختاروا الرحيل سنة 1962 .

قيمة هذه الرسوم الجمركية نفسها غير محددة بدقة بحيث يوجد تضارب في الأرقام حولها، خصوصا الرسم المتعلق بالواردات، وتتراوح نسبته حسب المصادر من 10% إلى 12.5% كأقصى حد.

ر. حيون وب. كوهين اللذان قدّرا نسبة الرسوم على الواردات بـ 12.5% وحصراها في التجار اليهود فقط، يتراجعان في موضع آخر من كتابهما عندما ذكرا بافتخار أن اليهود في الجزائر "لم يكونوا يدفعون سوى 1/3 التعريفات الجمركية الرسمية ...".[161] (؟) وهذا معناه أنهما يقولان في نفس الوقت بأن اليهود لم يكونوا يدفعون سوى 4.16% على السلع التي كانوا يستوردونها من الخارج إلى الجزائر.

يحدد موريس إيزنبث نسبة الرسوم على الورادات بـ10% فقط.[162] Nobert Bel-Ange يميل إلى النسبة الأولى السابقة الذكر.[163] الأمريكي William Spencer يؤكدها ويقول بأن قيمتها 12.5% في كتابه Algiers in the Age of the Corsairs .[164]

أرزقي شويتام يتبنى موقف إيزنبث حيث ذكر بأن "المواطنين الجزائريين مسلمين ويهود (كانوا) يدفعون 10% كرسوم جمركية من قيمة الواردات بينما الأوربيون 5% فقط ...".[165] لكن ناصر الدين سعيدوني المختص في تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية يعطي في كتابه "النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني" رأيا مغايرا بترجيح نسبة 12.5% مع إشارته إلى التغييرات الطفيفة التي تطرأ بشكل ظرفي أو تنتجها ديناميكية موازين القوى في البلاد أو على المستوى الدولي، والامتيازات الممنوحة من طرف الإيالة.[166]

مهما كانت نسبة هذه الرسوم على الواردات، المهم أنها لا تدل على أي تمييز عنصري أو ديني تجاه اليهود لأن المسلمين كانوا يدفعون إلى الإيالة نفس القيمة على وارداتهم.

حيون وكوهين لا يذكران في كتابهما سوى الرسوم على الوادرات. هل اقتصر نشاط اليهود على الواردات فقط؟ بالطبع لا. لكن التطرق إلى الرسوم على الصادرات لا يخدم صورة "اليهودي الضحية" التي يُرادُ ترسيخها في الأذهان، لأن هذه الرسوم كانت صورية ولا تتجاوز نسبة 2.5% من الصادرات بإجماع جميع المؤرخين بما فيهم ناصر الدين سعيدوني وW.Spencer[167]، وقد سمحت لليهود بتحقيق معدلات ربح تقدر بـ : 400%[168] دون الالتزام في المقابل حتى بدفع هذه الرسوم على الأقل، رغم بساطتها، إذ كانوا يتحايلون عادة على النظام والمؤسسات الضريبية من أجل التهرب من الدفع كلما سنحت الفرصة.

اليهود ملؤوا كتبهم احتجاجا على "جور" و"إجحاف" السلطات العثمانية تجاههم في المجال الضريبي عامة، غير أنهم كانوا أكبر المتهربين من الالتزام بها سواء عن طريق الرشوة أو مختلف التحايلات والتزوير. وقد وجدوا في ضعف وفساد الإدارة العثمانية والتردي الأخلاقي للإنكشارية أرضا خصبة لتحقيق أغراضهم. اتخذ التزوير عدة أشكال مثل تزوير وثائق الهوية، أو جوازات السفر، وانتحال أسماء أوربية، مما جعل التاجر اليهودي يمتلك عدة أسماء في مختلف الموانئ والمراكز التجارية المتوسطية، كانت كلها جد شائعة وعادية في الأوساط التجارية اليهودية. كما تحايل اليهود على القوانين بالاشتراك في أعمالهم وصفقاتهم مع التجار الفرنسيين مثلا، مثل عائلة Manduel

المرسيلية، كي لا يدفعوا حقوق الجمارك لا في الجزائر ولا في فرنسا، بحيث ينسبون الصفقة في الجزائر إلى الفرنسي لأن الفرنسيين كانت لديهم امتيازات خاصة في الجزائر، فضلا عن أن المتاجرة باسم الشريك الفرنسي بالجزائر تعني دفع 5% فقط بدلا من 12.5% كرسوم جمركية على الواردات ، كأقل شيء يمكن تحقيقه من هذه الشراكة.أما في فرنسا فإنهم يستفيدون بفضل شريكهم من التسهيلات الجمركية والجبائية المختلفة بالموانئ الفرنسية، ومن الامتيازات الظرفية التي كانت تُمنح ليهود الجزائر أثناء تحسن العلاقات الجزائرية – الفرنسية. وهذا بطبيعة الحال في حالة ماإذا تم احترام القوانين وعدم اللجوء إلى الرشوة للقفز عليها والتهرب من الدفع وتحويل أموال الجباية بالتالي من خزينة الدولة إلى حساباتهم الخاصة، وقد طالت الرشوة اليهودية حتى كبار رجال الدولة والإدارة العثمانية في الجزائر وكذلك كبار المسؤولين الفرنسيين.[169] بحيث كان للداي مصطفى الوزناجي مصالح تجارية ومالية مع نفطالي بوشناق مثلا، فضلا عن مصالح الخزناجي، والرشاوى التي كان يتلقاها مسؤول الميناء من اليهود حسب شهادة الأمريكي، كاثكارت، كما كان القنصل الفرنسي دوفال من أكبر عملاء اليهودي بكري وشركائه في التجارة والدسائس والمؤامرات.

أثناء الأزمات المالية التي كانت تشهدها السلطة في الجزائر بعد أن تدهور اقتصاد البلاد منذ نهاية القرن 18م لجأ الدايات والبايات إلى الزيادة في نسب الضرائب والرسوم من أجل تمويل نفقات الدولة ولم تقتصر هذه الزيادات على فئة دون أخرى وعلى مجموعة عرقية أو دينية معينة بل مست الجميع وعانى منها الجميع دون استثناء. ولا يجب أن ننسى بأن أغلب صراعات القبائل في داخل البلاد مع السلطات الرسمية في أواخر العهد العثماني، لعب الظلم والإجحاف الضريبيين دورا معتبرا في تحفيزها.. وتحولت بعض هذه الصراعات إلى انتفاضات شعبية وعصيان هددا استقرار البلاد ووجود السلطة العثمانية على غرار ثورتي بن لحرش وبن شريف.وتعتبر هذه الظاهرة عادية بالنسبة لأي دولة تكون في مرحلة الانحطاط والاحتضار لأن الانحطاط يكون اقتصاديا أيضا وبالتالي ماليا واللجوء إلى رفع الجباية الضريبية يصبح ضرورة لا مناص منها أمام ضيق الامكانيات المالية لتمويل تسيير البلاد.

ومع ذلك طُبِّقت على اليهود بعض الإجراءات الاستثنائية ليس من باب الاحتقار الديني أو العرقي بل كانت لمثل هذه الاستثناءات الطارئة مبرراتها الخاصة في غالب الأحيان.

كان اليهود إذا أرادوا القيام بصفقات ضخمة ومربحة يخشون عرقلتها من طرف الحكام لسبب أو لآخر سواء كان قانونيا أو سياسيا أو غيره ..، يسارعون، خصوصا أثناء الضائقات المالية للدولة، إلى إغداق الهدايا العينية والنقدية المغرية للدايات لشراء مساندتهم ودعمهم وإلى تقديم مختلف المساعدات المالية والقروض للدولة تقربا منها وتدعيما لروابطها بمسؤولي الإيالة. هذه العملية لم تكن في واقع الأمر سوى رشوة مقنعة لنظام مهترئ من داخله. بعض الدايات كانوا على وعي بمثل هذه التحايلات، فتحايلوا هم الآخرين على بعض التجار اليهود بالرفع الجزافي للضرائب المفروضة عليهم لتعويض بعض ما أخذه هؤلاء التجار عن طريق الاحتكارات ومختلف الطرق والوسائل اللاأخلاقية من رشوة وغش وتزوير .. الخ، لإعادة بعض التوازن في عملية توزيع الثروة بين مختلف الطبقات الاجتماعية والقطاعات الاقتصادية. وعمد حكام آخرون إلى فرض العقوبات والمخالفات المالية ضدهم مباشرة لردعهم عن تجاوز حدود معينة.وفي بعض الحالات كانت تفرض الغرامات على الطائفة اليهودية ككل ويساهم جميع أفرادها في دفع حصصهم منها إلى رئيس الطائفة الذي يقدمها بدوره إلى الداي أو الخزناجي. لذلك كانت الطبقة الكادحة اليهودية تذهب دائما في مثل هذه الظروف ضحية لسوء تصرف أثرياء الطائفة وزعمائها وتدفع فاتورة أخطاء لا علاقة لها بها.

الصعوبات المالية للدولة الجزائرية في العهد العثماني في أواخر عهدها دفعتها بسبب سؤ تسييرها للبلاد ولإمكانياتها الاقتصادية إلى إجبار الأغنياء بمختلف أعراقهم وأديانهم على تقديم يد المساعدة للخزينة بأموال وهدايا، وهبات، وترضيات للمسؤولين الكبار في الدولة. لكن فساد التسيير السياسي والمالي وفساد النظام ككل مختلف إطاراته وأقطابه سمح لبعض الدايات والمحيطين بهم من كبار المسؤولين بتحويل الأموال إلى حساباتهم الخاصة وحتى بابتزاز الشعب بزيادة حجم الضرائب حتى بطرق غير رسمية، دون ذكر تجاوزات القائمين على

الجباية الذين كانوا يقومون بعمليات احتيال وسرقة منظمة في حق المواطنين المسلمين، خاصة، واليهود بتواطئ من كبار المسؤولين.

هذا هو الإطار الذي كانت تقوم فيه مثل هذه التجاوزات من طرف السلطة تجاه اليهود ولا يمكن تفسيرها أو تصويرها "بالمعاداة لليهودية" كما يفعل بعض المؤرخين. كما أن هذه الظاهرة في حد ذاتها لم تكن تحدث لليهود سوى كاستثناءات حتى في عز الأزمات المالية والغذائية. في مدينة الجزائر مثلا يذكر عبد القادر حليمي فيما يخص الضرائب اليهودية بأن "... الدخل من جماعة اليهود سنة 1789 انخفض عما كان عليه سنة 1755، إذ كانت تعوضه الهدايا الشخصية، فزادت في نفوذهم وقلّت عنهم الضرائب الرسمية"[170]. مع العلم أن سنة 1789م تتوافق مع سنوات الانطلاقة القوية لبعض الشركات اليهودية على غرار شركة بكري- بوشناق حيث تحصلت هذه الأخيرة مثلا على امتياز تصدير القمح إلى فرنسا على مدى عدة سنوات حقق لها ثروات ضخمة، وذلك بمساعدة الداي حسن باشا والداي مصطفى باشا.

الارتفاع الكبير لمداخيل كبار التجار اليهود من صفقاتهم التجارية في البلاد وخارجها أدى بطبيعة الحال إلى دفعهم أحجاما أكبر من الضرائب تتناسب مع ثرواتهم على غرار ما كان معمولاً به مع المسلمين. وتعتبر هذه العملية مجرد تقنية عادية تعتمدها جميع السياسات المالية في إطار عملية إعادة توزيع الدخل القومي وتقليص التفاوتات الطبقية.[171]

هذا إذن كل ما يتعلق بالأمر في ما يخص "الإجحاف" الجبائي من رسوم وضرائب في حق اليهود الذي احتج عليه كل من Ayoun و Cohen و Chouraqui و Eisenbeth و George Virebeau و Hanoune وغيرهم. فهو لم يحدث سوى في حالات نادرة استثنائية، وفي مرحلة استثنائية كذلك هي مرحلة الانحطاط والضعف التي سادت فيها الفوضى ومختلف الآفات الاجتماعية والسياسية والانحرافات الاقتصادية وكثر فيها التطفل السياسي-المالي، ودون أي طابع عنصري أو عدائي تجاه أي فئة من فئات الشعب نظرا لشمولية هذا "الإجحاف" للجميع.كبار التجار اليهود كانوا أحسن حالا من اليهود الكادحين ومن المسلمين لأن الاحتكارات الكبرى، والامتيازات، واقتصاديات السلّم الناتجة عن اتساع

شبكاتهم التجارية وتضامنهم القوي، ومختلف الريوع السياسية في الداخل والخارج عوضتهم أضعاف ما كانوا ينفقونه على الجباية ولم يتضرروا في الواقع من إجراءات الحكام الاستثنائية كما حدث لبقية المواطنين.

هذه المجموعة من الكتاب والمؤرخين كانت انتقائية كثيرا في سردها للوقائع التاريخية بحيث بالغت في التركيز على تضخيم كل ما يمكنه إثارة العطف على اليهود وكأن وجودهم في الجزائر لم يكن سوى "ظلم" و"جحيم". حسب هؤلاء الكتاب كان اليهود في الجزائر ملائكيين ومعصومين من الخطأ، رغم أن مختلف المصادر التاريخية تؤكد أن تصرفات بعضهم أدت إلى اضطرابات وأحداث خطيرة في البلاد في الكثير من الأحيان وأن المسلمين كانوا وحوشاً مفترسين. ومع ذلك لم يعيشوا في الجزائر المعاناة التي عاشوها في أوربا آنذاك ... وحتى عندما تورط عدد كبير من اليهود مع الاستعمار وإرهابيي المنظمة المسلحة السرية (OAS) لم يحاسب أي يهودي بذنب الآخر وبقيت الجزائر التي قلبت صفحة الماضي تطالب بيهودها عند اقتراب موعد الاستقلال وتترجاهم بالبقاء باعتبارهم مواطنين جزائريين من أقدم أبنائها.

ب ـ اليهود في أوربا:

عندما كان اليهود في الجزائر يجالسون البايات والدايات ويشاركون في النشاط الاقتصادي والسياسي في الجزائر ويتمتعون بحكم ذاتي داخلي ويمارسون جميع حقوقهم كجزائريين، كان إخوانهم في أوربا ممنوعين من الإقامة في مدن بأكملها ومجبرين على دخول بعضها لقضاء حاجياتهم في أوقات محددة لا يسمح لهم بتجاوزها، وفي بعض البلدان كفرنسا مثلا منعوا حتى من دفن موتاهم واضطروا إلى مواراتهم في أي بقعة من التراب ليلا خشية من العقاب.

عندما دخل اليهود إلى بريطانيا، ".. استقبلوا بالترحيب والارتياح من طرف البريطانيين، لكن مع الوقت، يضيف محمد حسين عبد الرحمن، أثار سلوكهم مخاوف (أهل البلاد) إذ عمدوا إلى الربا الفاحش وتقليل قيمة النقود الذهبية والفضية باقتطاع جزء منها.."،[172] فأحدثوا أضرارا كبيرة بالنظام النقدي والاقتصاد البريطانيين. و"لما اكتشفت الحكومة هذه السرقات، حسب الكاتب، عاقبهم الملك جون (يوحنا) سنة 1230م وأمر بأن يدفعوا إلى الخزينة ثلث 1/3

أموالهم المنقولة .. وعندما تولى الملك إدوارد عرش بريطانيا سنة 1272م، مارسوا الربا الفاحش على نطاق واسع وبدأوا في رهن أراضي المدنيين توطئة للاستيلاء عليها، لكن الملك حرصا على أموال الشعب أصدر مرسوما ملكيا يعاقب من يقترف جريمة الربا، ومنع عملية ارتهان الأرض ..."[173]. لكن اليهود تحولوا من جديد إلى سرقة العملة وإنقاص وزنها، فقضت المحكمة على إثر تحقيق بأمر الملك سنة 1281م ".. بإعدام 200 يهودي لتلاعبهم بمصائر الشعب وتآمرهم على الدولة ".[174] لكنهم لم يرتدعوا، فأمر الملك إدوارد بطردهم من بريطانيا سنة 1290م في مهلة 90 يوما. الشعب البريطاني لم يطق تحمل وجودهم على أرضه أكثر مما فات فلم يمهلهم وهاجمهم بعنف، وقتل منهم 500 يهودي في البيوت والشوارع وفي قلعة York التي احتمى بعضها بها. لذلك سارع الملك إلى تنفيذ عملية الطرد قبل أن يفلت الأمر من يده، وتم له ذلك.

وتراوحت التقديرات لعدد المطرودين بين 15000 يهوديا كحدّ أدنى، وأكثر من 1,5 مليون يهودي كحدّ أقصى ورد في روايات حديثة نسبيا. وقد وقعت هذه الكارثة بعد استقرار لهذه الطائفة دام قرنين وربع قرن، بدأ يتزعزع إثر انتشار نشاطها الربوي انتشارا كبيرا ليس في أنجلترا فحسب، بل في كامل أوربا، تزامن مع ظهور القومية الأنجليزية من جهة، والشائعة الشهيرة في عام 1255م المتعلقة بخطف الصبي "هيُو لنكولن" واستعمال دمه بعد قتله في الطقّوس الدينية اليهودية. وسوف تبقى آثار هذه الأحداث مترسخة في الذاكرة الجماعية الأنجليزية، بحيث امتدت حتى إلى الأدب الأنجليزي كما تؤكّد ذلك مسرحية "تاجر البندقية" لويليام شكسبير في القرن 16م.[*]

اليهود لم يعودوا إلى بريطانيا إلا بعد حوالي ثلاثة قرون على عهد كرومويل Cromwell مقابل رشاوى، حسب بعض المصادر، ليسمح لهم بالعودة إلى بريطانيا، واستقروا بها تدريجيا حتى بلغوا نفوذا كبيرا في نظامها السياسي والاقتصادي مازال مستمرا إلى اليوم.

من إسبانيا طرد اليهود سنة 1492م بمرسوم 1492/03/31 بعد أن أعطيت لهم مهلة تمتد من هذا التاريخ حتى جويلية من نفس السنة لنفس الأسباب تقريبا إضافة إلى الحزازات الدينية القديمة بين المسيحيين واليهود وخلافات

الحاخامات والإكليروس التي كانت سببا مباشرا في إشعال فتيل الاضطرابات الكبيرة المعادية لهم من طرف الشعب الإسباني والتي انتهت بالطرد النهائي لهم ومصادرة أملاكهم في خضم أحداث سقوط الأندلس. بعد هذه الأحداث بفترة وجيزة عادوا إلى إسبانيا تدريجيا كتجار في البداية ثم كمقيمين وكمواطنين في أوقات لاحقة.

أما في روسيا فقد قُتل اليهود وطردوا سنة 1881 بسبب اغتيالهم للقيصر – حسب محمد حسين عبد الرحمن– مما أثار ردود فعل عنيفة اتجاههم من طرف الشعب، كما تعقدت وضعيتهم بعد انكشاف الوثيقة المعروفة بـ "بروتوكولات حكماء صهيون" على يد العالم الروسي Nylus في مطلع القرن 20م إلى أن جاءت الثورة البلشفية سنة 1917 التي أعادتهم إلى مواقعهم القوية داخل المجتمع الروسي والسوفياتي ككل. غير أن قضية "البروتوكولات" بقيت غامضة ولم يُحسم في صحتها حتى الآن، رغم أن أغلب الآراء تميل إلى اعتبارها مجرد مؤامرة حبكتها المخابرات الروسية المعادية لليهود لتبرير طردهم.

حدثت نفس السيناريوهات تقريبا في فرنسا بنفس النتائج والإفرازات الدرامية، إذ طردوا منها على عهد لويس أوقيست بعد أن أضروا باقتصاد البلاد، لكن بعد وفاته رجعوا إليها وأوقعوا الشعب تحت نير ديونهم في عهد لويس التاسع الذي واجههم بإلغاء ثلث(1/3) هذه الديون وحرق كتب التلموذ ومنع تداولها "للمخازي" الواردة فيها. ثم ثار الشعب ضدهم في عهد فيليب الجميل le bel Philippe، واستمر ذلك حتى 1341 حيث قُتلوا وذُبحوا، وفي سنة 1334 يقال أنه لم يبق يهودي واحد بفرنسا. الثورة الفرنسية أعادت لهم الاعتبار بعد بضعة قرون وأدخلتهم البلاد من بابها الواسع وفاء لمبادئ الجمهورية وحقوق الإنسان..[175]

هكذا إذن عاش اليهود في أوربا، وكانوا عندما يضيق عليهم الخناق يسارعون إلى اللجوء إلى البلاد الإسلامية التي احتضنتهم، وساعدتهم على مواجهة مشاكل وصعوبات الإقامة والاستقرار من جديد، في مختلف بلدانها، على غرار ما حدث في الجزائر التي توافد عليها اليهود لاجئين في مختلف المناسبات والظروف، خصوصا في 1391 و1492، من إسبانيا، وحتى من فرنسا وأنجلترا وهولاندة وإيطاليا وجبل طارق ...الخ.

لم تكن إقامتهم في الجزائر دائما سلبية، فإنهم شاركوا في جميع جوانب حياتها إلى جانب المسلمين وقدموا لها خدمات جليلة في مقابل الدسائس والمؤامرات التي قام بها بعضهم، ولو أن الجانب السلبي طغى كثيرا أثناء فترة انحطاط الدولة العثمانية على الجانب الإيجابي إلى حد تلاعب الأغنياء وكبار التجار اليهود بالاقتصاد الجزائري وبالسياسة الخارجية للبلاد وإيقاعها في أزمات ومنازعات مع الخارج كادت أن تنتهي إلى حروب في بعض الحالات، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى ضعف الحكام وفسادهم وفساد النظام ككل.

في الأوقات الصعبة، بسبب الحصارات مثلا على البلاد، مون التجار اليهود الإيالة بمختلف حاجاتها، بغض النظر عن الأسعار التي كانت مرتفعة عن الأسعار العادية على العموم، من بضائع وسلع، كما قدموا خدمات مخابراتية وأسرار الدول الأجنبية للدايات، ولو أنهم كانوا عادة عملاء مزدوجين يقدمون أفضل الخدمات لمن يدفع أكثر، والدافع وراء هذه الخدمات لم يكن بالضرورة مصلحة البلاد في جميع الأحوال. في حالات الحصار أو المقاطعات العسكرية من طرف الأمم المسيحية مون التجار اليهود الجزائر بالأسلحة والمعدات الحربية الضرورية لمواجهة الأخطار الخارجية. تجارة السلاح في السوق السوداء كانت عملية ذات مردودية كبيرة، لذلك كانت ميدانا مفضلا من طرف اليهود رغم مخاطره العالية. مولاي بلحميسي، المؤرخ الجزائري، كتب في "الجزائر، مدينة الألف مدفع" Alger,la ville aux 1000 Canons": لقد ساعد اليهود الجزائر في تجارة الأسلحة (المدافع، البارود، والذخيرة) بواسطة شبكاتهم المختصة في التهريب مثلما فعل سنة 1682م اليهوديان الجزائريان (يعقوب الباز أم يعقوب السلام؟) و(بنيامين دو ليون) Jacob de Pas وBenjamin de Léon..."، [176] اللذان يمتلكان مركزا تجاريا بليفورن، بمساعدة يهود إيطاليين وهولنديين، خصوصا أثناء حظر الدول المسيحية لبيع الأسلحة والذخيرة للجزائريين المسلمين.

ويضيف بلحميسي بأن "الإجراءات التي اتخذت فيما وراء البحر المتوسط لم تشكل أبدا عائقا حقيقيا بالنسبة للجزائريين الذين كانت لديهم الإمكانيات للتحايل على هذه الصعوبات، فيهود ليفورن ومرسيليا يتكلفون بالعملية". [177] وكمثال على هذه العمليات لتهريب الأسلحة إلى الجزائر أثناء الحظر والمقاطعة،

يذكر مولاي بلحميسي الصفقة التي تمت سنة 1692م والتي تفطن لها القنصل Lemaire وهي تتمثل في حمولة من "150 قنطار من الكبريت en bâton" أرسلت من طرف يهود من مرسيليا إلى يهود آخرين في مدينة الجزائر.

ج – مسؤولية السلطة العثمانية في الإنزلاقات والتجاوزات اليهودية بالجزائر:

من أخطر ما كان ينتج عن الاحتكارات اليهودية للتجارة هو أن عوائدها وأرباحها لم توجه لخدمة البلاد و"مصالحها العليا"، بل كانت تذهب إلى صناديق التجار اليهود أساسا، والخواص المغاربة، والتونسيين بصفة أقل أهمية على الحدود الغربية والشرقية للبلاد. فكان الاستنزاف الاقتصادي إذن متعدد الأوجه والمصادر أيضا. فتعفن الجهاز الإداري والجبائي وانتشار الرشوة وشيوعها على مختلف المستويات سهّل على هؤلاء التجار التهرب من دفع الرسوم والضرائب الضرورية وفوّت على الدولة موارد مالية ضخمة، فضلا عن أن محتكري التجارة الجزائرية كانوا عادة إما يهودا بصفة شبه كاملة أو أجانب عن البلاد. مما أدى إلى ذهاب الأرباح التجارية إما إلى هؤلاء الأجانب أو إلى اليهود الذين حتّى وإن كانوا جزائريين فإن حق الوطن عليهم ومصلحة البلاد لم يكونا من المعايير التي يستندون إليها في تنفيذ صفقاتهم التجارية، وكانت اهتماماتهم لا تتعدى جيوبهم وخزائنهم، خصوصا إذا تعلّق الأمر بيهود ليفورن الذين كان حس أغلبهم بالانتماء إلى الجزائر شبه معدوم أومعدوم.

لكن لم يكن مثل هذا الوضع الاقتصادي المتعفن ليوجد لولا فساد النظام الحاكم وتعفن أجهزته ومؤسساته وإطاراته وأساليب تسييره لشؤون البلاد، لأن نقائص وعيوب النظام هي التي فتحت المجال أثناء انحطاط البلاد منذ القرن 18م للأثرياء اليهود للتلاعب بمصيرها وتحطيم اقتصادها. وقد كان أغلبهم آنذاك أجانب وغرباء ثقافيا وفكريا وأخلاقيا وسياسيا عن البلاد لحداثة استقرارهم بها حتى وإن تظاهروا بعكس ذلك.

ولا نكاد نجد من بين هؤلاء الأثرياء من ولد بالجزائر ونشأ بها، بل هم غالبا من ليفورن وجبل طارق ومايورقة وفرنسا.[178] ومن بين أبرز العناصر التي تبرز مسؤولية الإدارة والنظام العثماني بالبلاد في الفساد العام بما فيه إضعاف التجارة الخارجية وإنهاك قدرات الجزائر سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وتوريطها في صراعات فاسدة ومدمرة في الداخل وفي الخارج، نذكر ما يلي:

أولا: الضرائب المرتفعة والهدايا والترضيات الإجبارية التي كانت مفروضة على التجار وأضرت بالمسلمين أكثر من اليهود وأدت إلى إقصائهم من المنافسة تدريجيا في حين كان اليهود يمتلكون إمكانياتهم الخاصة بتواطؤ السلطة ومسؤوليها في مختلف المستويات لتعويض مثل هذه النفقات الإجبارية لتمويل فساد الدولة.

وبخصوص تجارة القوافل القادمة من الصحراء، لقد أدت الضرائب العالية التي فرضت عليها عند دخولها إلى مدينة وهران .. إلى توقف هذه القوافل خارج مناطق نفوذ الدولة تفاديا للدفع، مفوتة فرصا جبائية ضخمة على الخزينة. فكانت تتوقف عند المشارف الشمالية الغربية للصحراء وتُسوّق بضائعها من هناك. وهكذا خسرت الدولة كل شيء في حين كان بإمكانها تحقيق مداخيل جبائية هامة لو عقلنت فقط نسبة هذه الضرائب حتى يستفيد الجميع. وبسياستها هذه حولت هذه المداخيل إلى خزائن التجار بصفة عامة واليهود بصورة خاصة، في نفس الوقت أدى سوء تسيير الدولة للتجارة مع فاس وسجلماسة إلى تفويت فرص جبائية ضخمة وأرباح هائلة ذهبت كلها إلى تجار المغرب الأقصى.

ثانيا: لعبت الضرائب والمكوس والرسوم الارتجالية في الداخل على الأسواق عامة دورا سلبيا أدى إلى كبح التجارة الداخلية وعرقلتها، كما عرقلت أيضا سير التجارة الخارجية مع البلدان المجاورة لجنوب البلاد .

ثالثا: لسد الحاجات المالية المستعجلة والظرفية، ولغايات شخصية أحيانا، سلم الدايات منذ نهاية القرن 18 مقاليد التجارة الخارجية التي تعتبر عصبا اقتصاديا حساسا لكبار التجار اليهود وقد لعب كل من الجهل والسذاجة السياسية، وحتى الحسابات السياسية الضيّقة والتواطؤ بالنسبة لبعض الحكام، دورا معتبرا في هذا السلوك السلبي الذي أحسن اليهود استغلاله والاستفادة منه بعد أن نجحوا في سد جميع المنافذ أمام المنافسين المسلمين بفضل إمكانياتهم الضخمة ودعم الحكام سواء في الجزائر أو خارجها.[179] محاولات المنافسين المسلمين باءت بالفشل أمام هذا التضييق والمضايقات المختلفة مثلما حدث للتاجر إبراهيم في تجربته بجزر "المارتينيك". ومن نتائج

هذا التنازل عن التجارة الخارجية لليهود أن الجزائر حرمت من موارد مالية ضخمة تساوي أضعاف أضعاف ما كان يقدمه اليهود للدايات.

رابعا: تسبب انتهاج الدولة لسياسة احتكارية في ميدان التجارة الخارجية والداخلية، دون تدعيمها بالمراقبة أو بالتدخل لإعادة التوازن والتسوية والضبط، في سير التجارة عامة بطريقة اعتباطية فوضوية، بحيث لم تتجاوز وظيفة الدولة الإجراءات الإدارية الأبجدية البسيطة والضرورية كحد أدنى دون متابعة لها. كما أن التنظيمات الجمركية بقيت غير فعالة لأنها حُيّدت بواسطة الرشوة. وأبسط مثال على غياب دور الدولة لضبط الأمور وتسوية الاختلالات والمتابعة ومراقبة التجاوزات كون "أغلب القمح الجزائري الذي كان لا يفيض عن الاستهلاك المحلي إلا في بعض السنوات يصدر من موانئ وهران وأرزيو أو دلس أو عنابة، وهي موانئ قريبة من مناطق إنتاجه، وبعيدة عن المراقبة".[180]

خامسا: من الناحية السياسية، فإن قواعد الوصول إلى السلطة فقدت صفة القواعد لأن الحكم أصبح في متناول الأقوى، منذ أن وصلت الإنكشارية إلى احتكاره دون أدنى اعتبار للكفاءة والأهلية أو للحد الأدنى من أبسط شروط قيادة أي بلد ما، خصوصا منذ القرن 18. مع العلم أنه كانت تنقصهم الغيرة الوطنية لأنهم مجرد جنود غرباء أغلبهم مغامرون ومرتزقة. وحتى الحكم لا يهمهم سوى بقدرما يجمعونه من أموال لضمان معاش آمن ورغد بعد مغادرة الجزائر أحياء، إن كتب لهم ذلك، ويكفي لإعطاء تصور عن فوضى الصراع من أجل السلطة ومستوى الرداءة والتردي الأخلاقي والديني والسياسي لهؤلاء المتسابقين على لقب "الداي" أو "بابا" أو "الأفندي"، وهي ألقاب تعني نفس الشيء، أن نذكر بأن .." من بين حوالي 91 دايا حكموا الجزائر لمدة 314 سنة ..، نجد أكثر من 70 دايا كانت نهاية حكمهم القتل أو الفرار"[181] ويوجد من الحكام في مرحلة الانحطاط من لم تتجاوز فترة حكمه ثلاثة أيام. كما يوجد أيضا من بين حكام ودايات هذه المرحلة، الكنّاس "وغسّال الشوّالق"،[182] والجندي البسيط الأمي والجاهل وحتى المجرمين الذين سبق لهم أن ".. أدّبوا وأُدينوا..."،[183] كما يشهد بذلك حمدان خوجة، بمعنى أن لهم سوابق عدلية ...

همّش النظام العثماني في الجزائر في هذه المرحلة أغلبية أهل البلاد من المسلمين لأسباب سياسية مرتبطة بمسألة المنافسة على السلطة، وتعامل مع الأجانب والأقلية اليهودية، ليس كلها بل أثريائها وكبار وسطائها التجاريين، لأن منافسة هذه الفئة الأخيرة على السلطة غير واردة وغير ممكنة لا "أخلاقيا" ولا سياسيا ولا دينيا. والأخطر في الأمر هو أن نسبة هامة من حكام هذه الفترة وحتى من الذين سبقوهم تعود أصولهم إلى ألبانيا والبندقية وجنوة واليونان ليس لديهم ارتباط وجداني وثيق بالجزائر ولا غيرة وطنية كالأهالي. ورغم ذلك كان من بينهم رجال أشداء قدموا خدمات عظيمة للجزائر وصنعوا أمجد أيامها.

على العموم لقد أدى الصراع على السلطة بمشاركة التجار الكبار اليهود في الكواليس بالرشوة والضغوط لتعيين أو تنحية شخصيات معينة إلى الانشغال بالمصالح الذاتية والمجموعاتية على حساب البلاد وشعبها ومصيرها ومستقبلها. وأدى أيضا إلى ضعف السلطة وانسلاخها عن ديناميكية تطور المجتمع أمام تزايد الفوضى والانتفاضات والتمردات والاضطرابات الاحتجاجية عن الأوضاع التي آلت اليها الجزائر، وأمام الارتجال السياسي والاقتصادي – الجبائي عموما وفساد النظم بسبب غياب تصور واضح لسياسة البلاد وأهدافها تحت ظل طبقة سياسية جلفاء غير مؤهلة وجد بعض اليهود وخاصة القادمين من ليفورن الفرصة الذهبية في ظلّ هذه الظروف لنهب ثروات البلاد وإيقاع المجتمع الجزائري في سلسلة من الأزمات السياسية والاقتصادية التي كثيرا ما انتهت إلى مجاعات رهيبة وأوبئة فتاكة ومواجهات دامية جزائرية– جزائرية أو جزائرية – أجنبية كانت تحصد عشرات الآلاف من الأرواح.[(184)]

3 – يهود مدينة ليفورن (Livourne) الإيطالية:

يصف موريس ايزنبث يهود ليفورن بـ: "المرانيين" (Les Marranes). هذه الكلمة حسبه تكون قد اشتقت من كلمة (Mahram) من "الحرام" وهي كلمة عربية، أطلقت على اليهود الذين تمسحوا قهرا أو تظاهروا بالمسيحية لتفادي الاضطهاد المسيحي بإسبانيا والبرتغال إثر سقوط الأندلس ثم عادوا إلى ديانتهم اليهودية بمجرد ما هاجروا من الجزيرة الإيبيرية.من بين يهود ليفورن يوجد يهود من الجزائر أصلا أو بعبارة أدق من الذين هاجروا إلى الجزائر بعد

سقوط غرناطة. هؤلاء قادتهم ظروف معينة إلى الهجرة إلى إيطاليا ليصبحوا ليفورنيين وبقي الناس يعتبرونهم كذلك حتى عندما عادوا إلى الجزائر. محمد داده ينقل عن Fillipini بخصوص هؤلاء الليفورنيين – الجزائريين بأنه مثلا عندما احتل الإسبان مدينة وهران ثانية سنة 1669 طردوا منها اليهود بأعداد كبيرة، فهاجروا إلى مدينة ليفورن التي كانت تربطهم بها علاقات تجارية، وعائلية أيضا، منذ عدة سنوات فأقاموا بها إلى غاية القرن 18م حيث عادوا إلى وهران ما بين 1708و1723 واعتبرهم الناس هناك ليفورنيين.[185]

يهود ليفورن قدموا من مدينتهم الإيطالية العامرة بالمراكز والمخازن التجارية اليهودية إلى مدينة الجزائر في القرن 18 بعد أن ذاع صيتهم في حوض المتوسط وأوربا كتجار أقوياء وناجحين. هجْرتهم إلى الجزائر حفزتها بطبيعة الحال الفرص التجارية المربحة ومعدلات الربح المرتفعة بالإيالة. نسبة هامة منهم حطت رحالها بالمدينة الكوسموبوليتانية، الفسيفساء ديمغرافيا، (Cosmopolitaine) بغرض التجارة والمضاربة وممارسة الربا، أو النشاط البنكي، كما يحلو للمؤرخين اليهود تسمية ذلك، وبقيت مترددة في الحسم بين الاستقرار في الجزائر أو في مدينة ليفورن. وهذا ما يفسر تواجدها في المدينتين وتنقلها بينهما لفترة طويلة متتبعة لأفضل الظروف والفرص التجارية ومقتفية لآثار الثروة والأرباح المالية– التجارية حيثما حلّوا. موريس إيزنبث عندما عرف يهود ليفورن الذين سيلعبون دورا خطيرا في مصير الجزائر العثمانيـــة كتب يقول: "إبتداء من 1725، نجد في كتاب Degrammont بأن Laugier de Tassy يصنف.. (يهود مدينة الجزائر) إلى قسمين متميزين عن بعضهما البعض هما : اليهود الأهالي (ويقصد بهم التوشابيم والميغورشيم) ويشتغلون بالتجارة والمهن الصغيرة ويقيمون في الغيتو... والباقي يلقبون: اليهود الفرنك (Les Juifs Franc)، قدموا من إيطاليا وخاصة من ليفورن، حيث سمح لهم كبار دوقة توسكانيا (Les Grands Ducs de Toscane) بإنشاء مخزن للعبيد والبضائع الآتية من القرصنة. فنشأت علاقات مستمرة بينهم وبين يهود مدينة الجزائر الذين كانوا يقومون لهم بشراء الغنائم، التي يصعب تصريفها أو الغنائم غير المربحة في البلد الإسلامي. ثم جاء يهود ليفورن بأنفسهم إلى السوق (الجزائرية) في وقت

لاحق واستقروا بها، فتكونت لديهم ثروات كبيرة."[186] هؤلاء توسعوا في كامل أرجاء حوض المتوسط حيث أسسوا مراكزهم التجارية الخاصة وعينوا بها وكلاء دائمين يسهرون على مصالحهم خصوصا في شمال إفريقيا. يضيف إيزنبث بأن :"يهود ليفورن، كما يلاحظ من أسمائهم،مرانيون في الغالب... هؤلاء، وآخرون أصلهم من شمال إفريقيا، استقروا بليفورن .. ثم عادوا إلى الدول البرابرة (Etats Barbaresques) حيث لقبوا هم أيضا بـ:" الليفورنيين"، وشكلوا الطبقة التجارية الفعلية. ويؤكد Laugier de Tassy ذلك دون تردد: "هؤلاء يستحوذون على الجزء الأساسي من تجارة المملكة (أي الجزائر) سواء فيما يخص السلع أو إعادة شراء العبيد .. إنهم أحرار يُعتبرون تجارا أجانب تابعين لأمراء مواطنهم الأصلية أو للمدن التي كانوا يقيمون فيها. يهود ليفورن، هم الذين يسيطرون، بالاشتراك مع يهود مدينة الجزائر الرئيسيين، على ضيعات الزيت، والشموع، وما شابه ذلك" ...".[187]

يعود الفضل في نجاح يهود ليفورن بمدينة الجزائر وسيطرتهم على تجارتها إلى يهودي سبقهم إلى المدينة يدعى "سليمان" ويلقب بـ: "جاكيت" "Jaquéte" كان يقيم بها منذ فترة طويلة تمكن خلالها من نسج علاقات قوية مع الحكام بفضل خدماته الاستشارية والمخابراتية التجسسية لهم عن ما كان يحدث بالبلاد المسيحية. وفي الوقت ذاته كان صاحب سفن بحرية يكتريها منه البحارة الجزائريون عند الحاجة أثناء خروجهم إلى البحر لعمليات عسكرية ضد المسيحيين، وتاجر شموع، وتاجر عبيد بارز حقق أموالا طائلة من هذه المهنة التي مارسها هو وغيره من اليهود باسم مساعدة الأوربيين المسيحيين على افتداء أسراهم. يؤكد إيزنبث بأن "بيع الأسرى كان دائما مصدرا لأرباح جد جميلة ..."[188]

مداخيل اليهود من المتاجرة بالعبيد فاقت أحيانا بكثير المداخيل من التجارة العادية. "سليمان" أوولخكپزه، حسب إيزنبث، ".. استولى على قلوب القوى العظمى بحجة أنه كان مرتبطا بمصالح البايلك .. (و) كان مُفضلًا .. في كل ... شيء ..، كما كان يُنظر إليه وكأنه إحدى ركائز البلاد ..."[189] أي الجزائر. Jaquéte أو Jacket حسب كلود مارتن Claude Martin توفي سنة 1724 في سن جد متأخرة.[190]

تجارة العبيد التي كانت نشاطا يهوديا أساسا، قيل الكثير حولها من طرف المسيحيين وحتى من طرف اليهود الذين حاولوا التنصل منها وإلصاقها بالمسلمين وتصويرها على أنها نشاط من اختصاص المسلمين، بينما هم لم يزيدوا أكثر من التوسط لعتق وفدية هؤلاء الأسرى الذين استعبدوا. لقد اتُّخذت تجارة العبيد في الجزائر ذريعة من بين الذرائع الرئيسية للتهجم على البلاد والتحالف ضدها والتآمر عليها من طرف الدول الأوربية المسيحية في مؤتمر فيينا، وصورت المؤلفات الأوربية الجزائر كسجن كبير ورهيب للعبيد الزنوج والمسيحيين الذين كانوا، حسبها، يعيشون في ظروف وحشية ولا إنسانية. فألصقت تهمة "القرصنة" و"الرق" بالجزائر طوال قرون صعب محوها رغم مرور الزمن حتى يقال أن عجائز أوربا كانت إذا أبى أطفالها وأحفادها أن يناموا يخوفنهم ويرعبنهم بمختلف الحكايات والأساطير عن الجزائر أو "بربارياً" (Barbarie) وسجونها العجيبة ومآسي المسيحيين فيها ... غير أن الحقيقة بعيدة كل البعد عن هذه الأوصاف وهذا التشويه لأن "القرصنة" أولا لم تكن سوى رد فعل دفاعي عن قرصنة الأمم المسيحية التي طمعت في احتلال البلاد والاعتداء على سواحلها، ثم تحول رد الفعل هذا مع استمرار العداء وبروز الجزائر كقوة عسكرية بحرية إلى الهجوم، وقد كان أساسا من باب الردع في أغلب الأحيان.ومع مرور السنين تطور هذا الصراع العسكري بين الجزائر وأوروبا المسيحية ليتخذ شكلا جديدا يتمثل في القرصنة، وهي ظاهرة كانت عادية جدا، ولم تكن تستدعي أية غرابة على المستوى الدولي؛ لأن كل الدول البحرية كانت تمارسها منذ القرن 15م إلى نهاية القرن 19م تقريبا. حيث كانت مؤسسة قائمة بذاتها لها قواعدها وقوانينها ومرخص لها رسميا. البروفسور Salvatore Bono أكد في كتابه حول القرصنة بشمال إفريقيا Corsari nel Mediterraneo، بأن بعض الأمم الأوروبية كانت تجني الأرباح الكبيرة من الاستيلاء على السلع، والأشخاص المبحرين في البحر المتوسط أو على السواحل. كما تناول بالتفصيل في كتابه ممارسة فرسان مالطة وسانتو ستيفانو للقرصنة ضد المسلمين، وحتى ضد بعض الدول الأوروبية بمباركة البابا نفسه في بعض الأحيان بكل ما يستتبع ذلك من اختطاف للرجال والنساء والأطفال وتحويلهم

إلى عبيد وجواري.[191] فالقضية إذن سياسية – عقائدية بحتة تدخل في إطار الصراع المسيحي – الإسلامي والصراع الحضاري بين الشرق والغرب والمنافسة على النفوذ في حوض المتوسط.[192] أما ما يسمى استعبادا ورقا فهو لم يكن كذلك بل كان أسرا أكثر منه أي شيء آخر في انتظار فدية المسيحيين لأسراهم. وقد تكفلت بهم الدولة على أحسن مايرام على جميع المستويات المعيشية من مأكل وملبس ومأوى وعمل أيضا، مأجور في غالب الأحيان. الكتّاب اليهود ينتقدون انتقادا شديدا الجزائر العثمانية بخصوص ظاهرة "الرق" هذه ويندددون بكل ما أوتوا من بلاغة بـ"القرصنة" وبحكام البلاد "البرابرة" و"المتوحشين"، لكي يغطوا حقيقة احتكار اليهود في الجزائر آنذاك لتجارة العبيد التي كانت بالنسبة إليهم قطاعا اقتصاديا مفضلا لمردوديته المالية الكبيرة ولريوعه السياسية لدى الدول الأوربية التي نجحوا إلى حد ما في إقناعها بأنهم ليسو سوى "وسطاء خير" همهم عتق الأسرى المسيحيين وإعادتهم إلى بلدانهم وأهاليهم مقابل عمولات معينة لقاء خدماتهم. غير أن العملية كانت تجارة كما يشهد بذلك بعض الأسرى أنفهسم مثل الأمريكي James Cathcart،[193] كانت أسواقها عادة الميناء القديم للمدينة بالقرب من "باب دزيرة" أو باب الجهاد، وكذلك الساحة المحاذية لجامع كتشاوة المعروفة بـ: البادستان.

يهود ليفورن منذ Jaquéte خاصة أصبحوا البارونات الفعليين لهذه الأسواق كما يعترف بذلك M.Eisenbeth . وقد حدث أن قاموا في الكثير من الحالات بالتبليغ عن السفن المسيحية، التي كانت تعبر المتوسط، إلى الدايات وبتحفيزهم وحثهم على الهجوم عليها خصوصا إذا كانوا على علم بأن هذه السفن تحتوي على حمولات هامة، لأن الاستيلاء عليها من طرف البحرية الجزائرية يحولّها إلى غنائم مباشرة وبالتالي إلى سلع وبضائع وعبيد في متناول التجار اليهود الذين يعيدون بيعها بأضعاف أسعارها وبأرباح ضخمة. Esquer يؤكد في كتابه Le Commencement d'un Empire أن شركة بكري – بوشناق اليهودية الليفورنية بمدينة الجزائر، على سبيل المثال، كانت تُبلّغ "قراصنة" الإيالة للاستيلاء على شحنات السفن التي تتوجه إلى فرنسا.[194]

ظاهرة الرق والعبودية كانت شائعة في مختلف بقاع العالم آنذاك بما فيها أوربا وقد بلغت في أمريكا أقصاها وأبشع نماذجها بعد أن أصبح التجار، بمن فيهم اليهود، يختطفون الزنوج من بلدانهم على السواحل الغربية الإفريقية في عمليات قرصنة وحشية ثم يبيعونهم في العالم الجديد كما تباع قطعان الإبل والماشية في الجزائر فضلا عن ظروف نقلهم الحيوانية، حتى أن أغلب هؤلاء الزنوج كانوا يلقون حتفهم قبل الوصول إلى الأسواق الأمريكية.[195] هذه الجرائم الإنسانية والمعاملة البشعة للزنوج الأفارقة كانت موضة في العالم الجديد وأوروبا منذ سنة 1619 إلى غاية نهاية القرن 19.

في الجزائر كان الوضع جد مختلف لأن العبيد لم يكونوا سوى أسرى ولأن معاملتهم كانت في بعض الأحيان وبعض الحالات أفضل من معاملة أهل البلاد خصوصا إذا اختار هؤلاء الأسرى اعتناق الإسلام. فالأسرى الذين يعتنقون الإسلام تفتح أمامهم جميع الآفاق بما فيها حكم البلاد وقيادتها، وقصر الداي يصبح في متناولهم عكس أهل البلاد الذين كان محرّم عليهم حتى التفكير في المشاركة في القرارات. ومن بين الأسرى الذين أسلموا وأصبحوا حكاما للبلاد، دايات وباشوات، نذكر مثلا: حسان فنيزيانو Ali Vénéziano، حسين ميزومورتو (Mezzomorto)، علي بتشين واسمه الحقيقي (Biccininni)، والداي مامي أرناووط (أو غرناوط)، وحسان قورصو (Corso) وغيرهم. أما عن معاملة "العبيد" المسيحيين فقد كتب الأمريكي William Shaler:"... لقد كان (العبيد المسيحيون) في الغالب يرحلون عن موطن استرقاقهم (الجزائر) بأسف؛ ويجب أن نصدق أنه عند رحيلهم عن البلاد، كانوا يحملون معهم مبالغ ضخمة من الأموال..." تحصلوا عليها من أعمالهم ونشاطاتهم المهنية التي كانت مأجورة غالبا، ويضيف :"إن أسواق العبيد هذه التي أحدثنا حولها ضجة كبيرة في العالم ليست سوى تهمة لا وجود لها في الواقع".[196] أما الفرنسي Laugier de Tassy فإنه "...يفضل العبودية لمدة عشرسنوات بالجزائر عن الأسر لمدة سنة واحدة في إسبانيا".[197] كما أوضح الأسير الأمريكي في الجزائر James Cathcart الذي تحولّ بعد 13 سنة من الأسر إلى قنصل للولايات المتحدة بالإيالة بأنه وجميع الأسرى الأمريكيين :"كانوا يُعاملون بطريقة أفضل بكثير من معاملة البريطانيين للكثير من المواطنين (الأمريكيين) خلال الثورة الأمريكية ..".[198]

كاثكارت وهو أسير، إرتقى إلى أحد أعلى المناصب الرسمية في الدولة الجزائرية العثمانية وأصبح من أثرياء المدينة بمختلف الأملاك التي تراكمت لديه، وقد شغل منصب سكرتير الداي للشؤون المسيحية، قبل فديته.

في مذكرات أمثال هذا الأسير لم يذكر يهود ليفورن الذين كانوا يتاجرون بهم سوى بالسوء، و"كاثكارت" نفسه كان يكُنّ كرها عميقا لليهودي ميشال كوهين بكري (Michel Cohen Bacri) وحذر من دسائسه ومؤامراته سلطات بلاده التي كانت تفاوض الداي من أجل عقد معاهدة سلام مع الجزائر. ويؤكد William Spencer نفس هذا الانطباع لدى الأسرى والقناصل الأوربيين والأمريكيين تجاه يهود ليفورن، باستثناء بعض الذين ارتبطوا معهم في صفقات ومصالح أو مؤامرات معينة بصفة ظرفية أو دائمة.[199]

منذ نهاية القرن 17م بدأت بعض العائلات الليفورنية تتدفق على مدينة الجزائر لأغراض تجارية إلى غاية النصف الثاني من القرن 18م وأسست بها شركات ووكالات تجارية ناجحة كانت نواة للشبكة التجارية اليهودية الليفورنية التي احتكرت التجارة الجزائرية داخليا وخارجيا. وأبرز هذه الشركات تلك التي أسستها الشخصيات المعروفة والثرية في ذلك الوقت، وهي: "Alvarenga و Lousada (أوLONSADA) منذ 1816، Molco منذ 1690، Benjamin Zacuto منذ 1691، coen وTunes منذ 1697، Joseph Moise المعروف بـ"Aaron Cohen Jonathan de la Rosa منذ 1698، Nathan de Joseph Latard منذ 1714، Isaac Soliman منذ 1717، Neftali Busnach (بوشناق)، الذي كان يقيم بليفورن في 1720 والذي استقر بالجزائر المدينة في 1723، منذ 1724، Abraham Busnach الذي غادر ليفورن في نفس السنة أي 1724، Abraham Bouchara منذ 1732، Eliezar Sforno منذ 1733، Jacob di Raphael Bouchara منذ 1736، Bouchara Abraham الذي غادر ليفورن متوجها إلى مدينة الجزائر في 1757، وعائلة Cohen -Bacri منذ 1774، وNeftali Busnash شريك عائلة Bacri 1782"،[200] إضافة إلى شخصيات أخرى مثل Bongiorno و Lévi Valensi، وNahon.. وغيرهم. هذه الشخصيات بمحلاتها وشركاتها نافست بشدة التجارة المغيورشيمية بالجزائر وتفوقت عليها في ظرف وجيز.

لكن هجرة هذه العائلات إلى الإيالة لم تكن أبدا تعني القطيعة مع ليفورن لأنها بقيت على اتصال وثيق بموطنها الأصلي تجاريا وعائليا. ولم يكن استقرارها بالجزائر سوى استقرار حفزته فرص الاستثمار المربحة التي بلغ معدل الربح بها، حسب مپكنپن، نسبة 400% والمحيط السياسي – الاجتماعي المتعفن الملائم للاحتكارات والمضاربة والنهب والاستغلال. وقد حافظت هذه العائلات الليفورنية واحتفظت بأعمالها وتجارتها بليفورن مدعمة إياها باستثماراتها الجديدة في الجزائر حتى أن بعضها فضلت إرسال أبنائها أو أقاربها كوكلاء بمدينة الجزائر بدل أن تهاجر كليا ونهائيا إليها خصوصا في بدايات الهجرة الليفورنية إلى الجزائر. فعلى سبيل المثال لم يكن قدوم Salomon Lévi إليها هجرة بأتم معنى الكلمة بقدر ما كان مجرد حركة لرأسمال تجاري من ليفورن إلى الإيالة تكفل هو مكان أبيه بتسييره واستثماره في حين بقي أبوه Haïm Eliezar بليفورن. وحدث نفس الشيء مع Jacob Stora الذي وكل ابنه Isaac Stora على أعماله بمدينة الجزائر سنة 1770 ومكث هو الآخر في ليفورن.[201]

العلاقات التجارية اليهودية بين الجزائر وMahon وإسبانيا سارت هي الأخرى على نفس النسق وفق نظام الوكالة.عائلات يهودية ليفورنية أخرى بقيت غير مستقرة لا في ليفورن ولا في الجزائر تعيش وضعا متذبذبا فهي تارة هنا وتارة أخرى هناك، أو انفصلت عن بعضها بحيث كان بعض أفرادها مقيمين في مدينة الجزائر والبعض الآخر في ليفورن. Cohen Preciosa مثلا لم يلتحق بأبنائه بالإيالة إلا بعد تردد طويل.[202] وBALCHIM Meriam جاء إلى المدينة المسلمة ثم تركها إلى ليفورن بعد فترة معينة، ليعود إليها ثانية عندما ازدهرت بها التجارة والظروف المواتية لممارستها. الأمن التجاري والجسدي كانا إذن حاسمين في قرارات الهجرة والهجرة المعاكسة. في القرن 18 كان سبب فرار كل من Aaron Moati و Moïse Solimane وMoïse Busnach يعود أساسا إلى أسباب أمنية بحتة خاصة.

من بين الشركات اليهودية الليفورنية السابقة الذكر برزت شركة بكري – بوشناق (La Maison Bacri-Busnach) بروزا قويا سريعا ومفاجئا في العشرية الأخيرة من القرن 18 لتكتسح بقية المنافسين وتسيطر سيطرة محكمة وشبه كلية على

ناصية التجارة الجزائرية الداخلية والخارجية ويتوسع نفوذها وتأثيرها إلى عالم السياسة.

عندما تأسست الشركة كان الداي حسن (1792 – 1798) قد تولى الحكم في الجزائر خلفا للداي محمد بن عثمان باشا، الذي كان من بين حكام الجزائر القلائل الذين عمروا طويلا في القصر، بحيث استمر حكمه 24 سنة كاملة من 1766 إلى 1792، وكان أيضا من الحكام القلائل في البلاد الذين تركوا السلطة دون انقلاب عسكري وانتهت فترة حكمهم بوفاة طبيعية. الداي حسن عين بعد فترة وجيزة من دخوله قصر"الجنينة"، بساحة الشهداء الحالية، اليهودي نفطالي بوشناق (Neftali Busnach) أو بوجناح، كما يسميه الناس في شرق البلاد آنذاك، مستشارا له. هذا الأخير أحسن استغلال منصبه ونجح في تدعيم نفوذه لدى الداي التالي مصطفى الوزناجي (1798 – 1805) الذي كان زميلا له وصديقا، وشريكا كذلك بصورة أوبأخرى في مؤامراته وجرائمه ضد المجتمع الجزائري.[203] نفوذ بوشناق لدى السلطة تأكد من خلال استحواذه على منصب رئاسة الطائفة اليهودية مقصيا رئيسها السابق إبراهيم بوشعرة Bouchara Abraham الذي آخذته الطائفة، حسب آبراهام بلوخ، على تطليقه زوجته العجوز وزواجه من فتاة صغيرة السن. وبحكم كفاءته السياسية وعلاقاته بالسياسيين تكلف بوشناق عندما أصبح شريك بكري في المؤسسة التجارية المعروفة باسمهما بالشؤون السياسية والعلاقات الخارجية للشركة، وترك إدارة الأعمال والصفقات التجارية ومختلف إجراءاتها التقنية لشريكه بكري (Bacri) بما فيها مالية المؤسسة وتسييرها الداخلي.

تأسست شركة بكري – بوشناق حسب المعطيات التاريخية المتوفرة "...إبتداء من سنة 1793"،[204] وتزامن نجاحها مع بداية تزويدها للموانئ الفرنسية بالحبوب لمدة خمس سنوات متتالية من 1793 إلى 1798وفق عقد هام مع السلطات الفرنسية أعطى الشركة دفعة قوية إلى الأمام لتصبح في ظرف قصير أهم الشركات اليهودية التجارية الليفورنية والجزائرية معا. وبلغت قوتها ونفوذها حد التوسط في عملية إقراض الداي حسين لفرنسا مبلغ 5 مليون فرنك كي تواجه به *الأزمة التي رافقت اضطرابات "الثورة الفرنسية"*، فاكتسبت بذلك

مصداقية سياسية في أوربا والبلدان المسيحية، كما حدث مع Jaquète قبل، وانفتح المجال أمامها واسعا كي تلعب أدوارا سياسية ودبلوماسية حاسمة في المستقبل.

في نفس الوقت تضاعفت نشاطات الشركة وتوسعت و تنوعت إلى أن بلغت من القوة والنفوذ ما جعلها تنفذ إلى مراكز القرار العليا في البلاد وتصبح قوة سياسية معتبرة داخل جهاز الحكم. عمليا تم لبوشناق وبكري دخول قصر الداي والمشاركة في نشاطاته وقرارته السياسية بفضل تقرب الأول من الداي حسن وعلاقته الوثيقة بخليفته في السلطة الداي مصطفى الوزناجي المعروف بـ: مصطفى باشا. وتعود علاقة بوشناق بالوزناجي، الذي يقال أنه ابن أخت الداي حسن، إلى عدة سنين إلى الوراء، حيث قام بمساعدته والوقوف إلى جنبه في ظروفه الصعبة التي مرّ بها أيام عزله عن بايلك التيطري وفراره واختبائه في مكان مهجور خوفا من شرطة الداي ومن حكم الإعدام. آنذاك كان بوشناق الوحيد الذي يتردد عليه وينقل له الزاد والأكل والمال .. ثم عمل كل ما في وسعه من أجل طلب العفو عنه من الداي حسن ونجح في ذلك ليعين بعدها مصطفى الوزناجي بايا على قسنطينة والشرق الجزائري، وأصبح بوشناق إثر ذلك مستشاره ومقربه وصديقه وشريكه حتى في بعض الصفقات التجارية. ولما كان اليهودي محل ثقة الداي حسن في نفس الوقت وبمثابة مستشاره أيضا..، إقترح عليه تعيين الوزناجي خزناجيا وهو منصب جد حساس ويؤهل صاحبه لخلافة الداي مستقبلا بطريقة شرعية، حسب الأعراف وتقاليد السلطة العثمانية في الجزائر آنذاك، في حالة شغور المنصب. الخزناجي عادة هو الرجل الثاني في النظام العثماني بالجزائر. اقتراح بوشناق قوبل بالإيجاب من طرف الداي وأصبح مصطفى الوزناجي خزناجيا لدى الداي في قصر الجنينة بمدينة الجزائر. فامتد بذلك نفوذ بوشناق إلى الشؤون المالية للإيالة من خلال صديقه، كما دعم كذلك مركزه وقوته بالاستعانة بمجموعة من السماسرة والأعوان اليهود الموزعين عبر كامل أرجاء الجزائر للتجسس على الأهالي المسلمين وبوكلائه بأوربا للحصول على المعلومات الضرورية السياسية والاقتصادية الداخلية والخارجية لتبليغها إلى الداي من أجل الفوز برضاه وتوطيد مصداقيته

لديه وتقوية تأثيره عليه واستغلال مثل هذه المكانة السياسية في تدعيم نشاطاته التجارية ومصالحه ومواقعه في الأسواق الجزائرية والأجنبية. فسمحت هذه الديناميكية التي عُرف بها بوشناق نفطالي بأن يتحول إلى عضو استثنائي بارز في الحكومة يعين ويعزل الموظفين كما يشاء ويتوسط في الخلافات والنزاعات الجزائرية – الأوربية، ويستقبل القناصل والسفّراء، وحتى مبعوثي الباب العالي، باسم الداي، ويشرف على مفاوضات الجزائر مع الدول الأوربية كما حدث مع البرتغال في 1803 .. حتى أصبح الناس يطلقون عليه اسم "ملك الجزائر".[205]

النشاط التجسسي لنفطالي بوشناق كان أحد.أهم نقاط قوته وأحد أهم عوامل نجاح شركته التجارية أيضا، بحيث ساعده على اتخاذ القرارات التجارية الضرورية في أوقاتها المناسبة وعلى التقرب من السلطة بتقديمه لها خدمات مخابراتية... الحاخام اليهودي George Virebeau كتب في الجزائر سنة 1937 في "Algerusalem, l'Algérie Terre juive" بأن بكري وبوشناق ".. نظما شبكة تجسسية داخل الإيالة بواسطة الباعة المتجولين اليهود الصغار والمتوسطين ولما كانا بالتالي على دراية قبل الداي نفسه بالحالة النفسية للقبائل ودسائس رؤسائها الطموحين، كانا يتحركان حسبها، فيحبكان الثورات، ثم يساعدان على قمعها..حتى يظهرا بمثابة منقذي الداي ..." ثم يضيف الكاتب "... وهو الشيء الذي مازلنا نقوم بعمله إلى اليوم، لكن على مستوى أوسع ..."![206]

بلغ نفوذ نفطالي بوشناق السياسي – التجاري أقصاه منذ 1798 م عندما أصبح صديقه مصطفى الوزناجي الباي السابق والخزناجي فيما بعد دايا على الجزائر خلفا للداي حسن بعد وفاته. ويقال أن اليهودي لعب دورا هاما في توليه هذا المنصب عن طريق الضغوط المختلفة التي مارسها على الناخبين من الإنكشارية سواء بالتهديد أو بالرشوة أو بشراء الأصوات ونفوذ أقواهم من أجل دعم صديقه المترشح لترأس السلطة، لأن صعود الوزناجي إلى الحكم معناه صعود بوشناق أيضا، وصنع الملوك، كما يقول المثل الإنجليزي، أفضل وأعقل من تولية الملك، لأن الملك أكثر عرضة للسقوط والانكسار من صانعه.

منذ أن تولى الوزناجي قيادة البلاد وأصبح الداي الجديد للجزائر، أصبح بوشناق من أهم وأقوى رجال الدولة ولو بصورة غير رسمية ووظف نفوذه هذا

قدر المستطاع حتى أصبح هو وشريكه بكري يحتكران المواد الأساسية التي كانت تنتجها البلاد كالحبوب والشموع والجلود والأصواف. كما تخلصا من وساطة "الوكالة الوطنية الفرنسية" التي كانت تشتري ما يعرضه عليها اليهود بالإيالة لتصدره بنفسها إلى فرنسا، بحيث أصبحت شركة بكري – بوشناق منذ أواخر القرن 18 تصدر بنفسها مباشرة إلى مرسيليا وليفورن وجنوة وغيرها من موانئ البحر المتوسط ما يحتاجه زبائنها من سلع وبضائع جزائرية. ويذكر أرزقي شويتام نقلا عن مپكنپن أن نفوذ بكري وبوشناق التجاري إمتد في فترتهما الذهبية حتى إلى هولاندة والولايات المتحدة الأمريكية.[(207)]

على العموم، يمكن تلخيص عوامل قفزة أبرز شركة ليفورنية ونجاحها وهي شركة بكري – بوشناق طبعا فيما يلي:

1 – علاقة بوشناق الوثيقة بالباي مصطفى الوزناجي التي فتحت له الطريق نحو ديوان الداي على مصراعيه وزادت من ثقة الداي حسن فيه الذي كان يثق في خدماته الاستشارية ومقترحاته السياسية والاقتصادية .

2 – وصول صديق بوشناق الباي الوزناجي إلى الحكم بعد وفاة خاله الداي حسن سنة 1798 بعد أن لعب "اللوبي" اليهودي بزعامة بوشناق دورا هاما في تعيينه بمختلف الوسائل من رشوة وتهديد وتآمر كما أوصله من قبل إلى منصب الخزناجي.

3 – الاحتكارات والامتيازات التي انتزعتها الشركة بفضل نفوذ بوشناق لدى حكام الجزائر.

4 – التخلص من وساطة الوكالة الوطنية الفرنسية في عمليات التصدير إلى فرنسا والتكفل المباشر بها من طرف الشركة اليهودية. وقد لعب اللوبي اليهودي بفرنسا وتواطؤ بعض الشخصيات السياسية الحكومية هناك دورا معتبرا في تحقيق هذا المكسب الثمين.

5 – تزامن ظهور هذه الشركة مع بداية ضعف الدولة الجزائرية – العثمانية السياسي والعسكري وشيوع الفوضى والاضطرابات السياسية – الاقتصادية – الاجتماعية التي كانت تمزقها من الداخل، وبداية التحولات الاستراتيجية في حوض المتوسط المتمثلة في بروز الدول الأوربية كقوة جديدة صاعدة متفوقة مجمعة على ضرورة وضع حد "للخطر" الجزائري على أمنها واقتصادها.

لقد تمكن يهود ليفورن وعلى رأسهم بكري وبوشناق بفضل نشاطاتهم الواسعة والمكثفة وعلاقاتهم القوية التجارية والسياسية والمالية عبر كامل أرجاء حوض المتوسط، والتي تعود إلى تفوقهم التقني لاحتكاكهم الكبير بأوربا والتقنيات والتطورات الجديدة بها في شتى الميادين، من اقصاء جميع المنافسين بمنطقة المغرب العربي خصوصا في الجزائر وتونس وببعض المدن الساحلية التجارية بأوربا الجنوبية، بحيث لم يتركوا سوى الفتات للآخرين. إمكانياتهم الضخمة مكنتهم من التحايل على الظروف الاقتصادية والحفاظ على مستويات أرباحهم ومداخيلهم سواء بحركيتهم الديناميكية عبر الأسواق المحلية والدولية بحثا عن مردودية مثلى لاستثماراتهم وصفقاتهم التجارية عند تسويق سلعهم، أو بتحويل مراكز نشاطاتهم أساسا من مناطق أو مواطن الكساد التجاري، أثناء الكساد، إلى مناطق أو مواطن رواجه بمرونة وسرعة فائقة وفعالة.

في سنة 1717 مثلا حين كسدت التجارة بالجزائر على إثر الكوارث الطبيعية التي حلت بها، عمد يهود ليفورن إلى تحويل سلعهم إلى أسواق ليفورن إما لتصريفها هناك أو لإعادة توزيعها في أوربا بواسطة وكلائهم حيث إمكانيات وفرص الربح كانت أفضل منها بالإيالة. كما لم يتردد بعض كبار الوسطاء(négociants) منهم في الانتقال إلى مرسيليا وتحويل مراكز نشاطاتهم إليها مؤقتا ..، خصوصا أثناء الثورة الفرنسية حيث أصبحت مركزا ذا أهمية خاصة لأعمال آل Cohen-Bacri (أو Bacri) ووكيلهم سيمون أبوقية (أو أبوكاهية ؟ Simon Abou caya.
وفي سنة 1823م عندما تراجع الدور التجاري للايالة كانت عائلة بكري قد نقلت نسبة معتبرة من نشاطاتها إلى مرسيليا حيث كان ناثان بكري Nathan Bacri يمتلك 7 شركات (maisons) بمرسيليا وسمعة تجارية كبيرة.[208]

على أية حال، كانت هذه المرونة وهذه السرعة والفعالية في التعامل مع الأحداث والتأقلم مع الظروف سمة من سمات كل التجار اليهود بالمقارنة مع غيرهم، بحيث سارعوا جميعا لما ازدهرت التجارة مع فرنسا إلى تعاطي التجارة مع مرسيليا وتأسيس الشركات ونشر الوكلاء بها الذين ينوبون عنهم في تسيير مصالحهم. ومن أبرز الشركات اليهودية الجزائرية التي كانت لها علاقات تجارية مكثفة مع مرسيليا نذكر: شركة جوزيف سيداكا أو صدقة (Joseph Sedaka)،

شركة إفرايم حوران (Ephraïm Houran)، شركة بوشعرة (Bouchara)، شركة يهوذا دوران (DuranYehuda)، شركة كوهين – سولال (Cohen-Sollal)، شركة جوزيف ثابت ومسعود توبيانا (Joseph Tabet et Messaoud Toubiana)، شركة سيمون أبوقية (Simon Aboucaya)، وشركة مردوخاي صرفاتي (Serfati Merdochai). وأغلب هذه الشركات كما يلاحظ من أسماء أصحابها ليفورنية. أما وكلاء التجار اليهود الجزائريين البارزين بمرسيليا فنذكر منهم : يعقوب توبيانا (Jacob Toubiana)، موسى جيورنو (Moïse Giorno)، سليمان ناربوني (Salomon Narboni)، لزاربي (Lazarbi)، سيمون وآرون سافر (Simon et Aron Safer) ...[209]

وقد حدث أن طلب العديد من التجار اليهود لأسباب أمنية وتجارية جوازات سفر نابليونية خصوصا عندما تكون علاقاتهم بالإيالة متوترة ومضطربة، ولم يترددوا حتى في التعامل مع أي كان في كل مكان خصب لمضارباتهم وأعمالهم من أجل المال وتحقيق أقصى حد من الأرباح ولو على أشلاء القتلى وجثث الجياع الذين راحوا ضحية تصرفاتهم الماكيافيلية. عشرات آلاف الجزائريين لقوا حتفهم بسبب الجوع والأوبئة التي تنتج عنه في بداية القرن 19 مثلا، لأن بوشناق وبكري بتواطؤ أو جهل الداي مصطفى صدروا إلى الخارج الإنتاج الجزائري من القمح والحبوب دون أي اهتمام بحاجات الطلب المحلي لأن أسعار هذه المنتوجات في الخارج كانت أعلى منها في الجزائر، وبالتالي التصدير أفضل مردودية من التسويق الداخلي.

كان التجار اليهود على العموم كانوا، حسب محفوظ قداش،"... يحصلون من مقاطعات وهران على 70000 قنطار من القمح و60000 قنطارمن الشعير سنويا في المتوسط. هؤلاء المصدرون، لم يكن لديهم أي انشغال على احتياجات البلاد، حيث باعوا القمح الجزائري للأجانب حتى في أوقات المجاعات وحققوا أرباحا ضخمة : فالقمح الذي كانوا يشترونه بـ:(10 فرنكات في 1808 ومن 3 إلى 5 فرنكات في 1830 أعادوا بيعه بـ 18 إلى 20 فرنكا بأوروبا."[210] أرزقي شويتام يذكر هو الآخر بأن اليهوديين بكري وبوشناق قاما "... بتصدير الحبوب القليلة بالبلاد بموافقة الداي مصطفى رغم الجفاف والاختلال الاقتصادي الذي نتج عن

ثورة بن الأحرش (أو "البودالي")...، فكانت المجاعة والقحط بالشرق الجزائري".[211] وقد تسبب يهود ليفورن كذلك في مجاعة أخرى مدمرة أثناء أحداث الثورة الدرقاوية بقيادة بن الشريف في غرب البلاد.[212] الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري رغم محاولات التزييف والطمس مازالت تحتفظ بالمأساة التي عاشتها البلاد بين 1798 و1804 بسبب الجوع والظلم والجراد والأوبئة، ليس فقط لظروف طبيعية بل غالبا لظروف سياسية – اقتصادية تعود إلى احتكار بكري وبوشناق لتجارة البلاد ومضاربتهما بأرزاق الناس وبأموال البلاد وإلى دسائسهما ومؤامراتهما السياسية، وكذلك إلى تدخلهما المباشرلدى الداي في قضية بن الأحرش لتحريضه على المنتفضين والمترددين وحثه على قمعهم. هؤلاء كانوا قد انضموا إلى حركة بن الأحرش احتجاجا على الضرائب الجائرة والتجويع المنظم للشعب الذي كان يؤدي إلى المزيد في تخمة اليهود وكبار مسؤولي الدولة.

لقد حطّم التجار اليهود وعلى رأسهم الليفورنيون الجهاز الإنتاجي الزراعي والحرفي الجزائري باحتكارهم للسوق وفرضهم على المنتوجات الوطنية أسعار احتكارية منخفضة لم تكن تغطي حتى نفقات وتكاليف إنتاجها، مما أدى إلى إفلاس الفلاحين والحرفيين، وبالتالي إلى إفلاس البلاد رغم إمكانياتها البشرية والطبيعية الضخمة خصوصا بعد أن ضعف الأسطول الجزائري. فظهرت بوادر الكساد الاقتصادي العام وتعمقت تبعية البلاد لموارد البحر سواء الناتجة عن "القرصنة" أو عن الاستيراد الذي بدأ ينكمش مقارنة بالسنوات الماضية، وبدأ الفقر ينتشر كالسرطان.[213]

لم يتورّع اليهود الليفورنيون حتى عن استغلال سنوات الجراد والمجاعات للمضاربة والإثراء على حساب الشعب مثلما حدث في سنوات 1805، و1810، و1813، و1817 وهي السنة التي عاد على إثرها الطاعون في الصيف ليحصد الأرواح بعشرات الآلاف، بمعدل 500 شخص يوميا في مدينة الجزائر وحدها. وقد كان طاعون هذه السنة أقسى وأخطر طاعون عرفته البلاد، إذ استمر لمدة 4 إلى 6 سنوات. استغل التجار اليهود إذن بكل بشاعة وماكيافيلية الكوارث الطبيعية والصعوبات السياسية – الاقتصادية التي كانت تمر بها الجزائر

لتعظيم أرباحهم، وذلك بتعميق حدة الندرة عن طريق تصدير منتوجات البلاد من الحبوب إلى أوربا والاستفادة من الأسعار المرتفعة هناك، ودفع الأسعار المحلية إلى الارتفاع أيضا تحت ضغط قلة العرض.[214] فكان إذن من المتوقع في مثل هذه الظروف العصيبة أن يكون رد فعل المسلمين الذين يشكلون الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري، عنيفا تجاه الانتهازية اليهودية، وكان من العنف أنه لم يستثن حتى الأبرياء من اليهود من تهمة التسبب في هذه التصرفات الخطيرة على البلاد. كانت الطبقة اليهودية الضعيفة الكادحة تدفع كالعادة النصيب الأكبر من فاتورة احتجاج المسلمين من قتل ونهب وسجن ومصادرة ونفي وحقد وكره ... ولم تكن ردود الفعل هذه تعالج المشاكل القائمة بقدر ما كانت تعمق الهوة في كل مرة بين المسلمين واليهود لفترات زمنية طويلة أحيانا، وتضرب كذلك الثقة النسبية التي كانت تنمو بينهما في ظروف الاستقرار والهدوء والرخاء.

تزامن قدوم يهود ليفورن إلى الجزائر على العموم مع مرحلة العد التنازلي للجزائر العثمانية والظروف الصعبة التي تخللت هذه المرحلة داخليا وخارجيا خصوصا بعد مؤتمر Aix- La chapelle الذي تم فيه الاتفاق بين الأمم المسيحية على تحييد القوة العسكرية الجزائرية ووضع حد لسيطرتها على الحوض الغربي للمتوسط تحت غطاءات سياسية – دينية متعددة.يهود ليفورن استغلوا هذه الظروف بروح انتفاعية مصلحية من أجل الإثراء من جانب وتمرير "الاستراتيجية الروتشيلدية" التي سنتناولها لاحقا والتي تهدف إلى زرع النفوذ اليهودي في مختلف البقاع الديناميكية من العالم التي تتحكم أو تراقب أو تشارك في ديناميكية العلاقات الدولية، من جانب آخر، من أجل" السيطرة على العالم" كما ترى بعض الأطروحات. وليس من باب الصدف أن يتزايد عدد اليهود بالجزائر في هذه المرحلة المضطربة التي كان من المفروض أن يتناقص فيها باستمرار. ففي فترتهم الذهبية أي ما بين 1792 حتى 1805 إلى 1810، بينما كان منتظرا أن يستمر عددهم في التناقص مثلا بمدينة الجزائر بسبب طبيعة المرحلة، ارتفع من 7000 نسمة سنة 1789 إلى حوالي 9000 إلى 10000 نسمة سنة 1808م،[215] وتشمل هذه الفترة كما رأينا من قبل المدة التي حكم فيها البلاد الداي حسن والداي مصطفى اللذين منحا كل التشجيعات والامتيازات والاحتكارات ليهود ليفورن

أكثر من أي وقت مضى. كما كانت التجارة في فترتهما وحتى قبلها بحوالي عشرية أو عشريتين ما تزال نشيطة ولم تتأثر جيدا بعوامل الانحطاط الشامل الذي بدأ يعصف بالجزائر منذ نهاية القرن 18 وبداية القرن 19، وليس من باب الصدف كذلك أن يتزامن تزايد نفوذ اليهود بالبلاد بصورة خاصة مع فترة الدايين المذكوريين اللذين بدأت منذ عهدهما الاختلالات الاقتصادية – الاجتماعية العميقة والاضطرابات السياسية والتمردات الكبرى التي ختم بها العثمانيون حكمهم في الجزائر وهي اضطرابات كانت جد ملائمة للمضاربات والاحتكارات والربح السريع، بالضبط كما يحدث حاليا منذ بداية الأزمة الشاملة التي بدأت تعصف بالجزائر ابتداءً من أواخر عشرية الثمانينيات.. كما كانت هذه الفترة فترة ذهبية لليهود على العموم حتى بفرنسا بحيث فتحت لهم إفرازات الثورة الفرنسية مختلف المجالات التي كانت محرمة عليهم من قبل ومنحتهم حق المواطنة منذ 1792؛ دفع بهم هذا التطور الهام إلى صدارة الأحداث وقمم السلطة بفرنسا حيث تحول كل من Amshel Rothschild وأبنائه Nathan وJames... وعملائهم عبر أوربا وبقية بلدان العالم إلى قوى سياسية خفية ذات نفوذ وقدرات واسعة ترسم كالعنكبوت تقاسيم وجه القرن العشرين وتكتب تاريخه قبل أن يولد.[216] لقد كانت هذه الفترة وما بعدها فترة نشاط يهودي سياسي عالمي واسع ...

4- شركة بكري- بوشناق آلية السيطرة اليهودية على الجزائر

يمكن اعتبار هذه الشركة "تيرمومترا" (Thermomètre) ومؤشرا موضوعيا لقياس مدى التغلغل اليهودي ونفوذه في المؤسسات العليا للبلاد وتأثيره على مجريات الأحداث على مختلف المستويات، لأن تطورها لم يكن سوى انعكاس لتطور السلطة الخفية التي كان يمارسها أصحاب هذه الشركة في الجزائر؛ أي نفطالي بوشناق، وميشال كوهين بكري وأبنائه.

بدأ الشريكان حياتهما التجارية بمدينة الجزائر مستقلَّيْن عن بعضهما البعض إلى أن جمعت بينهما ظروف ومصالح تجارية وسياسية وكذلك ارتباطات عائلية.

المعلومات حول بداية المشوار التجاري لكل منهما واستقرارهما بمدينة الجزائر نادرة جدا ولا تكفي لتركيب كامل ودقيق لهذه البداية، بحيث لا تشتمل سوى على عموميات وإشارات غامضة لتواريخ متضاربة وروايات متناقضة في غالب الأحيان.

أ – ظهور عائلتي بكري وبوشناق بمدينة الجزائر:

تحدد الوثائق التاريخية أول استقرار تجاري وأول إقامة مستمرة ومتواصلة في الإيالة لعائلة بكري بسنة 1774م، ولا ندري كيف كانت علاقاتها بها قبل هذا التاريخ إذا استثنينا ما يحكى عن العلاقات التجارية التقليدية بين يهود ليفورن عامة وإيالة الجزائر دون تفاصيل تذكر.

حسب موريس إيزنبث،[217] تكون هذه العائلة قد حطت رحالها بمدينة الجزائر بصورة دائمة في هذه السنة المذكورة، أي 1774، قادمة إليها من مدينة ليفورن الإيطالية، وهي تتكون من الأب "إبن زهوط بكري" أو "إبن زقوطة" كما لقبه آخرون، أو Michel Cohen-Bacri وهو الإسم الأكثر شيوعا، وأبنائه الأربعة. في البداية جاء الأب إلى مدينة الجزائر سنة 1770م بمفرده ليبيع بها الخرداوات في دكان صغير بنواحي باب عزون الذي كان حيّاً ذا أغلبية سكانية يهودية بحكم وقوعه حول أكبر سوق بمدينة الجزائر آنذاك، عُرف بـ: "السوق الكبير" الممتد حتى شارع باب الوادي. ثم لحقت به عائلته فيما بعد، ونجحت تجارته وتوسعت ثروته، فأصبح في فترة وجيزة تاجرا قويا ينافس بقية يهود المدينة. وانتقل من نجاح إلى نجاح إلى أن تحول من صاحب محل صغير عادي من بين المحلات اليهودية المنتشرة بباب عزون إلى رأسمالي كبير صاحب شركة أسسها هو وأبناؤه الأربعة: يوسف (Joseph)، مردوشي أو مردوخاي(Mardoché) ، يعقوب (Jacob)، وسليمان (Salomon)، تحت إشراف الحاخامين سماح دوران (Semah Duran) ويعقوب شلبي شكيتو اللذين أشرفا على التأسيس القانوني للشركة.

لا تختلف المصادر التاريخية المختلفة حول عدد وأسماء أبناء ابن زهوط المذكورين ولا يوجد حول وجودهم وهوياتهم أي التباس، لكن موريس إيزنبث يذكر في "Les juifs... en Algérie et en Tunisie"[218] إبنا خامسا لابن زهوط يدعى آبراهام بكري Abraham Bacri بقي خارج الشركة العائلية المذكورة المعروفة باسم: "شركة سليمان كوهين بكري وإخوانه" "Salomon Cohen-Bacri et Frères" من الناحية القانونية، ولو أن نشاطاته كانت تدور في إطار إستراتيجيتها ومصالحها[219] حسب الظروف التي ورد فيها ذكره. ويعد Joseph (يوسف) الذي لمع منذ 1774 أذكاهم وأكثرهم نشاطا وحيوية، لذلك سيتولى في المستقبل رئاسة الطائفة اليهودية في الجزائر بفضل هذا الذكاء وهذه الديناميكية.

أما نفطالي بوشناق (Neftali Busnash) أو بوجناح "... فجاءت أسرته من ليفورن، وبعدما أقامت مدة في ماهونِ (Mahon) خلال سنة 1722 رحلت إلى مدينة الجزائر في السنة التالية(1723) وكانت معدمة لا تملك قوت يوم، فبادر رئيسها إلى العمل لسد الرمق عند بعض التجار من بني قومه. وبعد أن استقرت الأسرة في البلاد، اتسع نطاق عملياتها التجارية تدريجيا وزادت ثروتها وارتفع مستوى علاقاتها الاجتماعية، حيث كان من ضمن الشخصيات التي ارتبطت بها، الباي مصطفى الوزناجي، باي التيطري (1775 – 1795)". حسب موريس إيزنبث يحمل جد بوشناق الشهير صديق الباي الوزناجي نفس الإسم أي نفطالي بوشناق حيث ذكر بأنه كان يقيم بليفورن في 1720م ثم رحل عنها إلى ماهون، ثم مدينة الجزائر سنة 1723، ليلتحق به شخص من نفس العائلة سنة 1724 اسمه Abraham Busnash.[220] وهذا ما يساعدنا على التمييز بين نفطالي الجد كبير الأسرة الذي قاد الهجرة إلى الجزائر ونفطالي الحفيد الذي سيصبح "ملك الجزائر".

من بين الارتباطات الحاسمة في المسار السياسي– الاقتصادي المستقبلي لعائلة بوشناق فضلا عن ارتباطها بالباي الوزناجي مبكرا، كانت مصاهرة نفطالي بوشناق الحفيد لأسرة بكري الثرية أكبر صفقة قامت بها عائلته لأنها ستدفعه بقوة إلى واجهة الأحداث إثر تحالف العائلتين تجاريا واشتراك نفطالي الحفيد مع صهره بكري في تأسيس شركة قوية يجتمع فيها الدهاء السياسي، والعلاقات السياسية المتينة مع السلطة الجزائرية والبلدان الأجنبية، وثروات العائلتين، وخبرات عقود كاملة في الميدان التجاري في الجزائر وحوض المتوسط كافة. المصاهرة أنهت سنين المنافسة بين العائلتين على التجارة الجزائرية، منذ أن زفت بنت Michel cohen -Bacri إلى بيت نفطالي بوشناق. الارتباط العائلي بالمصاهرة تطور في الحين إلى ارتباط تجاري بحيث دخل نفطالي بوشناق كشريك في مؤسسة "Salomon Cohen-Bacri et frères" وتحول بالتالي اسمها إلى "De Bacri Frères et Busnash"، كما توطدت الأواصر العائلية أكثر فيما بعد بزواج دافيد ابن جوزيف بكري من "عزيزة" أخت نفطالي بوشناق.

تاريخ دخول هذا الأخير في الشركة التي كانت بحوزة عائلة بكري والتي أصبحت " شركة الإخوة بكري وبوشناق" غامض إلى حد ما ويفتقر إلى الدقة والوضوح، فهناك تضارب واختلاف حول تحديده بالتدقيق. فبينما يرجح محمد داده إستناداً إلى Rozet و Carette سنة 1793م عندما تحصلت الشركة على عقد يقضي بتموين فرنسا بالحبوب لمدة 5 سنوات وتوسطها في إقراض الداي السلطات الفرنسية 5 مليون فرنك .. يميل موريس إيزنبث إلى تحديد سنة 1782 كتاريخ لتأسيس شركة الإخوة بكري وبوشناق غير أنه يتردد ولم يتمكن من الفصل بوضوح هل هذا التاريخ هو تاريخ تأسيس عائلة بكري لشركتها أم هو تاريخ تأسيس شركة بكري- بوشناق. لكن بعض المراجع الأخرى حددت تاريخ إنشاء هذه الاخيرة سنة 1797 وبالضبط في يوم 14 سبتمبر. لكن سنة 1793 تبدو الأقرب إلى الحقيقة لأنها توافق سنة التوسع الهائل لأعمال ونفوذ بكري وبوشناق.[221]

بدأت الشركة تنشط بقوة المال وبالدهاء والنفوذ السياسي الذي كان يتميز بهما بوشناق..، فكانت تستورد الخردوات، الاقمشة القطنية والحريرية، القهوة، السكر، التوابل، الرخام، العطريات، والكماليات، كما كانت تصدر مختلف المنتوجات الزراعية والحرفية الجزائرية من قمح وأصواف والحبوب عامة، والشموع، والجلود...، علما أن التصدير كان يشكل جل نشاط الشركة[222] نظرا لغلبة الحياة الريفية على المجتمع الجزائري والتي جعلت إقباله على الواردات الأوروبية محدودا في ضروريات معينة نظرا للتباين الكبير في نماذج وأنماط الاستهلاك فضلا عن انخفاض مستوى المعيشة.

في سنة 1792 فقد باي التيطري مصطفى الوزناجي[223] حظوة الداي حسن ورضاه، فهرب ليختبيء بمكان سري تفاديا لحكم الإعدام الذي كان مهددا به لو تم القبض عليه، وبقي في مخبئه وحيدا، ضعيفا بعدما تخلى عنه الأنصار والأصدقاء. في هذه الظروف لم يجد بجانبه سوى نفطالي بوشناق زميلا وصديقا وفيا ظل يحمل إليه الطعام والزاد طوال اختبائه وفراره من عيون الداي. بوشناق ذهب أبعد من ذلك وقابل الداي بصفته مستشاره لطلب العفو عن الباي المطارد، ونجح في الحصول عليه بعد إصراره خصوصا وأن الوزناجي، كما يؤكد ذلك الدكتور العربي الزبيري، إبن أخت الداي حسن.[224] بعد العفو عنه مباشرة عيِّن الوزناجي بايا على قسنطينة والشرق الجزائري سنة 1794.[225]

لما صدر العفو عن مصطفى الوزناجي قدم له اليهودي مبلغا كبيرا من المال بدون ضمان ليساعده على إصلاح أحواله حيث كان في حالة سيئة من الفقر والتعاسة. وعندما تحسنت أحواله وعيّن بايا على قسنطينة سارع إلى تقريب بوشناق منه وتعيينه وكيلا على أعماله ومستشارا له اعترافا بالجميل... فأقام هذا الأخير معه مدة سنة بقسنطينة واستغل منصبه ومكانته لدى الباي والداي في توسيع نفوذه السياسي والاقتصادي والاستيلاء على مقاليد تجارة البلاد خصوصا بالشرق الجزائري حيث كان يحتكر تصدير الحبوب والقمح بصورة خاصة من ميناء عنابة. وطالت قوته حتى الشؤون السياسية التي كانت من صلاحيات الباي إذ أصبح يعيّن ويعزل المسؤولين المسلمين ويوزع الحظوة في قصر الباي ويقرر في مصائر الناس، على حد تعبير حمدان خوجة. وكان كل تطور واتساع لنفوذ وتأثير بوشناق السياسي والتجاري يمثل اتساعا وتراكما للريوع السياسية والتجارية التي هي أساس النجاح البارع والسريع للشركة التي سيؤسسها مع الإخوة والأب بكري– كوهين. كما تمكن من توسيع ثروته باستغلاله للباي من خلال صفقة بيع مجوهرة له وصفها حمدان خوجة بدقة في كتابه"المرآة".إذ يذكر أنه لما قدم الباي إلى مدينة الجزائر كعادة البايات من أجل " الدنوش"[226] وأراد أن يقدم هدية ثمينة إلى زوجة الداي، مجاملةً منه لها، توجه إلى اليهودي نفطالي بوشناق شريك بكري لشراء حلية نفيسة، فأحضر له هذا الأخير سرماطا مرصعا بالألماس تقدر قيمته بـ: 60000 بياستر (piastres)أي حوالي 300000 فرنكا. وقد قبل الباي الجوهرة ولما لم تكن بحوزته السيولة الكافية لتسديد المبلغ دفع له عينا 75000 كيلا من القمح بسعر بسيط: 4 فرنكات للكيل الواحد. صدّرها بوشناق مباشرة إلى فرنسا بسعر 50 فرنكا للكيل محققا ربحا يقدر بـ45000 فرنكا. لكن الربح الحقيقي كان أكبر لأن اليهودي لم يكن قد دفع سوى 30000 فرنكا ثمنا للمجوهرة...!

هكذا إذن بدأت الأسس والدعائم السياسية والمالية لشركة بكري – بوشناق توضع تدريجيا من خلال شخصيتي الداي حسن، والداي مصطفى الوزناجي بالدرجة الأولى، لتبتلع بعد تأسيسها أهم وأخطر مراكز القرار الجزائرية بعد أن أصبح الوزناجي دايا سنة 1798م. فكانت هذه السنة بداية الفترة الذهبية ليس

فقط لبكري وبوشناق بل لكل يهود ليفورن ويهود الجزائر الذين أصبح هذا الأخير بفضل تأثيره ونفوذه لدى الداي الجديد رئيسا لهم ابتداء من سنة 1880 خلفا لأبراهام بوشارة (Abraham Bouchara) المعزول، وذلك حتى مقتله سنة 1804م على يد أحد جنود الإنكشارية. ومنذ هذه الفترة أصبح الثنائي بكري- بوشناق يلقب بـ: "ملوك الجزائر"...!

ب – المنافسة بين الشركة اليهودية والشركات الفرنسية:

لما نجح بوشناق في اختراق النظام العثماني الجزائري ومؤسساته السياسية العليا ووطد أقدامه بها بدأ يطمح إلى توسيع قدرات شركته هو وبكري وتدعيمها داخليا وخارجيا، ولذلك فتح جبهة منافسة شديدة سياسية وتجارية مع الشركات الأجنبية[227] والفرنسية بشكل خاص التي كانت لها مواقع هامة في قطاع التجارة الخارجية الجزائرية. وعمد إلى بذل كل جهوده من خلال تأثيره على الداي مصطفى باشا لاتخاذ الإجراءات الضرورية لإقصاء المنافسين ولو أدى ذلك إلى توريط الجزائر في صراعات ومعارك وعداوات خارجية لا طائل منها ...، وكانت معظم قرارات الداي الاقتصادية والسياسية تسير في هذا الاتجاه سواء عن وعي أو عن جهل أوعن تواطؤ. وهذا ما أوقع الجزائر سياسيا واقتصاديا في قبضة مجموعة صغيرة من اليهود الاحتكاريين، وهو ما أكدته النزاعات والخلافات الجزائرية – الفرنسية بشكل خاص منذ 1798، وحتى قبل ذلك أثناء حكم الوزناجي لبايلك قسنطينة.

بمجرد ما عين الوزناجي بايا على الشرق الجزائري، عمد إلى ضرب المصالح الفرنسية به، مانعا الشركة الفرنسية المختصة في تصدير القمح الجزائري إلى فرنسا، المعروفة بـ "الوكالة الإفريقية الفرنسية" من ممارسة نشاطاتها أو عرقلتها على الأقل، مما أدى إلى إنهاكها وإضعافها وبالتالي إلى انسحابها وترك مكانها لشركة بكري – بوشناق سنة 1796 التي أصبحت تصدر الحبوب مباشرة إلى فرنسا دون وسيط، وتمون جيوش نابليون بونابرت بإيطاليا.[228] وهذا أمر طبيعي لأن " الوكالة الإفريقية الفرنسية" أو "الشركة الملكية الإفريقية" كما سميت عند إنشائها سنة 1741 لم تكن تملك تلك الشبكة من العلاقات والإمكانيات المالية التي كانت تمتلكها الشركة اليهودية في الجزائر، وفي

فرنسا أيضا، حيث كان الكثير من كبار رجال السياسة مجندين لحماية المصالح اليهودية عامة داخل المؤسسات التنفيذية والتشريعية الفرنسية لقاء رشاوي بوشناق وبكري وروتشيلد أو تنفيذا فقط لقرارات وغايات المحافل الماسونية التي كانت آنذاك في قمة نشاطها، بعد أن أطاحت بالطبقة الأرستقراطية واستولت على الحكم أثناء الثورة الفرنسية.[229] وزاد العجز المالي للشركة الفرنسية الوضع تفاقما فضلا عن سياسة الأسعار التنافسية المنخفضة التي انتهجها اليهوديان لمنافسة الوكالة الإفريقية الفرنسية ودفعها نحو الإفلاس بغض النظر عن الوسائل اللاأخلاقية وغير القانونية المذكورة من قبل مثل التزوير والغش والتهرب من الضرائب ..الخ.

لقد أُنشأت الشركة الملكية الإفريقية بتاريخ 1741/02/22 وكانت ناجحة إلى حد اندلاع الثورة الفرنسية، وتوقفت بعد ذلك عن نشاطها بناء على قرار أصدرته (لجنة الخلاص العام): C.S.P في 1794/02/07 وظهرت الوكالة مكانها .. ، لكن ليس بسبب الإفلاس ..؟ ثم بمجرد ما تأسست الوكالة الإفريقية الفرنسية وجدت نفسها أمام صعوبات مالية وعراقيل كثيرة ..، تتمثل في ضغط سياسي يهودي كبير بفرنسا بواسطة رشوة بعض الشخصيات الكبيرة كوزير الخارجية Talleyrand[230] وعدد من المسؤولين عن المرافق التجارية بباريس ومرسيليا ..، وأيضا بإغداق الهدايا ومختلف الخدمات على الداي في الجزائر ورشوة عدد من كبار حاشيته لصيانة نفوذهم ومواقعهم. وأمام هذه القوة اليهودية ، اضطرت فرنسا، تحت تأثير الضغوط إلى الاستعانة بخدمات شركة بكري – بوشناق.[231] واعتمدت أثناء حملتها على مصر في 1798 عليها وعلى قمحها وخمرها وقماشها وأدويتها وزيتها وعتادها الحربي بطلب رسمي من Talleyrand، وكانت هذه البضائع تُصدّر من الجزائر على متن مراكب جزائرية حتى لا تتعرض للقرصنة الإسبانية والإنجليزية المعادية لفرنسا. هل كان الداي يجهل أن إمكانيات الجزائر العثمانية المسلمة كانت تستغل من طرف اليهود في تموين حملة استعمارية على ولاية عثمانية مسلمة لها وزن وثقل جيوسياسي واقتصادي وثقافي استراتيجي بالنسبة لكل الإمبراطورية .. أم أنه تواطؤ أنتجته قوة المال اليهودي وإغراءاته..؟

الغريب في الأمر أنه لما طالبت بريطانيا من الأستانة أن توقف الاعتداء الفرنسي على مصر الذي كان يشكل خطرا وتهديدا لمصالحها بالمشرق والشرق الأدنى وللعمق الأمني لطريق الهند الاستراتيجي تجاريا بالنسبة إليها، وعندما طالبت بطرد جميع اليهود من الإيالة وحتى إعلان الحرب على فرنسا ووافق الباب العالي على هذه المطالب آمرا بتنفيذها ..، رفض مصطفى باشا الطاعة وتمرد على الأوامر وتجاهلها إلى أن تدخل السلطان مهددا باستعمال القوة ضد الداي بواسطة مبعوث خاص إلى الإيالة. عندما بلغت التوترات وتهديدات السلطان هذا الحد، عمد الداي إلى اتخاذ إجراءات طفيفة ضد فرنسا بحيث سجن قنصلها Moltédo في 1798، وطرد في 1801 القنصل Dubois-Taineville. لكنه سارع خفية إلى تلطيف مفعول الطرد هذا برسالة اعتذار إلى نابليون بونابرت ليشرح له فيها أن الأمر ليس بيده وأنه مغلوب على أمره ...!؟»[232] ويقال كذلك أنه حث نابليون على مهاجمة القوات العثمانية – البريطانية التي هدده السلطان بإرسالها إلى الإيالة، كما لم يطرد اليهود ولا أعلن الحرب على فرنسا ...، فأبطل بالتالي مفعول القرار العثماني وأفرغه من محتواه. فهل لصداقته ببوشناق والمصالح المالية التي تجمعهما دور في هذا التصرف الغريب ؟ الواضح هو أن بريطانيا لم تطالب عبثا بطرد اليهود من الإيالة، كما لم يرفض الداي الاستجابة لأوامر السلطان لمجرد الرفض أو العزة بالنفس أو لأشياء أخرى من هذا القبيل.

وذلك يعني أن عصيانه للباب العالي كان أهون لديه من طرد اليهود الذين لم ينلهم منه أي سوء. فهل تكفي هذه المخاطرة بالتمرد على الباب العالي بدلا من الإساءة لليهود والمصالح الفرنسية لاتهام مصطفى الوزناجي بالتواطؤ في شيء ما ذي أبعاد معقدة دولية خطيرة مع اليهود وبونابرت؟ هل توجد علاقة بين هذه القضية ونشاط العائلة الروتشيلدية في أوربا التي بدأت تتحرك آنذاك بكل ثقلها؟ الداي مصطفى باشا لم يتوقف عند هذا الحد، بل غامر بالتحدي للسلطان بحيث منح شركة بكري– بوشناق إثر هذه الأحداث امتياز احتكار استغلال غابات الكريستة بنواحي بجاية مقابل ضريبة مغرية تدفعها هذه الشركة.[233]

تواجد الشركات الفرنسية بالجزائر قديم ومنتظم له تاريخ ابتدأ سنة 1560 م عندما أنشأت فرنسا شركة (لانش) "Lanche". في سنة 1628م أسست فرنسا بالإيالة شركة أخرى هي "شركة سانسون نابلون" (Sanson Napolon) مكلفة إياها باستغلال امتياز صيد المرجان بالسواحل الشرقية وإقامة المراكز التجارية على طولها..، ثم ظهرت فيما بعد شركة مرسيليا التي عرفت بـ:" الدار الفرنسية"، ثم بـ"الشركة الملكيةالإفريقية" بعد أن أصبحت تشرف عليها الحكومة منذ 1741/02/22م والتي ورثت أيضا نشاطات La Compagnie des Indes بالجزائر. بعد الثورة الفرنسية أوقفت السلطات الفرنسية نشاط "الشركة الملكية الإفريقية" وعوضتها بالوكالة الوطنية الإفريقية (Agence Nationale d'Afrique) التي أريد لها أن تنطلق وتشتغل في ظروف جد سيئة.. يبدو أنها مقصودة حسب الكثير من المؤرخين.

رغم الرأسمال الكبير من التجارب ومن المعرفة العريقة بخصوصيات وقواعد النشاط التجاري في الجزائر الذي كانت تمتلكه الشركات الفرنسية، ورغم المستوى والسمعة الكبيرتين كشركات كبرى تنتمي إلى دولة عظمى اللذين اكتسبتهما دوليا..، لم تتمكن من الصمود، لا هي ولا الشركات البريطانية في وجه النفوذ و التوسع المتزايد ليهود ليفورن وشركاتهم في الجزائر وخاصة شركة بكري– بوشناق التي كانت شركة منافسة قوية وتتمتع بسند سياسي صلب، وذلك منذ العشرية الأخيرة من القرن 18.

وإذا كانت " الشركة الملكية الإفريقية" قد ألغيت رسميا بعد الثورة الفرنسية التي أتت باليهود والماسونية، حسب بعض المصادر، إلى مراكز النفوذ واتخاذ القرار الفرنسية..،[234] فإن "الوكالة الوطنية الإفريقية" ولدت "مشوهة" تحت ضغط اللوبي اليهودي بفرنسا سنة 1794م، وفي ظروف سياسية جزائرية غير ملائمة لها لأنها تزامنت مع تعيين الوزناجي بايا على قسنطينة والشرق الجزائري حيث كانت تتمركز أغلب نشاطات الشركة. لذلك لم يمر وقت طويل على تعيين هذا الصديق الحميم والشريك لليهود بايا على هذه المنطقة حتى بدأ في تفكيك وضرب المصالح الفرنسية بها، بحيث هدم منشآت الشركة الفرنسية السابقة الذكر وهياكلها ونهبها إثر حملة نابليون على مصر ، ليس انتقاما من

فرنسا بل خدمة لليهوديين بكري وبوشناق والمتواطئين معهم من داخل السلطة الفرنسية من عملاء اليهود وبارونات الماسونية. فزالت بذلك الشركة وألغيت بقرار فرنسي رسمي سنة 1801م، لتعوض فيما بعد "بالشركة الإفريقية" التي كان مركزها بمرسيليا. ومنذ إلغاء " الشركة الملكية الإفريقية" دخلت شركة بكري – بوشناق الأسواق الفرنسية مباشرة من بابها الواسع دون وساطات ودون منافس.

من جانب التجار الجزائريين المسلمين لم تكن هذه الشركة تخشى أية منافسة، بعد انهزام الفرنسيين، لأنهم كانوا محل تهميش متواصل بواسطة الداي الذي منح الأفضلية في الامتيازات والاحتكارات التجارية الداخلية والخارجية لليهود. كما تمتعت الشركة اليهودية بفرنسا بدعم من بعض كبار الساسة والمسؤولين الفرنسيين لمضايقة التجار المسلمين من جهة، وحماية مصالح الشركة في الأوساط السياسية الفرنسية من جهة أخرى. وقد عمل هؤلاء على منع المسلمين من إنشاء المراكز التجارية بالموانئ الفرنسية[235] وعلى إفشال القرارات السياسية والقوانين المضرة بالمصالح اليهودية.

هكذا إذن خلت الساحة التجارية الجزائرية لشركة بكري – بوشناق من المنافسين،[236] وتم لها اختراق الأسواق الدولية وتوطيد أقدامها بها وتدعيم قوتها التفاوضية مع المتعاملين معها من شركات و حكومات أجنبية مما زاد في كثافة علاقاتها السياسية وفي اتساع نفوذها حتى أصبحت في فترة حكم الداي مصطفى وحتى في فترات أخرى لاحقة القناة شبه الوحيدة بين الجزائر وأوروبا، وهو أمر سيكون جد خطير على البلاد أمنيا وسياسيا واقتصاديا لأنه منح يهوديين ليفورنيين سلطات وصلاحيات تجاوزت سلطات أول المسؤولين على البلاد؛ وستكون عواقب ذلك وخيمة وكارثية على المجتمع الجزائري.

ج– البعد الدولي لقوة شركة بكري–بوشناق.. ودعم الماسونية واليهودية العالمية:

لقد لعب الدعم الذي كان يقدمه اللوبي اليهودي بفرنسا دورا بارزا من جهته في بناء القوة المالية – التجارية والسياسية لشركة بكري – بوشناق في الجزائر خاصة وحوض المتوسط عامة بعد الثورة الفرنسية. بحيث سُخّر لذلك

القرار السياسي الفرنسي عند الإمكان، والمحافل الماسونية، والهياكل اليهودية المالية والتجارية والإعلامية المنتشرة في كل مكان. كما تمكن بفضل عملائه من السياسيين الفرنسيين والمنخرطين منهم في الماسونية من حمايتهم وامتصاص ردود الأفعال المعادية لهم والناقمة على تجاوزاتهم. ولولا هؤلاء العملاء لما بلغ اليهود مابلغوه من نفوذ قوي في فرنسا بعد 1789 والذي كان له تأثير ارتدادي وتراكمي على الجزائر وغيرها من البلدان المتوسطية التي امتدت إليها التحركات اليهودية الخفية، انطلاقا من فرنسا "الجمهورية". وليس من باب الصدف أن يكونوا من أكبر المستفيدين من الثورة الفرنسية، بحيث من بين أهم ما حصدوه من غنائمها، فضلا عن المناصب والمسؤوليات المباشرة وغير المباشرة العليا، مرسوم 1791/09/28م[237] القاضي بإعطاء يهود كل التراب الفرنسي جميع الحقوق المدنية رغم معارضة واحتجاج المسيحيين المتشددين والمتطرفين الذين بقيت في أذهانهم العداوات التقليدية المسيحية – اليهودية حية مما أبقى حساسيتهم قوية تجاه كل ما هو يهودي وما يرمز لليهودية. بينما خسرت فرنسا.. من بين ما خسرت؛"أربع مليارات فرنك، وخمسين ألف من الضحايا.." من أجل إصلاحات هذه الثورة التي "كان لويس السادس عشر قد قدمها مجانا".[238] ومنذ ذلك الحين أصبحت فرنسا أحد أهم وأقوى مراكز النفوذ اليهودي في العالم ووكرا استراتيجيا لنشاطهم وقاعدة خلفية "لاستراتيجية روتشيلد" التي واصل أبناؤه الخمسة تنفيذها بإحكام وأدخلتهم إلى مختلف المؤسسات السياسية والاقتصادية الأكثر قوة ونفوذا في مختلف البلدان الأوربية منذ أواخر القرن 19. كل ذلك تمّ بحماية قانونية – دستورية فرنسية باعتبار اليهود بموجب المرسوم المذكور مواطنين فرنسيين كاملي الحقوق.

لقد قدم فريق من كبار الساسة الفرنسيين خدمات ثمينة لليهود وساعدوهم على تحسين مواقعهم في خريطة النفوذ ومراكز القوى بفرنسا مقابل رشاوى مالية أو سياسية تتمثل في مساعدتهم على الوصول إلى مناصب سامية في السلطة. أبو القاسم سعد الله يذكر مثلا أن Talleyrand وزيرالخارجية الفرنسي (1797–1807) تكفل بحماية اليهود في فرنسا من ردود فعل الرأي العام والإطارات ومنع الحكومة من اتخاذ إجراءات عديدة ضدهم.[239] وهو معروف،

بالإجماع، بجشعه وبسوء أخلاقه ، وضعفه أمام الإغراءات المالية، وبتصرفاته المشبوهة الماكيافيلية من أجل مثل هذه الإغراءات. Abraham Bacri الإبن الخامس المحتمل لميشيل كوهين بكري قال عنه ذات يوم :"لولم يكن الأعرج ملك يدي، ما كنت لأستطيع أن أفعل شيئا في باريس ".[240] Talleyrand كان وراء تعيين مجموعة من القناصل الفرنسيين من طرازه مثل Moltédo و Dubois-Taineville و Deval الذي كان أكثرهم فسادا وانحلالا أخلاقيا حسب، جل المصادر التاريخية، كما لا يجب أن ننسى أن هذا الأخير كان منفذ سيناريو "حادثة المروحة" الاستفزازي سنة 1827 بقصر الداي. تلك الشخصيات الثلاثة المشبوهة كانت تربطها علاقات جد حميمية بالثنائي بكري وبوشناق وكانت تثير التساؤلات والشكوك آنذاك لدى كل من عرفهم عن قرب سواء من الأوساط السياسية الجزائرية أو من القناصل والدبلوماسيين الأجانب المقيمين في الجزائر على غرار الأمريكي James Cathcart وقنصل السويد ...

هذه الشخصيات بما فيها وزير الخارجية الفرنسي نفسه Talleyrand تكون قد اشتغلت لحساب يهودي يسبح في الثراء وله من الثروة والنفوذ في العالم ومن الدهاء السياسي والاستراتيجي ماجعله هو نفسه وشبكته من الأعوان والعملاء يمثل قوة عظمى دولية خفية قائمة بذاتها تحسب لها الحسابات. وقد طورها أبناؤه ومن أتوا بعدهم إلى الحد الذي جعل البعض يصفها في القرن 19م بـ:"... القوة الوحيدة في أوربا..." على حد تعبير "وارنر سومباري".[241] كما دفعت هذه القوة بالفيلسوف الألماني نيتشه إلى القول في كتابه: "إنبلاج الفجر": "سيكون مصير اليهود أحد المشاهد التي سيدعو القرن القادم (العشرون) البشرية لمشاهدتها. لقد سبق السيف العذل..".[242] تلك الشخصية هي Amshel Mayer (1743–1812) المعروف باسم: البارون دي روتشيلد (Baron de Rothshild) الذي يكون قد لعب دورا كبيرا ومتميزا في تحريك الثورة الفرنسية، حسب بعض المصادر، من أجل الإطاحة بالعائلة الحاكمة، وعلى رأسها الملك لويس السادس عشر، وإيقاع فرنسا في قبضته منذ 1789 [243]...

بواسطة فرنسا وانطلاقا منها ، تضيف نفس المصادر، تغلغل روتشيلد في بلدان أخرى واكتسب نفوذا ولوبيا فيها. وليس من الصدف إذن، إذا صحّت هذه

النظرة المؤامرتية للتاريخ الحديث بفرنسا والبحر المتوسط أن يأتي نجاح بكري وبوشناق بواسطة شركتهما مباشرة بعد هذه الثورة الفرنسية "الروتشيلدية" ويتزامن مع تطور وتحسن واقع اليهود وأوضاعهم بفرنسا. أعمال بكري وبوشناق لم تعرف من قبل كل هذا النجاح الذي حققته بعد الثورة الفرنسية في ظرف سنوات، رغم أن مؤسسة الشيخ Michel cohen-Bacri وأبنائه وُجدت ونشطت منذ 1774. كما أن محلات بوشناق التجارية تعود إلى فترة زمنية أطول لأن جد نفطالي بوشناق الذي يحمل نفس الإسم هو الآخر استقر في الإيالة منذ 1723 وفتح بها محلات تجارية بعد مدة معينة من إقامته بها ليست طويلة كثيرا، فضلا عن أن نفطالي نفسه، أي الحفيد، برز كتاجر بالجزائر منذ 1782. لا يستبعد كذلك أن يكون حصول شركة بكري – بوشناق على العقد الضخم بخصوص تصدير القمح إلى فرنسا لمدة 5 سنوات (من 1793 – 1798) والنهاية المفاجئة والغامضة للشركة الملكية الإفريقية سنة 1794، إضافة إلى الصعوبات المالية الغريبة بالنسبة لشركة حديثة النشأة وذات أهمية غذائية استراتيجية وحيوية مثل "الوكالة الوطنية الإفريقية" التي ولدت قاصرة..، لا يستبعد أن تكون كل هذه "الصدف"، الجميلة بالنسبة لشركة بكري – بوشناق، صدفا محسوبة ومنظمة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالانقلاب العميق الذي لعب اليهود دورا حساسا في تنفيذه في فرنسا باسم "حقوق الإنسان" و"الحرية" و"المساواة"... سنة 1789م. ومن الصعب كذلك أن يكون مجرد صدفة انتماء شخصيات بارزة فرنسية مثل وزير الخارجية Talleyrand، والقنصل الفرنسي بالجزائر من 1796 إلى 1798 Jean Bon Saint- André وخلفاؤه مثل Dubois-Taineville (من 1800 إلى 1809 ثم من 1811 إلى 1814) ماسونيين، مع العلم كذلك بأن أبرز محركي وممولي الثورة الفرنسية والأحداث التي تلتها بفرنسا هم يهود وماسونيون على غرار مدير القصر الملكي، عشية الثورة، اليهودي "دي لاكوس" وقائد عامة الشعب "مانيول" وهو أيضا يهودي، وديفيد الرسام رئيس لجنة الأمن العام الذي يعرفه الجميع آنذاك بأنه يهودي ، وكذلك مجموعة من الأثرياء اليهود المستقرين بفرنسا وألمانيا وبريطانيا مثل Hertz Ceerfbeer، ودانيال إتزج.. وغيرهم. جيل آخر من الماسونيين وصل في العقود التي تلت الثورة الفرنسية إلى أعلى مناصب الدولة وحتى إلى اعتلاء

عرش فرنسا أبرزهم "دوق أورليانز" (Duc d'Orléans)إبن Philipe Egalitéونابوليون الثالث (Napoléon 3)... الماسونية، تجمع أغلب المصادر المختصة في البحث في بنيتها ونشاطها على أنها خاضعة لليهود الذين يحتكرون أعلى مناصبها ومراكز القرار فيها. آنذاك قيل أن زعامة الماسونية كانت بيد الروتشيلديين.[244]

يبدو من خلال ما سبق أن نجاح شركة بكري – بوشناق السريع والهائل والقوة والنفوذ السياسيين والاقتصاديين اللذين وصلت إليهما في فترة زمنية قياسية لم يكن عاديا ولا طبيعيا..، ولم يكن ليبلغ ما بلغه لولا تظافر واجتماع كل هذه الظروف المذكورة على المستويين الداخلي والخارجي لفائدة اليهوديين بكري وبوشناق.

لقد كانت الحركة الماسونية العالمية إحدى الوسائل الفعالة والمفضلة التي وظفها Amschel Rothschild لإنجاز وتحقيق أغراضه وطموحاته. ومن المؤكد أن دوره فيها كان من الأدوار الرئيسية القيادية، على الأقل، التي كانت تصنع القرارات الاستراتيجية ، وبواسطة هذه الحركة تم تحريك الثورة الفرنسية سنة 1789 وتمويلها وتسييرها بعد مختلف الاجتماعات الدورية للمحافل الماسونية اللندنية والباريسية التي كانت تعقد بانتظام لهذا الغرض طوال عقد السبعينات والثمانينات من القرن 18م. وبفضل نشاطاتها الخفية والطويلة النفس تم لليهود والماسونيين الوصول إلى أهم مراكز القرار الفرنسية ...،ثم صنعوا –حسب Spiridovich، أحد أكبر المعادين الروسيين لليهود، من نابليون بونابرت آلتهم الفعالة المفضلة لإحكام القبضة على فرنسا، وانطلاقا منها، على ما أمكن من البلدان والشعوب من أجل تخليص القويم(Goyim)، أي البشرية من غير اليهود، من "معتقداتها الباطلة المتعفنة" وإنقاذها من براثن "الأديان الفاسدة..؛ الإسلام والمسيحية.[245] لكن ما هي هذه الماسونية؟

الماسونية هي حركة عالمية سرية مشبوهة يسيطر عليها اليهود، هدفها الظاهري نشر الإخاء والمحبة والسلام والمساواة والتعاون بين البشر وتوحيدهم، وتتكون حسب الأستاذ عبد الرحمان سامي عصمت[246] وXavior Yacono[247]، وحتى Lucien Sabah[248] في أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه، وهو نفسه ماسوني ، من ثلاثة فرق تعبر عن ثلاث مستويات :

* الفرقة الأولى: الماسونية الرمزية العامة (générale) ذات الدرجة «33»وهي الشائعة في جميع البلدان، وسميت عامة لأنها للناس كافة على اختلاف أديانهم ولها ثلاث درجات أعلاها الدرجة «33» ويسمى حاملها "أستاذا أعظما" (Grand Maître).

* الفرقة الثانية: هي الماسونية الملوكية (La Franc- maçonnerie Royale): وهي متممة للفرقة الأولى واستمرار عمودي لها نحو الأعلى، ويقبل فيها فقط الأساتذة الأعاظم الحائزين على الدرجة «33» ممن أدوا خدمات جليلة لتحقيق أهداف الماسونية، لكن لا يجوز لهؤلاء أن يتعدوا المرتبة الأولى فيها وهي مرتبة الرفيق (cammarade) إذا كانوا غير يهود.

* الفرقة الثالثة: هي الماسونية الكونية (Universelle)، وهذه لايعرف رئيسها ولا مقرها أحد، سوى أعضائها من رؤساء محافل "العقد الملوكي" أو "الماسونية الملوكية" كما تسمى أيضا وكلهم يهود. ولهذه الماسونية محفل واحد لا يتعدد. وهذه الفرقة تصدر تعليماتها بطريقة فوقية إلى محافل الماسونية الملوكية وعن طريق هذه الأخيرة تصل الأوامر إلى القاعدة إلى محافل الماسونية الرمزية العامة.

الروتشيلديون وماسونيتهم يكونون قد راهنوا على نابوليون بونابرت لتحطيم الكنيسة والديانة المسيحية. وسارهذا الأخير في اتجاه مشاريعهم وخططهم لفترة معينة منذ بروزه في بداية العقد الأخير من القرن 18م إلى أواسط العقد الذي تلاه عندما ظهرت مؤشرات خروجه عن طاعة الروتشيلديين. وتحالف منذ ذلك الحين مع الكنيسة الكاثوليكية إثر نقله للبابا إلى البلاط الفرنسي حتى يصبغ على توسعاته طابعا دينيا مقدسا، وهو الشيء الذي أقلق اليهود الذين كانوا يحاربون المسيحية ويعملون على تحطيمها. هؤلاء رأوا في الانتقاد الشديد اللهجة الذي وجهه لليهود في 30 ماي 1808 نفيرا ينذر بالخطر عليهم وعلى أهدافهم، فانقلبوا ضده بقوة وعبأوا كل طاقاتهم وإمكانياتهم لكسره... حتى تم لهم ذلك في معركة Waterloo سنة 1815.

عن هذا الانتقاد الشديد لليهود الذي شكل منعرجا حاسما في مصير نابليون وفرنسا، ورد في "حكومة العالم الخفية" بأن نابلوين الأول " ..دعا .... يهود فرنسا وإيطاليا في باريس ، وفي مارس 1808 ... (أعلن تحديه لهم بحيث) ...

أوضح أنه لن يتبع نصائح الماسونية الخاضعة لسيطرة اليهود، في مخططاتها المعادية للمسيحيين.. ثم عدد.. جرائم اليهود البشعة في المجلس الإمبراطوري بطريقة قاسية، فكان ذلك تحديا لليد الخفية التي قبلت التحدي. ومما قاله نابليون "يجب أن لا ننظر إلى اليهود كعنصر متميز بل كغرباء، وسيكون إذلالا مرا لنا أن نُحكَم بهؤلاء وهم أذل شعب على وجه الأرض"..."[249] فحاول اليهود قتله بواسطة شخص يدعى Stapps سنة 1809م لكن المحاولة باءت بالفشل، ولم ييأسوا، فقاوموه حتى حطموه سنة 1812 في حملته على موسكو بفضل احتكارهم للقمح في العالم الذي أمكنهم من إفساد إمدادات الطعام لجيشه وقتل عشرات الآلاف من الجرحى في قواته، ليهزموه نهائية بالضربة القاضية في معركة Waterloo سنة 1815 التي لعبوا فيها دورا خفيا خطيرا.

كما عملوا على كسر أهم وأقوى تحالف له يتمثل في سند البابا pie 7 والكنيسة الكاثوليكية سنة 1808– 1809 حيث حركوا بعض أعوانهم وعملائهم في القصر الإمبراطوري لإهانة هذا الأخير بإيقافه وسجنه دون علم نابليون. فاغتاض البابا، الذي لم يتفطن للمؤامرة، من الإمبراطور وساءت العلاقة بينهما منذ تلك الحادثة. فنجح اليهود بذلك في كسر تحالف النفوذ الديني الروحي البابوي والقوة العسكرية – السياسية المادية لنابليون، مما سهل عليهم مواصلة مشاريعهم وأهدافهم.

على الجبهة الشرقية لأوربا قاموا بنفس الشيء تقريبا بحيث ضربوا محاولة التقارب النابليوني – القيصري وبالتالي يكونون قد ضربوا حظوظ الاتحاد والتضامن الكاثوليكي – الأورثذكسي المسيحيين في نفس السنة، وكانت آلة هذه المناورة السياسية اليهودية تتمثل في وزير خارجية نابليون نفسه وهو أحد أبرز أعضاء الماسونية المتمثّل في شخص Talleyrand. مساعي هذا الأخير ودسائسه انتهت إلى إشعال نار الحرب بين الطرفين التي انهزم فيها نابليون في موسكو سنة 1812. ثم تم طي ملف نابليون بونابرت إلى الأبد في "واترلو" (Waterloo) سنة 1815م.[250]

لكن أين هي الجزائر في كل هذه الأحداث المتشابكة والمعقدة التي انتصرت فيها الماسونية وزعماؤها اليهود وعلى رأسهم آل روتشيلد ..؟

د – موقع الجزائر في "الإستراتيجية الروتشيلدية":

كانت الجزائر ومازالت دائما قاعدة استراتيجية لدول جنوب أوربا لهآ ثقلها في موازين القوى بكامل حوض المتوسط خصوصا جانبه الغربي، لذلك يكون الروتشيلديون قد عملوا على تضييق الخناق الاقتصادي والأمني على نابليون I عندما أعلن تمرده عن الماسونية واليهود بتحريك يهود ليفورن بالجزائر ضد مصالحه وعلى رأسهم عائلتي بكري وبوشناق. هؤلاء الماسونيون وزعماؤهم وظفوا الجزائر كورقة ضغط سياسية – اقتصادية لضرب فرنسا ببريطانيا، وخلط الأوراق السياسية داخل فرنسا وتوتير الأجواء بها لإحكام السيطرة عليها من جانب حيث كانت بعض الجيوب المعادية لليهود ومصالحهم مستمرة في النشاط والمقاومة السياسية للسيطرة اليهودية داخل مؤسسات البلاد..، ومن جانب آخر لاختراق المؤسسات السياسية البريطانية الشديدة المحافظة التي لم يكن ممكنا أن تقبل بسهولة بتسلل العنصر اليهودي أو الماسوني إليها.

في هذا السياق تحركت شركة بكري– بوشناق واستغلت النزاع المالي الذي كان قائما بين الجزائر وفرنسا لتخلق منه ما سمي بـ: "قضية الديون" التي عرقلت كل محاولات الفصل فيها وتسديدها إلى أن كبرت وتحولت إلى الأزمة المعروفة التي أنتجت بدورها "حادثة المروحة" بفضل براعة التمثيل لعميل اليهود القنصل Deval سنة 1827، ثم أتت بالحصار، وبعده بالاحتلال في 5 جويلية 1830م.

بعد تنفيذ سيناريو "المروحة" تحرك اللوبي اليهودي بفرنسا بعملائه وأتباعه من السياسيين الماسونيين لدفع فرنسا إلى التحرك العسكري واحتلال الجزائر، حتى يثار قلق بريطانيا من تزايد نفوذ فرنسا عدوها التقليدي بضم الجزائر إليها بخيراتها وإمكانياتها الطبيعية وموقعها الإستراتيجي في حوض المتوسط، الذي قد يهدد من بين ما يهدد من مصالح بريطانيا، مواقع هذه الأخيرة الحيوية بجبل طارق، الممر البحري التجاري والأمني الحساس. ومن جهة أخرى كان الهدف من إثارة بريطانيا واستفزازها بغزو فرنسا للجزائر إحداث أزمة أو حرب بينهما لاستغلال فوضى التوتر بين البلدين لتوطيد أقدام اليهود والماسونية في مؤسساتهما الحساسة خصوصا البريطانية التي كانت لم تخترق بعد.

في إطار هذه الاستراتيجية كان ينشط Nathan Rothschild، أحد الأبناء الخمسة لـ Amschel Rothschild، الذي كان يصبو إلى دخول البرلمان البريطاني المحافظ وبعد ذلك إلى مراكز اتخاذ القرار الأخرى ".. فنشر الدعوة إلى القومية البريطانية وألهب إنجلترا ضد فرنسا .."[251] بشبكته من العملاء ووسائل الإعلام في بريطانيا. في نفس الوقت افتعل أخوه James Rothschild المقيم بباريس أزمة، بواسطة زوجته، مع الملك شارل العاشر، كذريعة للدخول في مواجهة ضده تحضيرا لإسقاطه نظرا لمكانته الدينية ليس فقط بفرنسا بل لدى جميع المسيحيين والتي كانت مصدر خطر على المشاريع اليهودية. وبدأ James بحملة إعلامية ضد الملك أوقفها هذا الأخير بنصيحة من وزيره Poliganc، واستغل اليهودي هذا التدخل بالقوة، " فأمر ماسونيته بتوحيد البونابرتيين والأورليانيين والجمهوريين ضد الملك. ولما نفذ ورثة نفطالي بوشناق وشركاؤهم من عائلة بكري الذين تحولت إليهم زعامة الشركة بعد ثورة الإنكشارية بمدينة الجزائر سنة 1804، الدور المسند إليهم بنجاح والذي انتهى بشن الحملة الاستعمارية على الجزائر في صيف 1830 .. ثارت بريطانيا في وقت نجح فيه Nathan Rothschild في الدفع إلى تعيين " دوق ويلينغتون" رئيسا للوزراء في بريطانيا وهو عدو لدود لفرنسا، وعمدت بعد احتلال الجزائر إلى تأييد وتدعيم المجموعة المعارضة لشارل العاشر من أجل إسقاطه وتتمثل في الجمهوريين والبونابرتيين و الأورليانيين. وتم بالفعل إسقاط شارل العاشر الملك والزعيم الروحي المسيحي وتتويج "دوق أورليانز"" Duc d'Orléans " مكانه. لقد كان الدوق.. " صدرا أعظما" لمحفل الشرق الأعظم (Le Grand Orient) مدة عشرين عاما، وقد صوت مع قتل الملك لويس السادس عشر[252]" أثناء الثورة الفرنسية.

في بريطانيا نجح اليهود بعد تعيين "دوق ويلينغتون" في خضم أحداث وتوترات سنة 1830 بينها وبين فرنسا " في استصدار تشريع من البرلمان البريطاني يمنحهم حقوقا سياسية كاملة، وتمكنوا من إدخال أول نائب يهودي إلى البرلمان البريطاني، حين نجح "بنيامين دزرائيلي Benjamin Disraéli في الانتخابات..".[253] قبل أن يصبح رئيسا للوزراء بعد حوالي ثلاثين سنة وبالضبط في 1864. بنيامين دزرائيلي يهودي ماسوني روتشيلدي، سمح وجوده على

رأس الحكومة البريطانية بتمهيد الطريق لـ : دانتون روتشيلد كي يصبح أقرب المقربين للملك إدوارد السابع سنة 1901.

أهم إفرازات هذه المؤامرات المتعددة الجبهات التي بدأت تثمر باحتلال الجزائر هي وصول اليهود إلى دوائر الحكم في فرنسا وفي بريطانيا وتحسين مواقعهم في الجزائر بعد احتلالها باختراق المؤسسات السياسية للبلاد تدريجيا وبصورة رسمية حتى وصلوا بعد بضعة عقود فقط إلى أعلى المناصب السياسية، وهذا مازاد في نفوذهم وقوتهم عبر العالم سياسيا واقتصاديا. الحاخام George Virebau عنوان كتابه الصادر سنة 1936 بـ: Algérusalem Algérie Terre Juive للتباهي بالنفوذ اليهودي المكتسب بعد هذه التطورات في الجزائر. وقد تكلّف تحقيق ذلك عددا هائلا من الضحايا المسلمين والمسيحيين..وحتى اليهود. وللإشارة فقط، كان اليهود في الجزائر من أول المتهافتين والمقبلين على الانخراط في المحافل الماسونية التي انتشرت في البلاد بدخول المحتلين إليها، بعض أثرياء يهود الجزائر كانوا ماسونيين حتى قبل هذا التاريخ على غرار بن دوران (Ben Duran).

هذا هو البعد الدولي إذن لنشاط بكري، وبوشناق من خلال شركتهما في الجزائر، حتى وإن كان في حاجة إلى دراسة أعمق للحسم في صحّة هذه الرؤية أو خطئها بسبب غموض الكثير من جوانبها وشيوعها في ظروف دولية غلب عليها الشعور المعادي لليهود. وهذا هو كذلك سر النجاح الواسع والسريع لشركتهما التي أتت على الأخضر واليابس في البلاد... وستتوضح مسألة مشاركتهما في هذه المؤمرات الدولية والمحلية أكثر من خلال قضيتي الديون والاحتكارات التجارية التي شكلت محور العلاقات الجزائرية– الأوربية.

هـ: قضية الديون:

لم تمر فترة زمنية طويلة على تصدير شحنة 1793م من الحبوب إلى فرنسا من طرف شركة بكري – بوشناق حتى طالب اليهوديان بواسطة ممثلهما بمرسيليا وباريس "سيمون أبوقية" (Simon Aboucaya) من الحكومة الفرنسية تسديد ديونها عليهما. لكن Delacroix وزير الخارجية آنذاك وقف ضد هذا الطلب بحيث راسل وزير المالية الفرنسي قائلا :" نرجو منكم أن تؤجلوا تسديد ديون اليهود حتى نجبرهم على التخلي عن دسائسهم مع الأنجليز الذين يفضلونهم عنا في

سواحل شمال إفريقيا،و .. يأملون في تطوير علاقاتهم التجارية معهم".[254] ولما تماطلت الحكومة الفرنسية في الدفع كتب إليها الداي حسن في 18 ماي 1797:"لكي نثبت لكم كم نتمنى توطيد وترسيخ العلاقات القائمة بين هذه الحكومة والشعب الفرنسي منذ قرن من الزمن، فإننا مستعدون لتموينكم أثناء حربكم بالحيوانات والمواد الضرورية وكل ما تنتجه بلادنا .. ونحاول أن نلبي طلبات الجمهورية بكل سرعة وأمان. ونطلب منكم فقط مراعاة حسن معاملة رعايانا المقيمين عندكم، خاصة أسرة "بكري" و"سيمون أبوقية" الذي سيتولى تسليمكم هذه الرسالة. ونحن نعتبر هذه المسألة معروفا. ونرجو منكم أن تتفضلوا بالتسديد الفوري لديون " سيمون أبوقية" حتى يتمكن من مواصلة نشاطه".[255] لكن القضية بقيت مجمدة بحجة تموين يهود الجزائر للإنجليز بجبل طارق بالمواد الغذائية وغيرها. ثم تظاهرت السلطات الفرنسية بالرغبة في دفع الديون بواسطة قنصلها بالإيالة Moltédo، لكن حملة نابليون على مصر في 1798م حالت دون ذلك لتوتر العلاقات الجزائرية- الفرنسية خصوصا بعد ضغوط الباب العالي على الإيالة لإعلان الحرب على فرنسا وطرد اليهود. في هذه الأثناء بدأ وزير الخارجية الجديد Talleyrand (1797–1809)، صديق اليهود والماسونية، ينشط ويعمل على تسديد هذه الديون لأصحاب الشركة التي صدرت شحنة الحبوب أي بكري وبوشناق. وإذا كان في الأول قد فشل بسبب غزو نابليون لمصر من أجل قطع طريق الهند على بريطانيا وحرمانها من أسواق ومصادر موادها الأولية الأساسية، فإنه كاد أن يوفق في محاولة أخرى بعد انفراج التوترات والخلافات الناتجة عن هذا الغزو، والتي دفعت بالإيالة، استجابة لأوامر السلطان العثماني، إلى طرد القنصل Moltédo ثم القنصل Dubois-taineville في 1800 ولو أن ذلك تم عن إكراه بحيث أن الداي مصطفى الوزناجي أرفق هذا الإجراء الأخير برسالة اعتذار إلى نابليون (..؟) لشرح أسباب قراره، طالبا منه ".. أن يُعدّ أسطوله لمواجهة الأسطول العثماني - الإنجليزي الذي قرر السلطان إرساله إلى الجزائر لإخضاعها".[256] في هذه المحاولة، اقترح Talleyrand على حكومته تسديد ديون بكري- بوشناق مقدّرا إياها بـ 7942992 فرنكا. ثم شرع في اتخاذ إجراءات تسديد مسبق لمبلغ 3725631 فرنكا. لكن توتر العلاقات

الجزائرية – الفرنسية من جديد عرقل العملية.[257] وبعد الانفراج أبرمت الجزائر وفرنسا معاهدة سنة 1801 نصت على ضرورة دفع فرنسا لديونها لليهود. لكن هذه الأخيرة ماطلت كثيرا، وأدت إلى تدخل الداي مصطفى بعدة رسائل كانت آخرها تلك المؤرخة بتاريخ 1802/08/12 الموجهة إلى نابليون بونابرت. فأعطى هذا الأخير الأوامر لاتخاذ إجراءات التسديد،[258] إلا أن ظروفا طارئة بالجزائر وفرنسا حالت دونه. فبينما كانت فرنسا في خضم حروبها النابوليونية بأوربا التي لم تنته إلا في معركة Waterloo سنة 1815م، كانت الجزائر منشغلة بثورة بن الأحرش وبالمجاعة الخطيرة التي عمت البلاد وبثورة الإنكشارة سنة 1805 التي أطاحت بالداي مصطفى الوزناجي، بسبب سماحه لليهوديين بكري وبوشناق بتصدير الحبوب الجزائرية إلى الخارج رغم حاجة البلاد إليها وموت الآلاف جوعا، وانتهت هذه الثورة باغتيال نفطالي بوشناق ومقتل مصطفى الوزناجي.

وبمجرد ما تم القضاء على ثورة بن الأحرش كانت ثورة أخرى قد اشتعل لهيبها في الغرب الجزائري بقيادة بن الشريف الدرقاوي دامت من 1808 إلى حوالي 1817 أو 1818.[259] ربما تكون هذه الظروف السياسية وانعكاساتها السلبية الاقتصادية والاجتماعية هي سبب تأجيل قضية الديون إلى تاريخ لاحق وبالضبط حتى سنة 1818 على عهد الداي حسين آخر دايات الجزائر.

لما هدأت الأوضاع واستقرت نسبيا في الجزائر، ولما أعيد التحكم في الوضع بفرنسا من طرف اليهود بعد انهزام نابليون بونابرت أعيد فتح ملف الديون من جديد بناء على طلب الداي حسين، بإيعاز من شركة بكري – بوشناق، دون شك. فشكلت الحكومة الفرنسية لجنة بفرنسا سنة 1819 للنظر في هذه القضية بحضور ممثل عن الشركة اليهودية هوNicolas Pléville.. وتم التوصل إلى عقد اتفاقية في 28 أكتوبر 1819م وافقت اللجنة بمقتضاها على تسديد 7 ملايين فرنكا فقط بدلا من حوالي 17 مليون فرنكا (164331305فرنكا) المطالب بها من طرف ممثل الشركة. وصادق المجلس الملكي الفرنسي من جهته على الاتفاقية بمقتضى القانون المالي الذي أصدره في 24 جويلية 1820م، وكذلك البرلمان والداي نفسه. لكن في هذه الأثناء تعالت بصورة مفاجئة وغريبة بعض الشكاوى من تجار يهود بفرنسا تدعي أن لها ديون على ذمة "يعقوب بكري" (Jacob Bacri)

الذي أصبح مدير الشركة بعد مقتل بوشناق نفطالي وإعدام David Bacri إبن أخيه سنة 1811 ثم نفي أبيه Joseph Bacri إلى ليفورن، وطالبت بخصمها من مبلغ الديون الفرنسية التي كانت من المفروض في الطريق إلى التسديد بمقتضى القانون المالي السابق الذكر.

لكن المثير في هذه الشكاوى والاعتراضات هي أن أصحابها عموما من أقارب يعقوب بكري إبن Michel Cohen-Bacri وعملائه ووكلائه وعلى رأسهم Nathan Bacri إبن Abraham Bacri الذي كان مستقرا بليفورن الإيطالية، والذي طالب بمبلغ 20 مليون فرنكا، وهو مبلغ كما يبدو يفوق أصلا حجم الديون الفرنسية كلية على الجزائر..؟ كما يحتمل جدا أن يكون بعض هؤلاء الذين رفعوا دعوى ضد يعقوب بكري مجرد أسماء وهمية أو مستعارة لهذا الأخير نفسه. فبعض المصادر التاريخية استنادا إلى الوثائق المتعلقة بقضية الديون لا تستبعد أن تكون العملية مجرد حيلة من تصور يعقوب بكري نفسه حتى يحول دون تسليم الأموال المستحقة على فرنسا إلى الداي حسين بعدما أصبحت القضية حكومية رسمية، ويتمكن من تحويلها إلى صناديقه وخزائنه عبر Nathan Bacri إبن أخيه ووكلائه وعملائه، خصوصا بعد أن كسدت التجارة بالجزائر. كما تتطابق هذه المناورة أيضا مع سياسة دفع العلاقات الجزائرية – الفرنسية إلى الانفجار.

التحول الجذري الكبير في سلوك يعقوب بكري تجاه الإيالة والدسائس والمؤامرات الواضحة التي كان يحيكها وينفذها بالاشتراك مع القنصل الفرنسي Deval بصورة خاصة، في العشرية السابقة للاحتلال، لم يكن سوى حلقة من حلقات " الاستراتيجية الكبرى" التي كانت أدوار تنفيذها موزعة بين الجزائر وفرنسا وبريطانيا بانسجام وتنسيق كبيرين يعبران على الأبعاد الدولية لهذه الاستراتيجية.

هناك أيضا عنصر آخر يدعم هذه الرؤية بخصوص اشتراك يهود الجزائر عبر العائلتين بكري وبوشناق في تنفيذ وتطبيق السياسة الروتشيلدية والماسونية في الجزائر ويؤكد تواطؤ جهات سياسية فرنسية مع اليهود في أزمة الديون التي كانت المحرك و الحامل لهذه السياسة، ويتمثل في الشكل الذي صيغت فيه اتفاقية 1819 وملابساتها. بحيث أن مهندسي الاتفاقية ووسطائها الرئيسيين هما يعقوب بكري والقنصل Deval الذي اشتهر بانحلاله الأخلاقي ونشاطاته

المشبوهة وغير القانونية التي أدت إلى ريبة الداي فيه وسوء علاقته معه وبعمالته لليهود من جهة، ومن جهة أخرى لا يجب إغفال أن الاتفاقية لم يحضرها إلا الفرنسيين، واليهود وممثليهم الذين انخدع الداي حسين بثقته العمياء فيهم..، ونتج عن ذلك تحرير وتوقيع اتفاقية باسم الجزائر والداي لايذكر فيها أي ضمان لحقوق الجزائر والداي، ولا تضمن هذه الاتفاقية سوى حقوق الدائنين من أقارب بكري وشركائه، وأسماء أخرى لم يُعرَف إن كانت حقيقية أم وهمية ومستعارة، أو على الأقل، لم يتم أصلا التأكد من وجودها في الواقع.[260]
ونشير كذلك إلى أنه بعد توقيع فرنسا على الاتفاقية، كان القنصل Deval ويعقوب بكري هما اللذان نقلاها إلى الداي ليوقع عليها في 23 ديسمبر 1819 رغم أنها لا تضمن حقوقه، ورضي بها الداي رغم ذلك من أجل إنهاء الخلاف وتسوية القضية وطي ملفها نهائيا.

على أية حال أدت هذه المناورة إلى عرقلة التسديد وإيقاف إجراءات تسوية هذا الملف الذي أصبح جد شائك ريثما يتم التحقيق في الشكاوي والادعاءات. تجميد فرنسا للوفاء بالمبالغ المستحقة للداي بسبب اعتراض وتظلم الدائنين المزعومين أو الغرماء ريثما يتم الفصل قضائيا في هذه الإشكالية المصطنعة دفع بالداي حسين إلى الاحتجاج وطالب بتحويل البت في هذه الإشكالية أمام القضاء الجزائري لأن القضية عبارة عن نزاع بينه وبين اليهود المحتجين وهم أيضا جزائريين، والقضية بالتالي ليست من اختصاص القضاء الفرنسي. الداي التزم للتعبير على حسن نيته برد المبالغ المستحقة وحتى قيمة الدين بكامله لو ثبت أن لهؤلاء الغرماء حق في ما يدعون في مدة 24 ساعة. لكن هذا الاحتجاج لم يأت بنتيجة و"بقيت الحكومة الفرنسية تماطل وتاليران (Talleyrand) يخادع" وشركة بكري– بوشناق تتآمر، ودوفال يتلاعب... وعندما طال الانتظار دون نتيجة، وجه الداي حسين رسالة يوم 1826/08/26 إلى وزير العلاقات الخارجية البارون De Damas جاء فيها: "نرجو من سيادتكم بعد استلامكم لهذه الرسالة تسوية الديون التي على فرنسا مع Nicolas Pléville ممثل خادمنا يعقوب بكري".[261]
لكن السلطات الفرنسية التزمت الصمت إزاء هذا الطلب ..، وكان هذا استفزازا آخرا وإهانة إضافية للداي حسين.

فضلا عن ذلك، يؤكد محمد داده، استنادا إلى مصادر غربية، أنه ابتداء من هذا التاريخ، أي 1826، عمد يعقوب بكري وريث الديون والشركة بمساعدة القنصل Deval إلى تنفيذ سلسلة من التجاوزات داخل الإيالة من دسائس ومؤامرات وتلاعب وغش منّ أجل استفزاز الداي وتوتير علاقاته بفرنسا..، انتهت إلى تبادل التهديدات بينه وبين فرنسا، ثم إلى الحصار الذي أقره مجلس الوزراء في أفريل 1827، قبل أن يكمل القنصل Deval آخر حلقات المؤامرة بتمثيله "لحادثة المروحة" في عيد الأضحى من نفس السنة وبالضبط في 29 أفريل 1827م. هذه الحادثة كانت تمثيلية حقيقية يشهد عليها مختلف القناصل الأوربيين الذين حضروها أثناء تقديمهم لتهانيهم للداي بقصره بمناسبة عيد الأضحى. القنصل الأمريكيWilliam Shaler كان من بين الحاضرين ويؤكد بأن Deval تعمد الوقاحة والاستفزاز مع الداي بصورة غير عادية وغير طبيعية لاستدراجه إلى إهانته من أجل تبرير الإعلان رسميا عن الحصار الذي اتُّخذ قراره مسبقا، وكلف القبطان Collet، بعد أن حدث ما حدث في حضرة الداي، بتنفيذه في 16 جوان 1827 بعد أن قام بعدة استفزازات وإهانات للداي وللجزائر، انتهت إلى الاحتلال في 5 جويلية 1830 الذي طوى ملف الديون إلى اليوم. في الحقيقة، يقول ميشال هابارت (Michel Habart) صاحب "الخدعة الكبرى" (Le grand parjure) الذي مُنع من النشر عند صدوره في سنة 1960 بفرنسا، إن مبرّرات إعلان الحرب، الذي قرّرناه في سنة 1827م، لم تكن سوى سلسلة من الاستفزازات تمّ حبكها بباريس من طرف المتطرفين (Les Ultras)، وبمدينة الجزائر من طرف رجل المال يعقوب بكري الذي اشترى ذمة قنصلنا دوفال صنيعة تاليران بمليونين، مع العلم بأن تاليران نفسه، بمبلغ أكبر بكثير باع نفسه لبكري وتحولّ إلى شريك مؤمراته طيلة أكثر من ثلاثين سنة (منذ تموينات الديريكتوار وجيوش مصر والرّاين). وكان بكري يتلذّذ بترديد أنه "كان مُمسكا بالأعرج بين يديه". وعند طرف هذه السلسلة من الدّسائس وُجد دوق أورليانز وحرب الجزائر" [(*)]. ويضيف ميشال هابارت بمرارة: «هكذا كان العرّابون الحقيقيون لهذه الحرب، يعقوب بكري العبقري في الانحراف، دوفال عميل مستفز وعرّاب العاهرات، الأمير دي تاليران أو العشتروت الدبلوماسي، الملك لويس فيليب الذي كان يقول

عنه شارل "هذه الرّوح الأحطّ من حضيرة دجاجي"، الرئيس تيير (Thiers)، أحد أكبر مجرمي تاريخنا، والماريشال كلوزيل..»[**]

يعقوب بكري لم يفوت فرصة فوضى الحملة الفرنسية لتعويض أمواله من الداي نفسه ومن الأثرياء وكبار المسؤولين الجزائريين، كما سنري فيما بعد، بحيث سنُصدَم كذلك مرة أخرى بالبارون De Rothschild الإبن، يقسم غنائم الحملة الفرنسية على الجزائر مع الغانمين من بعيد؛ من لندن وباريس.

و – الاحتكارات والامتيازات التجارية :

الاحتكارات والامتيازات التجارية توضح هي الأخرى بعض الجوانب الغامضة للتحالف اليهودي – الماسوني ضد نابليون بونابرت وضد فرنسا المسيحية، والتي راحت الجزائر ضحية لها نظرا لارتباطها الوثيق بالمصالح الفرنسية في حوض المتوسط باعتبارها ضيعة زراعية استراتيجية وسوق واسعة قابلة للتنشيط مستقبلا، فضلا عن موقعها الذي يجعلها بوابة وأهم مدخل إلى إفريقيا، وقاعدة أمنية خلفية لفرنسا ومصالحها.

لقد تمكنت الشركة اليهودية من اكتساب العديد من الامتيازات والاحتكارات التجارية بالجزائر منذ دخولها المنافسة على المستوى الواسع منذ بداية التسعينات من القرن 18م واستخدمتها كورقة ضغط سياسي جدّ هامة لدعم حلفائها وكسر أعدائها. وتوصلّت إلى هذه المكانة بفضل التنسيق مع Talleyrand قبل ذهابه من وزارة الخارجية الفرنسية بسبب خلافاته مع نابليون، "... واستحوذت على جميع أنواع التجارة بالإيالة واحتكرت عمليات التصدير إلى مرسيليا وليفورن طوال الفترة الممتدة ما بين 1807 و1817".[262]

لقد كانت الشركة اليهودية تعرف جيدا أن الأنجليز لم يكونوا يهدفون إلى الحصول على الامتيازات التجارية بشمال إفريقيا ومنافسة اليهود أو الفرنسيين تجاريا بقدر ما كانوا يهدفون بالدرجة الأولى إلى إنشاء قواعد عسكرية في عنابة والباستيون بالقالة لتأمين وتدعيم مواقعها في مالطا وجبل طارق ..، ولذلك قام بكري بمساعدتهم وطلب من الداي أن يبرم معهم عقدا لأجل محدود كي يسلم لهم محلات ومراكز الفرنسيين ويقضي بالتالي على مواقع ونفوذ فرنسا النابليونية بالإيالة. وفي مقابل ذلك سمح القنصل الأنجليزي لشركة بكري– بوشناق أن

تتعاطى التجارة في أي مكان شاءت من هذه المراكز والمؤسسات. كما قام نائب القنصل "إسكيديرو" بعنابة بتمثيل مصالح الشركة اليهودية مقابل رسوم يأخذها عن الصفقات والعمليات التي يقوم بها ...

إلى جانب ذلك، استعمل اليهوديان نفوذهما لدى الداي ليمنحهما امتياز استغلال غابات الكريستة،[263] وموانئ القل وبجاية وجيجل لتستغلها بمفردها مقابل ضريبة مغرية منذ 1807 و1808م. وعندما سلمت الامتيازات إلى الإنجليز في 1807/01/01م، أصبحت فرنسا مضطرة إلى شراء كل ما تحتاجه عن طريق الشركة اليهودية التي أصبح بإمكانها المراقبة والتحكم في أهم مصادر تموين نابليون بالحبوب ومختلف المؤن والمنتوجات الزراعية وقادرة على الضغط عليه عند الضرورة، ولا ننسى أن انهزامه في موسكو سنة 1812 يعود أساسا إلى نقص التموين بالمؤن الغذائية والحبوب التي كان يحتكرها اليهود في كل مكان.

بقيت الاحتكارات والامتيازات بيد شركة بكري – بوشناق والأنجليز حتى سنة 1817م أي بعد التأكد من هزيمة نابليون وانتهائه بعد معركة Waterloo سنة 1815. بعد 1817 أعيدت بعض هذه الامتيازات لفرنسا لكن بصورة حذرة ومترددة لأن نابليون كان ما يزال إمبراطورا على فرنسا رغم انهزامه في حروبه الأوربية. لذلك بقيت شركة بكري– بوشناق محتفظة بنشاطها التجاري في الإيالة ، وظل ممثلها في عنابة يَحتل محلات الفرنسيين بتشجيع من الإنجليز ومن الداي كذلك الذي رفض التدخل لإرغامه على الخروج منها ربما انتقاما من فرنسا بسبب عدم وفائها بالديون.

إثر خلافات الداي حسين مع الإنجليز، طلب من "إسكيديرو" وكيل شركة بكري–بوشناق أن يخرج من محلات الفرنسيين كي تعاد إليهم وأن يتوقف عن كل نشاط تجاري في عنابة. لذلك خشيت الشركة اليهودية على تجارتها فعمدت إلى تشجيع الداي على اتخاذ إجراء يخدم مصالحها التجارية أو يحافظ عليها وفي نفس الوقت يصب في "الاستراتيجية الروتشيلدية" دون أن يتناقض معها. فاقترحت عليه أن يفتح باب التجارة والمنافسة بالإيالة لجميع الأمم على قدم المساواة لتدعيم خزينة الدولة بأرباح وضرائب مثل هذه الاستثمارات التجارية الأجنبية، فرحب الداي حسين بالفكرة و" .. نشر بيانا سنة 1826م يسمح فيه

لجميع الأمم بصيد المرجان (بالجزائر) وبالتجارة في كل من القالة وعنابة، وهو آخر ما تبقى لفرنسا من المؤسسات الإفريقية ..."[264] وبذلك حافظت الشركة على مصالحها ونفوذها التجاري لكونها الأكثر قدرة على المنافسة من الناحية المالية والسياسية وأكثر هيكلة ودراية بأمور التجارة بالجزائر، من جانب، ومن جانب آخر، تمكنت من الاستمرار في دفع العلاقات الجزائرية – الفرنسية نحو التوتر والاضطراب الذي يخدم أهداف روتشيلد والماسونية ويسهل عليهم دفع الأمور نحو الانفجار. وبعد هذا القرار الذي تزامن مع الرسالة التي وجهها الداي في نفس السنة إلى De Damas للمطالبة بالوفاء بالديون.. والتي كانت مؤشرا لبداية القطيعة السياسية، لم يمض وقت طويل حتى تعمقت حدة الأزمة بـ: "حادثة المروحة"، ثم جاءت الحملة العسكرية في صائفة 1830 لتلغي جميع النزاعات والقضايا العالقة بين الجزائر وفرنسا بالقوة، ولتعلن عن ميلاد ما يسمى فيما بعد :" الجزائر الفرنسية" لمدة 132 سنة، كانت كلها دموع ودماء وتشريد وتجويع ونفي، وتجهيل واستلاب وتغريب، مازالت آثارها تضرب في أعماق الشعب الجزائري إلى اليوم وتهدد أمنه ووحدته .

هذه هي الظروف التي سقطت فيها الجزائر لقمة سائغة في فم الاستعمار الفرنسي سنة 1830م، وهذا هو الدور الذي لعبه اليهود فيها تحت قيادة عائلتي بكري وبوشناق الليفورنيتين، بالتنسيق مع البارون Amshel Rothschild وأبنائه الخمسة، بواسطة شركتهما الشهيرة التي كانت إحدى النماذج المبكرة للشركة المتعددة الجنسيات التي يشهدها اليوم القرن العشرون من حيث مدى مساحة نشاطاتها وسلاسة اختراقها للقيود الحدودية السياسية للأمم وفعالية استغلالها لعوامل الإنتاج..، لكن، وأيضا من حيث بشاعة استغلالها للشعوب وإفقارها وتجويعها وتحطيمها وتقتيلها..، من أجل الربح المادي، والنفوذ السياسي.

على أية حال ، فإن شركة بكري – بوشناق وغيرها من يهود الجزائر الذين ضحوا بمصالح البلاد من أجل مصالحهم الشخصية ومصالح اليهودية والماسونية العالمية لم يكن بإمكانها تحقيق كل هذا النجاح في مخططاتهم ومشاريعهم الاقتصادية – السياسية وإلحاق كل هذه الأضرار بالجزائر إلى حد سقوطها بيد الأعداء لو لم تكن الظروف المساعدة على ذلك متوفرة داخل البلاد

ولو لا ارتفاع معدل ما يسميه مالك بن نبي "معامل القابلية للاستعمار" الذي جسده التدهور الشامل الاقتصادي السياسي الاجتماعي الثقافي الأخلاقي وحتى العسكري للجزائر العثمانية. وذلك الانحطاط لم يكن سوى جزء وامتدادا للانحطاط العام للعالم الإسلامي تحت الحكم العثماني منذ القرن 19 الذي أصبح لا ينعت إلا بـ:" الرجل المريض" والذي انتقلت عدواه حتى إلى الجزائر. ولم يكن نظام الإيالة بالتالي قادرا سوى على إعادة إنتاج عوامل الانحطاط وميكانيزماته وتجذيره بصورة تراكمية خصوصا منذ نهاية القرن 19م.[265] وبقي حبيس الصراعات الشديدة بين الشعب والحكام، التي خلقتها تجاوزات الإنكشارية والنظام الجبائي الجائر، – والتي قادها عموما شيوخ الزوايا– والصراعات بين الإنكشارية والديوان، وبين الكراغلة والديوان، على السلطة. فضلا عن الصراعات مع الخارج؛ مع أوربا التي بدأ تفوقها يظهر مع نهاية القرن 18 في جميع الميادين بفضل حركية عصر النهضة وعصر الأنوار وانعكاساتها العلمية والاقتصادية التي مست جميع جوانب الحياة، وتحالفها ضد الجزائر في مؤتمر Aix-la chapelle 1818، ومع البلدان المجاورة كتونس والمغرب الأقصى، إضافة إلى مشاركتها المرهقة الضخمة في أكبر المعارك العثمانية كمعركة نافارين سنة 1827 التي أتت على ما تبقى من القوة البحرية الجزائرية. وفي وسط هذه الأحداث والميكانيزمات المتشابكة لعب التطفل اليهودي ونشاطه الخفي في إطار تنظيم دولي يمكن أن نصفه بـ الأممية اليهودية(L'internationale-Judaïste) على الاستغلال التاكتيكي والاستراتيجي لهذه الميكانيزمات والتناقضات من أجل الوصول إلى غاياته السياسية – الاقتصادية– الروحية المتمثلة في تحقيق أقصى نفوذ ممكن في العالم لبسط السيطرة اليهودية – الماسونية على العالم كما تشير إلى ذلك أطروحات الكثير من المؤرخين والكتاب مثل Lucien - Cavro Demars والروسي Le Général-Major Spiridovich واليهودي الحاخام George Virebau، ووارنر سومباري، وسيد عبد الرحمن الرفاعي،... وحتى اليهودي Adolphe Crémieux مؤسس الرابطة الإسرائيلية العالمية في 1858[266] ... وغيرهم.

في الجزائر أوكلت هذه المهمة إلى الشبكة اليهودية الليفورنية بزعامة بكري وبوشناق اللذين نجحا في تسخير الطائفة اليهودية وتوظيفها من أجل تحقيق

هذه الغاية، وتسخير ثروات وإمكانيات البلاد لها وإشعال نار الفتن الداخلية واستغلال مختلف التناقضات داخل المجتمع الجزائري وخارجه لبلوغ هذه الغايات التي حددتها اليهودية والماسونية العالمية، وقد حققت ما أرادت ... وهنا تعود إلى الأذهان انتقادات الذين لم يتوقفوا عن الاحتجاج عن الوضع "الجهنمي" لليهود في الجزائر العثمانية والذين أوجزوا هذه المرحلة من التاريخ في البؤس والاضطهاد والظلامية، والجمود والفراغ الذي لايستحق حسبهم أدنى اهتمام أو حتى أدنى تعليق. فهل كانت فعلا مرحلة جهنمية بالنسبة لليهود بعد الذي رأيناه من قبل ؟ بل السؤال الأصح والأكثر واقعية هو : مَنْ ظلم مَنْ؟ ومَنْ اضطهد مَنْ؟ ومن طغى على من ...، طيلة هذه التجربة التي دامت 314 سنة كاملة، من 1516 إلى 1830، ولم تكن فقط مجرد فاصل زمني(intermède) كما يرى مثلا R.Ayoun وB.Cohen [267] ؟.

5 – دور اليهود في سياسة الجزائر الخارجية

مع تنامي دور شركة بكري – بوشناق الاقتصادي، كان من الطبيعي أن يمتد نفوذها إلى السياسة في تلك الظروف التاريخية التي عاشتها البلاد والتي شاعت فيها الرشوة والفوضى السياسية والانحلال، والفلسفة الاقتصادية – التجارية الاحتكارية للسلطة العثمانية القائمة على الارتجال. الشركة انتقلت بسرعة إلى احتكار التجارة الخارجية بعد أن تحكمت في التجارة الداخلية وبذلك أصبحت تراقب الاقتصاد المحلي وتتحكم فيه انطلاقا من موقعها التجاري الاحتكاري. التحالف بين رأس المال والسياسة كان مرحلة حتمية لتطور رأس المال التجاري والمالي اليهودي عبر شركة بكري – بوشناق، لذلك بدأ نفوذ هذه الأخيرة يتوسع إلى مختلف المؤسسات السياسية الحساسة وبلغ حتى السيطرة إلى حد كبير على الدبلوماسية الجزائرية ومراقبة علاقات الجزائر بالخارج وكذلك تحالفاتها واتفاقياتها بحوض المتوسط ...، وحتى مع القارة الأمريكية. ووجهت الشركة القرار الجزائري لخدمة مصالحها محليا ودوليا مستغلة جهل الحكام ونقائصهم أحيانا وتواطئهم أحيانا أخرى وغياب الشعب المحيّد عن صنع القرار بسبب التهميش والإبعاد المقصود الذي تعرض له .

فورّطت البلاد في صراعات خارجية خاسرة لا ناقة لها فيها ولا جمل، ونجحت في استدراجها إلى اتفاقات ومعاهدات جمعت نشاطها العسكري البحري الذي كان موردا اقتصاديا ذا أهمية معتبرة وفوتت عليها أموالا ضخمة كانت في أمس الحاجة إليها، وهيبة دولية وإقليمية كانت من قبل درعا منيعا لها، بغض النظر عن الدسائس والمؤامرات التي حبكوها ضدها مع الإسبان ومع فرنسا، وحتى مع الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1815 كما سنرى ذلك. فكانت الجزائر بالتالي ضحية طيبتها المبالغ فيها وثقتها العمياء أو ثقة حكامها على الاقل في كبار التجار والوسطاء اليهود. نظرة سريعة على علاقات الإيالة بالدول العظمى المسيحية في نهاية القرن 18 وفي القرن 19 وعلى أبرز الاتفاقيات والمعاهدات المبرمة معها والتوترات التي رافقت بعضها، تكفي لإبراز الدور اليهودي في سياسة البلاد الخارجية .. ولنبدأ بفرنسا .

كانت فرنسا تعاني اختناقا اقتصاديا كبيرا منذالثورة الفرنسية بسبب مشاكلها الداخلية والحصار الذيَ ضربته عليها الدول الأوربية وعلى رأسها بريطانيا، ولم تجد سوى الجزائر بالدرجة الأولى والولايات المتحدة الأمريكية الحديثة الاستقلال والقريبة منها إيديولوجيا وسياسيا كمتنفس لتخفيف وطأة الحصارعنها . لكن منذ 1793 دخل الأسطول الجزائري المحيط الأطلسي بقوة بتشجيع من بريطانيا وأصبح يقتنص السفن الأمريكية المحملة بمختلف البضائع والمؤن التي كانت فرنسا في أمس الحاجة إليها،[268] بإيحاء من اليهوديين في حالات عديدة حيث كانا يبلغان عنها إلى البحرية الجزائرية حتى تهاجمها كي يستفيدا منها ماليا وسياسيا بالمتاجرة بالغنائم أوبالوساطة في المفاوضات. فخشيت فرنسا من هذه التحركات الخفية البريطانية التي كانت تسير من مراكزها العسكرية التجارية بجبل طارق لأنها عملت على إفساد العلاقات الجزائرية–الفرنسية من جانب، وعلى تحقيق تقارب بريطاني–جزائري عن طريق استقطاب الداي حسين بالمعاهدات والهدايا من جانب آخر. ولم يكن أمامها مناصا من طلب خدمات Joseph Bacri، شريك بوشناق نفطالي بواسطة قنصلها Valière حتى يدفع الداي حسن إلى عقد معاهدة بين الجزائر والولايات المتحدة سنة 1795م. ونجح اليهودي في ذلك فعلا مقابل عمولات

مالية ومكاسب سياسية جعلت منه الرجل القوي الذي يمكن الاعتماد عليه في أي نوع من المعاملات مع الإيالة. وتم توقيع المعاهدة من الجانب الأمريكي الذي طالما تمنى تحقيقها حفاظا على أمن تجارته نحو أوربا من طرف العقيد "Humphrey" مقابل دفع 725 دولار إسباني فدية للأسرى مع التعهد بدفع أتاوة سنوية مقدارها 24000 دولارا إسبانيا تتضاعف كلما زاد النشاط التجاري الأمريكي. وقد لعب Joseph Bacri دورا وسيطيا رئيسيا حساسا في هذه المفاوضات وكان العنصر المحرك والمنشط لها، بحيث حضر حسب الأسير الأمريكي بالجزائر "كاثكارت" جميع المقابلات والاجتماعات التي أجراها الوفد الأمريكي مع الداي حسن.[269] ساهم هذا الدور السياسي وهذه الصورة القوية التي ظهر بها أمام الدول الأوربية في تدعيم قوته التفاوضية في الأسواق الدولية وتوسيع نفوذ شركته في حوض المتوسط والعالم والتي ستعرف قفزة قياسية مفاجئة في السنوات التالية.

بعد هذه المعاهدة بين الجزائر والولايات المتحدة، بدأت حكومات العالم تتعرف على بكري وبوشناق وتستقصي وتتحسس تأثيرهما في شؤون الإيالة ..، حتى إذا اقتنعت بقوتهما وفعاليتهما أصبحت مشاريعها أو علاقاتها مع الجزائر لا تمر إلا عبر هذه القناة اليهودية التي تحولت إلى مركز النفوذ الأساسي بالبلاد الذي يتحكم في صنع القرارات. ولا نجد أحسن من العبارات التي وردت في رسالة قنصل فرنسا بتونس Devoize إلى وزير الخارجية Talleyrand في 14 آذار 1799 لإعطاء صورة حية وواضحة عن هذا النفوذ السياسي والدبلوماسي اليهودي..، حيث جاء فيها : "... وإذا أرادت حكومة الديريكتوار (Directoire) أن تكظم غيضها وتعقد سلاما موقعا مع الجزائر، فهي لا تحتاج إلا إلى تدخل بكري سريا لهذه الغاية. فإن هؤلاء اليهود لهم نفوذ قوي على شؤون الإيالة بفضل ثقة الداي فيهم، هو ووزرائه الذين يملكون مصالح في مضارباتهم التجارية ..."[270]

لقد توسط أيضا بكري وبوشناق بين فرنسا والجزائر إثر تدهور علاقاتهما أثناء حملة نابليون على مصر وذلك سنة 1798 م. وبفضل تدخلهما، تم إطلاق سراح القنصل والرعايا الفرنسيين الذين حبسهم الداي بمجرد مغادرة مبعوث السلطان للإيالة الذي جاء خصيصا لإجبار الداي الوزناجي على تنفيذ أوامر

الباب العالي. وبفضلهما أيضا عوملوا معاملة حسنة في السجن وصانت الدولة ممتلكاتهم. ولقاء هذه الوساطة والمساعي تجاه فرنسا تحصل اليهوديان على عمولة مالية هامة، فضلا عن تمكنهما من الاحتفاظ بعقود تصدير الحبوب والمؤن المختلفة لجيوش نابليون بمصر، عبر تونس ومالطا، التي وُقّعت في نفس هذه السنة بعد أن كادت الصفقة أن تفلت من يديهما إثر هذا الاضطراب في العلاقات الجزائرية – الفرنسية الذي زعزع ثقة نابليون فيهما. وربما كانت لهذه الصفقة الضخمة دور محفز أساسي في تعطيل اليهوديين لتنفيذ أوامر الباب العالي بإعلان الحرب على فرنسا وعرقلته وتجميده آنذاك، حتى لا تمس المصالح اليهودية ... وهذا ما تطلّب تدخل السلطان العثماني وتهديده باستخدام القوة ضد الداي إضافة إلى تدخل بعض أفراد الجيش في هذه القضية بمحاولة اغتيال في 18/09/1800 م كادت أن تكلف الداي حياته.[271] ولا يستبعد أن يكون الثنائي اليهودي الليفورني قد لعب دورا في إرسال مصطفى الوزناجي رسالة اعتذار إلى نابليون ليشرح له فيها ظروف طرده للقنصل الفرنسي Dubois - Taineville مكرها، داعيا إياه إلى الترصد للقوات العثمانية الإنجليزية التي هدده السلطان بإرسالها إلى الإيالة.

بالإضافة إلى هذا الدور الدبلوماسي لليهود بالجزائر، نذكر أيضا بالدور الذي لعبوه في مختلف القضايا والملفات الجزائرية السابقة الذكر كالاحتكارات والامتيازات التجارية، والديون والمساعدات الغذائية أثناء الثورة الفرنسية، وتموين حملة نابليون على مصر .. الخ، وهي قضايا حساسة وخطيرة تعكس ثقلهم الكبير في السياسة الخارجية للجزائر خلال العهد العثماني الذي يسميه Ayoun وCohen "الفاصل التركي" l'intermède turque .

لقد لعب الثنائي بكري – بوشناق دورا مماثلا في العلاقات البريطانية – الجزائرية سواء في ترضية الداي على بريطانيا وتحقيق التقارب بينهما لمساعدة الأنجليز على الاستيلاء على مواقع فرنسا السياسية والاقتصادية بالجزائر منذ 1809 انتقاما من نابليون بونابرت.. أو في تسيير المفاوضات التي جمعت بريطانيا والداي لصالح البرتغال حليفة الأنجليز، والتي حضرها بوشناق نفطالي بجميع لقاءاتها من بدايتها حتى نهايتها سنة 1800. وقد نجح

هذا الثنائي في موازنة علاقاتهما نجاحا فائقا مع فرنسا وبريطانيا رغم العداء الشديد بين هذين البلدين دون إثارة أي واحد منهما أو ارتيابه في ولاء اليهوديين. كما نجح أيضا بكري وبوشناق في توظيف واستغلال تناقضات البلدين لخدمة مصالح شركتهما ومصالح اليهودية العالمية عامة بحيث كما تعاونا مع الأنجليز لفك النزاع الذي قام بينهم وبين الداي ... أنقذا كذلك العلاقات الدبلوماسية الفرنسية مع الجزائر من التدهور والقطيعة وتمكنا من تفادي الانفجار سنة 1798 ثم سنة 1801 عندما أبطلا مفعول قرار الحرب ضد فرنسا الذي أمر به الباب العالي وعرقلا تنفيذه بنفوذهما لدى مصطفى الوزناجي .. رغم أن هذا الموقف يتناقض مع مصلحة بريطانيا التي اضطر Joseph Bacri سنة 1800م، من أجلها ومن أجل ترميم علاقاتها الدبلوماسية مع الإيالة، أن يركع أمام الداي ويتوسل إليه ليحمله على العدول عن طرد القنصل الإنجليزي والتراجع عن القرار. وبهذا القفز والتلاعب على التناقضات بين فرنسا وبريطانيا والجزائر، نسج اليهوديان علاقات وطيدة وقوية مع هذه الدول على السواء، وتحصلا لقاء وساطاتهما على عمولات مالية ضخمة، وعلى امتيازات تجارية مع كل طرف من هذه الأطراف المتنازعة، مما ساعدهم على الحصول على عقود تصدير الحبوب إلى فرنسا وخصوصا إلى جيوش نابليون بمصر سنة 1798.

في الأخير خرج اليهود أكبر الرابحين والمستفيدين من هذه الصراعات السياسية والاقتصادية والعسكرية والدينية كذلك، لأن ازدياد نفوذ اليهود واللوبي اليهودي في مختلف البلدان أدى إلى الاهتمام الرسمي للحكومات بيهودها وأوضاعهم وأدوارهم في المجتمعات التي يعيشون فيها مما فتح لهم آفاقا جديدة واسعة طوال القرن 19م لم تمنح في بعض الحالات إلا لهم أوصلتهم إلى أكثر المناصب حساسية وإلى أهم وأحسن الأوضاع الاجتماعية – السياسية – الاقتصادية في بلدان أوربا وأمريكا وفي الجزائر وغيرها من البلدان...

أما على مستوى العلاقات الجزائرية– الأمريكية، فقد أشرنا من قبل أن *Joseph Bacri حضر جميع المقابلات التي أجراها القنصل الأمريكي" كاثكارت" مع الداي وحضر أيضا توقيع الاتفاقية من طرف العقيد Humphrey ...، وكلف* بكري بحمل قائمة مطالب الداي إلى الأمريكيين أثناء إجراءات معاهدة *1795* بين

البلدين. وتلقى مقابل هذه الوساطة من Barlow مبعوث الولايات المتحدة الأمريكية إلى الجزائر عمولة بـ: 18000 دولارا أمريكيا.. لم يكن للداي علم بها، لأنها دفعت له أساسا من أجل أن يستدرجه إلى تمديد أجل الدفع إلى ثلاثة أشهر إضافية على الأقل ريثما يحصل المفاوضون الأمريكيون على السيولة الضرورية للدفع والوفاء بما جاء في المعاهدة. في هذه الوساطة كان Joseph Bacri يتظاهر بالولاء للأمريكيين وفي نفس الوقت للداي من أجل ابتزازهما معا. غير أن القنصل الأمريكي كان واعيا بخطر هذا النفوذ اليهودي السياسي الاقتصادي لدى الإيالة وبممارسات بكري وسلوكاته المشبوهة ومناوراته، بحيث ركز عليها جيدا في كتابه:" مذكرات أسير الداي" كاثكارت" قنصل أمريكا في المغرب العربي".

تلقت الجزائر في 1815 ضربة قاسية من الولايات المتحدة الأمريكية بسبب اتباع الداي لنصائح وإيحاءات بكري ، بحيث أغراه هذا الأخير بنقض المعاهدة التي وقعت في 1795م مع الأمريكيين والضغط عليهم لرفع نسبة الأتاوة السنوية المفروضة عليهم تدعيما لخزينة الدولة ولكي يتمكن الداي من تسديد بعض الديون التي كان قد استلفها من بكري في وقت سابق. واستجاب الداي فعلا لهذا التحريض وألغى المعاهدة في 17 جويلية 1812. فكانت المناورة خاسرة 100 % إذ كلفت البلاد والبحرية الجزائرية حياة أحد أكبر وأبرز قادتها وآخر عمالقة البحر الجزائريين وهو "الرايس حميدو" الذي لقي حتفه في معركة بحرية عنيفة غير متوازنة القوى والإمكانيات مع الأمريكيين في مضيق جبل طارق، بالإضافة إلى فقدان سمعتها السياسية وهيبتها الدولية. كما أفقدتها نهائيا الـ 24000 دولار أمريكيا سنويا التي كانت تدفعها الولايات المتحدة الأمريكية للجزائر كأتاوة، لأن الأمريكيين كانوا في أوج قوتهم المادية والمعنوية بعد خروجهم منتصرين على بريطانيا من "الحرب الثانية للاستقلال" "The Second War of Independence" وتوقيع معاهدة "غانت"(Traité de Ghent) سنة 1815. ووجهوا قوة بحرية كبيرة بعد مقتل "الرايس حميدو" "لتأديب" من كانوا يسمونهم :"القراصنة". وتمكنوا من فرض شروطهم بالقوة على الداي.. قبل أن يستمروا في حملتهم الانتقامية حتى بلغوا طرابلس الليبية أين وضعوا النقاط على الأحرف مع حاكمها الذي كان هو الآخر أسيرا لإيحاءات ونصائح اليهودي "فرفرا" الذي كان له تأثير كبير عليه

وكانت تربطه علاقات حميمية وطيدة بنظيره بوشناق. لقد خسرت الجزائر في هذه المعركة الكارثية خسارة سياسية كبيرة كانت مؤشرا على التراجع النهائي للقوة البحرية الجزائرية، الأمر الذي حفّز مختلف البلدان الأوربية على تجربة حظها في عرض المياه الجزائرية وإمطار مدينة القصبة بأطنان القذائف والقنابل في محاولات يائسة للاستيلاء عليها وهي في أصعب وأحلك سنواتها تتخبط في المجاعات والأوبئة والزلازل والثورات الداخلية والجفاف والجراد. فجاءت حملة Exmouth الإنجليزية سنة 1816 التي هدمت جزءا كبيرا من القصبة، ثم حملات الإسبان والهولنديين والدانماركيين والبرتغاليين من 1816/1817 إلى غاية 1824 حيث عاد الإنجليز مرة أخرى في هذه السنة دون جدوى رغم أنهم حطموا جزءا هاما من إمكانيات الدفاع والحصون والبيوت داخل المدينة. كل هذه الأحداث الكارثية أصابت الجزائر إثر "نصيحة" مسمومة قدمها بكري إلى الداي.

أما على مستوى العلاقات الجزائرية – الإسبانية التي كانت مشحونة بالعداء والتوترات منذ سقوط الأندلس والمعارك التي تلتها ..، فإن وجود يهودي واحد من طراز نفطالي بوشناق بالديوان ولو كعضو غير رسمي– لكن أكثر فعالية من الرسميين– كان كافيا لتصفية الأجواء وتطهيرها من مخلفات الصراعات القديمة وترضية الداي مصطفى على الإسبان سنة 1803م. وتمكن اليهودي من إقناعه بتوقيع الصلح معهم. هذا الحلم الإسباني تحقق في 27 ديسمبر 1803 حيث وقعه من الجانب الجزائري نيابة عن الداي وزير البحرية (الوكيلرجي) ومن الجانب الإسباني القنصل الإسباني... بمحضر الداهية بوشناق نفطالي .. كالعادة!

لكن لم تمر سوى بضعة أشهر ليعمد بوشناق نفسه إلى توتير العلاقات الجزائرية – الإسبانية بإقحامه الإيالة في قضية شخصية تخصه لوحده مع إسبانيا. فقد كانت له ديون على القنصلية الإسبانية في الجزائر ماطل الإسبان في تسديدها، فسارع إلى التنازل عنها للداي مصطفى من أجل تسييسها والضغط على الإسبان وإرغامهم على التسديد. ووقع الداي في الفخ، إذ حرك سفنه لاقتناص السفن الإسبانية حتى تفاعلت القضية وتطورت وأخذت أبعادا خطيرة بين البلدين أدت إلى مغادرة القنصل الإسباني للبلاد وكادت الأزمة أن تتحول إلى

حرب واسعة النطاق إثر ظهور الأسطول الحربي الإسباني في عرض مياه مدينة الجزائر قادما لتسوية النزاع بالمدافع. وفي الأخير تم التفاهم والاتفاق على أن تدفع إسبانيا ثلث (1/3) الديون المزعومة فقط من طرف بوشناق.

من بين الانعكاسات السلبية لهذه الأزمة على الجزائر، انتقام الإسبان من الإيالة في وقت لاحق بتسليح باي وهران محمد الصغير "بوكابوس" أثناء تمرده وعصيانه سنة 1813، بحيث صدروا له 200 قنطارا من البارود بواسطة التاجر اليهودي الوهراني داوود كابيزا الذي كان مقيما بنفس المدينة منذ 1792م؛ أي منذ تحريرها من طرف محمد الكبير.

الداي الحاج علي (1809–1815) قمع التمرد بقسوة وأعدم الباي بوكابوس، ولما جاء وقت مصادرة أمواله وكنوزه، اكتشف بأنه في خضم الفوضى والاضطرابات التي عمت المدينة أثناء هذا التمرد، استغل أحد التجار اليهود الوضع ليسرق جزءا هاما من كنوز الباي ويفر بها إلى "مالقة" (Malaga) ثم إلى جبل طارق. هذه الحادثة كانت بداية لتوترات جديدة بين الداي الذي طالب السلطات الإسبانية بإرجاع الكنوز إلى الجزائر وهذه الأخيرة التي رفضت احتجاجاته ومطالبه، وانتهى النزاع إلى الحملة الإسبانية الضخمة على مدينة الجزائر سنة 1817م[272]... كانت البلاد في غنى عنها بعد الزلزال الذي ضرب المدينة والأوبئة والمجاعة التي تخللته، فضلا عن حالة الضعف والإنهاك التي أصابت الدولة والبلاد بعد الحملة الإنجليزية بقيادة إيكسموث Exmouth سنة 1816 التي دمرت المدينة.

جميع هذه المصائب كان وراءها على العموم بكري وبوشناق رؤساء وزعماء الطائفة اليهودية بالجزائر منذ نهاية القرن 18[273]....

إن تأثير بوشناق في السياسة الخارجية لم يتوقف فقط على ما ذكرناه، بل بلغ من القوة أنه كان يستقبل باسم الداي القناصل الأجانب مثل قنصل الدانمارك، والسويد، وهولاندة سنة 1801، "وتَسلَّم منهم الهدايا التقليدية التي تدفعها دولهم إلى السلطات العثمانية في الجزائر. وكان له الشرف كذلك أن يفاوض في معاهدة الصلح بين الإيالة والجمهورية الفرنسية، وأن يقدم للداي في 17 ديسمبر

1801 القنصل الفرنسي الجديد لهذه الأمة السيدDubois-Taineville. وفي 28 أوت 1803 استقبل مبعوث البرتغال السيد "لازارو جوزيف دي بريتو" الذي كلف بالتفاوض بشأن معاهدة السلام، وقام هذا اليهودي بالمفاوضات..."[274] السابقة الذكر. وتجاوز الأمر كل ذلك إلى حد بلوغ بوشناق في 11(كانون الثاني) جانفي 1804م إلى درجة استقبال مبعوث السلطان العثماني الذي كلف بمهمة صعبة في الجزائر وتحادث معه قبل أن يمتثل أمام الداي نفسه.[275]

لقد كان النفوذ السياسي – الاقتصادي اليهودي وبالا على الجزائر خاصة عندما بلغ أقصى وأخطر درجاته في عهد الداي حسن والداي مصطفى الوزناجي أي من 1792 إلى 1805م. لذلك كان متوقعا أن ينفجر الغضب والنقمة الشعبيين والمعارضة السياسية حتى من داخل النظام ضد هذا الانحراف السياسي الخطير الذي يمنح احتكار القرارات لمجموعة صغيرة من الناس لا تمثل سوى أقلية صغيرة من المجتمع، فضلا عن السمعة السيئة لهذه المجموعة سواء لدى المسلمين أو اليهود أو في الخارج... لكن المؤسف هو أن النقمة كانت إذا انفجرت لا تستثني الأبرياء، ولا يسلم منها أحد وتوضع جميع الطائفة لليهودية للمدينة في قفص الاتهام والمحاسبة على الجرائم الاقتصادية والتلاعبات السياسية المضرة بالمجتمع. بوشناق مثلا كان محل نقمة وغضب الجميع. بسبب تصديره للقمح أثناء المجاعات، وبسبب استغلاله البشع للناس من حيث الأسعار الاحتكارية المنخفضة جدا التي كان يفرضها على المنتجين، وبسبب تدخلاته السياسية التي أضرت بالعديد من المسؤولين والإطارات والعسكريين ومست بنفوذ وامتيازات القبائل، إلى حد أن التعيينات في المناصب العليا أصبحت تتم حسب درجة الولاء والطاعة له.

تصرفات بوشناق، من أكبر نتائجها وإفرازاتها أنها حققت إجماعا لجميع الشرائح والطبقات الاجتماعية والتنظيمات المهنية والحرفية والمجموعات العرقية– الثقافية، في مدينة الجزائر على الأقل، على كرهه وترقب الفرص للانتقام منه والتخلص من مناوراته التي أضرت بالجميع.[276]

6 – ثورة الإنكشارية

تبلورت جبهة المعارضة هذه بصفة عفوية وتشكّلت تتكون من المسلمين؛ حضر، وقبائل، وتجار وحرفيين وفلاحين... حول نواة قوية تتمثل في الجيش الإنكشاري. واستغل هذا الأخير هذه النقمة الشعبية وهذا التذمر العام من اليهود سياسيا ليتحرك بقوة ضدهم وضد النظام الذي بدأ يفتقد للشرعية الشعبية ولو أن نتائج هذه الحركة لم تستمر سوى بضعة سنوات، وذلك لأن الإنكشارية نفسها عانت الكثير من الاضطرابات والانقسامات والمشاكل التي كان من بين أسبابها تدخلات بوشناق وبكري في شؤونها الخاصة وفي علاقاتها بالداي والديوان. وقد انتهت مثل هذه التدخلات إلى العزل والقتل في بعض الأحيان لبعض القادة العسكريين الكبار ومصادرة أملاكهم أو نفيهم في أحسن الأحوال.

بلغت هذه المعارضة والتذمر الشعبي والعسكري ضد النظام وحلفائه اليهود ذروتهما منذ سنة 1801م عندما بدأتا تُعبّران لأول مرة عن نفسيهما بطريقة عملية بمحاولة اغتيال فاشلة ضد نفطالي بوشناق في 18 أيلول 1801 في إطار عملية انقلابية شاملة للنظام ككل بما فيه الداي ووزرائه أعضاء مجلس الديوان بقصر الجنينة،[(277)] حسب Bloch الحاخام اليهودي الذي كتب "The Jews of Africa" (يهود إفريقيا) .

ثم تكررت المحاولة يوم الجمعة 27 جانفي 1804 ضد بوشناق، لكنه نجا بأعجوبة، ولم تصبه طلقات الجندي الإنكشاري الذي نفذ العملية سوى بجروح خفيفة في يده. وفي اليوم الموالي لهذه الحادثة، يذكر الحاخام صذقعص أن الجنود الذين كلفهم الداي مصطفى بحماية بوشناق وحراسته بعد أن أصبحت حياته في خطر أوقفوا أحد الجنود الأتراك بعد أن تسلل داخل دار اليهودي، قرب ساحة الشهداء الحالية، حيث كان يتأهب لاغتياله. بعد هذا الحادث قرر الداي منع الإنكشارية من حمل السلاح خارج الثكنات ..!!

هناك أيضا روايات أخرى عديدة عن محاولات اغتيال بوشناق نفطالي ..، لكن أغلبها تميل أكثر إلى الأسطورة والخيال منها إلى الواقع .. قد تكون من نسج الخرافات الشعبية اليهودية افتخارا واعتزازا. أما الرواية المؤكدة والمجمع عليها هي أن جنديا تركيا اسمه "يحي" اغتال نفطالي بوشناق في يوم 28 جوان 1805

على الساعة السابعة صباحا بطلقات مسدس عند خروج هذا الأخير من قصر الجنينة[278] حسب Bloch. الحاج أحمد الشريف الزهار يختلف مع Bloch في بعض التفاصيل ويؤكد بأن اغتيال بوشناق تم "... بعد صلاة الجمعة قرب قصر الجنينة بمكتب وكيل بايلك الشرق..."، وهو مكتب كان يتردد عليه كثيرا. وأضاف بأنه "... مات لحينه ..(و)... لما سمع أهل البلد بموت الذمي وبقاتله، فرح المسلمون بذلك .. وشكروا لذلك التركي صنيعته ...".[279] على إثرها قامت انتفاضة عامة بالمدينة شارك فيها المسلمون بمختلف طبقاتهم وشرائحهم وحرفهم من جند، وحضر ، وأندلسيين ، وقبائليين وبسكريين و إباضيين ... انتقم فيها المسلمون من اليهود في الحي اليهودي بالقرب من باب الوادي بالقتل والنهب والسلب والحرق وكانت دار نفطالي بوشناق هي الأولى في قائمة الهجوم على اليهود وممتلكاتهم، بينما فر بكري، ولقي 42 يهوديا حتفهم حسب Eisenbeth والزهار،[280] أو أكثر حسب آخرين. ولو لا تدخل القنصل الفرنسي الماسوني Dubois taineville بإنقاذه لـ: 200 يهودي آخر منحهم الحماية الفرنسية بمقر إقامته لكانت حصيلة الانتقامات أكثر درامية.

تم تواصلت الانتفاضة التي استغلها الجنود الإنكشاريون في اليوم الموالي من أجل السلب والنهب فضلا عن قتل حوالي 200 يهودي[281] دون أن يحرك الداي مصطفى الوزناجي ساكنا. غير أن الخزناجي تحرك بعد أن بلغت الفوضى حدا خطيرا وأمر بالقبض على كل من تسبب في النهب ومارسه، وبصلب عشرة منهم يوميا أمام الناس وعاقب المسلمين بشدة حتى أن الاعتقالات ومختلف العقوبات أصبحت عشوائية طوال عدة أيام. الزهّار علق عليها قائلا:".. استمر ذلك البلاء أياما"[282]

أثناء هذه الأحداث لجأت عائلة نفطالي بوشناق إلى سفينة سويدية كانت راسية بالميناء، بينما تكفل الداي مصطفى باشا بحماية Joseph Bacri وابنه David وعائلته حسب موريس إيزنبث. في نفس الوقت الذي قمع فيه الداي الشعب بشدة لوقف المجازر التي كانت تحدث في الحي اليهودي ولتهدئة الوضع والتحكم فيه لجأ إلى إبعاد عدد من كبار اليهود إلى تونس لإرضاء الثائرين والمتمردين من الإنكشارية ووعدهم بأن لا يستقبل أي يهودي في

قصره مستقبلا بعد كل الذي حدث، بمعنى أنه سيضع حدا للتسلط اليهودي على شؤون البلاد وقراراتها. هذا الإجراء كان الداي مصطفى يهدف به إلى إنقاذ نظامه والمحافظة على سلطته.، لكن كان الأوان قدفات ، وكانت الإنكشارية قد عينت أحمد خوجة بن علي، خوجة الخيل السابق المعزول بإيعاز من بوشناق نفطالي، دايا جديدا على الجزائر.، ثم طوت ملف هذه القضية نهائيا بقتل الداي مصطفى الوزناجي في 30 أوت 1805م على التاسعة صباحا ذبحا. جثته سحبت في شوارع القصبة طوال اليوم ثم رميت عند باب عزون. الهدوء لم يعد نهائيا إلى المدينة بعد مقتل بوشناق إلا في 30 جوان.

بعد هذا الحدث الأخير، قرر الداي الجديد مصادرة بعض أملاك بوشناق بالمدينة، مما أدى ببعض أفراد عائلته وبعض أفراد أسرة بكري أيضا إلى الهجرة إلى ليفورن. كما عين الداي أحمد خوجة بن علي Joseph Cohen-Bacri خليفة لنفطالي بوشناق على رأس الطائفة اليهودية. ومن إفرازات هذه الأحداث كذلك، هاجرت من الجزائر إلى تونس في الفترة التي تخللت مقتل بوشناق ومصطفى الوزناجي من 1 إلى 10 جويلية 1805م، 100 عائلة يهودية ومن الجزائر إلى ليفورن 200 عائلة أخرى من بينها أسرة نفطالي بوشناق وقسم من عائلة بكري السابقتي الذكر، وذلك قبل إصدار السلطة الجديدة لأوامر رسمية بالطرد الذي كان متوقعا.[283]

اتخذ الداي قرارا أجبر بمقتضاه Michel Busnach و Joseph Bacri وابنه David على البقاء بالمدينة ريثما تصفى حساباتهم مع الإيالة. وإذا كان بكري وابنه قد خضعا للقرار في انتظار ما ستسفر عنه الأيام، فإن ميشال بوشناق قد تمكن من الفرار في 12 أكتوبر على متن سفينة فرنسية ضاربا بقرار الداي عرض الحائط.

في 10سبتمبر1805م، تكهربت العلاقات من جديد بين اليهود والداي أحمد خوجة بن علي بسبب حسابات مالية قديمة بين بكري والإيالة وضريبة ثقيلة فرضها على كل الطائفة اليهودية عقابا لها على تجاوزاتها، أو بالأحرى تجاوزات بعض أفرادها وزعمائها، في حق المسلمين والبلاد ككل. اليهود احتجوا على هذه الإجراءات العقابية ورفضوها، فعمد الداي إلى سجن Joseph Bacri وابنه David لمدة عشرة أيام بسجون العبيد "بالمَزْوَرَ" بالميناء حيث كانا يقضيان ليلهم ، ويشتغلان في محجرة باب الوادي نهارا.

طوال تلك الأيام، لم يكف القناصل الأجانب عن طرق أبواب قصر الداي توسلا أو توسطا لإطلاق سراحهما ..! وحقق الداي طلبهم بعد عشرة أيام فقط من الاعتقال ...، في حين كان سفراء وقناصل بأكملهم إذا دخلوا سجون الداي لا يخرجون منها إلا بشق الأنفس رغم تدخل حكوماتهم والهدايا والترجيات مثلما حدث مع James Cathcart. هل تقف اليهودية والماسونية العالمية وراء هذا التحول السريع في قرار الداي، أم أن سر الإفراج تقف وراءه رشاوي الطائفة اليهودية بالمدينة للقناصل وللداي بواسطتهما ...؟

بعد خروج Joseph Bacri وابنه من السجن ، وشى بهما David Duran إلى الداي، فأعاد هذا الأخير David Bacri ثانية إلى السجن مع صديق له يدعى "موسى عمار" في 4 ماي 1806م خصوصا وأن عائلة بكري لم تف بالتزاماتها المالية التي بقيت عالقة اتجاه الداي. بعدها عين David Duran رئيسا للطائفة، وكان أول ميغورشيميا يعين على رأس الطائفة اليهودية في الجزائر بعد أكثر من 50 عاما، أي منذ بروز نفوذ يهود ليفورن واحتكارهم لزعامة الطائفة. لكن كثرة الشكاوى اليهودية ضد David Duran دفعت الداي إلى التعجيل بعزله وتعويضه بـ: Ben TIBI في 20 جويلية 1806، قبل أن يطلق سراح David Bacri بعد بضعة أسابيع وإعادته لترأس الطائفة من جديد إلى غاية 4 فيفري 1811 حيث أعدمه الداي حاجي علي (1809–1815) بسبب وشاية أخرى من David Duran الذي اتهمه بالتآمر مع الباب العالي على الداي. David Duran هو الآخر، لن يعيش بعد هذا التاريخ أكثر من بضعة أسابيع لأن الداي أعدمه لانعدام ثقته فيه وتخوفه من دسائسه، وذلك في 19 أكتوبر 1811م. وهنا خلت الساحة لـ Joseph Bacri لاعتلاء رئاسة الطائفة اليهودية بالجزائر وتقلد هذا المنصب لفترة وجيزة نفي بعدها إلى مدينة ليفورن حيث قضى بقية حياته تاركا مكانه لشقيقه، أحد الأبناء الأربعة لابن زقوطة (Michel Cohen-Bacri)، وهو Jacob Cohen-Bacri[284] الذي كان قد أقام لعدة سنوات بمرسيليا وباريس ...

لقد كانت نهاية نفطالي بوشناق ومصطفى الوزناجي ضربة شديدة لليهود والمصالح اليهودية بالإيالة أدخلتهم فترة اضطرابات وتوترات، يهودية – يهودية خاصة، إلى غاية وصول يعقوب بكري إلى رئاسة الطائفة وتعويض

الفراغ القيادي الذي ظهر بها بعد إعدام David Duran وDavid Bacri ونفي Joseph Bacri. يعقوب بكري سيتكفل أيضا بتسيير الشركة وتنفيذ مشاريعها التجارية والسياسية محليا ودوليا..، وكتب له أن يعيش طويلا حتى يرى بأم عينيه الأحلام التوسعية الفرنسية تتحقق حلقة بحلقة في الجزائر في جويلية 1830م.[285] وقد كانت فرحته عظيمة هو وجميع اليهود حينما رأوا الجيوش الفرنسية تدخل إلى القصبة الجزائرية من الباب الجديد، تصول وتجول بين قصر الداي المحاذي له وقصر الجنينة بساحة الشهداء، وبين باب البحر ورأس تافورة وباب عزون.. حتى حصن الإمبراطور بـ:"الثغرة" (Tagarin)..، وكانت سعادته لا توصف وهو يشاهد "دار الجهاد" تحتضر وتتهاوى تحت ضربات الجيوش الفرنسية وقائد الحملة الجنرال دوبورمونت يوقع وثيقة وفاتها إلى الأبد...

لقد كان سقوط الجزائر بيد الاحتلال الفرنسي تراجيديا عالمية صدمت حتى أعداء البلاد وأدهشتهم..، لأن الجزائر لم تكن أي بلد كان بعد الهيبة القوية التي صنعتها لنفسها بفضل بحريتها وأسطولها لمدة ثلاثة قرون.. لكن بالنسبة ليهودها وعلى رأسهم يعقوب بكري وبن دوران كان هذا السقوط التراجيدي يوما تاريخيا سعيدا من أسعد الأحداث التي عاشوها في الجزائر .. واللعنة على بقية الجزائريين والروابط التي تربطهم بهم والتي تمتد جذورها إلى أكثر من ألفي سنة ...!

IV- اليهود... واحتلال الجزائر:

بعد أن تمكن اليهود من تحطيم الاقتصاد الوطني المنهك والتحكم في مراكز القرار والمؤسسات السياسية الرئيسية في جو من الضعف والانحطاط العام للدولة – الذي لم يكن سوى إفراز للانحطاط الشامل"للرجل المريض" وارتداد لانحطاط كل العالم الإسلامي – وبعد أن استدرجوا البلاد إلى قبرها عبر آليات الاحتكار والديون بمساعدة حلفائهم وعملائهم المحليين والخارجيين...، بعد كل هذا جاء الصيف المنتظر.. وحان وقت الحصاد، وشاءت الأقدار..(؟) أن يتكرر سيناريو احتلال مدينة وهران في 1509 وأن يعود اليهود إلى خياناتهم المعتادة لشعب كان وما زال مصابا بعمى التاريخ...!

1) مات الملك.. عاش الملك.. "VIVA LES FRANCHAIS..."!

عندما أنزل ءهينؤايصـ ظط قائد الحملة الفرنسية على الجزائر جيوشه بسيدي فرج وبدأ يتقدم نحو مدينة الجزائر وذاع خبر الإنزال..، ترك أغلب اليهود المدينة خوفا على حياتهم ولجأوا إلى الجبال وبالضبط إلى مرتفعات بوزريعة، في حين كان المسلمون يخوضون معارك انتحارية ويقاومون بشراسة. لكن عندما بدأت تتأكد أخبار فشل المقاومة بعد معركة "اسطاوالي" واقتراب الجيش الفرنسي من المدينة، وبعد اتصالات سرية بقيادته انقلبوا فجأة ضد المسلمين وأطلقوا العنان لاعتداءاتهم و" لانتقامهم" من الأتراك بشكل فظيع بالقتل والنهب والتخويف والتهديد وإثارة الهلع في النفوس، وحتى بالوشايات لدى المحتلين لكي يجبروا الناس على التنازل لهم عن أملاكهم أو بيعها لهم، في أحسن الأحوال، بأسعار رمزية " قبل أن يأخذها الجنود الفرنسيون منهم عنوة وبدون مقابل" كما كانوا يروجون بين الناس. اليهود أصبحوا بين عشية وضحاها جبهة معركة بسيكولوجية – بوليسية داخلية تمهد الطريق للجيوش الفرنسية التي كانت على مشارف باب الوادى والباب الجديد.

وبمجرد ما دخل DE BOURMONT وجيوشه المدينة منتصرين، سارع اليهود إلى استقبالهم " كمنقذين" و"كمحررين" لهم من العثمانين في فرحة عارمة وحفاوة إستثنائية من حيث ضخامتها وما سخره اليهود من أجلها. الرياء

والتملق كانا واضحين إلى حد إثارة كره واشمئزاز الكثير من الفرنسيين. أحد الجنود الذين شاركوا في الحملة على الجزائر كتب يصف سقوط المدينة وتصرفات اليهود أثناء ذلك بالعبارات التالية: "... اليهود خرجوا يطوفون الشوارع فرحين مبتهجين، ونظرا لأنه كان مُحرّما عليهم سابقا ارتداء غير الثياب السود والزرق الغامقة، والركوب في شواع المدينة، فقد ارتدى بعضهم قلنسوات، وراحوا يجوبون الشوارع راكبين على البغال، وكانت الآلاف تسير خلفهم وتصيح" يهودي مسرّح!" وكانت أصوات هذا الشعب القذر تتعالى بهتافات " فيفا لافرانصيص – يحيا الفرنسيون!" فأظهر بذلك انه شعب غير جدير بالحرية... وكان في مقدمة اليهود الذين سارعوا للترحيب بالغزاة يعقوب بكري ومنافسه دوران اللذان قدما للقائد الأعلى هدايا فاخرة على الطريقة الشرقية..".[286] وكتب يهودي في " Les Juifs d'Algérie Images et textes " بأن "اليهود الذين كانوا يجوبون الشوارع كانوا ينحنون على ركباتهم ساجدين ليلثموا أقدام وأيدي الجنود (المحتلين)..، وكانوا يتنقلون في الأزقة مختالين وفرحين وهم يرتدون ألبسة ناصعة، وينهالون بالضرب على الأتراك الذين يصادفونهم في الطريق مرددين "Viva Les Francais" والأهالي يصفقون لهم بسخرية واستهزاء...".[287] أما كلود مارتان Claude Martin فكتب عن موقف اليهود من الاحتلال بأنه"... في يوم 29 جوان 1830 التقت طليعة الجيش (الفرنسي) باليهود الأوائل على منحدرات جبل بوزريعة الذين فروا بمجرد رؤيتها، فأدى ذلك إلى الاعتقاد بأنهم من قناصة (Tirailleurs) الأعداء وإلى إطلاق النار عليهم..، ويقول شاهد عيان " كانوا يقبلون أقدامنا وهندامنا" طلبا للرحمة...، ثم تظاهروا بصخب تعبيرا عن اعترافهم (بالجميل)..، (ليلحق بهم) يعقوب بكري ودوران ليعرضا خدماتهما على القائد العام". في هذا السياق كتب هنري كلاين (Henri Klein) المستشرق والباحث الفرنسي في علم الآثار بمدينة الجزائر في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م: «أعطى بكري ودوران لقائد الجيش (دوبورمونت) يومي 3 و4 جويلية 1830، تحت قصر الإمبراطور، قائمة الأشياء والسلع التابعة للبايلك. وبذلك تمّت معرفة أن دار مصطفى باشا (دار الصوّف)، دار عزيزة–باي، ودار أحمد باشا كانت مملوءة بالصوف».[*]

ويضيف كلود مارتان: "ولما شعروا بأن (ما حدث) يعتبر تطورا ثمينا (في الوضع بالجزائر) راحوا يتنافسون بشدة على الولاء (للمحتلين) وأعطوا دوبورمونت كل المعلومات والأسرار التي كان يحتاجها (عن الإيالة) من بينها تبليغهم إياه وإرشاده إلى المكان الذي كان محفوظا فيه كنز الجزائر (أو كنزالقصبة).[288]
الكاتب يذكر أيضا في كتابه(Les Israélites Algériens de 1830 à 1902) بأن الحملة الفرنسية استعملت قبل وصولها إلى الجزائر يهود مرسيليا الذين كانوا قد أقاموا في الجزائر لعدة سنوات أو كانوا جزائريي الأصل، كمترجمين للاتصال بالأهالي لإتقانهم اللغة العربية..، كما دعمت لاحقا جهازها المكلف بالترجمة منذ سقوط الإيالة بيهود المدينة وضواحيها وآخرين قدموا من مختلف نواحي البلاد لاقتسام الغنائم المادية والسياسية على أشلاء وجثث الأهالي المسلمين.[289]
أشار كلود مارتان أيضا بنوع من الاستغراب والاستنكار إلى الانقلاب اليهودي المفاجئ ضد المسلمين والاعتداءات الفظيعة التي قاموا بها منذ سقوط المدينة، حيث أكد بأن هؤلاء اليهود".. شرَعوا في حملة من الانتقامات ضد المسلمين (بحي) البحرية، وبقصر الداي حيث نهبوا كل ما عثروا عليه من سلاح وجواهر وألبسة الدايات الفاخرة.. لإعادة بيعها" تحت هتافات "Viva Les Franchais"»، أي يعيش الفرنسيون.[290]

يعقوب بكري ودوران تنافسا بقوة منذ دخول المحتلين إلى البلاد على الحظوة لدى دوبورمونت وفاز بها بكري الذي أصبح من أقرب مستشاري القائد العام وحصل منه بالتالي على امتيازات كبيرة له ولطائفته. وبذلك أكد يهود ليفورن مرة أخرى تفوقهم على الميغورشيم واليهود الأهالي واحتفظوا بزعامة الطائفة إلى إشعار آخر.

منذ أول يوم وطأت فيه أقدام المحتلين الجزائر، تشير المصادر التاريخية الفرنسية أن اليهود انحازوا للفرنسيين واشتغلوا لديهم بالجوسسة والتقاط الأخبار عن الأهالي المسلمين بفضل معرفتهم الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التاريخية للبلاد. ومنذ اليوم الأول عينت القيادة العسكرية الفرنسية اليهودي serror، أحد أحفاد الحاخام سيمون بن سماح دوران المعروف بـ: راشباش،[291] رئيسا للمترجمين غير الفرنسيين، وبذلك

كان الاتصال بين الجيش الاستعماري والسكان يتم عموما عن طريق اليهود في السنوات الأولى للاحتلال، سواء كانوا يهود مدينة الجزائر وغيرها من المدن الجزائرية أو يهود مرسيليا الذين كان قد أشار إليهم كلود مارتان في كتابه.

كان انحياز اليهود إلى المحتلين واضحا لا يوجد أي التباس حوله ولذلك لم يحاول أي من الكتاب والمؤرخين اليهود مناقشته لأن الوثائق موجودة تشهد على ذلك في الجزائر وفي فرنسا، واكتفوا بتبرير هذا الانحياز بمختلف المبررات. وكانت خير طريقة لذلك هي تصوير وضع اليهود في البلاد أثناء العهد العثماني بأبشع الصور وإبرازه كمرحلة ظلم وظلام واضطهاد وعنصرية عرقية ودينية حتى يظهر ترحيبهم بالمحتلين وتعاونهم معهم ضد الجزائريين واعتدائهم على أملاكهم وأمنهم وأعراضهم نتيجة طبيعية معقولة لقرون الحرمان والاحتقار والعبودية حسب ما توحي به مختلف المؤلفات اليهودية خاصة. ولقد أدت بشاعة التنكر اليهودي للمسلمين، وفظاعة الخيانة، والماكيافيلية المتطرفة التي طبعت تصرفات اليهود إلى تقزز الكثير من الجنود والضباط الفرنسيين المحتلين منهم وكرههم مسبقا والحذر من مناوراتهم. وربّما كانت هذه الانطباعات السيئة التي بقيت في أذهان هؤلاء المحتلين عن اليهود نواة المعاداة لليهود التي ظهرت في النصف الثاني من القرن 19م، وقبل ذلك كانتِ بوادر خلافات بعض الضباط السامين معهم قد بدأت تظهر منذ مفاوضات الأمير عبد القادر مع ديميشيل Demischel ثم مع الجنرال بيجو Bugeaud الذي بلغت قطيعته مع يهود الجزائر إلى حد المحاكمة الشهيرة بينه وبين يهوذا بن دوران في Perpignan.

2) النهب ... السلب .. الابتزاز.. والوعيد:

استغل اليهود نفوذهم الجديد لدى سلطات الاحتلال والفوضى التي كانت تخيم على البلاد وحالة القلق واللاأمن والخوف من الغد المجهول التي سيطرت على نفوس المسلمين منذ دخول القوات الفرنسية إلى مدينة الجزائر ليبتزوا الناس ويستولوا على أملاكهم. وقد جرُّد أغلب الأثرياء والأتراك عامة من ثرواتهم وممتلكاتهم بالتحايل والتهديد والوعيد وحتى بالقوة مما دفع بعدد

كبير من أشراف وأثرياء المدينة من عرب وأتراك إلى الهجرة إلى إسطمبول، وإزمير، وإلى تونس، والمشرق العربي خصوصا إلى بلاد الشام خوفا من التهديدات وغيظا من الحالة المتردية التي وصلت إليها البلاد التي لم يهضموا سقوطها بيد المحتلين الفرنسيين. وقد قدّرت صحيفة Le Moniteur ليوم 12 جانفي 1831 عدد الأهالي الذين تركوا المدينة لاجئين إلى المشرق إلى غاية هذا التاريخ بعشرين ألف جزائري. هؤلاء اليهود كانوا يطلبون منهم التنازل عن ممتلكاتهم الثمينة وحتى عن أثاثهم وإلا كان مصيرهم النفي أو القتل بمجرد الوشاية بهم لدى سلطات الاحتلال. وحققوا من هذه الممارسات الانتهازية الجشعة ثروات ضخمة ساعدتهم على تحقيقها معرفتهم بشؤون البلاد معرفة جيدة، إذ كان اليهود من أدرى الناس بكل ما يتعلق بأمور الإيالة المالية وبثرواتها وأغنيائها لكونهم اشتغلوا في جميع مؤسساتها المالية بدءا من أجهزة الضرائب إلى مؤسسات ضرب السكة. وكانوا يحرضون الجنود الفرنسيين ويدلونهم على المحلات والبيوت التي تحتوي على الأشياء الثمينة لينهبوها كي يعيدوا هم شراءها منهم بأسعار بخسة رمزية قبل إعادة بيعها بأضعاف أثمانها لاحقا عندما تهدأ الأوضاع وتستقر.

يعقوب بكري الرئيس الجديد للطائفة اليهودية بالجزائر قام هو نفسه بعدد من الاحتيالات والابتزازات في حق الأشراف المسلمين، أتراك وجزائريين، وفي حق إطارات ومسؤولي البلاد بالتهديد والوعيد مستغلا ضدهم نفوذه الجديد لدى دوبورمونت.

كلود مارتان يذكر مؤكدا بأنه تحايل حتى على ممثلي منطقة القبائل بإيهامهم بأنه تدخّل من أجلهم لدى السلطات الاستعمارية لتخفيف حجم الضرائب والتعويضات عنهم ..، وتلقى منهم لقاء ذلك عمولات مالية مجانا. العديد من العمليات المشابهة لهذه قام بها اليهود ضد الجزائريين المسلمين، يضيف كلود مارتان، ودفعت بالكثير من الأغنياء والأشراف إلى مغادرة الإيالة غيظا. كما علق عنها قائلا أن أخبار مثل هذه العمليات الابتزازية ...، أحدثت ضجة في الجزائر ونقمة كبيرة على الإدارة الاستعمارية وقائدها العام الذي كان يحمي اليهود، وجعلت قنصل إنجلترا"... يستغرب هذا التأثير المثير لليهود على الجنرال الفرنسي". [292]

حمدان خوجة يقدم هو الآخر شهادة عن انتهازية اليهود والنذالة المتطرفة لبعضهم التي جلبت الكره لجميع الطائفة من طرف المسلمين ومن طرف بعض الجنود والضباط المحتلين. حمدان خوجة كتب في "المرآة" بأن "...اليهودي بكري... (أجبر) ... وكيل الحرج على أن يبيع له أثاثه الثمين وأنواعا مختلفة من أمتعة الزينة، تقدر قيمتها بحوالي 50 ألف فرنكا، بأربعة آلاف فرنكا، ولم يدفع له ذلك نقدا، وإنما وقع له سندا لأجل معلوم ، ثم نفى وكيل الحرج هذا، وبقيت القيمة عند بكري ...".[293] ثم يعلق مغتاظا ومتحسرا على ما آلت إليه الأوضاع، ومن تسلط اليهود على المسلمين، قائلا:"... وهناك ألف قضية تشبه هذه.. وإنني لا أكاد أصدق أعيني، بالرغم من أن الأمور كانت تقع بمحضري. "!![294]

حمدان بن عثمان خوجة لم يكن يصدق أثناء هذه الأحداث ما كان يراه بعينيه من نذالة وجشع وانتهازية .. لكن تعرضه هو شخصيا للاعتداءات اليهودية سيدفعه إلى تصديق كل هذه الأشياء وأكثر، بحيث طالته الابتزازات اليهودية حتى في مهجره بباريس لتأخذ منه أمواله بالتهديد والوعيد. إبنه علي بن سيدي حمدان خوجة روى بأن أباه لم ينج من الوشايات اليهودية هو الآخر لدى السلطات الفرنسية حتى أنها زعزعت ثقتها به وعكرت علاقاتها معه، مضيفا :".. لقد كان اليهود يترددون على بيته يوميا ويقولون له :" إعطنا المبلغ الفلاني وإلا سينفيك الجنرال إلى مالطا أو مكان آخر"، وهذا ما كان يحصل بالفعل للآخرين، كنا نغدق الأموال على من نخشى بأسهم ونرد كيد الآخرين ...".[295]

لعب اليهود أيضا دورا رئيسيا في عملية اختلاس وسرقة كنوز القصبة وأموال الداي حسين الشخصية، فيروي Esquer نقلا عن الأخبار المتناقلة في عصره بأن اليهوديين بكري ودوران (Duran) هما اللذان دلا القيادة العسكرية لجيش الاحتلال على المكان الذي كانت تحفظ فيه كنوز الداي وأموال الدولة التي اشترك الضباط والجنود الفرنسيين في نهبها والسطو على جزء منها قبل تحويل الباقي، وهو ذي قيمة جد عالية، إلى فرنسا.[296]

فيما يخص الأموال والأملاك الشخصية للداي "فمن بين الشيء القليل الذي تمكن الداي من إنقاذه، عانى، بالسخرية الدهر، أيضا من تهاون أحد المصرفيين الذين أوكل إليهم تسيير شؤونه (حسب التحقيق الفرنسي حول اختلاس الكنز

لسنة 1852).. (بحيث تلاعب بأمواله واختلس نسبة هامة منها). هذا المصرفي.. هو شخص يدعى Blackerie: واسمه قد لا يكون، كما يبدو، سوى تحريف غير مقصود لـ: Bacri، هذا الشخص مرتبط بمصرفي باريسي آخر، أصله من ليفورن، هو Maguermann، كان من المفروض أن يلعب دورا كبيرا في استرجاع الصفائح الذهبية (lingots) المختلسة، لكنه سطا على مبالغ ضخمة مقتطعة من رؤوس أموال الداي "..."[297] وتولى بكري وبن دوران نقل جزء بسيط من أموال الداي هذه التي كان هذا الأخير ينتظرها بمنفاه في إيطاليا قبل ذهابه إلى الإسكندرية، واختلس منها بكري شخصيا لوحده ، على الأقل ما قيمته 1 مليون فرنكا من الذهب والجواهر. وبلغت عشرات الملايين، من الجواهر والذهب، المختلسة من كنوز الداي بطرق مماثلة حتى إلى بنوك Haguermann بباريس، وبنوك روتشيلد بلندن[298] ..!!؟

مثل هذه الحقائق والوقائع لا يمكن أبدا العثور عليها في المؤلفات اليهودية عن يهود الجزائر، لأنها تعبر بكل بساطة وبقوة عن تجاوزات خطيرة وعن انتهازية وخيانات في أبشع نماذجها وأفضع صورها، ومجرد ذكرها وإبرازها دون حاجة إلى تعليق، هو في حد ذاته إدانة شديدة فاضحة لطائفة يهودية، أو لبعض شخصياتها على الأقل، عاشت على أرض الجزائر وداخل المجتمع الجزائري آلاف السنين في ظروف أقل ما يمكن قوله عنها أنها كانت من أحسن ظروف الحياة التي عاشها اليهود في كافة أنحاء العالم في ذلك الوقت. آنذاك كانت بعض البلدان الأوربية تمنعهم حتى من دفن موتاهم ومن دخول بعض المدن وتحدد بصرامة أوقات تجولهم وخروجهم إلى الشوارع. لهذه الأسباب لا نكاد نجد آثارا لمثل هذه التجاوزات في مختلف المراجع اليهودية حول الجزائر.

الفضائح السياسية والأخلاقية الكبيرة التي ارتكبها اليهود في الجزائر من سرقات واحتيالات سياسية- مالية وجرائم وتجاوزات مختلفة، لم تستثر اهتمام لا موريس إيزنبث ولا أندري شوراقي وAyoun أو Cohen، ولا Bel-Ange أو Chemouilli أو Allouche أو غيرهم بحجة أن العهد العثماني لم يكن سوى "فاصلا زمنيا" طغى عليه الجمود والظلامية ولا يحتاج إلى أي اهتمام يذكر، ولو أن ماحدث أثناء الأيام والأشهر الأولى للاحتلال فيه من الفظائع والبشاعات ما

يستوجب دراسات كاملة قائمة بذاتها. لكن مثل هذه الأحداث إذا سلُطت عليها الأضواء لا يمكنها إلا أن تثير الضغائن وتحيي الأحقاد القديمة في الجزائر ضد اليهود، الذين كانوا ذات يوم جزائريين، وبالتالي فالتطرق إليها في الظروف الدولية والإقليمية الحالية لا يخدم "السلام العربي- الإسرائيلي" ويعرقل التحضير البسيكولوجي للجزائريين لإقامة علاقات جزائرية - إسرائيلية وتطبيعها.[299]

المؤلفون اليهود حصروا تناولهم للانقلاب الجذري في المواقف اليهودية تجاه الجزائر في البحث عن التبريرات المقنعة قدر الإمكان لهذا التحول الذي يرفضون تسميته باسمه:أي الخيانة. وقد أوجز الكاتب اليهودي الماسوني الجزائري الأصل Lucien Sabah هذه المبررات في كتابه حول الماسونية بمدينة وهران، بتقديم وعرض أهمها. الكاتب يفسر الموقف اليهودي من الاحتلال الفرنسي للجزائر بمبررات دينية أولا قائلا بأن "ريباش كان قد قال في إحدى تعليقاته ودروسه بأن "الكلمة الإلهية سوف تأتي من فرنسا"، "Le Verbe divin vient de France" فسمحت هذه المقولة لليهود الجزائريين باعتبار الجنود الفرنسيين كمحررين لهم بعد عقود الظلم التركي ..."[300] وذلك معناه حسب الكاتب أن المسألة عقائدية - روحية ولا حيلة لليهود أمامها لأن الاعتقاد بمقولة ريباش عبادة ويدخل في الممارسة الدينية اليهودية. ويعرض الكاتب بحرص شديد موقف اليهود من الاحتلال لكن بالنسبة للمحتلين وليس بالنسبة للجزائريين أي من زواية العلاقات اليهودية الفرنسية دون أخذ العنصر الجزائري المسلم بعين الاعتبار وكأنه غير موجود، ولا يتطرق إلى موقف الجزائريين إلا نادرا وبصورة عابرة ثانوية متممة فقط لرؤيته الفرنسية - اليهودية للاحتلال، فيقول مثلا:" لم يكونوا ضد الاحتلال بل رحبوا به ... لكن أساءهم بروز منافسين جدد على التجارة، مما جعل بعضهم يندم على أيام الأتراك". لكنه لا يقول أبدا أن اليهود كانوا ضد المسلمين ...إلخ .

Lucien Sabah بعد عرضه لمشاركة اليهود في احتلال وهران، وليس في خيانة الجزائريين بوهران، وتذكيره بمقولة Joseph Cohen-Bacri رئيس الجالية اليهودية بوهران بأن دفاع اليهود عن فرنسا هو دفاع على النفس، ينتهي إلى استخلاص المبرر الذي يراه هو منطقيا حيث يقول :"... لقد كان على اليهود

الاختيار بين فرنسا التي ضمنت لهم الحياة والكرامة خاصة، والجهاد الإسلامي الذي كان يهددهم. في الحقيقة كان عليهم الاختيار بين الحياة والموت، بعيدا عن مصالحهم المادية المباشرة..."![301]

ومع ذلك يعترف Henri Chemouilli من بين اعترافاته النادرة بأخطاء اليهود في حق بلادهم ، بأن:" اليهود الجزائريين كانوا أول "الحرْكة " لدى فرنسا.[302] ورغم ذلك عندما دعت جبهة التحرير الوطني يهود الجزائر إلى الالتحاق بالثورة في الرسالة المؤرخة بـ :2 ماي 1956 وصفتهم بـ :" المواطنين الأعزاء" (Chers Compatriotes)و بـ :" أبناء وطنها" وذكّرتهم بأن الجزائر التي لا ولم تعتبر أبدا اليهود "أقل من الحيوان" كما فعلت فرنسا "، "كانت.. مأوى لجميع الإسرائيليين وأرض حرية لهم يفرون إليها من القمع والاضطهاد الديني .." وترجتهم باسم الأخوة الجزائرية " اعتناق الجنسية الجزائرية ".[303]

الهوامش

1) أنظر Histoire des Juifs en Afrique du Nord. André Chouraqui. 87, 88. Edition Hachette. France 1985.

2) أنظر: La Saga des Juifs en Afrique du Nord: André Chouraqui. Hachette. 1972.

3) أنظر المرجع السابق وكذلك: Histoire des Juifs en Afrique du Nord: André Chouraqui.p 288.

4) Juifs d'Algérie, hiers et aujourd'hui. Mémoire et Identités: Joëlle-Allouche Benayoun et doris Bensimon. Bibliothèque Historique Privat. 1989 Toulouse, France

5) Les juifs de Mostaganem: Norbert Bel-Ange. collection: Histoire et perspectives Méditéranéennes. Edition l'Harmathan 1990. Paris.

6) Une Diaspora méconnue. Les juifs d'Algérie: Henri Chemouilli. Edité par Paris imprimerie- Paris publication. Paris 1976.

7) Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire. Richard Ayoun et Bernard Cohen. Judaïque Une Bibliothèque juive. Ed. Jean Claude Lattés. Paris 1982.

8) موريس إيزنبث هو الحاخام الكبير لمدينة الجزائر (Le Grand Rabbin d'Alger) في الثلاثينات من هذا القرن، ترك عدة مؤلفات عن يهود الجزائر قبل وفاته في سنة 1957 بمدينة الجزائر.

9) Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque (1516-1830): Maurice beth. Extraits de la Revue Eisen Africaine, Année 1952. société Historique Algérienne. Faculté des lettres. Alger.

10) Islamic Society and the West: Bowen and GIBB. VOL1. part 2. London 1957 ،
ذكره د/ابراهيم عبده وخيرية قاسمية في: "يهود البلاد العربية". منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث.

11) عصر الفتح العثماني: من 1514 إلى 1544
عصر البيلربايات: من 1544 إلى 1587
عصر الباشوات: من 1587 إلى 1659
عصر الآغوات: من 1659 إلى 1671. منذ بداية عصر الآغوات تقلصت سلطة الباب العالي في الجزائر وأصبحت شكلية تقريبا.
عصر الدايات: من 1671 إلى 1830.

12) البحرية الجزائرية لعبت دورا بارزا في هذه الأحداث وكان لها الفضل على سبيل المثال في إنقاذ حوالي 70000 لاجئ من الأندلس من الاضطهاد الإسباني، فضلا عن المعارك البحرية المتتالية التي صنعت هيبة الدولة الجزائرية إقليميا، أنظر: تاريخ الجزائر العام: الجزء الثاني: عبد الرحمن الجيلالي .

13) Algiers in the Age of the corsairs: William Spencer; University of Oklahoma Press: Norman .U.S.A 1976.

14) تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن الجيلالي: ص : 278، جزء 2، المطبعة العربية. الجزائر. 1955.

15) المرآة :حمدان بن عثمان خوجة ص :

16) أشهر وأخطر هذه الثورات الداخلية : ثورة بن لحرش بين 1800 و1808 في الشرق، وثورة بن الشريف في الغرب في العشرية الثانية من القرن 19.

17) لما كان الحكام مؤقتين كان همهم الأكبر هو جمع المال والتحضير للتقاعد خصوصا في المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني للجزائر، علمًا بأن هؤلاء لم يكونوا جزائريين، لذلك وجهوا اقتصاد البلاد نحو المغامرات البحرية التي تحولت إلى مورد اقتصادي – مالي رئيسي للدولة تمكنت من تغطية العجز شبه الدائم في ميزان المدفوعات للإيالة. لذلك ارتبط مصير الاقتصاد الجزائري بالموارد البحرية وبالتالي بوضع الأسطول البحري. الاقتصاد الجزائري حوّل إلى اقتصاد ريعي تدهور بمجر ضعف الأسطول البحري. دخل الجزائر من البحر بلغ سنة 1616 أكثر من 85 % من مجموع الدخل السنوي لمدينة الجزائر، أنظر: مدينة الجزائر ...: عبد القادر حليمي ... ص 283.

18) أدى الجفاف والجراد معا في مدينة الجزائر، على سبيل المثال، سنة 1787م إلى تفشي مرض الطاعون وقضائه على عشرات الآلاف من السكان، وكان معدل الوفيات اليومي بسبب هذا الوباء يقدر بحوالي 500 شخص.

19) Roland Bacri: كاتب وصحفي بصحيفة Le Canard Enchaîné الفرنسية. حسب الباحث الموسيقي والفنان صالح المهدي، التونسي، في كتابه "الموسيقى العربية (La Musique Arabe) يعود أصل اسم "بوشناق" إلى كلمة Bosniack أي البوسني نسبة إلى البوسنة بيوغوسلافيا سابقا.

20) Les Juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire. Richard Ayoune et Bernard Cohen, p: 81-82.

21) Norbert Bel-Ange. Les juifs de Mostaganem. P 30. Edition l'harmathan Paris 1990.

22) لم تبق منذ ذلك الوقت سوى بعض الهجرات الفردية أو العائلية من المغرب الأقصى أو تونس أو من إيطاليا لم تؤثر لضعفها على العدد الإجمالي أو على النزعات الثقافية الموجودة وتوازناتها.

23) في سنة 1787 قضى الطاعون بمدينة الجزائر على 1774 يهوديا، وحدث نفس الشيء تقريبا لنفس السبب ما بين 1817 و1819.

24) أدت ثورة الإنكشارية سنة 1805م إلى مغادرة 300 عائلة يهودية، مقيمة بمدينة الجزائر، البلاد نحو تونس وإيطاليا ... أنظر حول الوضع الديمغرافي اليهودي بالجزائر :" مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها قبل 1830": عبد القادر حليمي، ص: 251 ... 255 و257، وكذلك:
Maurice Eisenbeth. Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque. p: 150.

25) ذكره Maurice Eisenbeth. Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque. p:150.

26) أنظر Maurice Eisenbeth. Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque. ص. 150. جميع هذه الأرقام التي قدمها الكتاب والرحالة والأسرى الأوربيين منقولة عن المرجع المذكور.

27) عبد القادر حليمي يذكر بأن هذه الفترة التي تَسلّط فيها اليهود على البلاد في ظروفها الصعبة أثناء حكم الدايين حسن باشا ومصطفى باشا انتقل فيها عدد اليهود بالمدينة من 7000 سنة 1789م إلى 10000 سنة 1808، أنظر : مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل 1830. ص : 255.

28) أنظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب.

29) Maurice Eisenbeth. Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque. p: 150.

30) Schwarzfuch يتحدث عن جاليات وليس جالية يهودية في الجزائر. أنظر: Les juifs d'Algérie et la France (1830- 1855)

31) R. Ayoun et B. Cohen. Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire. p: 108.

32) La Saga des juifs en Afrique du Nord: André Chouraqui. p: 92, 93.

33) السفارديم: بالعبرية وLes Sépharades بالفرنسية، هم اليهود الشرقيون، أما يهود أوربا والغرب عامة فهم : الأشكينازيم: Les Ashkénazes

34) صالح باي حكم بايلك الشرق وقسنطنية في النصف الثاني من القرن 18م لمدة تزيد عن 20 سنة وكان محبوبا لدى الجميع وحتى لدى اليهود، توفي مقتولا بانقلاب من الداي بالعاصمة، وخلّدته الثقافة الشعبية بأغنية "صالح باي" الشهيرة التي برع فيها مغني المالوف المحبوب الحاج محمد الطاهر الفرقاني.

35) اليهود في الجزائر في العهد العثماني،،منذ مطلع القرن 18 حتى 1830: محمد دادة، ص: 49، رسالة ماجستير في التاريخ ، دمشق 1985.

36) أنظر: No more for ever: A Saharian Jewish town: Briggs lloyd and lami Guéde, published by the peabody Museum Cambridge. Massachussets. U.S.A. 1964.

37) أنظر Les juifs de la Kabylie: Marie Bugéja Ed. sollal Alger 1928 وكذلك Les juifs d'Algérie Hier et Aujourd'hui. p: 22 Benayoun... في ص 15 تقول الكاتبة:

«pour certaines tribus (Kabyles) pour qu'on ne les confonde pas, ils annonçaient "Nouknid'oudaï"-(Nous sommes juifs)».

وتضيف بأن لهم نفس الطقوس والملابس مع القبائليات المسلمات من قندورة وبرنوس أبيض كما لبست النساء اليهوديات نفس لباس القبائليات المسلمات باستثناء الشَبْرْلَة وطريقة ستر الوجه الأقل احتشاما، نفس الأطعمة أيضا .

38) أنظر نفس المرجع : ص 22.

39) الأوروبيون ويهود أوربا أطلقوا عليها تسمية :"اليهود الأهالي" (Les juifs indigènes)

40) هذه الكلمة العبرية التي أطلقت على يهود المغرب العربي الذين عاشوا بالمنطقة قبل قدوم اليهود المطرودين من إسبانيا مفردها : Tochab.

41) هذه الكلمة العبرية مفردها: Mégorach ومعناها: الهارب أو المطارد (le fugitif)، أطلقت على اليهود الذين فروا من إسبانيا إلى المغرب العربي.

42) Se sont des bérets rouges qu'ils ont hérités de leur environnement hispanique.

43) Benayoun et Allouche: juifs d'Algérie Hier et Aujoud'hui ص 275.

44) حسب Léon l'Africain جلب الميغورشيم معهم إلى الجزائر وشمال افريقيا عدة أمراض معدية مثل مرض الزّهري: le syphilis، مما أدى إلى بعض النفور منهم في البداية.

45) Halakha: partie législative du Talmud. Règles qui déterminent les pratiques quotidiennes de la vie religieuse نصوص تشريعية من التلموذ تقنن الممارسات الدينية اليومية.

46) Les juifs de Mostaganem: Norbert Bel-Ange. P:30

47) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص: 97.

48) عندما زار الأنجليزي Lancelot Addison الجزائر أو دولة بارباريا (the state of Barbary) كما يسميها الأوربيون عامة وصف يهودها بالعبارات التالية:" اليهود في هذه القارة يشبهون كثيرا الإسبان والبرتغاليين في هيئتهم ولون بشرتهم ..." (أنظر L.Addison: the Present state of the jews in Barbary، ص :11. J.C for W. CROOKE 1675. London). وهذا يعني بأن العنصر الليفورني لم يكن قد حلّ بعد في الجزائر أو أن نسبته كانت قليلة جدا إلى حد تاريخ زيارة الكاتب للبلاد أي في بداية السبعينات من القرن 17، لأن هذا الأخير لم يلاحظ فيها سوى العنصر الميغورشيمي كما يبدو من الأوصاف التي ذكرها.

49) هؤلاء بقوا منغلقين على أنفسهم ويرفضون في حارتهم بغرداية حتى اليهود الأجانب والغرباء عن الحارة لأنهم أجانب في نظرهم أنظر No more for ever p:3

50) حكومة العالم الخفية Major-General count cherep-spiridovich، ترجمة : مأمون سعيد، تحرير وتقديم :أحمد راتب عرموش. صدر عن : قصر الكتب. البليدة – الجزائر.

51) ذكره محمد دادة في رسالة ماجستير تاريخ، عنوانها :" اليهود في الجزائر في العهد العثماني"، ص: 37. دمشق 1985.

52) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire، ص: 11. النص الأصلي هكذا "Alger... sa communauté juive originaire s'était délabrée, disloquée. Les juifs Algérois s'arabisaient".

53) يُعتبر يافيل وموزينو وسرور وبن فراشو من ألمع نجوم الموسيقى الأندلسية في مدينة الجزائر وفي البلاد كلها، يافيل كان وراء تأسيس فرقة المطربية التي ستتفرع عنها عدة فرق وجمعيات منها : الجزائرية – الموصلية، وكان له فضل كبير إلى جانب محي الدين باش طارزي في إحياء الفن الأندلسي وإعادة بعثه وتدوين نوباته.

54) أنظر No more for ever: a saharian jewish Town: Briggs LLoyd and Norina Lami Guède: p3

55) نفس المرجع .ص :3. أصل يهود غرداية يعود إلى يهود تمنطيط الذين فروا من حملة المغيلي ومن بعض العائلات (يقال أربعة) من جزيرة جربة التونسية استقدمها شيوخ غرداية قبل أحداث تمنطيط بستة أو سبعة سنوات من أجل التكفل ببعض الحرف كالصياغة .

56) كان تلميذا وأحد أتباع كبار رجال الدين اليهود في وقته مثل Hasdai Grescas و Perez Ha Cohen و Nissim Gerundi. مجيئه إلى الجزائرتم برفقة سيمون بن سماح دوران وسلمون دوران. أنظر A.Chouraqui: Histoire des juifs en Afrique du Nord. ص: 162.

57) مثلا: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire: Richard Ayoun et Bernard Cohen

58) الأصل : And the Lord spoke unto moses, go unto pharaoh, and say unto him Thus "saith the lord, let my peopel go. Exodus 8:1. Bible.

59)واستقبلهم المسلمون فعلا بالكرم والترحاب في حين أظهر اليهود الأهالي نوعا من البرودة والرفض اتجاههم، خوفا من منافستهم الاقتصادية من جانب، ومن جانب آخر لأنهم اعتبروهم "عصرانيين" فوق اللزوم إلى حد الابتعاد عن الديانة اليهودية الأصلية.

60) الأسطورة تقول أن "رب النقاوة" قدم من إسبانيا ممتطيا أسدا ضخما ويحمل حول عنقه ثعبانا كبيرا استخدمهما بطريقة بطولية للوصول إلى الجزائر، والاستقرار في تلمسان. ضريحه يحج اليه اليهود من كل حدب وصوب سنويا بالقرب من مدينة ندرومة وتقام في جنانه حفلات دينية ضخمة وطقوس متنوعة دينية – فلكلورية.

61) عرفت الطائفة اليهودية في إطار هذا التضامن ظاهرة "خبز الصدقة" وهو خبز كان يوزع على الفقراء على عتبات الدكاكين اليهودية والمعابد كل مساء سبت. هذه الظاهرة قديمة أيضا لدى المسلمين صباح كل جمعة واستمرت إلى غاية السبعينات.

62) نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره (1800 – 1830): أرزقي شويتام. ص : 105. رسالة ماجستير. الإسكندرية 1988، نقل هذه المعطيات عن Alger, étude géographique et d'histoire urbaine: Léspés.

63) السفتجة استعملت بكثرة من طرف اليهود الجزائريين في تجارة العبيد المسيحيين ويقال أنها ظهرت لأول مرة على يد اليهود بالجزائر. السفتجة ساهمت بعد ذلك في تسيير وتطوير حجم المبادلات الدولية وزادت في سرعة دورة رأس المال التجاري وفي مردوديته.

64) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص: 81،82.

65) حكومة العالم الخفية : Major - General count cherep - spiridovich، للمزيد من التفاصيل.

66) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص 108، 109.

67) عائلة Stora تنحدر من بنت Ribach الوحيدة. بينما عائلتا: Serror و Ben Haïm و Ben Duran فهي منحدرة مباشرة من: Rashbash. راشباش ترك ابنا وحيدا اسمه Salomon. ورث عنه علوم الفقه اليهودي وأصبح رجل دين محترما. اشتهرت عائلتا صرور ودوران بكونهما أعطتا الجالية اليهودية الجزائرية أبرز شعرائها الدينيين. أنظر Claude Martin: Les israëlites algériens de 1830 à 1902 ص: 13. Edition Héraclés Paris, 1936 عائلتا: Oualid و Ayache قد تكونا من نفس الأصل أيضا أي من Rashbash.

68) مدينة الجزائر: نشأتها وتطورها قبل 1830: عبد القادر حليمي. ص: 266.

69) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire. ص: 111. ويذكران أيضا في ص: 78،79، 80 أن أغنياء اليهود كانوا أثناء العهد العثماني عادة تحت حماية القنصل الفرنسي. مما يوحي بتعاملهم الشديد الحذر مع الإيالة وبالتالي إما بالشعور باللاأمن وفقدان الثقة في السلطات الجزائرية أو بالنوايا السيئة المبيتة التي كانوا يحسبون بدقة كل الحسابات للنتائج التي قد تنعكس عنها.

70) التهرب من الضرائب كان يتم بمختلف طرق ووسائل الغش كتزوير وثائق الهوية واستعارة أسماء أوربية أو الاشتراك الوهمي مع أوربيين لدفع ضرائب أقل أو عدم الدفع أصلا. مثلا كانت الإيالة تفرض تعريفة جمركية قدرها 5% على الأوربيين و 10% أو 12 % على الجزائريين المسلمين واليهود على السواء، لذلك فإن انتحال التجار اليهود لهوية أوربية يسمح لهم بدفع 5% فقط بدلا من 10 أو 12 %، فضلا عن إعفائهم من الدفع بالموانئ الأوربية.

71) كتاب الجزائر: أحمد توفيق المدني :ص: 148، ENAL 1984، الجزائر.

72) درجة الاندماج كانت رغم ذلك تتفاوت حسب الأصول الثقافية – العرقية وقدم الإقامة بالبلاد. فبينما كان التوشابيم لا يختلفون عن المسلمين في شيء إلا في أمور الدين، يتناقص عمق هذا الاندماج مع الميغورشيم حتى يكاد يغيب مع الليفورنيين الذين يمكن القول أنهم لم يكونوا جزائريين إلا بقدر ما يدره عليهم هذا الانتماء من أرباح. فهم جزائريون في التجارة والمالية والسياسة فقط.

73) لقد سبق أن تناولنا هذه المسألة في الفصل الأول حيث أوضحنا بأن اللباس الخاص جاءت به ظروف خاصة أمنية على العموم تزول إجباريته بزوالها، كما ارتداه الكثير من اليهود عن طوع واختيار بدليل أن الذين أرادوا أن يلبسوا كالجزائريين غير اليهود لم يمنعهم أحد من ذلك.

وحتى عندما ألغت السلطات الاحتلالية هذا اللباس بقي العديد من اليهود متمسكين بارتدائه حتى وقت متأخر من القرن 20م. ويذكر R.Ayoun و B.Cohen في ص: 95 من Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire بأن "الشيّكلة" و "الكبوُسية" التي كان يرتديها الميغورشيم بقيتا مستعملة حتى القرن 20م من طرف بعض اليهود رغم إعفاء سلطات الاحتلال لهم من ارتدائها.

74) La saga des juifs en Afrique du Nord: André Chouraqui. Ed Hachette. 1972. France.

75) ذكره Haedo ، ورد في M. Eisenbeth: Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque. p: 142.

76) يقول Jean Doubdan الذي زار الجزائر في القرن 18 أنه بينما في "…. الأراضي الإيطالية، و أراضي البابا، والدوق الأكبر (Le Grand Duc) يلبسون قبعات صفراء لتمييزهم عن غيرهم.. هنا لا تفرض عليهم أية علامة خصوصية لهذا الغرض… ونجدهم مقيمين مختلطين بغيرهم دون أي تمييز …" ذكره R.Ayoun وB.Cohen في المرجع السابق الذكر . ص: 107.

77) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص: 113.

78) يذكر بعض الباحثين الغربيين واليهود في الأنثربولوجيا والثقافات الشعبية أن الفلكور اليهودي عامة فيه الكثير من بقايا وأثار الطقوس الفنيقية والقرطاجنية والبونيقية ..، التي انتقلت عبر التاريخ حتى إلى البربر والعرب؛ كاستعمال الشموع في الطقوس الروحية والأعياد …

79) الميغورشيم والليفورنيون أنفسهم رغم تأثيرهم على التوشابيم ودفعهم تدريجيا خارج محيطهم الثقافي الجزائري وبتسارع منذ الاحتلال، لم يشعروا هم الآخرون بجاذبية عادات التوشابيم التي تبنوا العديد منها شيئا فشيئا. ولولا ذلك لما أمكن التعايش بين هذه الفئات الثلاث. ربما يمكن اعتبارحتى الرّوح الاندفاعية (L'excés de zel) التي يتميز بها الجزائريون من بين ما أخذه الميغورشيم والليفورنيين من الجزائر وتميزهم جميعا هذه الخاصية اليوم عن غيرهم من اليهود بفرنسا مثلا، ومعروف أن يهود الجزائر وإن كانوا غير متضلعين كثيرا في علوم الديانة اليهودية لبساطتهم وشعبيتهم إلا أنهم شديدو الحماسة والحمية والغيرة على دينهم، مثلهم مثل الجزائريين المسلمين.

80) انظر: A.Chouraqui, La saga des Juifs ص:133،134، وكذلك Eisenbeth…

81) نفس المرجعين (والصفحات) السابقي الذكر.

82) أنظر: B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire . ربما يعود سبب الانتشار الواسع لظاهرة تقديس الأ ولياء في أوساط الميغورشيم وحتى لدى بعض الليفورنين في أ وقات لاحقة إلى كون هذه المعتقدات الخرافية موجودة منذ القديم لدى اليهود بدرجات متفاوتة.واليهود عامة اشتهروا بالسحر والشعوذة أكثر من غيرهم منذ القديم .فالجزائر قد لم تزد على توفير الأ جواء والمناخ لإحياء هذا التراث القديم لدى اليهود الجدد بها.

83) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص93. فيما يخص ضريح "ربي إفرايم النقاوة"، اتخذ المجلس الطائفي (Le consistoitre Israelite) لمدينة تلمسان إ جراءات توسيعه وتهيئته في السبعينات لتحسين قدرات وظروف استقباله لجموع الزوار والحجاج السنويين.

84) يذكر L.Voinot في كتابه Pèlerinage Judéo-musulman au Maroc مايلي : "En ce qui concerne le Maroc seulement, trente et une observations de santons revendiqués à la fois par les musulmans et des juifs, 14 observations de saints musulmans qui reverent les juifs, enfin 50 cas certains de saint juifs invoqués par les musulmans".

85) André Chouraqui: La saga des juifs en Afrique du Nord : ص" 139، 140. يبدو أن الكاتب يتكلم عن فترة الاحتلال. لكن مع ذلك إذا ثبتت أقواله فهذا معناه أن زيارة اليهود لأضرحة المسلمين كانت مألوفة حتى أثناء الفترة العثمانية ولم تأت فجأة من العدم، والامتزاج الفلكلوري – الثقافي لم يكن يهوديا – يهوديا فقط بل كان إسلاميا – يهوديا كذلك.

(*) Le Dernier Devoir: Albert Bensoussan p: 59.

86) A.Chouraqui: La saga des juifs en Afrique du Nord. ص 140.

87) Rabbi simeon (ou) Shimon Bar Yochai و هو أحد أكبر القديسين اليهود المدفونين بفلسطين مثل: Rab Hari المعروف بـ: Isaac Louria أحد مؤلفي القبالة (la Kabbale)، وRabbi Meir Baàl Hanes. مؤسسو حركة القبالة في القرن 2م هما Bar Yochai و Rab Hari.

88) (83 A.Chouraqui: La saga des juifs en Afrique du Nord. ص 142.

89) نفس المرجع : ص: 142

90) نفس المرجع : ص: 142

91) نفس المرجع: ص: 143. لقيت هذه الطقوس والعادات تقبلا وتشجيعا حسب A.Chouraqui، من طرف الأوساط الحاخامية بشمال إفريقيا، رغم أنها في الجزائر قوبلت في بعض الأحيان بنوع من التشدد من طرف الحاخامات نظرا لمبالغات البعض إلى حد الخروج عن المألوف، ولاستغلال البعض الآخر لمثل هذه الطقوس أو بعض مظاهرها لأغراض تجارية ربحية بحتة.

92) Joëlle Allouche -Benayoun: juifs d'Algérie, Hier et Aujourd'hui, Mémoire et identités et Doris Bensimon, P: 75. Ed privat. Toulouse 1989.

93) A.Chouraqui: La saga des juifs en Afrique du Nord. ص : 114 و134.

94) أنظر: No more for ever : Asaharian Jewish town Briggs (LLoyd cabot) and lami Guède والیهود في الجزائر كانوا محبين للمرأة التي تنجب أكبر عدد ممكن من الأطفال خصوصا إذا كانوا ذكورا، والمرأة ذات الخصوبة المنخفضة، ينظر إليها بنوع من الاحتقار لأنهم يعتبرونها مقصرة في مسؤوليتها من حيث الإنجاب. في القرن 17 كان يسود مثل يهودي يقول :" رجل بدون أطفال هو رجل بدون حياة (A man childless is liveless). كما يستقبل أهل العرس ولادة البنات ببرودة كبيرة بينما تقام الحفلات الصاخبة لمدة أسبوع إذا كان المولود ذكرا، لأنه يضمن استمرار النسل أنظر:

Lancelot Addison: The present state of the jews (more particularly relating to those of Barbary) 1675. London. Priented by J.C. for William Crooke. p: 54 et 58.

95) Les Takanoth d'Alger أي القوانين الإثنا عشر التي وضعها ريباش، يذكر حيّون وكوهين أنه شرّعها سنة 1421 في... Les juifs d'Algérie: 2000 ans . بينما يرجح الحاخام الكبير Maurice Eisenbeth سنة 1394م وينسبها إلى راشباش، اللهم إلا إذا كان يقصد نسبها إليه بأنه هو الذي دونها وسجلها. وقد يكون التاريخ الذي قدمه Eisenbeth أصح لأنه رجل دين متضلع ومطلع على تاريخ يهود الجزائر التي عاش فيها مدة طويلة وتوفي بها سنة 1957. أنظر Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque، ص: 163.

96) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص 105

97) L. Addison : The Present State ... ص: 42.

98) أنظر فيلم "الغفران الكبير" Le Grand pardon للمخرج الفرنسي اليهودي الجزائري الأصل روجي حنيني Roger Hanin.

99) فـقـنـضررشـ.م يذكر في :"..." The present state of ص: 173 أن الكسكسو كان من أهم أطباق اليهود في القرن 17.

100) "الرشتة" و"المحمصة" و"التريدة" و"الدويدة" كانت من بين الأطعمة اليومية لدى يهود الجزائر.

101) والي داده يوجد ضريحه في مقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالقصبة منذ أن قامت سلطات الاحتلال بترحيل رفاته إلى هناك من ضريحه القديم وراء جامع كتشاوة في سنة 1864م. الولي دادة عاصر خير الدّين بربروس وحملة شارلكان في سنة 1541م التي لعب فيها دوراً بارزاً، كما كان صديقا لسيدي إبراهيم الغبريني وسيدي محمد بوفالة المدفون بمدينة المسيلة، وأصله من مدينة إزمير التركية.

102) يذكر Albert Bensoussan في كتابه l'Echelle de Mesrod بأنه حتى بعد الاستقلال بقي يهود الجزائر بفرنسا يحتفلون بعيد البوريم الأول في باريس أنظر L'Echelle de Mesrod ou Parcours algérien de mémoire juive. A. Bensoussan. France 1984

103) هذه الأشعار جُمعت ونُشرت في كتاب بعنوان Le Qerobatz d'Alger. ذكره M.Eisenbeth في ص 171 من: Les juifs en Algérie et en Tunisie...

104) أنظر :اليهود في الجزائر في العهد العثماني من مطلع القرن 18 حتى 1830: محمد داده ، أطروحة ماجستير. دمشق 1985م.

105) حسب الكاتب الإنجيليزي L. Addison في The présent state of the jews in Barbary ص 39: كان يهود الجزائر يعتقدون بأن اليهودي الذي يتوفى بفلسطين، أرض كنعان، تتقلص معاناته وعذابه أثناء إعادة البعث في الآخرة لأنه بين يدي الرب مباشرة ولا يحتاج كاليهودي الذي يتوفى بعيدا عن الأرض المقدسة لاجتياز آلاف الكيلومترات تحت التراب من قبره إلى أرض كنعان للحساب بكل ما يرافق هذا السفر الشاق من عذاب ومحن وعقبات. لذلك فاليهود الأكثر إيمانا وإخلاصا للرب يغادرون الجزائر نحو فلسطين عندما يشعرون بدنو أجلهم كما فعل يهوذا عياش، والرّبي بُويْ إسحاق لالو الأغواطي (عندما

هاجر إلى مدينة صفد الفلسطينية في نهاية القرن 19م. أنظر صورته على غلاف الكتاب).
وآخرون. يهود الجزائر يعتقدون بأنهم أسعد حالاً من يهود أوربا لأنهم أقرب إلى الأرض المقدسة وبالتالي فإعادة البعث يوم الحساب تكون مشاقها أسهل وأخف.

106) أنظر M. Eisenbeth: Les juifs en Algérie et en Tunisie ص :163 وما نقله عنه: M. Eisenbeth: Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque.

107) شعشـ فـز نسضوط نزمـص٭زدفـزنضظ.نپ زضنضفـوئ فـز ٭ز زضمثع پـزولموئ زولقك. ص: 171. وحسب "اليهود في البلدان الإسلامية (1850 – 1950) يكون "الفقيه اليهودي يوسف كارو أحد حكماء صفد في القرن الخامس عشر" قد ترك من بين "أهم ما كتبه" كتاب: شولحان عاروخ أي "المائدة المنضودة". "ويعتبر من أهم الكتب في الفقه اليهودي بعد كتاب "سمحة هتوراه" (بهجة التراث) لموسى بن ميمون. ويعتبر من أوسع الكتب الفقهية انتشارا". (هامش الصفحة: 132). لقد كانت كتب الحاخام يوسف كارو والحاخام بوسم شموئيل دي مدينا والحاخام ديفيد بن زمرا مراجع دينية يهودية أساسية في القرن 16 لجميع اليهود في الدولة العثمانية وحتى في أوربا. أنظر: اليهود في البلدان الإسلامية (1850 – 1950) تأليف: ميشال أبي الطبول، شالوم بار–آشير، يعقوب برناي، يوسف طوبي. تحرير: صموئيل أتينجر. ترجمة: د.جمال الرفاعي. مراجعة: د. رشاد الشامي. عالم المعرفة. الكويت. ماي 1995.

108) André Chouraqui: La saga des juifs en Afrique du Nord ص: 160.

109) نفس المرجع . ص: 236.

110) Claude Martin: Les israëlites Algériens de 1830 à 1902 p: 13

111) Norbert Bel - Ange: Les juifs de Mostaganem. ص: 41 الذي استند إلى A.Chouraqui Histoire des juifs en Afrique du Nord ص: 198.

112) أنظر: اليهود في الجزائر في العهد العثماني :محمد داده، رسالة ماجستير . دمشق 1985م.

113) الميغورشيم هم الذين أدخلوا "البْيُّوت" (Les piyyut) وهي أشعار دينية أندلسية الروح والنغم داخل المعابد، حسب النوبات الأندلسية التي وضعها الفنان المسلم زرياب في القرن التاسع الميلادي، ولعلّها مازالت تحتفظ بتلك المقاطع الموسيقية والنوبات التي ضاعت ولم يعد لها أيّ وجود في الموسيقى الأندلسية بالبلدان العربية التي مازالت تمارسها.

114) أنظر: Le courrier de Mostaganem résumé a situation ainsi: "certes les juifs d'origine indigène n'ont pas toujours fait les yeux à leur corréligionnaires étrangers à leurs communauté ou d'origine Française"... après la colonisation..

التعليق ورد في هذه الجريدة بتاريخ 07 أكتوبر 1871 ونقله عنها Norbert Bel - Ange في كتابه: Les juifs de Mostaganem ص : 124

115) اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد داده : ص 60 ... إلى ص : 70.

116) ولما كان التعليم محدودا في فئات معينة عموما، وفي مستويات معينة كذلك، فإن انتشار استعمال العبرية في الاتصال والحياة اليومية بقي هو الآخر محدودا. في هذا السياق تذكركل من Doris Bensimon و Joëlle Allouche Benayoun في كتابهما Les Juifs d'Algerie. Hier et Aujourd'hui ص : 14، بأن "... منذ القرن الثامن، كانت لغة (اليهود) هي العربية ..." وأنهم كانوا يعرفون أيضا العبرية والآرامية لغتي الدراسات المقدسة والشعائر الدينية.

117) أنظر B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire، ص : 84، في حالات نادرة وبعد توطن اليهود في مختلف المدن الجزائرية، اتخذت هذه الصراعات أشكالا جهوية، مثلا بين يهود مدينة الجزائر ويهود مدينة وهران ...

118) نفس المرجع : ص: 96.

119) هناك فرع من عائلة بكري أقام بوهران، أملت عليه مصالحه التجارية والسياسية أن يشتغل ويتحالف أكثر مع الإسبان حتى ولو أدى به ذلك إلى الدخول في خلافات وصراعات اقتصادية مع فرع بكري المقيم بمدينة الجزائر أنظر B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص: 108.

120) منقول عن محمد داده :اليهود في الجزائر في العهد العثماني. ص37، الكاتبان R.Ayoun و B.Cohen يعترفان في ص 87 من كتابهما Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire بمحاولات عديدة للحط من قيمة اليهود الأهالي والمبالغة في وصفهم بمختلف "... الأوصاف الجهنمية ..." على حد تعبيرهما، لكنهما نسيا انزلاقهما في نفس العملية في:ص11 حيث كتب "Alger... sa communauté juive originaire (depuis le 10e siècle) s'était délabrée. Les juifs Algérois s'arabisaient"?

121) في المناطق التي تضعف فيها سلطة الحاخام الكبير لبعد المسافة مثلا، تزيد الاستقلالية الذاتية للمجموعة اليهودية التي يصبح نظامها مختلطا نسبيا يتراوح بين النظام التقليدي والنظام الجديد ، كما يتولى ممثل الحاخام الكبير إذا كانت الجالية صغيرة العدد جميع مهام المجلس الطائفي لوحده، أو يعين أعوانه حسب الضرورة.

122) اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد داده، ص : 57 أنظر كذلك Claude Martia: Les israëlites Algériens 1830 à 1902 page n° 26.

123) أنظر: Algiers in the Age of the corsairs: William Spencer. University of Oklahoma press. Norman 1976
La vérité sur l'expédition d'Alger: Amar Hamdani. Edition Ballard. France 1985.
The prisoners of Algiers: H. G. Barnby. Okford University Press. New York.
وكذلك مذكرات أسير الداي "كاثكارت" قنصل أمريكا في المغرب العربي: ترجمة : إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1982... الخ . الجيل الأخير من رؤساء الطائفة هو جيل يتكون أصلا من رجال أعمال ومصالح بالدرجة الأولى همهم جمع المال بأي وسيلة وبأي ثمن وكانوا بعيدين كل البعد من الناحية الدينية والأخلاقية عن جيل Ribach .

124) أنظر : اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد داده، ص : 177، 178.

125) ورد في : اليهود في الجزائر في العهد العثماني، محمد داده، ص : 60.

126) نفس المرجع : ص : 61.

127) لكن ألا يمكن تصورهذا التصرف اليهودي إزاء العدالة اليهودية كنوع من المقاومة الثقافية السلبية للفئات العرقية الثقافية المحكومة للفئات الأخرى الحاكمة؟ ألايمكن أن يكون عودة لاواعية إلى الذات الثقافية الجزائرية ورفضا للتغريب والتغريب المتطرف خصّوصا من قبل الليفوزيين؟ وهل يكون أغلب هؤلاء المتذمرين من عدالتهم من " يهود العرب" أو التوشابيم؟ وكيف السبيل إلى التحقق من ذلك في غياب المعطيات والوثائق الدقيقة أو على الأقل عدم وصولنا اليها...؟

128) "القبالة" حسب الدكتور رشاد عبد الله الشامي هي: "علم التصوف اليهودي وعلم المعرفة بالتأويلات الباطنية التي يعمل بها "همقوباليم"، أي العارفون بالفيض الإلهي، وهم أفراد من المتصوفة يسعون لمعرفة جذور الوجود الكوني، ليس عن طريق الوسائل العقلية؛ بل عن طريق الاستعداد الداخلي والسمو بالنفس. و"القبالاه" إتجاه في التصوف اليهودي ظهر في القرن الثالث عشر، وكتابها الرئيسي هو "الزوهر" (الضياء)". أنظر: يهود البلدان الإسلامية. هامش الصفحة 136.

129) Les Juifs en Algérie et en Tunisie: M. Eisenbeth. ص:125، 126.

130) The Present State of the Jews ...: L. Addison ص: 107، 108.

131) أنظر B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص : 84، 85، وكذلك : Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque: M. Eisenbeth. p: 167, 170

132) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص : 82.

133) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص : 80، 81.

134) هذا الانفتاح على اليهود قد يكون صدى وارتداداً للانفتاح على اليهود في إسطمبول، بحيث أحاط محمود الثاني مثلا نفسه في فترة معينة بثلاث عائلات يهودية ثرية وذات نفوذ كبير أصبحت تتدخل حتى في قرارات تعيين وعزل الوزراء في الباب العالي، هذه العائلات هي Carmona، وGabaï وAdjiman

135) ورد في B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire، ص : 82.

136) ورد في : يهود البلاد العربية د/ عبده إبراهيم وخيرية قاسمية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث.

(*) Grandes villes arabes à l'époque Ottomane: André Raymond. p: 111

137) فساد الجيش الإنكشاري بلغ ذروته في القرن 18م وتزامن مع اتساع النفوذ اليهودي بالجزائر. قبل سقوط رياس البحر من السلطة في القرن 17 كان هذا الجيش منضبطا وبناء .

138) بخصوص فساد النظام العثماني في الجزائر في مرحلة الضعف والانحطاط: تاريخ الجزائر العام : الجزء 2: عبد الرحمن الجيلالي ص : 278. المطبعة العربية. الجزائر. 1955،

وكذلك : تاريخ الجزائر الثقافي : الجزء 2:أبو القاسم سعد الله. ص : 147، 148. SNED و L'Algérie durant la période Ottomane, Alger 1991 وأيضا مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830 : عبد القادر حليمي.O.P.U. Mahfoud Kaddache الطبعة الأولى 1972. المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي. الجزائر 1972...

139) في تلك الفترة كان يهود إسبانيا يتدفقون بالآلاف على مختلف المدن الجزائرية، وكان الأخوان عروج وخير الدين يعملون المستحيل من أجل مساعدة اللاجئين من الأندلس على الاستقرار بالجزائر ودفع الأطماع الإسبانية عن السواحل الجزائرية كجيجل والقالة وبجاية...

140) Marie Bugéja: Les juifs de la Kabylie: ص :13. Joseph solal، Imprimerie Administrative، 23 Rue Bruce، Alger، 1928. الكتاب عبارة عن محاضرة ألقتها الكاتبة في 29 ماي 1928 بمدينة الجزائر. أحمد توفيق المدني يتعرض بالتفصيل لهذا الحدث في كتابه: حرب الثلاثمائة سنة. أنظر كذلك كتاب الجيلالي السابق الذكر.

141) تاريخ الجزائر الثقافي : ج.2. سعد الله أبو القاسم . ص : 272. SNED، 1981.

142) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص 90

143) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص: 88،89.

144) Norbert Bel - Ange : Les juifs de Mostaganem، ص : 24 و25.

145) نفس المرجع : ص : 28.

146) نفس المرجع: ص : . فقدان التجار اليهود لمواقعهم في أقصى غرب المتوسط بعد الطرد الجماعي في نهاية القرن 15م عوضهم إياها سنة 1593 Ferdinand I ملك توسكانيا الذي فتح لهم ميناء ليفورن والمدينة ذاتها لتنشيط التجارة بها واستقر عدد كبير منهم بها ولعبوا في ظرف وجيز دورا كبيرا في التجارة المتوسطية. ومن ليفورن انتقل بعضهم إلى تونس والجزائر. أنظر : ص 275 من: Benayoun et Bensimon: juifs d'Algérie, Hier et Aujourd'hui

147) الهدوء النسبي الذي فرضته الدولة الجزائرية العثمانية بالبحر المتوسط بفضل أسطولها البحري استغله الغرب المسيحي في التحضير للضربة القاضية على "الخطر" الجزائري بالتنسيق فيما بين بلدانه.إذا كانت الحملات الفرنسية في القرن 17م وكذلك الحملات الهولندية والدانماركية والإسبانية والإنجليزية... قد فشلت آنذاك في تحقيق هذا الغرض، فإن حملة 1830 الفرنسية قد وفقت في توقيع وثيقة وفاة الجزائر العثمانية إلى الأبد.

148) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire، ص : 108 و109.

149) عن وثائق الغرفة التجارية بمرسيليا والأرشيف الفرنسي(1672 – 1773) بمرسيليا وAix التي ذكرها محمد داده في :اليهود في الجزائر في العهد العثماني . ص : 101.

150) Norbert Bel - Ange:Les juifs de Mostaganem ص : 55، ويذكر Claude Martin في Les israëlites Algériens de 1830 à 1902.

بأن اليهود طُردوا من مرسيليا في 1681م إثر تقرير أعدته غرفتها التجارية حول السلوكات اليهودية عامة وتجارتهم. التواريخ متضاربة أحيانا.

151) نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهيارها (1800 – 1830): أرزقي شويتام. ص: 64.

152) وكانت لندن مركزا ماليا كثيرا ما لجأ إليه اليهود في أواخر العهد العثماني. هناك تمركزت العآئلة الروتشيلدية الثرية ببنوكها. أنظر فيما يخص نظام وهيكل التجارة العابرة للصحراء في هذه الفترة البحث الذي نشره Jean-Louis Miège تحت عنوان "التجارة العابرة للصحراء في القرن 19م" Le commerce transaharien au 19e siècle في كتاب: Communautés juives des marges sahariennes du Maghreb. Edité par Michel Abitbol. Institut Ben-Zvi pour la recherche sur les Communautés juives d'orient, yed Izhak Ben-Zvi et l'université Hebraïque de Jérusalem. 1982.

153) أنظر : أرزقي شويتام : نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهيارها (1800 – 1830). ص: 55 و56.

154) أنظر : اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد داده.

155) Norbert Bel - Ange:Les juifs de Mostaganem، ص : 28

156) أنظر البحث حول التجارة العابرة للصحراء في القرن 18 في كتاب: "الجاليات اليهودية بالهوامش الصحراوية للمغرب العربي" Communautés juives des marges sahariennes ص : 394 ، وكذلك : نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهيارها (1800 – 1830) : أرزقي شويتام، ص : 55 و56.

157) لما زارت الإمبراطورة Eugénie شمال افريقيا بما فيها الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، كان ريش النعام خير هدية أهداها إياها اليهود، أنظر:

B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire، ص 105.

158) L'Algérie durant la période Ottomane: Mahfoud Kaddache. p: 221

159) أي Richard Ayoun و Bernard Cohen. ص : 105.

160) هذه التفاوتات كانت تأتي كعقوبات لليهود على أخطائهم وتجاوزاتهم فترفع مثلا نسبة الرسوم أو الضرائب عليهم، لكنها ظرفية تزول بعد فترة زمنية معينة.

161) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire، ص : 80، 81

162) M. Eisenbeth, Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque. p: 129

163) Norbert Bel - Ange:Les juifs de Mostaganem، ص : 54

164) William Spencer: Algiers in the Age of the corsairs، ص : 106،

The center of civilization series, 1976, ed University of Oklahoma Press Norman

165) نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهيارها (1800 – 1830) أرزقي شويتام. ص : 66.

166) النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792 – 1830): الدكتور ناصر الدين سعيدوني، الطبعة الثانية، الموسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.

167) William Spencer: Algiers in the Age of the corsairs، ص : 106.و المرجع السابق لناصر الدين سعيدوني.

168) هذه النسبة لـ ميكنبن نقلها عنه أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهيارها ...ص : 100، ......، 104.

169) يذكر B. Cohen et R. Ayoun في Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص :109 بأن العائلات اليهودية بوهران وهي Bacri، Benzequen، Bénichou ، Darmon، ......، قد رشت حاكم طنجة بمبلغ مالي معين مقابل إغماض عينيه على عملية استيراد ضخمة للخمور، قاموا بها بطريقة غير قانونية عبر مراكزهم التجارية بجبل طارق. وتتمثل هذه الخمور حسب الكاتبان في الـ Whisky.

170) مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830 : عبد القادر حليمي ص : 327، معنى ذلك أنه حتى في مرحلة انحطاط الدولة عرفت الضرائب على اليهود انخفاضات.

171) لكن مهما يكن فإن مثل هذه الإجراءات سواء كانت عادلة أو مجحفة لم تؤثر على التجار اليهود الكبار لأنهم كانوا يعوضون بمختلف التحايلات والاحتيالات وبالاستغلال للطبقة المنتجة في الجزائر التي كانت تحتكر تسويق منتوجاتها أضعاف أضعاف ما كانوا يخسرونه في تقديم الهدايا والترضيات والجباية ...

172) العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل : المستشار حسين محمد عبد الرحمن. منشأ المعارف بالإسكندرية. ص 10 و11.

173) نفس المرجع . ص: 10، 11. في فرنسا وبريطانيا وإسبانيا بلغ الربا اليهودي حد ارتهان الكنائس.

174) نفس المرجع . ص: 10، 11. وهذا معناه أن العقوبات التي كان يطبقها الدايات أحيانا لم تكن اختراعا جزائريا ولا محصورة في الجزائر.

(*) أنظر: شكسبير و اليهود: الدكتور رمسيس عوض. سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربي. القاهرة–بيروت. 1999.

175) العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل :المستشار حسين محمد عبد الرحمن. ص : 10، 11. من بين المخازي اليهودية، تتكلم بعض المصادر عن ، ذبح البشر لإحياء أعيادهم وطقوسهم بدمائهم خصوصا دماء المسيحيين. وقد حدث مثل هذا التصرف بفرنسا سنة 1240وأيضا بمدينة الجزائر أين اختطفوا طفلا مسيحيا لهذ الغرض لإحياء طقوس Passover سنة 1760م مما جعل الداي يهددهم بالقتل الجماعي إن لم يرجعوه إلى أهله وكادت الأزمة أن تتحول إلى مذبحة لولا أن القضية انتهت بدفع اليهود لغرامة مالية ضخمة لبيت المال ...(أنظر: William Spencer: Algiers in the Age of the corsairs) حادثة أخرى مشابهة لهذه حصلت بدمشق سنة 1840 أين انقض اليهودي (داوود هاراري) وشقيقته وعمه واثنان من حاخامات اليهود على جارهم القس المدعو :" الأب توما" الذي جاء لتطعيم أحد الأطفال في الحي اليهودي ضد الجدري. واستحضروا حلاقا

يهوديا اسمه "سليمان" لذبحه، ولما تردد، قام "داوود هاراري" نفسه بالعملية بمساعدة شقيقته، وجمعا دمه في قارورة كبيرة سلماها إلى "حاخام باشا يعقوب العنتابي؛ الذي كان في حاجة إلى دم بشري لصنع فطير عيد "البوريم" الذي يوافق 1840/02/14. كما قتلوا أيضا خادم القس الذي جاء للبحث عنه. وقد كشفت السلطات العثمانية عن هذا الحادث وقدم المتهمون إلى المحاكمة واعترفوا بأفعالهم، ونشرت المحاكمة والتحقيق وتداولتها الصحف والكتب مما كان له أثر سيء تردد صداه في جميع أنحاء العالم. وكان الفضل في الكشف عن هذه الجريمة لأحد المتورطين فيها يدعي "موسى أبو عافية" الذي اعتنق الإسلام وبرأته المحكمة هو وثلاثة آخرين وحكم بالإعدام على 10 آخرين. أنظر: العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل: حسين عبد الرحمن : ص: 16، 17. الكاتب يذكر بأن التحقيقات حول هذه القضية لا زالت محفوظة في سجلات وزارة العدل في دمشق إلى غاية نشره لكتابه على الأقل، وبأن الدكتور روهلينج قد نشرها بالتفصيل.

176) Moulay Belhamissi: Alger la ville aux 1000 canons. Ed ENAL 1990. P: 74.

177) نفس المرجع ص : 78.

178) وحتى من كانت لهم أقدمية في الجزائر فإنها لا تتعد جيلا أوجيلين، مع العلم أن من طبيعة اليهود تاريخيا الانتماء للمصالح المادية حيثما حلوا وليس للأوطان. وحيثما رحلت مصالحهم رحلوا وراءها.

179) في سنة 1789 كانت على سبيل المثال 80% من واردات الجزائر المسجلة والمقيدة رسميا تأتي من فرنسا بواسطة اليهود.

180) مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830: عبد القادر حليمي. ص : 306 و307.

181) نفس المرجع : ص : 178، 179. الكاتب استند إلى Venture de Paradis وDevoulx وأحمد توفيق المدني في كتابه : محمد عثمان باشا داي الجزائر..

182) غسال التشوالق هو اسم داي جزائري كانت مهنته غسل ملابس الناس في أزقة القصبة ثم أصبح دايا بصورة مفاجأة، فبقي الناس يلقبونه باسم مهنته السابقة فسمي: "الغسال" أو "غسال التشوالق".

183) المرآة : حمدان خوجة .ص :

184) الأوبئة والمجاعات عندما تحدث كانت تأتي على مئات الأرواح يوميا. ومن جهة أخرى فإن احتكار اليهود للتجارة الخارجية وحتى للدبلوماسية الجزائرية خصوصا في العشريات الأخيرة للجزائر العثمانية بالإضافة إلى حالة الحرب المستمرّة بين الجزائر وأوربا، حال دون حدوث احتكاك ثقافي حضاري للجزائر مع بلدان جنوب أوربا التي كانت في أوج انطلاقتها في القرنين 18 و19، علما بأن التجارة الخارجية آنذاك كانت أهم قناة للانفتاح على أوربا وثقافتها والأفكار الجديدة التي كانت سائدة بها .

185) اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد دادة . ص : 123.

186) Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque (1516- 1830). M.Eisenbeth, page: 156 extraits de la Revue Africaine, Société Historique Algérienne: Faculté des Lettres, Alger (Institut du Géographie) Année 1952.

187) نفس المرجع : ص: 157. لقب يهود ليفورن أيضا :" يهود النصارى" (Juifs chrétiens) وهو لقب يعود إلى كونهم جاؤوا من إيطاليا وإلى تشبههم في نمط حياتهم بالأوربيين بحيث يرتدون اللباس الأوربي ولا يقيمون في الحارات ... كما أن معظمهم يفضلون حماية قنصل فرنسا ...

188) نفس المرجع : ص : 148.

189) Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque (1516- 1830). M.Eisenbeth, page: 157- 158 هذه العبارات نقلها الكاتب عن: Laugier de Tassy

190) Claude Martin: les Israëlites Algériens de 1830 à 1902 : ص 20. بعد وفاته اعتلت عائلة بوشعرة زعامة الجالية اليهودية بالجزائر لمدة تزيد عن 30 سنة قبل أن ينتزعها منها الشركاء: بوشناق وبكري. زعامة آل بوشعرة بدأت منذ ثلاثينات القرن 18م.

زعامة الجالية اليهودية بالجزائر لمدة تزيد عن 30 سنة قبل أن ينتزعها منها الشركاء : بوشناق وبكري. زعامة آل خمخص‌ذوقصد بدأت منذ ثلاثينات القرن 18.

191) أنظر ملخص كتاب البروفيسور سالفاتوري بونو، الذي صدر في مدينة ميلانو الإيطالية سنة 1993، والذي ورد في المجلة الفرنسية: Revue du Monde Arabe et la Méditérannée. n°68-69 Edi-Sud 1994

192) تجاوزات بعض العسكريين أحيانا عند الاستيلاء على سفن الأعداء تعتبر عادية بالنظر إلى تقاليد وأعراف المواجهات البحرية آنذاك وقد كانت تحدث من قبل جميع الأطراف المتحاربة. وقد كان للمغامرين والمرتزقة الأجانب بالجزائر دور هام فيها. الدول الأوربية قامت هي الأخري بنفس التصرفات عندما سنحت لها الفرص، ولنستعيد شريط أحداث احتلال الجزائر في 5 جويلية 1830 فقط كي يتضح لنا ذلك.

193) أنظر: (مذكرات أسير الداي) "كاثكارت": ترجمة اسماعيل العربي، وH.G.Barnby: the Prioners of Algiers . سجون أوربا وقصورها كانت فيها هي الأخرى أعداد هامة من الأسرى والعبيد الجزائريين المسلمين. مثلا في وقت ما من الفترة العثمانية كان هناك 183 أسيرا مسلما بليفورن الإيطالية وحدها. أنظر: Mahfoud Kaddache,L'Algérie durant la période Ottomane ص:47. كما ذكر الدكتور مولاي بلحميسي في: Les captifs algériens et l'Europe chrétienne (ENAL. Alger. 1988. بأن في سنة 1682 تواجد بمدينة تولون الفرنسية وحدها 1026 أسيرا مسلما تم تحويلهم إلى عبيد وجدافين على السفن المحلية خصوصا وأنهم كانوا من أكثر البحارة كفاءة في العالم آنذاك.

194) Esquer: Le commencement d'un Empire ، ص : 23.

195) Alex Halley أعاد تركيب وتصوير هذه الجرائم البشرية في حق الأفارقة تصويرا بليغا في كتابه :: جذور" (Racines) من خلال شخصيته الأساسية:"كونتاكينتي" الذي لم يكن سوى أول أجداده الذين اختطفوا من بلادهم واستعبدوا في أمريكا.

196) W.Shaler .Esquisse de l'Etat d'Alger ص :100 . نضمخآ. 1830. الكاتب كان قنصل الولايات المتحدة الأمريكية بالجزائر.

197) أنظر: مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830: عبد القادر حليمي. ص : 263، وقد نقل هذا الموقف عن Laugier de Tassy: J.Histoire du Royaume d'Alger

أنظر كذلك : l'Algerie durant la periode ottomane: Mahfoud Kaddache ص :46، حيث يروي قصة الأسير البرتغالي E.Daranda في النصف الأول من القرن 17، حيث اشتراه الجزائري (شعبان غلاّن آغا؟) Saban Gallan Aga بمدينة الجزائر واتفق معه على عتقه إذا وعده بدفع قيمة مالية معينة إلى قريب له بالبرتغال، فوعد الأسير بذلك وتم عتقه. وعندما عاد إلى بلاده وفى بوعده ودفع ثمن فديته إلى قريب الآغا كما تم الاتفاق. لكنه وقع في الأسر مرة ثانية ليجد نفسه بمدينة الجزائر حيث التقى مرة أخرى بالآغا وحكى له قصته التعيسة، فاشتراه هذا الأخير للمرة الثانية وأعتقه على أن يرد ثمن فديته إلى قريبه في البرتغال في مدى 10 أشهر إلى سنتين. Daranda الذي باع كل ممتلكاته في المرة الأولى للوفاء بوعده لم يجد في هذه المرة أي وسيلة لذلك. وبعد مرور سنتين دون أن يجد حلا لمشكلته اشترى قنطارا من التبغ وأتى إلى مدينة الجزائر ليبيعه ويسدد دينه إلى قريب الآغا في بلاده الذي بقي منه 2/3، وحكى للآغا ظروفه عندما التقاه، فأعفاه من التسديد وتركه يعود إلى بلاده.

198) أنظر

The Prisoners of Algiers, An acount of the forgotten American - Algerian War 1785- 1797. H.G. Barnby, Page:38 OXFORD University Press, New York Toronto 1966.

كاثكارت كان على معرفة جيدة بمعاملة البريطانيين للأسرى آنذاك لأنه شخصيا تعرض للأسر من طرفهم لمدة سنتين بميناء مدينة نيويورك الأمريكية.

199) أنظر William Spencer: Algiers in the Age of the corsairs

200) Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque (1516- 1830). M.Eisenbeth, ص 159، هذه الشركات نافست بقوة شركات ومحلات الميغورشيم القديمة بالجزائر مثل محلات: Serror وDuran أو Ben Duran. حاليا مازالت العديد من هذه العائلات الليفورنية تمارس نشاطاتها التجارية كالعادة بفرنسا مثلا، حيث ما زالت محلات Bouchara المتخصصة في النسيج والقماش قوية ورائجة في باريس وفي أرقى الشوارع الباريسية مثل Boulevard Haussmann بالدائرة التاسعة. كما تحولت هناك بعض فروع Bacri إلى الفن والأدب والسينما زيادة على التجارة، مثلما هو الشأن بالنسبة للصحفي الكاتب Roland Bacri والممثل Jean - Pierre Bacri

201) عائلة Stora، كما قلنا من قبل، تنحدر في الأصل من راشباش وبالتالي فهي ميغورشيمية هاجرت إلى ليفورن، تكون بعض فروعها قد بقيت بالجزائر، وبعضها قد هاجر إلى

ليفورن ليعود إلى الجزائر بعد أن ازدهرت بها التجارة. عدد كبير من العائلات اليهودية الليفورية هاجر إلى تونس مباشرة، ومنها من أقامت لفترة محدودة بالجزائر قبل انتقالها إلى تونس.

202) عائلة Cohen - Bacri المعروفة هي الأخرى لم تهاجر إلى الجزائر دفعة واحدة، بل جاء الأب Michel أولا ثم لحق به أبناؤه الأربعة وبقية العائلة.

203) محمد دادة ينقل عن Esquer في: اليهود في الجزائر في العهد العثماني، ص: 134، بأن الفضل يعود إلى بوشناق في تحول مصطفى الوزناجي من كناس إلى خزناجي ثم إلى داي.

204) محمد دادة: اليهود في الجزائر في العهد العثماني، ص 133. هذا التاريخ نقله عن Rozet و Carette.

205) هذا اللقب أصبح عنوانا لمسرحية كتبها أحد أحفاد عائلة بكري وهو Roland Bacri الصحفي بـ: Le Canard Enchaîné بفرنسا وذلك سنة 1990/1991، عنوانها بالضبط: Les Rois d'Alger.

206) Algérusalem, l'Ilgérie Terre juive, leçons d'histoire algérienne d'un Rabin à son fils, page 6. Alger 1937 Imp. A. Joyeux.

207) نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهيارها (1800—1830): أرزقي شويتام، رسالة ماجستير. ص: 105. أما كتاب Léspés المذكور فهو Alger étude Géographique et d'histoire urbaine
هذا النجاح لشركة بكري – بوشناق تحقق وسط جو تنافسي حاد بين اليهود عامة في الجزائر بلغ حد تبادل المؤامرات، والوشايات لدى الحكام، والأزمات السياسية، التي كانت تنتهي بالإعدامات وسفك الدماء.

208) B. Cohen et R. Ayoun: Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire ص:106.

209) اليهود في الجزائر في العهد العثماني: محمد داده. ص: 127.

210) Mahfoud Kaddache: l'Algerie durant la periode ottomane: ص: 221، OPU، Alger 1991.

211) نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهيارها (1800—1830): أرزقي شويتام، ص: 85. ثورة بن الأحرش هي ثورة طرقية تيجانية اندلعت من 1800 إلى حوالي 1807 وكان سببها المباشر والبارز السياسة الجبائية العثمانية الجائرة.

212) هذه الثورة طرقية هي الأخرى بدأت في نهاية العشرية الأولى من القرن 19م (1808—1810) وبقيت مشتعلة بصورة متذبذبة بين هدوء وتصعيد حتى 1817 رغم أن زعيمها قضي عليه في 1813. ويقال أن آخر جيوبها لم يتم القضاء عليها إلا في 1822 – 1823.

213) آليات السيطرة اليهودية تحركت عند الضائقات المالية للدولة والأزمات بعد أن ضعفت موارد البحر. المشاكل المالية أصبحت هيكلية لذلك زاد الثقل الجبائي على العامة مما أدى إلى الثورات والتمردات وهروب الفلاحين من الجباة إلى الجبال والصحاري وإلى تدهور الزراعة و الحرف التي تأثرت كثيرا بهذه الوضعية وبالأسعار الاحتكارية اليهودية وبمنافسة الورادات بالنسبة للحرف. لكن هذه القراءة الاقتصادية للأزمة لا تكفي وحدها

لتفسيرها ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار القرار السياسي على مستوى السلطة الذي لم يكن خاضعا للواقعية والعقلانية بقدر ما كان خاضعا لمصالح المجموعة الحاكمة والمصالح اليهودية الليفورنية التي كانت تمر عبرها معظم القرارات خصوصا في فترة الداي حسن والدي مصطفى أي من 1792 إلى 1805. نفطالي بوشناق لم يلقب عبثا "ملك الجزائر". الكوارث الطبيعية مثل : زلزال مدينة وهران في 1792، زلزال عنابة 1815، زلزال مدينة الجزائر 1818، زلزال البليدة والمتيجة 1825، الجفاف والجراد والأوبئة كطاعون مدينة الجزائر سنوات 1740، 1753، 1788و 1794 الذي دام خمس سنوات .. زادت كلها في تعميق الأزمة.

214) اليهود في الجزائر في العهد العثماني محمد دادة، ص :37،...49 نقله الكاتب عن : Marseille en 1789: Masson: ص 513.

215) أنظر: مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830: حليمي عبد القادر .
M. Eisenbeth: Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque. p: 150.

216) أنظر: Le Défi israëlien: Lucien Cavro Demars. Edité par L.C des mars. Beyrouthe- Liban
وأيضا :حكومة العالم الخفية : Spiridovich 1971.

217) M. Eisenbeth: Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque، ص :159، ونحن هنا لا نتكلم عن جميع فروع "بكري" لأن بعض العائلات منها تواجدت بالغرب الجزائري خصوصا بوهران، أما آل "بكري " الذين يهموننا هنا هم الذين قدموا إلى عاصمة الإيالة وأسسوا الشركة المشهورة باسمهم واسم شريكهم بوشناق فقط.

218) M. Eisenbeth: Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque ص : 373.

219) كما أن هناك التباس بخصوص شخصية David Bacri بحيث يذكر نفس الكاتب أن Abraham هذا أنجب ابنا يدعى David Bacri. كما يفهم من كلام محمد دادة في رسالته السابقة الذكر ومن مراجع أخرى، بصورة أكثر وضوحاً ودقة، بأن لـ: Joseph Bacri ابن هو الآخر يدعى David Bacri الذي أعدمه الداي حاجي علي سنة 1811 إثر مناوشة مع David Duran. وهنا يوجد نوع من الغموض حول صحة وجود "دافيدين"، فهل هناك "دافيد" واحد هو ابن Joseph الذي ورد اسمه كثيرا في مختلف المصادر والمراجع بصورة واضحة ومؤكدة، عكس "دافيد" ابن Abraham، أم أنهما اسمان لشخصية واحدة نتجا عن التزوير لوثائق الهوية وانتحال الأسماء المستعارة اللذين كانا شائعين في الأوساط اليهودية التجارية بشكل واسع...؟ وفي الصفحة 202 يذكر محمد دادة في أطروحته Abraham Bacri وابنا له اسمه Nathan حيث يقول :"... Nathan Bacri الذي كان مستقرا بليفورن وهو ابن ابراهيم بكري". خلاصة القول، حسب ما تذكره مختلف المصادر التاريخية، من المؤكد أن لـ: Joseph ابن اسمه دافيد، بينما تبقى شخصية ابراهام وولديه دافيد وناثان غامضة نوعا ما وتحوم حولهما الشكوك. فهل تكون مجرد أسماء وهمية اخترعتها عائلة بكري

للتحايل على الداي حسين في قضية الديون، علما بأن اسمي ناثان وAbraham لم يبرزا إلا مع تعقد هذه القضية قبل الاحتلال ببضعة سنوات ليعرقلا عملية التسديد برفعهما دعوة للسلطات الفرنسية مطالبين بحقوقهما في هذه الأموال ... وهو ما أدى إلى توقيف إجراءات هذه العملية ريثما يتم التحري ..؟

220) M. Eisenbeth: Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque ص : 159.

221) ينقل محمد دادة في "اليهود في الجزائر في العهد العثماني" ص : 131 بأن Hadday عثر على الآثار الأولى لنفطالي بوشناق ابتداء من سنة 1782"حيث كان قد اشترك مع بكري في صفقة الحبوب التي أثارت التعقيدات بين الإيالة وفرنسا". لكننا نعلم أن هذه الصفقة بدأت بعد الثورة الفرنسية وبالضبط سنة 1793؟ لكن هناك سؤال يتبادر إلى الذهن على ضوء هذه المعطيات المتضاربة وهو: هل يمكن أن يكون بوشناق قد اشترك منذ 1782 في صفقات تصدير الحبوب مع شركة "Salomon Bacri et Frères" قبل أن يؤسس مع أسرة بكري مؤسسة " Busnach et deBacri et Frères " فيما بعد ؟

222) من بين أسباب التركيز على التصدير كذلك نذكر انخفاض الرسوم على الصادرات المقدرة نسبتها بـ: 2.5% بدلا من 10% إلى 12.5 % على الواردات .

223) حسب المجلة الإفريقية (La Revue Africaine) لسنة 1866، ولد مصطفى الوزناجي أو مصطفى بن سليمان الوزناجي في الجزائر، وهو من أصل تركي، حكم بايلك التيطري، أو المدية وضواحيها حاليا، مدة 20 سنة، ولعب دورا متميزا في رد الاعتداء الإسباني على مدينة الجزائر بقيادة O'Reilly سنة 1776. عزل من منصبه بعد فراره من الداي وتدخل بوشناق للعفو عنه ليعين بعد ذلك بايا على قسنطينة والشرق الجزائري سنة 1794 حسب الدكتور العربي الزبيري في كتابه : التجارة الخارجية للشرق الجزائري (ص 27) هامش.

224) أنظر : التجارة الخارجية للشرق الجزائري، د/ العربي الزبيري. ص 18 هامش حيث كتب:"... مصطفى باشا ابن أخت حسن باشا تولى سنة 1789"

225) هناك تضارب في التواريخ بحيث تذكر معظم المصادر أنه كان بايا على التيطري من 1775 إلى 1795. لكن إذا سلمنا بحقيقة وصدق هذا التاريخ فإننا سنضطر لرفض تاريخ تعيينه بايا على قسنطينة والذي هو سنة 1794 ...؟ نفس التناقض يقع فيه محمد دادة في "اليهود في الجزائر في العهد العثماني" حيث يذكر أن الوزناجي تولى بايلك التيطري مدة 20 سنة من 1775 إلى 1795، ثم يذكر في موضع آخر من الرسالة الجامعية أنه عزل من هذه المسوولية سنة 1792 وأنه عين بايا على قسنطينة سنة 1794 على إثر تدخل بوشناق للعفو عنه .. الفصل في هذا الالتباس ، نتركه للمؤرخين المختصين.

الحاج الشريف الزهار كتب حول الوزناجي مايلي : " .. كان رجلا صالحا، حليما كريما محبا للعلماء والصلحاء، رحيما بالفقراء والأيتام، محبا للمجاهدين والغزاة، وكان شجاعا رحمه الله ". (مذكرات الحاج الشريف الزهار: تحقيق أحمد توفيق المدني SNED، الطبعة

الأولى، ص 71) لكنه يصفه، في الصفحة 61، بشكل آخر عندما عين خزناجي لدى خاله حسن باشا قبل توليه الحكم ببضعة سنوات. إذ يقول عنه : ".. ولما استقر (حسن) بالملك، عين حفيده مصطفى خزناجيا، وكان رجلا كريما صالحا، متغفلا ولا يفعل شيئا إلا بأمر خاله. لأن هذا حسن باشا كان عارفا، عاقلا وله فطانة في الأمور". وعن نفطالي بوشناق أو بوجناح قال : " .. كان الناس والأتراك يخافون شوكته". ص : 87.

226) الدنوش : هو حفل التعيين الرسمي للباي من طرف الداي بمدينة الجزائر.

227) بما فيها الشركات البريطانية التي كانت تحتكر جزءا هاما من التجارة الجزائرية أواسط القرن 18 اذا كانت تستورد حسب الدكتو Show حوالي " 8000 طن من الحبوب من ميناء أرزيو لتموين مستعمراتها بجبل طارق غير أن احتكاراتها وامتيازاتها لم تكن مستقرة بل غلب عليها التذبذب والاضطراب وذلك حسب وضعية العلاقات البريطانية العثمانية بالباب العالي. لكن دور الشركات البريطانية تراجع تدريجيا لصالح الشركات الفرنسية واليهودية الجزائرية الليفورنية الأصل أساسا وذلك منذ أواخر القرن 18م.

228) قيمة صادرات شركة بكري – بوشناق من الحبوب إلى فرنسا بين 1793 و1795 تقدر بـ : 15 مليون فرنك، من بينها ما قيمته 2 مليون فرنك في 1795 وحدها. أنظر : اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد دادة، ص:135

229) أنظر : بروتوكولات حكماء صهيون فيما يتعلق بالثورة الفرنسية وعلاقتها بالماسونية واليهود، إذ ورد في البروتوكولات مثلا: "تذكروا الثورة الفرنسية التي أضفينا عليها صفة "العظمة" فأسرار تخطيطها نعرفها نحن لأنها كانت كلية من صنع أيدينا".

230) Talleyrand: ديبلوماسي فرنسي بلندن من 1792 إلى 1796، ثم وزير خارجية فرنسا من 1797 إلى 1807، ثم وقف ضد نابليون منذ 1808. بعدها عاد إلى منصبه هذا في 1814 .. قبل أن يعين سفيرا بلندن من 1830 إلى 1835. حسب "حكومة العالم الخفية" للجنرال الروسي Spiridovich، كان Talleyrand يتعامل مع Amshel Rothschild ويتلقى الأوامر منه، كما كان أيضا أحد كبار أعضاء المحافل الماسونية الفرنسية وحضر المؤتمر الماسوني العالمي الذي انعقد في 15 شباط 1785 قبل الثورة الفرنسية بأربع سنوات. وحسب نفس المرجع يكون Talleyrand هو الذي اكتشف نابليون بونابرت وجعله أداة لتحطيم الكنيسة المسيحية (أنظر : ص 90 من هذا الكتاب وكذلك : Lucien-Cavro Desmars: Le Défi israëlien

231) هذا القرار الغريب قد يكون تفسيره وسره ما جاء في Algérusalem, l'Algérie terre juive للحاخام George Virebau.ص: 8. هذا الحاخام رغم مايبدو، على كتابه من تطرف وتعصب وحماسية ومغالاة تجعل آراءه وتصوراته نسبية جدا وقابلة للنقاش إلا أن محتواه الأساسي يكون قريبا إلى حد كبير إلى الواقع. لقد كتب بخصوص قرارلجنة السلامة وماتلاه من تطورات مايلي: "لقد استغل إخواننا بكري وبوشناق امتيازاتهما لاحتكارصادرات الحبوب (الجزائرية). لكنهما اصطدما بمنافسة الوكالة الوطنية

الفرنسية...، المنافسة كانت غير متكافئة. ولما كانت حكومة La Convention مدينة بالكثير لإخواننا بفرنسا فإنها ضحت بالمصالح الفرنسية وتعاملت مباشرة مع بكري وبوشناق. الحكومة الفرنسية التي كانت تدفع 42 فرنكا للوكالة الوطنية للحمولة الواحدة من القمح، أصبحت تدفع 100 إلى 120فرنكا لإخواننا، لكن في شكل ديون. لذلك بمجرد حلول 1795كانت "الجمهورية" تدين لها بمليوني فرنك ..."سيكبران وينموان ليتحولا إلى ماعرف بقضية الديون بين الجزائر وفرنسا. يبدو أن الكاتب لايميز بين الشركة الملكية الإفريقية والوكالة الوطنية الفرنسية.

232) اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد دادة. ص: 138 و158

233)اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد داده. ص: 138.

234) أنظر: Les protocols des sages de sion et Lucien- Cavro Damars: Le Défi Israëlien وحكومة العالم الخفية.

235) أنظر : التجارة الخارجية للشرق الجزائري : الدكتور محمد العربي الزبيري .ص: 84.

236) كان هناك منافسا يهوديا آخر لشركة بكري – بوشناق يدعى Shiaffino تقاسم معها أسواق وامتيازات الشركة الملكية الإفريقية لكنه لم يتمكن من الصمود طويلا في وجهها، لأنه كان يفتقر إلى الدعم والحماية السياسية الذين كان يمتلكهما بوشناق، ولم تكف خبرته التجارية وقدراته المالية في الاستمرار في المنافسة .

237) La saga des juifs en Afrique du Nord: A. Chouraqui. P. 144 يقول George Virebau في Algerusalem, l'Algérie Terre juive ص :5:" بفضل الجهود الذكية... لأخينا Ceefbeer (أو Cerfbeer)... الذي نجح في فرض التصويت من طرف التأسيسية (La Constituante) لصالح تحرر إخواننا المستقرين بفرنسا .."، أصبح يهود فرنسا جميعا يتمتعون بنفس وجميع حقوق وواجبات الفرنسيين المسيحيين.

238) عن غرانييه دوكاسانيا في كتابه : أسباب الثورة الفرنسية ، ذكره كتاب : حكومة العالم الخفية للجنرال Spiridovich ترجمة وتحرير : أحمد راتب عمروش، ص: 78.

239) ذكره محمد دادة في اليهود في الجزائر في العهد العثماني. ص : 152، نقلا عن محاضرات في تاريخ الجزائر : أبو القاسم سعد الله .ص: 16.

240) الأعرج وهو Talleyrand لأنه كان بالفعل أعرجا.

241)ورد ذكره في : حكومة العالم الخفية Spiridovich، ص : 46.

242) نفس المرجع : ص: 42.

243) نفس المرجع : ص: 79، ... 110. أنظر كذلك Lucien- Cavro Damars: Le Défi Israëlien مع العلم أن وزير مالية لويس 16 الذي قامت الثورة ضده بسبب إثقال كاهل فرنسا بالديون هو اليهودي "نيكر"، وأن أحد أبرز محركي الثورة هو مدير القصر الملكي اليهودي "دي لاكوس" و"مانيول" قائد عامة الشعب وديفيد الرسام رئيس لجنة الأمن العام، كما مولها اليهود: هرز سيرفبير، و"دانيال إتزج،...

244) أنظر حكومة العالم الخفية Spirivovich ترجمة وتحرير : أحمد راتب عمروش،

و Lucien- Cavro Damars: Le Défi Israëlien

245) حكومة العالم الخفية :Spiridovich، ص : 12. هذه العبارات نقلها المترجم عن :" مجلة القوات المسلحة : بالقاهرة عدد 421، 1964م

246) له كتاب تحت عنوان : الصهيونية والماسونية ورد ذكره في الصفحة 11، 12 من "حكومة العالم الخفية".

247) كاتب فرنسي له عدة مؤلفات حول الماسونية وهو من المختصين فيها، من بينها :

Un siècle de Franc-Maçonnerie en Algérie et Les débuts de la Franc Maçonnerie en Algérie.

248) يهودي فرنسي أصله من الجزائر له أطروحة دكتوراه دولة في الأدب قدمها في جامعة بواتييه.

La Franc-Maçonnerie à Oran de 1832 à 1914: Lucien Sabah: Poitiers. Paris Aux amateurs de Livres 1990. Thèse de Doctorat es Lettre, Université de Ed. Poitiers. 1898.

249) حكومة العالم الخفية : ص : 97 و98. كلام نابليون إلى اليهود ورد في الكتاب نقلا عن : La vieille France N 305

250) نفس المرجع : ص : 98. لكن تبقى هذه القراءة لتاريخ أوربا الحديث هشة نسبيا وقابلة للنقاش إلى حدّ كبير بسبب الظروف التاريخية التي وردت فيها. وقد أوردناها مع ذلك للإعلام فقط لأنها شبه غائبة في الكتابات التاريخية الحديثة.

251) حكومة العالم الخفية : ص: 192، 193.

252) نفس المرجع : ص : 194. بين اليهود وشارل 6 حساب قديم يوضحه لنا وGeorge Virebea في كتابه Algerusalem, l'Algérie Terre juive، الصفحة 13 حيث كتب:" غداة الاستيلاء على الجزائر، نالت قضيتنا المقدسة انتصارا آخر، أكثر أهمية من الأول؛ لكن هذه المرة بباريس. الملك شارل 6 المنحدر من القدر Philippe -le-Bel (فيليب الجميل) الذي جرد إخواننا من أملاكهم وطردهم من فرنسا بحجة ممارستهم الربا ...(ضد) الملك الشديد المسيحية طرد من عرش وطنه، وعوض بأحد صنائعنا لويس فيليب الأول، بفضل رحمة Jehova، ولحساب روتشيلد. هكذا ... ذهب الملك المسيحي ليلتحق بالمنفى بالداي المسلم الذي كان قد أطاح به (في جويلية 1830م). (هؤلاء) الحكام المطاح بهما لم يعلما أبدا أن سبب سقوطهما .. هم اليهود ..."!

253) النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية : فؤاد سيد عبد الرحمن الرفاعي. ص: 69. دار الشهاب، باتنة 1407هـ.

254) نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهيارها (1800–1830) : أرزقي شويتام. ص: 105 و106.

255) نفس المرجع . ص:106.

256) نفس المرجع ص: 18. وقد كاد هذا الموقف الغريب للداي أن يكلفه حياته. إذ قام بعض أفراد الجيش في 1800/09/18 بمحاولة اغتياله بتحريض من الأميرال الإنجليزي Keith ومواطنه القنصل الإنجليزي Falcon.

257) هذا إذا كانت إرادة التسديد صادقة وليست مناورة فقط. مبالغ الديون منقولة عن المرجع السابق الذكر.

258) كان حجم الديون قد بلغ آنذاك حسب أرزقي شويتام: 8151062 فرنكا.

259) بقيت أسباب ثورة بن لحرش غامضة لأن هناك من يردها إلى خلفيات سياسية دولية فضلا عن فساد السياسة الجبائية وتجويع الشعب بالاشتراك مع اليهوديين بكري وبوشناق، ويذهب هذا الرأي إلى أن بن الأحرش كان يطمح إلى السلطة بتحريض من باي تونس أو من الأنجليز أثناء مروره بمصر عند عودته من الحج لمنافسة النفوذ الفرنسي. ثورتا بن لحرش وبن الشريف كانت لهما عواقب سياسية واقتصادية واجتماعية وخيمة على الشعب والبلاد إذ أدت إلى إنهاك واستنزاف طاقاتها البشرية والاقتصادية في ظروف طبيعية سادت فيها الزلازل والأوبئة والجراد...

260) أنظر نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهيارها (1800– 1830): أرزقي شويتام، و اليهود في الجزائر في العهد العثماني: محمد دادة ، في ما يتعلق بقضية الديون .

261) نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهيارها (1800–1830) : أرزقي شويتام : ص : 110.

(*) L'histoire d'un parjure: Michel Habart. Les éditions de Minuit 1960. Paris

(**) أنظر نفس المرجع.

262) اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد دادة، ص : 139.

263) بخصوص امتيازات استغلال الغابات التي كانت تمنح للشركة اليهودية. يذكر أحمد توفيق المدني أن احتكار اليهود للغابات في منطقة القبائل كان سببا في تحطيم الأسطول الجزائري هيكليا على المدى الطويل وخراب دار الصناعة التي كانت تصنع فيها السفن، لأن شركة بكري – بوشناق كانت تخفض ثمن شراء الأخشاب من سكان المنطقة إلى حد لا يغطي حتى تكاليف إنتاجها أو اقتلاعها من الغابات. هذه الأسعار الاحتكارية التي فرضها اليهوديان كانت منخفضة جدا بالمقارنة مع الأسعار العادية المعهودة مع باشوات الجزائر قبل انتقال الاحتكار إلى اليهوديين. فاحتج القبائل و".. توقفوا عن قلع الأخشاب وتسليمها ، وتوقفت بذلك دار الصناعة عن ابتناء السفن الحربية وكان ذلك من أكبر أسباب الضعف البحري ..." الجزائري.. (كتاب الجزائر ، ص 148. ENAL، الجزائر 1984).

264) اليهود في الجزائر العهد العثماني : محمد داده، ص:139.

265) تولى الحكم في الجزائر بين 1790 و1830، 8 دايات تم اغتيال 6 منهم. وهذه صورة عن هشاشة النظام وعدم استقراره

266) أنظر : النص الذي نسبه George Virebau إلى كريميو في آخر كتابه : "Algerusalem,...." .

267) R.Ayoun و B.Cohen في Les juifs d'Algérie: 2000 ans d'histoire يطلقان على الحقبة العثمانية في الجزائر L'intermède et L'intermède Turque هو مجرد فاصل زمني قصير مثلا بين فصول مسرحية للاستراحة، وهو وقت فارغ ضائع. فكأن المرحلة العثمانية

عطلت عجلة التاريخ الذي توقف حسب الكاتبان منذ 1516 ليواصل سيره بدخول الاستعمار إلى البلاد وكانت بالتالي تافهة ولا تستحق الاهتمام: لكن ألا يؤدي ذلك إلى التعتيم على الكثير من القضايا الحساسة والشائكة التي ذكرناها ؟

268) استولى الأسطول الجزائري منذ 1793 بالمحيط الأطلسي ومضيق جبل طارق على 11 مركبا أمريكيا وطاقمهم وكانت أغلبية المراكب محملة بالمؤن الغذائية ومختلف البضائع إلى فرنسا. هذه الهجومات الجزائرية على السفن الأمريكية تعود أساسا إلى عدم وجود أية اتفاقية أو معاهدة بين الجزائر والولايات المتحدة ومعنى ذلك عدم وجود أي التزام بين الطرفين مما يجعل قانون الغاب هو الحكم والمنظم للعلاقات حسب الأخلاقيات السياسية الدولية في ذلك الوقت. مصادر أخرى تشيع بأن الهجومات الجزائرية على السفن الأمريكية تمت بإيحاء وإغراء من نفطالي بوشناق وجوزيف بكري بحجة تدعيم خزائن الدولة بغنائمها التي تتحول مباشرة إلى مادة تجارية بالنسبة إليهما أو يستفيدأن من عمولات وساطتهما عند تفاوض الطرفين المتنازعين، وهي عادة عمولات مالية وسياسية...

269) أنظر :" مذكرات أسير الداي "كاثكارت" قنصل أمريكا في المغرب العربي": ترجمة" إسماعيل العربي . ص: 182، 183، OPU الجزائر 1982.

270) أنظر: اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد داده ص: 153. نص الرسالة منقول عن Le Commencement d'un empire: Esquer

271) يمكن الرجوع إلى تفاصيل هذه الصفقة اليهودية مع نابليون في المرجع السابق . ص: 156، وإلى قضية تدخل السلطان للضغط على الداي في مقال لإسماعيل العربي عنوانه : "دور اليهود في الدبلوماسية الجزائرية في أواخر عهد الدايات" نشرته مجلة :" تاريخ وحضارة المغرب: عدد12 سنة 1974

272) أنظر اليهود في الجزائر أثناء العهد العثماني: محمد داده، ص: 166. بخصوص قضية الباي "بوكابوس" يذكر Claude Martin الصفحة 24 من Les israëlites Algériens de 1830 à 1902 أن تمرد "بوكابوس" جاء بعد أن تحول قصره إلى مقر تجتمع فيه مختلف المصالح اليهودية التي كانت تملي عليه سياسته في وهران والغرب الجزائري وظهر على تصرفاته الانحراف والفساد، فقمع الداي التمرد بشدة، كما أعدمت جاريته وعشيقته اليهودية "حنينة" حرقا هي وأبناؤها ، من بينهم طفل من الباي نفسه، لأن الداي والرأي العام كانوا يشتبهون فيها بأنها هي التي حرضت الباي على التمرد والعصيان. أتباعها فروا من القمع خصوصا اليهود.

273) هناك فترة قصيرة جدا حكم فيها Ben Tibi وDavid Duran في العقد الأول من القرن 19م.

274) اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد داده. ص : 169.

275) نفس المرجع. ص: 170، نقله عن Shaler القنصل الأمريكي.

276) الشاعر الشيخ بلقاسم الرحموني الحدادي كتب ناقما على النفوذ اليهودي الذي تجاوز حدوده، علما بأنه عاصر هذه الأحداث، مايلي :

اليهـــود جـات ليهم محبـــا ** غادوا عليا بالباس واقصـــور تدهـــش
والمســـــلم في فم احيـــا ** يعطي الجزيـة والكفـر يقوى ويعـــرش
دينـــنا ضعيـف ولـ[illegible]ـــديـــا ** لأهل العديا كل يوم ينسب وينغـــش .

عن "اليهود في الجزائر في العهد العثماني": محمد داده.ص : 173.

277) نذكر بأن مصطفى الوزناجي كان قد تعرض لمحاولة اغتيال فاشلة في 1800/09/18 من طرف الإنكشارية إثر أزمة العلاقات العثمانية – الفرنسية خلال غزو نابليون لمصر ورفض الداي لتنفيذ أوامر الباب العالي .

278) وهو قصر الداي آنذاك الذي كان يقع بساحة الشهداء الحالية في الموضع المقابل لقنصلية فرنسا حاليا.

279) مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار وكيل أعيان الجزائر : تحقيق وتقديم : أحمد توفيق المدني. ص: 88. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر . 1974.

280) نفس المرجع بالنسبة للشريف الزهار، ص : 88. وبالنسبة لـ :

Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque: M. Eisenbeth.

281) مذكرات الحاج محمد الشريف الزهار وكيل أعيان الجزائر : تحقيق وتقديم : أحمد توفيق المدني . ص: 88

282) نفس المرجع .ص : 88، أنظر كذلك محمد داده: اليهود في الجزائر في العهد العثماني. ص :174 و175. لكن سير هذه الأحداث وتطوراتها يوحيان بتوظيف الداي والإنكشارية لليهود في هذه الانتفاضة كورقة سياسية كل طرف حسب أهدافه وغاياته.

283) أنظر : Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque وحسب Claude Martin في Les Israëlites Algériens de 1830 à 1902 ص: 22، هاجرت بعض العائلات اليهودية إلى ليفورن وإلى تونس، ووهران عقب اغتيال بوشناق نفطالي. وهو يقصد دون شك الـ 200 عائلة السابقة الذكر. مجموع المهاجرين هو 100 + 200 = 300 عائلة بمعدل 10 أفراد تقريبا لكل عائلة، أي المجموع حوالي 3000 شخصا.

284) حسب Bloch يكون يعقوب بكري قد تآمر مع الداي على أخيه Joseph ليصبح رئيسا للطائفة اليهودية. George Virebau هو الآخر يذكر في كتابه Algérusalem, Algérie Terre juive، ص:8، بأن "... يعقوب بكري (الذي) كان مديرا لوكالة تابعة لشركة بكري – بوشناق بمرسيليا ثم بباريس .." كان شخصا سيء الأخلاق.

285) دخول جيوش الحملة الفرنسية في 5 جويلية 1830 كان أيضا دخولا للماسونية التي كانت متجذرة وقوية داخل جنود وضباط هذه الجيوش. أنظر:

Un siècle de Franc-Maçonnerie en Algérie: Xavier Yacono et Lucien Sabah: La Franc-Maçonnerie à Orande 1832 à 1914.

286) أنظر : اليهود في الجزائر في العهد العثماني: محمد داده. ص: 208، 209.

287) Les juifs d'Algérie, Images et Textes, dirigé par Jean Laloum, Ed du Scribe ص:

(*) Feuilleds d'El-Djezaïr: Henri Klein L. Chaix. Editeur. Alger. 1937. لم يوضح كلاين إن كان يقصد بقصر الإمبراطور حصن الإمبراطور بالتاغاران، أي الثغرة، أم قصر الداي بالباب الجديد. غير أن حديثه عن "السلع والأشياء التابعة للبايلك يوجي بأنه يقصد قصر الداي أو، كما يقال، دار السلطان. أما دار عزيزة، دار أحمد ودار مصطفى، فهي قصور جميلة تقع قرب جامع كتشاوة بساحة الشهداء بمدينة الجزائر القديمة.

288) Claude Martin: Les israëlites algériens de 1830 à 1902 ص40، 41، 42.

289) نفس المرجع : ص : 37.

290) نفس المرجع : ص :

291) نذكر بأن راشباش كان أحد الزعماء اليهود الذين أنقذتهم الجزائر رغم ظروفها الصعبة من الاضطهاد الإسباني سنة 1391م.

292) Claude Martin: Les israëlites algériens de 1830 à 1902 ص:42.

293) المرآة : حمدان بن عثمان خوجة ، ص:

294) المرآة : حمدان بن عثمان خوجة، ص:

295) ذكريات رحلة من الجزائر إلى قسنطينة، بقلم : علي بن سيدي حمدان خوجة، تعريب وتقديم : علي تابليت، جريدة الشعب ليوم 06/01/1993م.

296) أنظر اليهود في الجزائر في العهد العثماني : محمد داده. ص:209.

297) Amar Hamdani: La vérité sur l'expédition d'Alger. Edition Ballard. France 1985

298) أنظر نفس المرجع.

299) هذا التحضير النفسي موجود من خلال عملية كسر التابوهات حول اليهود وتفكيك التصور التقليدي حولهم وتعويضه بتصورجديد إيجابي. وتقوم بهذه العملية مختلف الصحف الوطنية وبعض الأحزاب السياسية بتصريحاتها من حين لآخر مثل APUA وحزب "حميدو" بتلمسان...، وتصريحات بعض " الفنانين" مثل "المطرب الكبير" خالد الذي كان أول جزائري على استعداد للغناء في القدس علنا...، وهناك مشاريع عديدة ثقافية واقتصادية يمهد بها اليهود في الجزائر للتطبيع بخلق نوع من التقارب والتعاطف بين اليهود والجزائريين نظرا لحساسية الجزائريين المفرطة تجاه اليهود .

300) أنظر Lucien Sabah: La Franc-Maçonnerie à Oran de 1832 à 1914 ص : 460.

301) نفس المرجع : ص : 469.

302) Henri Chemouilli: Une diaspora méconnue, les juifs d'Algérie، ص: 68. الكاتب يهودي جزائري الأصل كان يقيم ببجاية حيث اشتغل أستاذا بإحدى مدارسها إبان الثورة التحريرية. وكان من بين اليهود الأوائل الذين فروا من الجزائر كما تدل على ذلك رسائله إلى السلطات الفرنسية المركزية بباريس سنة 1956، والتي نشرها سنة 1957 في كتابه Journal d'un faux éxode الذي وضح فيه أسباب موقفه السلبي من الثورة وانحيازه لفرنسا الاستعمارية. لقد كان مثل أغلبية اليهود مجرد خائن حسب تعبيره اتجاه بلاده سابقا الجزائر وللبربر الذين يغازلهم اليوم باسم النسب البربري المشترك (؟).

303) أنظر نداء جبهة التحرير الوطني إلى الحاخام موريس إيزنبث في 2 ماي 1956.

المراجع

I – باللغة العَربية :

1 – يهود البلاد العربية : الدكتور علي إبراهيم عبده وخيرية قاسمية. منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث.
2 – تاريخ الجزائر العام (الجزء الثاني): عبد الرحمن الجيلالي. المطبعة العربية. الجزائر 1955.
3 – المرآة: حمدان بن عثمان خوجة
4 – مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830: علي عبد القادر حليمي، الطبعة الأولى 1972. المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي الجزائر 1972.
5 – اليهود في الجزائر في العهد العثماني منذ مطلع القرن 18 حتى 1830: محمد دادة. رسالة ماجستير في التاريخ. دمشق 1985
6 – حكومة العالم الخفية Major - General count cherep - spiridovich . ترجمة : مأمون سعيد. تحرير وتقديم : أحمد راتب عرموش، صادر عن قصر الكتب. البليدة الجزائر.
7 – نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره (1800 – 1830): أرزقي شويتام. رسالة ماجستير. الإسكندرية 1988
8 – تاريخ الجزائر الثقافي: أبو القاسم سعد الله ، الجزء الأول (1981) والثاني SNED.
9 – النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني. الدكتور ناصر الدين سعيدوني. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1985، الطبعة الثانية
10 – العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل : المستشار حسين محمد عبد الرحمن. منشأ المعارف بالإسكندرية
11 – التجارة الخارجية للشرق الجزائري : الدكتور العربي الزبيري
12 – مذكرات الحاج الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر. تحقيق: أحمد توفيق المدني. SNED. الطبعة الأولى الجزائر 1974.
13 – مذكرات أسير الداي "كاثكارت" قنصل أمريكا في المغرب العربي : ترجمة :إسماعيل العربي ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.
14 – "ذكريات رحلة من الجزائر إلى قسنطينة". بقلم :علي بن سيدي حمدان خوجة. تعريب وتقديم: علي تابليت. يومية "الشعب" 1993/01/06م
15 – يهود البلدان الإسلامية (1850 – 1950). تأليف: ميشال أبي طبول، شالوم بر– آشير، يعقوب برناي، يوسف طوبي. تحرير : صموئيل أتينجر. ترجمة: د.جمال الرفاعي. مراجعة: د.رشاد الشامي. عالم المعرفة. الكويت. ماي 1995.
16 – مجلة "هنا الجزائر" (Ici Alger) ، العدد 57 لشهر أوت 1957.

II- باللغات الأجنبية:

1) Histoire des juifs en Afrique du Nord: Adré Chouraqui, Ed. Hachette. France 1985.

2) Les juifs d'Algérie hier et aujourd'hui, Mémoire et identités: Joëlle Allouche Benayoun et Doris Bensimon. Bibliothèque Privat. 1989 Toulouse France.

3) Les juifs de Mostaganem: Norbert Bel-Ange. Collection: Histoire et perspectives méditerranéennes. Edition l'Harmattan 1990 Paris.

4) Une diaspora méconue, les juifs d'Algérie: Henri Chemouilli. Paris imprimerie publications. Paris 1976.

5) Les juifs d'Algérie, 2000 ans d'histoire: Richard Ayoun et Bernard Cohen. Judaïque Bibliothèque Juive. Edition Jean Claude Lattés. Paris 1982.

6) Maurice Eisenbeth: Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque (1516- 1830): Extraits de la Revue Africaine, Année 1952. Société historique algérienne. Faculté des lettres (institu de géographie) Alger.

7) La saga des juifs en Afrique du Nord: André Chouraqui. Hachette 1972 France.

8) Les juifs de la Kabylie: Marie Bugéja. Imprimerie Administrative, Joseph Sollal: 23 Rue Bruce. Alger 1928.

9) Les israëlites algériens de 1830 à 1902: Claude Martin. Edition Héraclés. Paris 1936.

10) Communautés juive des marges sahariennes: édité par abitol. Institut Ben-Zvi pour la Recherche sur les communautés juives d'orient. Yad Izhak Ben-Zvi et l'université Hébraïque de Jurasalem. Jurasalem 1982.

11) L'Algérie durant la période ottomane: Mahfoud Kaddache OPU 1991.

12) Alger la ville aux 1000 canons: Moulay Belhamssi. Edition ENAL. Alger 1990.

13) Le Défi israëlien: Lucien Cavro-Demars. édité par Lucien Cavro Demars, Bayrouth, Liban 1971.

14) L'Esquise de l'Etat d'Alger: William Shaler. Paris 1830.

15) Algérusalem. Alger, terre Juive, leçon d'histoire d'un Rabbin à son Fils: George Virebau. Alger 1937 Imprimerie A.Joyeux - Alger.

16) Revue Africaine. Année 1866.

17) Un siècle de Franc-Maçonnerie en Algérie: Xavier Yacono.

18) Les Débuts de la Franc-Maçonnerie en Algérie: Xavier Yacono.

19) Aperçu sur les israëlites algériens. J. Hanoune.

20) Esquisses de l'Histoire des juifs jusqu'à nos jours: Maurice Eisenbeth.

21) La vérité sur l'expédition d'Alger: Amar Hamdani. Edition Ballard.France 1985.

22) Journal d'un faux exode: Henri Chemouilli.

23) Algiers in the Age of the corsairs: William Spencer. University of Oklahoma Press. Norman 1976.

24) No more for ever. Asaharian Jewish town: Briggs (LLoyd Cabot) and Lami Guède, published by the Peabody Museum. Cambridge. Massachussetts. USA 1964.

25) The Prisoners of Algiers: H.G. Barnby, Oxford University Press, New York. Toronto. 1966.

26) The present state of the Jews: (more particularly relating to those in Barbary): Lancelot Addison. 1675. London. Printed by J.C. for william crooke.

27) L'Echelle de Mesrod ou parcours algérien de Mémoire juive: A. Ben Soussan. France 1984.

28) La Franc- Maçonnerie à Oran de 1832 à 1914: Lucien Sabah: thèse de Doctora d'Etat es-lettres, Université de Poitiers 1989. Ed. Aux Amateurs du Livre 1990 Paris.

29) Revue du Monde Arabe et de la Méditerannée. N° 68- 69. 1994. EDISUD.

30) Feuillets d'El-Djezaïr: Henri Klein. L. Chaix Editeur . Alger 1937.

31) L'Histoire d'un parjure: Michel Habart. Les Editions de Minuit. Paris 1960.

32) Les Captifs algérien et l'Europe chrétienne: Moulay Belhamissi: ENAL. Alger 1988.

33) Alger- Revue, (Revue mensuelle), octobre. 1956.

34) Le Costume d'Alger: Georges Maçais. Collection du centenaire de l'Algérie Archéologie et histoire (1830- 1930) Paris. Librairie plan.

